٤ الحرب الباردة على الكينونة العربية





مختار الغوث

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٤)

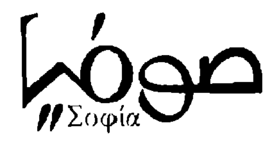
كيد الهوية

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٤)

كيد الهوية

مختار الغوث



الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٤)

كيد الهوية

مختار الغوث

الطبعة الثانية - 2021

ISBN 978-9921-721-43-0



الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com

هاتف: 52224643-965+



@sophia_kwt

الفهرس

تمهيد

الحرب على العربية جزء من حرب حضارية، يشنها الغرب على العالم عامة، والعالم الإسلامي خاصة، منذ اتخذه عدوا إستراتيجيا، يخشى تقدمه، ويحتلُّ أرضه، ويسعى في استلحاقه، وطمْس هويته، وإضعافه، ومنعه ما يعينه على القوة والتقدم والاستقلال، كالعلوم، والتقنية المتقدمة، ويدمر ما حاز منها، ويمنع المصانع والشركات تصديرها إليه، ويعمل على قَطْع ما تصان به المصانع والآلات عنه، ويضغط على الحكومات، ويهدد من يخالف قراره بالعقوبات؛ ليقف المؤسسات العربية المصنِّعة، ويغلق مراكز البحث[1]، ويغتال علماءه، ويمنع طلابه دراسة التخصصات الدقيقة في بلاده، والتخصصات التي يعين حذقها والبراعة فيها على الاستغناء عنه، أو عن بعض صناعاته، كما اغتالت أمريكة وإسرائيل من يزيد على ٥٠٠ أكاديمي عراقي في الاثنتي عشرة سنة التي تلت احتلال العراق عام ٢٠٠٣[2]، وهدمت فرنسة مصانعه الذرية؛ لتحول بينه وبين إنتاج سلاح يقيم به التوازن بينه وبين إسرائيل[3]. ويحارب الاستعمار الغربي العربية ويكيدها مذ دخل البلاد الإسلامية إلى اليوم، ويجهد في الحؤول بين العرب واصطناعها في التعليم والبحث العلمي، مخافة أن يستوعبوا العلم؛ فيملكوا أمرهم، ويخرجوا من التخلف والجهل والتبعية إلى الغنى، والتقدم، والندِّية. ومِن أقدم ما كادها به ما كان بعض الفرنسيين يكيدون به تعريب الطب على عهد محمد علي باشا، ثم استبدال الإنجليز الإنجليزية بالعربية في التعليم، بزعم أن المراجع العلمية غير موفورة فيها، وإلغاء التدريس بالعربية في الكليات التي أنشأ محمد علي بمصر، كمدرسة طب قصر العيني، واشتراط إجادة

(١) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ٨٤.

(٢) أهمية بيوت الحكمة، ٣.

(٣) إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، ١٢٢.

الإنجليزية على من يريد الالتحاق بها، وجعْل جل المدرسين بها وكثيرٍ من المديرين من الإنجليز[1]، بعد أن ظلت تدرِّس بالعربية، ويؤلِّف بها أساتيذها كتبهم عشرين عاما بعد الاحتلال البريطاني، ثم أخذ المعتمد البريطاني، كرومر يضيِّق عليها حتى تراجع طلابها إلى أقل من ثلاثين، وفي عام ١٩٠٣ م اكتملت الخطة، فنُحِّيت العربية عن دراسة الطب، وأُحلت محلها الإنجليزية[2]، ومُنِع ما كان يدرَّس بها من الكتب المترجمة إلى العربية، أو المؤلفة بها، فكانت تطرح في المستودعات أكداسا، كما يطرح القذى والنوى[3]. وكان هذا ما أراد ميشو وسائر من كانوا يكيدون كلوت بك من الفرنسيين وسعيَه في التعريب، وغايةَ دعاية الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي قبل ذلك وبعده، إلى اليوم. فقد علمت بريطانية وفرنسة أن لن يكتب للحضارة أن تستمر وترقى، إنْ هي أُخرجت من وعائها ووسيلة التعبير عنها، ولن يكتب لِلُغَة أن تبقى، إذا هي أُبعدت عن حضارتها[4]. هذا إلى غرض آخر، هو تغريب العرب، وتجريدهم من أصالتهم، واقتلاعهم من منابتهم، وهدم مقوماتهم الذاتية[5] التي سميناها هوية؛ فإن اللغة ثقافة، ووعاء للفكر، ومن غير الممكن أن يتشرَّبها امرؤ، ويصطنعها في كل شيء، ويدع إليها لغته، ثم يبقى على ما كان عليه قبلها، وإنما سيفكر بها، ويتأثر بالفكر والثقافة اللذين يسكنانها، ولا سيما إذا كان ما يدرَّس بها هو العلوم الإنسانية، فإن لغتها تنطوي على مسلَّمات ومفاهيم ونظريات ومناهج في التفكير والتحليل، وكثيرا ما تكون حاملة لفلسفات وعقائد وآراء بعينها[6]. ومن المعلوم أن كثيرا من المفكرين المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية صاروا أسارى للفرنسية، ولا يملكون التخلص من سلطانها، ويعانون سلطان كلماتها العارية التي تَصِلُ كل شيء بالجنس[7]، وكتاب عبد المجيد جحفة «سطوة النهار وسحر الليل» دليل على ذلك. وكان الأدب العربي القديم يفيض بالمجون، غير أن مجونه

---

(١) التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب، ٥٥.

(٢) العلم واللغة، ٤٢.

(٣) غرائب الغرب، ١/ ٩٠.

(٤) أزمة اللغة والترجمة، ١١٩.

(٥) عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، ١٩٦.

(٦) الترجمة والتعريب مدخلاً لتوطين العلوم.

(٧) مكانة الفرنسية في المغرب، والفرنكفونية ومحنة اللغة العربية في المغرب، ١٧٧.

ليس بصادر عن فلسفة، ولا مبني على ثقافة، وإنما هو أثر لأخلاق منشئيه، وطباعهم وسلوكهم، بخلاف بعض الأدب الإباحي الفرنسي، فهو صادر عن فلسفة، ومنه ما هو موجَّه عن قصد لنقل تلك الفلسفة وإشاعتها. ولعل سطوة اللغة وثقافتها على الفكر، وتأثيرها فيه سبب أن الأدب ينسب إليها لا إلى جنس من يكتبه، ولا إلى وطنه[1]؛ لأن الذين يكتبون بها يتمثلون فكر أهلها وثقافتهم أكثر مما يتمثلون فكر مجتمعهم وثقافته[2]. ومن نافلة القول أن أدب أبي نواس، وبشار بن برد، ومهيار الديلمي، وابن الرومي، وما كتب نصارى إسبانية أيام الحكم الإسلامي، أدب عربي، وليس فارسيا ولا روميا، ولا إسبانيا؛ لمجرد أن كاتبيه فُرْس وروم وإسبانيون، وإنما كان عربيا لأن روحه عربي، ومصطبغ بثقافة العرب، وأصحابه ينظرون فيه أبدا إلى مُثُل من الأدب العربي، يحذون بها، عن قصد أو غير قصد، وإن لم يعتقدوا ما يشتمل عليه من المعاني، ويقلُّ فيه ما يدل على تأثرهم بالآداب الفارسية والرومية والإسبانية، في روحها الكلي، إن كانوا يعرفونها؛ لأن للآداب الفارسية والرومية والإسبانية نهجا وثقافة غير نهج الأدب العربي وثقافته، وإن تضمَّن -أحيانا- من الفكر ما ليس بعربي؛ لكن الطريقة المتبعة في البيان عما تضمن من الأفكار عربية.

وإذا كان الأصل أن يكون ما في لغة العلم من آثار الثقافة دون ما في لغة الأدب -لما في العلم من موضوعية، تختلف عن الخصوصية التي هي أصل الأدب-، فلا يعني ذلك تجرُّدَها ألبتة من ثقافة اللغة، فإن ذلك أمر عزيز، إلا أن تُجْعَل لغة العلم رموزا كرموز الرياضيات والكيمياء، وما شاكلها من المفردات المعروفة بالأسماء العلمية، فإنها كالرموز في أنها مقصورة على الدلالة على مفاهيم بعينها، ولا تستعمل في غير ذلك؛ ولذلك تبقى بمعزل عن الثقافة وتبدُّل الدلالة الذي يتبع كثرة الاستعمال. وقد تقصَّت دراسة، أجريت في كلية الطب بجامعة ابن الجزار بتونس مفردات علم الأعراض الجراحي والشعاعي، وتكيُّفها في المحيط الثقافي العربي، واستنتج الدارسون عدم صحة النظرية القائلة بحياد الفرنسية المستعملة في تعليم الطب، وتبينَ أنها تحرص على نشر الثقافة

(١) التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكفونية.
(٢) الفرانكوفونية واللغة العربية.

الغربية في المؤسسات الأكاديمية في تونس[1]. وقال روبرت فليبسون: إن حياد الإنجليزية، وعدم ارتباطها بعقيدة بعينها فرْضٌ مشابه لفرض أن العالم الثالث ظاهرة، لا تستحق الدراسة المتعمقة[2]. وقال إن أمريكة فرضت الإنجليزية على مستعمراتها كالفلبين بالقوة، فاعتمدت الفلبين على لغة مستعارة، تحمل معها العقيدة المهيمنة، ومصلحة أمريكة الاقتصادية والسياسية، وباعتمادها على لغة مستعارة أصبحت معتمدة أيضا على النظريات والطرق الأجنبية التي تشتمل عليها اللغة المستعارة، وهو أمر يصنع وعيا مستعارا، ثم عُدِّلت قيم الناس بسهولة ليساووا المصلحة الأجنبية بالمصلحة الوطنية؛ فأصبح إخضاع أمريكة للشعب الفلبيني وفرضُ إرادتها عليه أسهل[3]. ولهذا كان الاتحاد السوفييتي يرى أن الإنجليزية تنشر الهيمنة الرأسمالية في العالم، ويرى الفرنسيون أنها بضاعة مغلَّفة بالعقيدة الأمريكية والبريطانية[4]. فكل لغة -إذن- تسري ثقافتها إلى متعلمها، من حيث يدري ولا يدري، ولهذا كان حرص الدول الاستعمارية على تعليم لغاتها ونشرها؛ لأن في ذلك نشرا لثقافاتها وتعليمها، وانتشارهما يعني صبغ من ينتشران فيه بصبغتها الثقافية. ومما يترتب على ذلك التبعية، وقبول الاستعمار، وهذا سبب اصطباغ مستعمرات فرنسة بعد استقلالها بصبغة فرانكفونية، وشدة ولع أهلها بمحاكاة فرنسة، وتعلُّم لغتها، وإيثارها على العربية، بعد أن كانت تعلن بعداوتها، وتعلن الحرب عليها، على وجه، ما يُظن أن يعقبه إلا مفاصلتها لأُخرى الدهر. لكن الثقافة شديدة التأثير، وتسرق الناس من حيث لا يدرون، فقد حافظت أندونيسية -مثلا- على روح عاداتها، على ما ذاقت من ويلات الاستعمار البرتغالي، ثم ويلات الاستعمار الهولندي ثلاثمائة عام، غير أن بضع سنين من السياحة (سياحة الغربيين في إندونيسية) حطمت ثقافتها بعد الاستقلال[5]. وقاطع الموريتانيون الأولون فرنسة، فمنعوا أبناءهم دخول مدارسها، فكانت تَفتح المدرسة، فلا تجد من يدخلها، فتغلقها، وقاطعوا لغتها،

---

(١) إشكاليات التعريب في تعليم العلوم الطبية، ٤٣.

(٢) الهيمنة اللغوية، ١٦.

(٣) السابق، ٢٢٥ وما بعدها.

(٤) السابق، ٢٥.

(٥) أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب، ١٥.

فكانوا يمنعون أبناءهم أن يتكلموا بها، وإذا سمعوا المرء ينطق بالكلمة الفرنسية، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وازدجروه وعنَّفوه، ونسبوه إلى حب النصارى، والإعجاب بهم، والتلذذ بكلامهم، وصاحوا في وجهه: «محمد رسول الله، وأصحابه، وأهل بدر»، يعنون أن ما تلفَّظ به منكر من القول، وإعجاب بكلام قوم، خير منهم ومن كلامهم كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته وذكر ومآثرهم، ولا سيما أهل بدر، وأولى بأن يُحَبُّوا ويقلَّدوا ويذكروا. يفعلون ذلك تبغيضا للفرنسية، وتهييبا من الكلام بها، مخافة أن تخضع القلوب لثقافتها، أو تَنزِع عن عداوة الفرنسيين. وتواطأت تقارير الفرنسيين على إعراضهم عن الثقافة الفرنسية، واعتزازهم بعلومهم، وعجز الفرنسيين عن استمالتهم إلى مدارسهم وتعليمهم، كما قال مدير إدارة التعليم الابتدائي (Chaigneau) في تقرير له عام ١٩٣٤: إن البيضان المسلمين (سكان موريتانية البيض) كان لهم منذ قرون، وما زال، علماء وفقهاء وأدباء معروفون في بلاد العرب كلها، ونعلم أن غيرتهم على وطنهم سبب أنهم لا ينظرون إلى حضارتنا بحماسة، إن الثقة معدومة بيننا وبينهم الآن[١]. وقال حاكم موريتانية، سي. لغريه (C. Laigret): لقد عالجنا قضية التعليم من فور دخولنا موريتانية، ولكنها قضية معضلة، لقد وجدنا أنفسنا في مستعمرات أخرى في ساحة فارغة، ووجدنا شعوبا متلهفة إلى محاكاتنا، أما موريتانية، فالمقاومة الإسلامية لنفوذنا بالتعليم الفرنسي شديدة[٢]، لقد أسلم البيضان منذ قرون، وكان لهم وما زال فقهاؤهم وعلماؤهم، ولا يمكن أن يروا حضارتنا بعين الإعجاب كما يراها السود، ثم إن موريتانية من البلاد التي يمثل العلم فيها قمة المجد، وبها مدارس كثيرة، ومكتبات هي شواهد حية، كمكتبة شنقيط[٣]. وكتب الحاكم الفرنسي لغرب إفريقية في تقريره السنوي إلى وزير المستعمرات الفرنسية: وجدنا شعبا له ماض من المجد والفتوح، لا يغيب عن ذاكرته، ومؤسسات اجتماعية لا نستطيع تجاهلها، إن علاقات تضامن وثيق تشيع بينهم على بداوتهم وتمزقهم. ومن الخطأ أن نوازن بينهم وبين الشعوب

(١) المنارة والرباط، ٣٥٤.
(٢) السابق، ٣٥٤.
(٣) السابق، ٣٥٥.

السوداء ذات التقاليد الضعيفة، والشعور الوطني الخافت. ومن العجيب أننا وجدنا لدى الزوايا ثقافة رفيعة أكثر تطورا من الثقافة التي وجدناها عند مثقفي إفريقية الشمالية. إن سلطان بعضهم يمتد من غامبية الإنجليزية إلى المغرب الأقصى، وأحياؤهم حرم، يلجأ إليه الخائفون، فيأمنون[1].

وكذلك كان الجزائريون، والمغاربة، فقد أعرض الجزائريون عن مدارس الاستعمار حتى كانوا يؤثرون الأمية على التعلم بها، وكانوا يجعلون أعمالهم على عكس ما يريد الفرنسيون، كما تبين عن ذلك قولة الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله-: لو أمرتني فرنسة أن أقول لا إله إلا الله ما فعلت. وكان ذلك ضربا من ضروب مقاومة التنصير والتذويب[2]. وكانوا قبل يوليو عام ١٩٦٢ ينظرون إلى العربية نظرتهم إلى شيء، حُرموه ١٣٢ عاما، وإلى الفرنسية نظرتهم إلى لغة المستعمر التي أُلزِموها بالقوة، وكانوا يطردون الضباط السياسيين الذين يتكلمون بالفرنسية، ولا يستجيبون لهم، وربما ضربوهم، لشكهم في أنهم عيون للاستعمار؛ من أجل ذلك أصدرت القيادات بطاقات المرور بالعربية، بعد أن كانت تَكتب بعضها بالفرنسية[3]. وكان السياسيون الجزائريون منذ الخامس من يوليو عام ١٩٤٧ يعقدون مؤتمراتهم بالعربية؛ حتى يكسبوا ثقة الشعب، فلما استعملت الثورةُ الجزائرية الفرنسيةَ في إذاعتها ومؤتمراتها، تبدَّل حال الجزائريين من عداوة فرنسة والفرنسيين إلى الولع بها وبهم، والزهد في العربية، وكانوا قبل ذلك يقاطعون إذاعة فرنسة، ويسمُّونها «راديو الكفار»، ويعدُّونها لغة المحتل الكافر، الذي يحارب الإسلام، ويُخْرِب المساجد[4]. وإنما استعمل الجزائريون الفرنسية أول مرة في مؤتمر الصومام عام ١٩٥٦، واستعملتها الحكومة المؤقتة في إذاعتها السرية، فكان استعمالها بمنزلة الرُّقية التي خلَّصت الجزائريين من كراهيتها، ووجهتهم إلى ما يشبه الاستسلام لها والرضا بها؛ وجرَّد العربية من صفتها المقدسة، والفرنسية من دلالاتها الملعونة، وأقرَّ في نفوس الجزائريين أن التكلم بالفرنسية ليس -كما

---

(١) المنارة والرباط، ٦، والسياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا، ٩٥.
(٢) أحاديث مع أحمد علي مهساس، ١١.
(٣) قضية التعريب في الجزائر، ٥ وما بعدها.
(٤) ضباط فرنسا في المغرب العربي، ٧٤ وما بعدها، ومصير وحدة الجزائر، ٧٥ وما بعدها.

كان- خيانةً، أو تخاذلا أمام المحتل؛ فكانت الثورة هي التي سمحت للمستعمر أن يدخل في قلب البيت، وهو آخر معقل من معاقل الروح الوطني[1]. وكان الفرنسي ديبارمي يقول -في شيء من السخرية والامتعاض-: إن المسألة اللغوية قضية حياة أو موت عند أهل المغرب العربي، كما يبدو من الجرائد الجزائرية، وهم متفقون على ذلك[2]. وكان المغاربة يُعرِضون عن تعليم أبنائهم في مدارس الاستعمار، ويُخفونهم، ويحتالون بكل وسيلة لمنعهم دخولها[3].

وكان كثير من التونسيين ينظرون إلى الفرنسية في العهد الاستعماري نظرة عداء ونفور، ثم تغيرت بعد عام ١٩٥٥ م، فصارت نظرة إعجاب، تدعو إلى الإفادة منها[4]. كانت تلك نظرة أهل المغرب العربي إلى الفرنسية، واستماتتهم في طردها من بلادهم، والحؤول بينها وبين التمكن، وعقيدتهم في العربية، واستماتتهم في استعادتها، وعزمهم على التمكين لها، غير أن ذلك الخيال الذي كان يعود أهل المغرب الأولين، فيجعلهم يتشبثون بالعربية، ويعتدُّون بها، حتى إنَّ مَنْ رآهم ظن أنْ لا يمكنُ أن يتخلوا عنها بحال، كان جزءا من ثقافة، أماتتها الحكومات «الوطنية» بالتمكين للفرنسية، فغزت ثقافتُها الثقافةَ التي كانت لحمتُها وسداها الاعتزاز بالإسلام والعروبة، والخصوصية الحضارية، وكراهية الاستعمار وتحديه. وهي ثقافة كان يتقلدها الكبار، ويلقنونها الصغار، كما روى ديبارمي أن بعض أطفال المدارس الجزائرية كانوا إذا قالوا إن أجدادهم غاليون (كما كانت تلقِّنهم فرنسة) ردَّ عليهم آخرون بأن أجدادهم عرب مسلمون، وأنهم يتصلون بهم بطريق العربية كما يتصلون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بطريق الشرق[5]. وكان لزاما أن يَتْبع تحلُّلَ تلك الثقافة تغيرُ الرأي في العربية والفرنسية، وتغير في الانتماء. وقِسْ ذلك بما كان عليه كاتب ياسين قبل الاستقلال، وما آل إليه بعده، فقد ولد في قسنطينة عام ١٩٢٩، وكان والده محاميا من أبناء القبائل الكبرى، فأرسله إلى الكتَّاب ليتعلم القرآن الكريم والعربية، ثم أدخله مدرسة

---

(١) ضباط فرنسا في المغرب العربي، ٢٧.
(٢) التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال، ١٥٧.
(٣) الإصلاحات التعليمية بالمغرب، ٨٣.
(٤) حركة الترجمة في تونس، ٩.
(٥) التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال، ١٥٨.

فرنسية، فاستاء أول الأمر من دخولها ومن تعلُّم الفرنسية، وكان يسمِّي الفرنسية «فَمَ الغول»، و«لسان الذئاب»[1]، وكان يكتب بها، ويتعلل بأنه لا يتقن غيرها، ويقول إنه يكتب بها ليقول إن الجزائر عربية، ولفرنسة إنه ليس فرنسيا، ويدعو إلى الثورة عليها[2]، فلما استقلت الجزائر عام ١٩٦٢ قال قولته الشهيرة: «إن الفرنكفونية آلة سياسية تصنع الاستعمار الجديد حتى تستمر تبعيتنا، ولكن استعمال الفرنسية لا يعني أن من يستعملونها أعوان للحكومة الفرنسية. وقال عام ١٩٦٦: «ما الفرنسية إلا غنيمة من غنائم الحرب، ظفر بها الجزائريون، بعد انتصارهم على عدوهم»[3]. وقد يكون لهذا القول وجه غير الذي يظهر منه، هو أن الفرنسية لغة علم وحضارة، أتيحت للجزائريين، فيمكن أن يفيدوا منها، ويعدوها بمنزلة غنيمة حرب، تركها الأعداء لهم، ولا يخلطوا بينها وبين فرنسة وتاريخها السيئ في الجزائر، أما الفرنكفونية، فسياسية فرنسة الاستتباعية التي تريد أن تبقى الشعوب التي كانت تستعمرها في فلكها، على ما تقتضي منافعها، وهي غير الفرنسية لغة العلم والحضارة. وإلى هذا تذهب طائفة من كتاب المغرب العربي، لا تُزَنُّ بالتبعية لفرنسة، كالمهدي المنجرة. وإن كان من غير السهل أن يصطنع المرء لسان غيره، ويستقل عنه في فكره وثقافته، والميل إلى الفرنسية لا يكون إلا من ميل إلى فرنسة وثقافتها. غير أن كاتب ياسين انتهى بربريا غاليا، يتقلد الشيوعية، ويقول إنه لا يريد العربية، ولا الإسلام[4].

وكان محمد بو ضياف أحد مفجري الثورة الجزائرية، وكبارِ أبطالها وقادتها، وكان يوصف بأنه ثوري وشجاع، وغير مرتبط بدولة أجنبية[5]. ويدلُّ ما بقي من رسائله[6] على أنه كان متديِّنا، ثم انتهى فرانكفونيا، يعلِّم أبناءه في مدارس البعث الفرنسي بالمغرب، يبغض العربية مع أنه عربي من بني هلال. ولما انقلب «ضباط فرنسة» على خيار الشعب بعد انتخاب عام ١٩٩٢، سَمَّوه رئيس مجلس الدولة.

---

(١) التباسات الهوية، ٣٥.
(٢) الفرنكفونية في لبنان والعالم العربي.
(٣) الهوية العربية والأمن اللغوي، ١٣.
(٤) الموضع السابق.
(٥) مواقف بن يوسف بنخده، ٣٦٥.
(٦) انظر كتابه: التحضير لأول نوفمبر ١٩٥٤، ١٤٠.

وما سلم من ذلك التغير إلا أقل قادة الثورة الجزائرية، حتى إن من قرأ سيرة بعضهم قبل الاستقلال شكَّ في أنهم كانوا أولئك المجاهدين العرب الشديدي التدين. ولا سلم منه بعض الذين حافظوا على الاستمساك بالاتجاه الإسلامي العروبي، كهواري بو مدين، فإنه، وإن ظلَّ قليل الثقة بفرنسة إلى آخر يوم من حياته، ويتذكر ماضيها الفظيع في الجزائر، كان شديد الحب للفرنسية، وكان يردد عباراتها كما يرددها غيره من الجزائريين[١]، من غير حاجة. كأن الجزائر لما تحررت، سقطت أسباب المقاومة الثقافية، في نظر كثير من الجزائريين، فصار حب الفرنسية والتكلم بها، والتوق إلى الاندماج في الفرنسيين أمرا عاديا، بل صاروا يؤثرون الفرنسية على العربية. وهو أمر يعرفه الجزائريون والفرنسيون، فقد قال جلبير غرانغيوم إن الفرنسية -من حيث هي لغة المستعمر- منبوذة، لكن لها جاذبية وسحرا. وقال حبيب طنكور: في عام ١٩٦٢ استقل الجزائريون، غير أنهم لم يتحرروا، ففرنسة حاضرة في كل جزائري أكثر من كل وقت مضى، حتى الأصوليين، فإنهم مغرمون بفرنسة، وإن كانوا هم الذين يخلِّدون خطاب النبذ[٢]. وقال محمد مصائف: لم ينجح الاستعمار الفرنسي في سلخ الشعب الجزائري من هويته، بيد أنه طبع بعض العقول بطابعه القوي، فهي اليوم تفكر كما يفكر، وتُناقش كما يناقش، وتتحامل على العربية كما يتحامل عليها، وتسعى في عرقلة التعريب[٣]. ويُظهر بعضهم كره الاستعمار الفرنسي، وهو يضمر الغرام بآثاره، ففي ٢٣ من فبراير ملأ ساسة الجزائر الدنيا باستنكار قانون ٢٠٠٥ الفرنسي؛ لأنه يعد الاستعمار الفرنسي خيرا للجزائر وخاليا من الشرور، ولكنهم يتجاهلون أن الفرنسية المسيطرة على الجزائر هي عمق الاستعمار الفرنسي، وأن الإبقاء على هيمنتها اعتراف رسمي بإيجابية الاستعمار وخلوه من الشر[٤]. وتغيَّرَ كثير من أهل المغرب العربي، فصارت فرنسة مثلَهم الأعلى، وصاروا -خلافا لما يدعون- محكومين بعقدة الولاء للمتفرنسين، وخدمتهم، ووسم كل ما يصدر

(١) انظر مثلا: مذكرات جزائري، ٢/ ١٠٨ و ٢٢٨.

(٢) المواجهة باللغات.

(٣) في الثورة والتعريب، ٥٠ (نقلا عن: السياسة اللغوية في المجتمع الجزائري، ٢٠٧).

(٤) لوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية في الجزائر.

عنهم بالجد والعلمية[1]. وتغير فكر بعضهم، فغدا علمانيا ليبراليا، أو يساريا، أو شيوعيا، شديد التعصب على الإسلام والثقافة العربية. أما موريتانية، فإنما هزمها «الاستقلال»، فقد حُمِلت على اصطناع الفرنسية لغة رسمية، فكانت لغةَ التعليم والإعلام، فنفذت منها الثقافة الفرنسية إلى القلوب، وتوغلت في الحياة توغلا مرعبا، بعد أن جاهدها الشعب أيام الاستعمار[2].

ولشدة تأثير اللغة في الفكر والثقافة كان أول ما فكَّرت فيه أمريكة بعد الفراغ من احتلال العراق هو كيف تزيح العربية من حياة العراقيين، وتُحِلُّ الإنجليزية محلها. والقوة قوتان: قوة صلبة، هي قوة الاقتصاد والجيش، ولَيِّنة، هي التي تجعل دولة تحمل أخرى على عمل ما تريد منها، بطريق الثقافة والعقائد. وإذا كانت ثقافة دولة أو عقيدتها جذابة، رغب غيرها في تقفِّي آثارها، فهي كالقوة الصلبة، وإنما تكون جذَّابة إذا بدا أنها عريقة في النجاح والنفوذ، وإنما تكون القوة اللينة قوة صلبة، إذا استندت إلى قوة صلبة، وذلك مصدر جاذبيتها، فإن فقَدت قوتها الصلبة، دبَّ الشك فيها إلى النفوس[3]. وهذه القوة اللينة كان لها من التأثير في العالم المستعمَر ما لم يكن للقوة الصلبة، فقد كانت قوةً، تغزو العقول، وتُخْضع النفوس، على حين كانت القوة الصلبة منصبة على إخضاع الأبدان، ولشدة تأثيرها كان للدول المستعمرة من العناية بها ما لا يقلُّ عن عنايتها بالقوة الصلبة، كما أبانت عن ذلك أقوال قادتها الكبار، كقول شارل غرانت، عضو مجلس العموم البريطاني ورئيس شركة الهند الشرقية: «الإنجليزية ليست مجرد وسيط للمعرفة والنور، بل هي أولا وأخيرا طريق الإيمان ببريطانية»[4]. وكانت فرنسة تعول على أن ما تريد من استلحاق الجزائر يمكن أن تبلغه بالفرنسية، بعد أن عجزت عن بلوغه بالقوة، فلما أَمَّمَ هواري بو مدين -مثلا- نفط الجزائر، استردَّت كل من كان في الجزائر من مهندسيها وفنييها عقابا له، ولم تسترد معلما واحدا[5]، ولما سئل أحد وزرائها عن ذلك،

---

(١) اللغة العربية في المغرب إلى أين؟.

(٢) إصلاح النظام التربوي.

(٣) صدام الحضارات، ١٨٤.

(٤) أمريكة والإبادات الثقافية، ٩٣ و ١٠٣.

(٥) لقاء مع وزير التربية الجزائري الأسبق علي بن محمد.

قال: إنَّ قطْعَ العلاقات السياسية مع الجزائر سيؤثر في وجود الفرنسية في بلد، يُتوقَّع أن يتأثر بالثقافة الفرنسية الناتجة من انتشار الفرنسية فيه[1]. وكان شارل ديغول قد قال قبل ذلك: إذا اضطررتُ إلى الاختيار بين نفط الصحراء وبقاء الفرنسية في الجزائر، فلن أتردد في اختيار بقاء الفرنسية[2]؛ لأن بقاءها خير وسيلة إلى أَسْر العقول، ومن أَسَرَ العقول وملكها، ملك أصحابها ومصيرهم وما يملكون[3]، ومنه النفط.

وغني عن البيان أن بريطانية ما ألزمت مصر استعمال لغتها بدلا من العربية حبًّا لها، ولا توخيا لمصلحتها، فلو أحبتها، وحرصت على مصلحتها ما احتلَّتْها، وقتَّلت أهلها. والمعروف من تاريخها الاستعماري تعمُّد إفساد التعليم، وإرساخ الجهل والتخلف، في مستعمراتها، حتى حين تبني لها المدارس والجامعات، فإنها تحرص على أن يكون التعليم فيها صوريا، ولا سيما إذا كان البلد من البلدان التي بينها وبينها عداوة حضارية تاريخية، كالبلدان الإسلامية، كما قالت استخباراتها مرة إنَّ المدارس والجامعات ستنتشر في هذه الدولة الممزقة (الدولة العثمانية) بكثرة، وسيكثر أولئك الدارسون والمرتادون، ولكنهم لن يتعلموا إلاَّ الجهل[4]. وذكر عباس حلمي، خديو مصر، جانبا من طريقة تعليمها في مصر، فقال إن الجُمل التي كانوا ينقشون في عقول التلامذة الصغار لا تعدو الأشياء التي لا معنى لها، نحو: هذا الأرنب أبيض، ولهذه المعزى قرون، وفي البقرة لبن، والقطة تجري وراء الفأر، ولم يكن عند رجال الإنجليز أدنى اهتمام للعمل على النهض بالروح المصري، وكانوا يعدُّون عملهم حرفة، وربما واجبا[5]. وهو أمر، أعلم أن قوله يدعو إلى الإشفاق على عقل من يقوله، لما فيه من تحصيل الحاصل، وتقرير البديهيات، على وجه، قد يفهم منه أنها ليست ببديهيات، غير أن لسان الحال يقول إن بعض العرب يرون أنه

---

(١) مجلة الأصالة، ع ١٨ نوفمبر ١٩٧٤، (نقلا عن: مصير وحدة الجزائر، ١٩٠)، وتعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، ١٨٤.

(٢) جهاد الجزائر، ١٧.

(٣) إشكالية الهوية ولغات التعليم في المغرب، ٤٢.

(٤) اللغة العربية وهوية الأمة.

(٥) عهدي، ١٤٥.

ليس ببديهيات، ولا تحصيل حاصل؛ فهم في حاجة إلى أن يجادَلوا فيه، وتُقامَ لهم الحجة عليه، وآية ذلك أن ما تعللت به بريطانية لإخراج العربية من تعليم مصر، وإجبارها على استبدال الإنجليزية بها، ما زال المصريون يرددونه كأنه مسلَّمة، ويعملون به، ولولا أنهم يرون أنها أرادت بما فعلت خيرَ مصر ما أقاموا عليه، ولا دافعوا عنه، ولا أبوا أن يتحولوا عنه بعد «الاستقلال» عنها، والتحرر من سلطانها، ولا حملوا الحكومة المصرية عليه، وزينوه لها، كما أيدته فئة من المصريين يومئذ، وادَّعت أنه خير لمصر، وما زالوا يرون أن التمسك به دليلُ رشد، يؤفك عنه من أُفِك. وهي سذاجة، ما إخال شيئا ينفع معها، ومَنْ مُنِي بها، فقد أصيب في عقله إصابة لا صلاح لها على الدهر، غير أن هذه السذاجة هي التي تتحكم في العرب من المحيط إلى الخليج، وتعمل بمقتضاها السياسات العربية، وترى في غيرها إفسادا للتعليم. ولا يرى ذلك إلا من يرى أن ما فعلت بريطانية وفرنسة بالعرب كان خيرا لهم، وأن بلادهم «إذا عُرِّبت أُخربت». وهو مناقض لحقائق التاريخ، ولِمَا أقرَّ به المستعمرون على أنفسهم، في كل ما أُثِر عنهم من وثائق. وإنما كان ينبغي أن يُحمَل ما فعلت بريطانية بالعربية في مصر على ما حُمل عليه ما فعلت بغير العربية، كإلغاء الجيش المصري، بعد خمسة أيام من احتلال مصر، وتمزيق بحريتها، وإغلاق مصانع سلاحها، وتسريح جنودها، وتجريد الصغار من ضباطها من رتبهم، ومحاكمة الكبار، والسيطرة على شرطتها، وتتبع الأحرار الذين اشتركوا في ثورة أحمد عرابي، والقبض عليهم أو تشريدهم، «حتى يَخلُوَ لها الطريق، فلا يجد الشعب من يستجيشه إلى الانتقاض عليها»[1]. وقد جمعت بريطانية لمصر من ألوان الخداع والتغرير والنفاق والعبث بالضمائر والنفوس ما لم تجمع لأمة غيرها[2]، فجازت خدعها على بعض المصريين. وقد بقي خالفوها في الحكم يسيرون بسيرتها في إلغاء العربية واصطناع الإنجليزية مكانها إلى اليوم، كأنما صادف ما فعلت هوى في نفوسهم، أو أن دعاية خلفائها كانت من القوة والتمكن بحيث أسكتت المخالف. هذا إلى ما عُرِفت به بريطانية وفرنسة، وغيرهما من الدول الغربية

---

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، ٢/ ٩١٦.

(٢) الموضع السابق ٩١٦.

من بغْض المسلمين، والتعصب على الحضارة العربية الإسلامية، والضيق بها، والجدِّ في حصارها، وطمس آثارها في مستعمراتهما بإفريقية وآسية، كما قال نغوغي وا ثينغو: إن الحضارة العربية التي يبلغ عمرها قرونا كان لها تأثير عظيم في أدب شمالي إفريقية الحديث، وفي عدة أجزاء من إفريقية، وقد حرَّم مربُّونا (الإنجليز) الاعتراف بهذا التأثير، وأهملوا أدب شمالي إفريقية والعالم العربي[1]. فهم يحرِّمون الاعتراف بأثر الحضارة العربية في البلدان التي أثرت فيها، ويهملونها، ويجبرون العرب على إهمالها، ويلزمونهم لغتهم، ومع ذلك يدَّعي بعض العرب أن ما يفعلون إنما يريدون به خير العرب! وما أدري ماذا كان عليهم أن يفعلوا، لو أرادوا الإضرار بهم؟ أيجبرونهم على تعلم العربية، والاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية؟ وما عنيتُ مصر وحدها، وإنما أردتها مثالا لقضية، يتساوى فيها جل العرب، لكنها كانت أسبق العرب إليها، وكان لها من النجاح فيها ما لم يكن لها في بلد عربي قبلها. وكان ذلك أدعى إلى أن تكون أكثر البلدان إعراضا عما يزيِّن أنصار التمادي في التغريب؛ فقد ذاقت من صابه وزَقُّومه ما لم يذق بلد عربي قبلها.

لقد نال المسلمين في هذا العصر من عداوة الغرب وتنكيله ما لم ينل شعبا من الشعوب، وما زالت تلك العداوة وذاك التنكيل يتتابعان، بل هما اليوم أوضح منهما في كل وقت آخر، كما يُرَى في الحروب التي تشنُّ عليهم، منذ مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي، في أفغانستان، وباكستان، والعراق، والسودان، وسورية، وليبية، والصومال، ومالي، وتركية. وإنما تلك العداوة والحروب أثر من آثار المطامع الاقتصادية، والحروب الصليبية، فإنَّ ما تحوي بلاد العرب من المواد التي تقوم عليها الصناعة يقل في غيرها من البلدان، والطمع في ذلك يقتضي أن تكون للغرب في بلادهم سياسة، تيسِّر الوصول إليها مجانا، أو بالثمن الذي يريد. من أجل ذلك انتهى الاستعمار العسكري في كثير من بقاع الأرض، وهو يتجدد في بلاد المسلمين. وما الحروب الثقافية التي يشن عليهم الغرب إلا وسيلة من الوسائل التي تُخْضَع بها العقول كما تخضع الأبدان بالحروب العسكرية؛ فإن الحروب الثقافية تصاغ بها العقول صياغة

---

(1) تصفية استعمار العقل، ١٨٠.

تجعلها تبعا للمنتصر، وتنزع من القلوب ما تترك فيها الحروب العسكرية من نقمة، تُغْذِي على الانتقام والتحرر، ليرضى المستعمَر بما يريد به المستعمِر، ويَعُدَّه خيرا، يُستدام، كما انكسرت اليابان وذلَّت، وذهب ما كانت تجد من عزة وطموح، قاداها إلى التوسع والاستعمار، فغدت لا تفكر إلا في «السلام»، أي الاستكانة للاحتلال الأمريكي، وامَّحى التفكير في درَك «الثأر»، والطموح إلى «التحرر»، من ثقافتها، وصار التكيف مع الواقع أقصى ما تريد، وأقصى ما تفكر فيه منافسةٌ اقتصادية وصناعية، لا تُخْرِج من التبعية.

ولما كانت اللغة هي لحام الشعوب، وهويتها، وسِجلّ ثقافتها، كان لزاما أن تنال العربية من العداوة والتنكيل بقدر مكانتها من العرب وحضارتهم، إذ كان القضاء عليها كسرا للحامهم، وتشتيتا لشملهم، ومحوا لذاكرتهم، وطمسا لهويتهم، وطمسها ينزع ما تعتمد عليه الشعوب من شعور بالتميز، وما يتبعه من عزة وإباء، ورفض للتبعية، ومَحوُ الذاكرة يزيل ما يُغْذِي على المقاومة، ويهيئ للتسليم للمحتل، والنظر إليه بالعين التي يحب أن يُرَى بها؛ فالشعب، لا هوية له، ولا تراث، ليس لديه ما يشعره بالتميز، ولا ما يَرْكَن إليه في المقاومة؛ فلا يتأبى على تذويب أو استتباع، ومن اليسير احتلال نفوسه، وصياغته كيف يشاء المحتل، كما قال اللورد توماس ماكولي، مهندس سياسة التعليم الإنجليزي في المستعمرات البريطانية، في خطبة خطبها في مجلس النواب البريطاني، في الثاني من فبراير عام ١٨٣٥ : لن نَهْزم هذه الأمة (الهنود)، إلا بكسر ظهرها، وهو تراثها الروحي والثقافي؛ لذا أقترح أن نأتي بنظام تعليمي جديد، نُحلُّه محل النظام القديم؛ فإن الهنود إذا أخذوا يعتقدون أن كل ما هو أجنبي وإنجليزي حسن، وأحسن مما هو هندي، فقدوا احترامهم لأنفسهم وثقافتهم، وأصبحوا كما نريدهم أن يكونوا: أمة، تمَّتْ الهيمنة عليها، ألبتة[1].

وقد اتفقت طائفة من المستشرقين والمؤرخين والباحثين الغربيين قديما وحديثا، كرينان، وجاك بيرك، وتوينبي، ويوهان فك، وجلبير غرانغيوم، وجان كالفي، وصموئيل هنتنغتون، على أن العربية الفصحى كانت لحام العرب والمسلمين، وسبب توحدهم وتماسكهم وتواصلهم، ورمزا لوحدة عالم

(١) أسئلة الهوية، وأمريكة والإبادات الثقافية، ١٣

الإسلام، والرباط الذي يحول بينهم وبين التفكك، وسندا للعقيدة، من حيث هي لغة الصلاة، والعلوم الدينية، وأقوى الأسباب التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، وحالت دون ذوبانه، وكوَّنت الأصالة الجزائرية، وكانت سببا قويا في بقاء الشعوب العربية[١]. وقال المفكر الإيطالي، ليليو باسو: إن الارتباط بالقيم الثقافية الخاصة، والتاريخ، واللغة، كان سلاحا قويا، مكَّن من هزيمة الاستعمار في الجزائر، وفيتنام[٢]. من أجل ذلك شنَّ الاستعمار الغربي على العربية من الحروب ما لم يشن على لغة، ونالها من كيده وعداوته ما لم ينل لغة[٣]. وقد أثمرت تلك الحروب ما أراد منها، فغدا العرب يعادونها كما يعاديها، ورضوا بأن يكونوا هم الأيدي التي تُخْرَب بها، كما قال أحد المستشرقين: ليس على وجه الأرض لغة لها من الروعة والعظمة ما للعربية، ولا أمة تسعى بوعي أو بغير وعي في تدمير لغتها، كما يفعل العرب[٤]. وقد تحدثنا عن جانب من ذلك الكيد، وسنقف عند جوانب، ينفَّذ الكيد فيها بأيدٍ عربية، تُنْدَب لما تَفْعَل بها فتَنتَدِب، أو تُخدَع، فتنخدع، أو تُقْنَع بصحته وجدواه، فتقتنع، منها:

---

(١) معلمة الإسلام، ١/ ٣٤٥، والفصحى لغة القرآن، ٣٠٤، واللغة والسلطة والمجتمع، ٩٤، والله أو الدمار، ٧٦، والعربية، ٢٤٢، وصراع الحضارات، ٩٨ - ١٠٦، والسياسات اللغوية، ١٢٣ وما بعدها، والمواجهة باللغات.

(٢) التعريب في الجزائر، ١٥٦.

(٣) في ندوة للمركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة حول الدارجة والسياسة اللغوية بالمغرب.

(٤) تخطيط السياسة اللغوية في الوطن العربي ومكانة المصطلح الموحد، ٤٩.

١ - الحكومات الخفية

جرت العادة بأن يُنْسَب تفسيرُ كلِّ عمل يُضِرُّ بالمسلمين بتدبير خفي من الدول المستعمرة إلى ما يسمَّى «نظرية المؤامرة»؛ ليجرد من العلمية، وتنزع الثقة به، ولذلك صار الباحثون يتنكبونه كبرا عن تلك التهمة، وصونا لما يكتبون عن أن يُسقَط بها. غير أن مخافة ذلك لن تثنيني عن تناول القضية كما ينبغي أن تُتناول؛ لأن ما أقول هاهنا ليس بنظرية، ولا تصدق عليه «نظرية المؤامرة»، إن سُلِّم أنه كذلك، فليس فيه ما فيها من ضعف الأدلة، والاستغناءِ بالظن عن البرهان، لوضوح العلاقة بين ما أتحدث عنه ومَن أنسبه إليه، وضوحا يجعل نسبته إليه من البديهيات التي لا خفاء بها، والضروريات التي لا تحتاج إلى برهان، وذكرُه أقرب إلى التذكير والتنبيه منه إلى الإنشاء والتنظير والتفسير، كما يبدو مما قدَّمْت وما أقدِّم من الحوادث الموثَّقة التي لا يأباها من كانت وجهته تطلُّب الحق. ويزيدني عزمًا على ذلك ومضاءً فيه مَا قد بان لي من أن نسبة العمل إلى «نظرية المؤامرة» غدت مما يُتوسَّل به إلى التشكيك فيه، والصرف عنه، ودعايةً، يُتَعمَّد بها التزهيد في الحقيقة، والتعمية عليها، والإضلال عنها، وتهمةً عتيدة، يُرمَى بها كل عمل يراد إسقاطه، على ما تُنحَل من منطق العلم، وتُلْبَس من ثياب النزاهة، وأن بعض من يتوسلون بها إلى ذلك من العرب لا يرون بأسا بما تقوم به الدول الغربية من اختراق الهوية العربية، بل لا يعدونه اختراقا، وإنما يعُدُّونه صورة من صور التبادل الثقافي، ووسيلة العصر الضرورية، والوحيدة إلى التمدن، والحداثة، ودخول العصر، والاشتراك في إنجازاته الحضارية، وكل تسمية للاختراق باسمه عوق عن ذلك، وعون على الإقامة على التخلف. ومنهم من هو مصاب بهواجس ومخاوف وأوهام يحرِّكها الشعور بالغربة، أو عدم الأهمية، أو خوفُ فقدان منافع بعينها. وهي أمور، جعلت بعضَ مثقفي العرب «عملاء حضاريين» للغرب، و«جلَّهم

يتخذ من الجهل ثقافة، ومن الاغتراب حداثة»[1]. ومنهم من يسلك به ضعف الانتماء إلى أمته مسلكا يزيِّن له الحياد بينها وبين عدوها؛ فينسب كل دراسة لا يُخفي فيها الكاتب انتماءه إلى أمته، وغيرته عليها، وحرصه على تبصيرها بما يراد بها، وحمايتها من كيد عدوها، إلى التعصب، والانسياق مع العقيدة المنافيين للعلم، ويرى أن الحياد هو ما يقتضي منطق العلم، وأن من الواجب الكفَّ عن الخوض فيما لم يُذِع العدو بأنه فعَلَه، ويصرحْ بأنه أراده، وينظر إلى نسبة بعض الدول إلى عداوة المسلمين بعين الاستخفاف، على وجه يشعر بأنه أقرب إليها منه إلى أمته.

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن «نظرية المؤامرة» ربما أُفرِط فيها حتى تتجاوز الحدَّ الأدنى من منطق العلم والأخلاق، وتحرِّي الحقيقة، وحتى تقتصرَ على أقصر السبل، وأقربها، وأقلها جهدا، وهي الاتهام من غير دليل، فإن «نظرية التعامي عن المؤامرة» ربما أُفرِط فيها أيضا، حتى تصرف عن أجلى الحقائق، وأقطعها برهانا، وأقواها حجة، وهي نظرية أخرى شائعة في العالم، مع «نظرية المؤامرة»[2]. وما يعطي الشيءَ قيمته العلمية هو العلم به، وصحة تفسيره، وكفاية دليله، وحسن الربط بين الحوادث، وتبيُّن ما بينها من العلائق، من غير تكلف ولا تعسف. والحديث عن الحكومات الخفية وجه من وجوه تفسير الحوادث التي تَخفى غاياتها، أو علاقاتها بفاعليها، والتفسير اجتهاد يصح ويخطئ، وخطؤه -إن أخطأ- لا يسلبه العلمية، ما صحت المقدمات (المعلومات)، ومنهج التحليل. وصحة الحادثة لا تتوقف على صحة تفسيرها، بل هي مستقلة عنها استقلال الوقائع عن النظريات التي تفسرها. وما نحن فيه ليس من قبيل النظريات، وإنما هو من قبيل الحوادث التاريخية، وأكثر ما يهم المؤرخَ إثباتُ صحة الحادثة، فإن صحَّ تفسيرها، كان عونا على فهمها، وفهْم نظائرها، والقياس عليها، وتوقُّعِ أمثالها، وإلا يصحَّ، فثبوت الحادثة وحده يكفي. وما عُرِض هاهنا من الحوادث ليس محل خلاف، أما تفسيره، فقد حرصت على أن أجعله مسلمات كالحوادث، بما أقمت عليه من الأدلة النقلية

(١) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢١٠.
(٢) الهويات والتعددية اللغوية، ٣١٨.

الموثقة؛ لأن الأدلة النقلية تغلق باب الاجتهاد في التفسير، وما قد يصاحبه من مؤثرات غير علمية، قد تجور به عما ينبغي أن يكون وجهَه. ومن تَرَكَ التعامي عن الحقيقة، ورأى الواقع بالعين التي ينبغي أن يرى بها، ولم يتصنَّع علمية زائفة، كتلك التي يتصنعها بعض «عملاء الحضارة»، سلَّم بالحكومات الخفية في الدول المستضعفة في العالم كله، ومنها الدول العربية، وأيقن أن العربية تُكاد، وأن بعض ما تكاد به في الداخل من تخطيط الخارج؛ لأن الحال التي هي عليها غير معتادة، ولا يمكن أن تكون تلقائية، لا دخْل لأحد فيها، وليست بأكثر من أثر من آثار عدم وعي العرب، وقلة نضجهم، فقط. وليس هذا شأنَ العربية وحدها، بل هو شأن كل أمر من أمور المستضعفين، ذي علاقة بمنافع الدول العالية في الأرض، وإن تفاوتت الأمور في ذلك، على حسب أهميتها، وتأثيرها في تلك المنافع.

ونعني بالحكومة الخفية أمةً من الشعب، تسوسه بما يخالف مصلحته، وتتوخى في ذلك منافع دول أخرى، تستمد منها سلطانها، لعلاقة بينها غيرِ معلنة. وصاحب السلطان الحقيقي في هذه الحكومة قد يكون امرأ غير الذي يحكم في الظاهر، وقد يكون هو الذي يحكم، لكنَّ لأعماله أغراضا غير التي يُعلِن. ومن الكثير أن تكون هذه الحكومة صنيعة دولة أجنبية، كانت تستعمر البلد، هي التي مكَّنت لها، وهي التي تدفع عنها، وتضمن لها البقاء في الحكم ما رضيت عنها، ووثِقت بقيامها في منافعها. ولا نعدُّ من أعمال الحكومات الخفية أن يجتهد المرء في العمل، يعمله عن اقتناع بصحته ونفعه، على ما قد يكون فيه من خطأ غير متعمد، يضرُّ بالبلد، وإن وافق منفعة دولة أجنبية، ليست بينه وبينها علاقة، تحمله على إتيان ما أتى، ولا ما وافقت صورتُه صورة أعمال الحكومات الخفية، من غير أن يكون لفاعله ارتباط بدولة أجنبية، كما يعارِضُ بعض أساتيذ التعليم العالي في الجامعات العربية التدريس بالعربية، ويصرون على أن يكون باللغة الأجنبية، لأسباب قدَّمنا بعضها، ويعارضون الترجمة بحُجة أنّها مجرَّدُ نقْلٍ خالٍ من الإبداع[1]. فهؤلاء إنما يقولون ذلك اجتهادا، أو تسويغا لكسل أو عجز عن التعريب، على ما ثبت من عدم جدوى التعليم

---

(١) تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي.

باللغة الأجنبية، وما ترتب عليه من أضرار، لا خفاء بها، وعلى علمهم بأنهم لا يعرفون من اللغة الأجنبية ما يؤهلهم للتعليم بها. ومما يحتمل الأمرين -إلا أن أحدهما أرجح من الآخر- معارضة التعريب من قِبَل إدارات بعض الجامعات، ومحاصرته، وعرقلة جهود الأساتيذ الساعين فيه، لصدهم عنه، وإلغاء ما أُقرَّ من برامجه، والعدول عنها بعد ما صُرِف على ترجمة الكتب المقررة وإعدادها من مال، على ما قد بان من نجاحه، وحسن أثره في الطلاب[1]. فهذا ونحوه مما يصعب حمله على إرادة خير الطلاب؛ لما فيه من ردِّهم إلى ما كانوا قد تجاوزوه، ولا سيما أنه صادر من أساتيذ جامعيين، لا تقل رتبة أحدهم العلمية عن أستاذ مشارك، فالأصل أن يكونوا من العلم والوعي، والحرص على المصلحة العامة، والبصر بها، بما يجعلهم لا يقدمون على أمر إلا وهم عارفون بما يترتب عليه، ومنهم -إلى ذلك- من هو رئيس جامعة، أو عميد كلية، فيها أقسام علمية كثيرة، عامرة بمن لا ينبغي أن يُستبدَّ دونهم بشأن علمي بحت كما يُستبدَّ بالشؤون الإدارية، ولا سيما رؤساء الأقسام؛ فإنهم أبصر بحال الطلاب، وأقرب إليهم من العمداء ورؤساء الجامعات، وأعرف بآراء الأساتيذ. على أن هذا ونحوه ربما كان اجتهادا من امرئ يعوزه النضج، وَوَقرَ في عقله ما وقر في عقول كثير من الناس: أن التدريس باللغة الأجنبية خير للطلاب من التدريس بالعربية، لأسباب، كثر ترددها حتى جازت على غير أولي النظر، وليس حتما أن يكون مدفوعا بدافع آخر، ولا متعمِّدًا لما يترتب عليه من ضرر، ولا بإيعاز من دوائر، من سياستها أن تحول دون التمكين للعربية؛ فإن التأثر بالأقوى لا يستند حتما إلى «نظرية المؤامرة»، ولكنه قيم وأعمال متكاملة، تستطيع فرْض قوتها، وصنع وسائل لقبولها، وتصيير الأفكار التي تنطوي عليها قوة مادية محسوسة[2]، والطريقة المثلى لجعل الناس يفعلون ما تريد أن تجعله مرادَهم؛ لأنهم يرون أنه خير لهم، وتُظهر المنفِّق في صورة المساعد، بدلا من أن يَظْهر في صورة من يساوم المغلوب[3]. وبهذه الأساليب ونحوها قد يُخدَع من توكل إليهم أعمال

---

(١) تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي، وتجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، ١٩٨ (هامش).
(٢) الهيمنة اللغوية، ١١١.
(٣) السابق، ٤١٣.

قيادية في بلادهم، فيوجبون اللغات الأجنبية فيما يتولون، ويخيل إليهم أن ما يفعلون خير للوطن، وأن اللغات الوطنية مضرة بالتعليم. هذا إلى أن العميد، ومدير الجامعة ربما سيقا إلى العمل من حيث لا يشعران بأنهما مسوقان، فضلا عن أن يعرفا من يسوقهما، وبعض أساتيذ الجامعات العربية دون ما يُظَنُّ بهم من الوعي. أما الذي لا نتردد في نسبته إلى الحكومات الخفية، فثلاثة:

١- ما صدر ممن ثبت أنهم صنائع لدول أجنبية.

٢- ما ثبت خطؤه وضرره، وتبين أمره، حتى لا خفاء به، ولا وجهَ للتمادي فيه، والإصرار عليه.

٣- التصرف سرًّا في القرارات والمعاملات بما يبطلها، أو يعرقلها حتى تُنْسَى.

والحكومات التي نتحدث عنها هاهنا مما يكاد ينعقد عليه إجماع الباحثين، ويقرُّ به السياسيون الذين بلوها من كثب، وقام عليه من الأدلة ما لا يشك فيه إلا من يتصنع ما قد رأينا من العلمية الزائفة، أو يتعمد سترها، لتظل مجهولة، أو مُتَرَدَّدا في أمرها؛ حتى لا تُلْقى بما ينبغي أن تُلْقَى به. وهو أمر، ما ينبغي أن يرتاب في أنه مما تعمل عليه هذه الحكومات؛ لأنه يعينها على تبلُّغ ما تريد؛ فكلُّ كيد كُشِف، بطل أو ضعُف، وكان إبطاله أيسر من إبطال المخبوء الذي يأتي الناسَ من حيث لا يحتسبون. فقد قال عبد الإله بنكيران في لقائه شبابَ حزب العدالة والتنمية، عام ١٤٣٨ هـ إن المغرب موزَّع بين دولتين: دولة رسمية بقيادة الملك محمد السادس، ودولة، لا يُعرَف «من أين تستمد قراراتها وتعييناتها»، والدولة الثانية تستولي على مفاصل الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، بمعزل عن القانون، وتوجِّه قراراتها بنفسها، أو بطريق عشرات المؤسسات والإدارات، ولا سبيل للحكومة عليها، ولا إلى مراقبتها، أو منْعها، فهي كالعفاريت، والتماسيح، تحول دون صدور القرارات، إذا أُريدَ إصدارها، وتغيِّرها، أو تحول دون إمضائها، إذا صدرت[1]، وقال غيره إنها تصنع الخرائط الانتخابية: تقدِّم فيها وتؤخر، وتهادن، وتقصي[2]. وقال (في أول إبريل عام

---

(١) حزب العدالة والتنمية المغربي وفرضية التحكم.

(٢) الموضع السابق.

٢٠١٩)، بعد إعفائه من تأليف الحكومة بعامين، تعليقا على مناقشة قانون التعليم بالفرنسية في مجلس النواب المغربي والتوجه إلى إقراره، إن القانون -في صيغته الأولى- أنجز على عهده، وقدمته حكومته إلى المجلس الأعلى للتعليم بطلب منه لمراجعته وإبداء الرأي فيه، وكان من المقرر أن يُمضَى، غير أن الانتخاب لما اقترب، اقترحت الدوائر التي تشرف على الموضوع تأجيل المصادقة عليه إلى ما بعده، فاستغرَب اقتراحها يومئذ، وعدَّه غير معقول، وزاده استغرابا أن حكومته بذلت في إنجاز القانون جهدا، لا يمكن تخيله. ثم أعيد في صيغته الأولية إلى المجلس الأعلى للتعليم بعد إعفاء عبد الإله من تأليف الحكومة الثانية في مارس ٢٠١٧، فنوقش، واتُّفِق على أن تكون العربية هي لغة التدريس، غير أنه وجد بعد ذلك أن الذي وصل إلى الحكومة ومجلس النواب صيغة أخرى، غير التي اتُّفِق عليها[١]. فهي حكومة، سلطانها فوق سلطان رئيس الحكومة، بل فوق سلطان الملك؛ لذلك شبهها بالعفاريت؛ لأن العفاريت لا يد لأحد بما تفعل، وليس في وسعه أن يمنعها؛ لأنها كما قال الله -تعالى- في إبليس: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم). ويرى محمد عابد الجابري أن محمدا السادس لمح إليها في خطابه بالدار البيضاء، وسماها «المعوقات البنوية»[٢]، ولَمَّح إليها عبد الإله بلقزيز، في قوله: كوَّنت فرنسة نخبة جديدة من الإداريين والعسكريين والاقتصاديين والسياسيين، وأشركتها في إدارة البلاد، في إبان الاحتلال، ونشرت المدارس الفرنسية، وألحقت بها أبناء الأعيان والأغنياء، ومكنتهم من متابعة تعلمهم في المعاهد والجامعات الفرنسية، ثم سلمتهم أكثر الوظائف أهمية بعد تخرجهم، فلما غادرت البلاد تركت وراءها «بنية تحتية» ثقافية لغوية (فرنسية) قوية للتثمير في عقود، ونخبا سياسية وثقافية، تناصرها[٣]. وهو مطابق لما قال جلبير غرنغيوم: كان الفرنسيون قد هيؤوا نخبة للدفاع عن منافعهم بالمغرب، ومنها اللغة والثقافة الفرنكفونية[٤]، وقوله: الفئة المتحكمة في جهاز الدولة فئة متفرنسة في أغلبيتها، وجعلت معرفة الفرنسية سِمَة أساسية

(١) بن كيران للعثماني: سقوط حكومتك أحسن لك من عار فرنسة التعليم.
(٢) البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٥.
(٣) الفرنكفونية، أيديولوجية، سياسات، تحد لغوي ثقافي، ٢٦ وما بعدها.
(٤) اللغة والسلطة والمجتمع، ٢٠.

للتميز المترف والانتماء إلى هذه الشريحة، وهي تعتمد على الفرنسية في سلطتها وإعادة إنتاجها[١]. وقال المهدي بن بركة: ما يزال الاستعمار يحاربنا من وراء الستار، ويأتمر باستقلالنا بصور وأساليب مخالفة لتلك التي كان يستعملها في عهد الحماية، ولكنها مع ذلك موافقة لها في الروح والغاية، إن له اليوم وسائله وأساليبه التي يستعملها لمحاربتنا، وعوقنا عن السير. إن الاستعمار لم يستسلم، ولم يُلْق أسلحته كلها، ونحن اليوم في وسط لهيب الحرب النفسية التي يشنها علينا، ولا يحسُّ بها أكثرنا[٢].

وتشهد لصحة ما قال عبد الإله بن كيران -مع أنه ليس في حاجة إلى شهادة- سياسة المغرب اللغوية، فإن آثار الحكومة الخفية تتجلى فيها أكثر مما تتجلى في غيرها من شؤون الدولة، من ذلك -مثلا- أن مقترَح قانون تعريب الإدارة والحياة العامة الذي تقدَّم به الفريق الاستقلالي للوحدة والتعادلية إلى لجنة العدل والتشريع وحقوق الإنسان بمجلس النواب المغربي ظل مدة يراوح مكانه، ويُستبعَد في كل دورة تشريعية، وتُعَطَّل المراسيم الوزارية الصادرة عن رؤساء الحكومات باستعمال العربية في التواصل داخل الوزارات، والإدارات، والمؤسسات العامة، والمراسيم التي توجب على الإدارات والمؤسسات العامة والجماعات المحلية استعمال العربية وحدها في التعامل داخلها، وفي معاملة المواطنين. وهذا يعني وجود مجهولين، بيدهم تعطيل القرارات وإمضاؤها، ولهم سلطان فوق سلطان الحكومات[٣]. وقد سمى أحد الباحثين هؤلاء المجهولين تحديا من أخطر التحديات التي تحول دون تعريب الإدارة، وسمى عملهم «المؤامرة الصامتة» على العربية، لمزاحمتها وإقصائها، وقال إن عملهم يجري على قدم وساق، وهو واضح وضوح الشمس، ولهم أيدٍ، تمنع صدور بعض المراسيم، وتحول دون إمضائها، إذا صدرت، وهم الذين يحولون دون إنشاء أكاديمية محمد السادس للغة العربية منذ صدور مرسوم ملكي بإنشائها[٤]، على حين أُنشئ المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وقطع

---

(١) اللغة والسلطة والمجتمع، ٦١.

(٢) في غمار السياسة، ٢/ ١٢٩.

(٣) النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب، ٥.

(٤) نظرية لتعريب الإدارة المغربية في عصر العولمة.

أشواطا كبيرة في عمله، كتقنين الأمازيغية المتخيلة، وإخراج معجمات لها، بميزانية كلفت الدولة مليارات الدولارات، مع أن قرار إنشائهما يستند إلى وثيقة واحدة، هي الميثاق الوطني للتربية[1]. وسماهم رئيس الوزراء السابق، عباس الفاسي «صعوبات قوية وعتية»، تحول دون التعريب، وسماهم عبد الإله بن كيران أعداء العربية الشرسين، وسماهم الصحفي المغربي، رشيد نيني «وُلَيْدات فرنسة»، وقال إن في المغرب هجمة شرسة وحاقدة ومدمرة على لغة القرآن، يشنها متنكرون في ثياب المدافعين عن جعل الأمازيغية لغةً رسمية مكان العربية، وإحلال العامية محل العربية في التعليم الأساسي[2]. وقال المرحوم الدكتور مصطفى بن يخلف، مدير المعهد الوطني للإحصاء والاقتصاد التطبيقي السابق، إن تجربة التعريب في المعهد لما نجحت، خاف أعداء التعريب على هيمنة الفرنسية في التعليم العالي بالمغرب، فشنُّوا عليه هو وأصحابه من المعرِّبين في المعهد حربا ملأى بالدسائس، حتى قضوا على الشعبة المعرَّبة بعد أن تخرج فيها نحو مائتي مهندس، كانوا قادرين على كتابة تقارير تقنية بالعربية، وأفادت منهم الإدارة المغربية، وكانت جودتهم لا تقلُّ عن جودة المهندسين الذين درسوا في فرنسة وكندة، مع أن المعهد ما كلَّف الدولة شيئا[3]. ووقع مثل ذلك للدكتور أحمد ذياب في تونس، لما عرَّب التشريح لطلاب السنة الأولى بجامعة صفاقس، فقد قوبل بصخب المعارضين، واتُّهم بتهم شتى؛ فغادر التدريس بسبب ذلك[4].

ولا يعني اقتصارنا على ما تعمل هذه الحكومات في مجال اللغة أن مهمتها مقصورة على معارضتها، والحؤول بينها وبين أن تتبوأ مكانتها في البلاد العربية، دون سائر شؤون الحياة، فإن الأمر ليس كذلك، وإنما تُعنى هذه الحكومات بكل شأن من شؤون البلد، تتعلق به منفعة من منافع مَنْ صنعها واصطنعها، فهي ترعاها، وتحول دون أن يصدر قرار ينال منها، وتحول دون

---

(١) نظرية لتعريب الإدارة المغربية في عصر العولمة، والتخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، ٢٤٤.

(٢) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.

(٣) أبعاد الدعوة إلى ترسيم الدارجة في المغرب، ٨١، وجدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ٩٧ (الهامش).

(٤) اللغة العربية والتعريب العلمي في تونس، ٨٨.

إمضائه، إذا صدر. ومن أمثلة ذلك رعاية هذه الحكومة منافع فرنسة الاقتصادية في المغرب، وجدُّها في تعطيل ما قررت الحكومة المغربية في بداية الاستقلال من فصل العملة المغربية عن الفرنك الفرنسي، وما دار حوله من معارك حامية الوطيس، انكشف فيها كثير من النيات والأشخاص وارتباطهم بالخارج. فقد قامت الحكومة الخفية بحملة تخويف، تدعي أن اقتصاد المغرب سينهار، إذا فُصِلت العملة المغربية عن الفرنك. وما زالت منذ الاستقلال إلى اليوم تخوِّف تعريبَ العلوم، وتنذر سوء العواقب، إذا تم[1].

وفي يونيو من عام ١٩٧٦، قرر مجلس قيادة الثورة العراقي تعريب التعليم الجامعي والعالي تعريباً كاملاً، ثم أُجِّل تنفيذ القرار في كليات الدراسات الطبية إلى عام ١٩٨٠، وفي عام ١٩٧٧ صدر قانون الحفاظ على سلامة العربية ذو الرقم ٦٤، وصدر على إثره قرار تعريب تدريس العلوم والعلوم التطبيقية، في الجامعات العراقية كلها، على أن يبدأ في السنة الأولى من العام الدراسي ٧٧/ ١٩٧٨ ويُتدرَّج فيه سنة بعد سنة حتى يتم عام ١٩٨٢. ثم صدر قرار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في ٢٥/ ١١/ ١٩٧٩، بوجوب تنفيذ التعريب في الصفوف الأولى من كليات الطب وطب الأسنان، من سبتمبر عام ١٩٨٠، على ألا يؤجل بحال، وكان ذلك على إثر صدور أمر من حكومة الثورة العراقية عام ١٩٧٩ بتعريب الطب، فأُلّفت لمتابعته لجنة مركزية، عقدت عدة اجتماعات، لدراسة المشروع، وأُلِّفت لجان لإعداد الكتب المقررة للصفوف الثلاثة الأولى من كليات الطب، فأنجزت طائفة منها في الطب، وأخرى في طب الأسنان، وطُبعت آلاف من هذه وتلك، ثم أجِّل التعريب، ولم يوقف للأمر الذي صدر فيه على أثر، ووُضِعت الكتب في المخازن، ولم تدرَّس، ثم فترت الحماسة للتعريب، ثم تلاشى، وظلَّ التعليم بالإنجليزية إلا مقررات يسيرة، كالطب الشرعي، والصحة النفسية[2]. ولو لم يكن في العراق مَن مَهمته تعطيل أمر الحكومة، لنُفِّذ، أو سعى من وُكِلَ إليه تنفيذه في تنفيذه، ثم كَتب تقريرا عما أُنْجزَ منه، وما عاق عن إنجاز ما لم ينجز، ليَرْجِعَ عن الأمر من أصدره، أو

(١) البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٥٣.

(٢) التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب، ٧٨.

يلتمس له وسيلة أخرى يمضيه بها، أما ألا يكون شيء من ذلك، ويكون الأمر كمعاملة صدرت من إدارة، ثم اختُطِفت في الطريق، فلم يوقف لها على أثر، فسَكت من وُجِّهت إليه، وسكت من وجَّهها، فأمر لا يصحُّ حمله على الاتفاق. كذلك كان يظنُّ العارفون بالقضية، بل يجزمون، كما قال الدكتور أحمد مطلوب إن «بعض الفئات ما تزال تتربص بهذه الخطوة المباركة (قانون الحفاظ على سلامة العربية، الصادر عن مجلس قيادة الثورة العراقية عام ١٩٧٧)، وتتحين الفرص للانقضاض على ما تَمَّ في الأعوام الخمسة الماضية»[١]. وإذا صح وجود هذه «الفئات»، وصح أن «الانقضاض» على ما تم من أمر التعريب مما تسعى فيه، صح أن يقال إنها هي التي عطلت الأمر بتعريب الطب.

وقدَّم مجمع اللغة العربية الأردني مشروع قانون اللغة العربية إلى رئيس الوزراء في ٨/ ٧/ ١٩٩٠ من أجل إمضائه، فلم يوافِق عليه رئيس الوزراء ويؤلف لجنة لصياغته إلا في ٢١/ ٣/ ٢٠٠٧، أي بعد سبعة عشر عاما، ثم أحاله على ديوان التشريع، فظل في أدراجه زمنا، ولم يمضه الملك إلا عام ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥، أي بعد ثمانية أعوام. فمجملِ المدة التي استغرقها إصدار القانون ربع قرن. وذكر الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس المجمع السابق أن المجمع رفع مشروع القانون إلى وزير التربية والتعليم، ورفعه وزير التربية والتعليم إلى رئيس الوزراء في ٢٣/ ٧/ ١٤٠١ هـ[٢]. أي إنه استغرق نحوا من ستة وثلاثين عاما. ولا يكون هذا إلا من عرقلة متعمدة، بحبسه في بعض الإدارات؛ حتى يُنْسى، أو ييأس من إمضائه مَن اقترحه. وكذلك ما تفعل إدارة جامعة اليرموك من مَنْع الأساتيذ أن يسألوا مركز الكتب بالجامعة أن يهيئ لهم كتبا بالعربية إلا بإذن من إدارة الجامعة، ومحاسبة من خالف أمرها، فإن مما يرجح أنه كان بإيعاز من الحكومة الخفية أنه مخالف لما تنصُّ عليه قوانين الجامعة، من كون العربية هي لغة التدريس، ولا يجوز العدول عنها إلى لغة أجنبية إلا في حالات، يحددها مجلس الجامعة، وأن ضرر التعليم باللغة الأجنبية قد ثبت، وثبت نفع التعليم بالعربية.

---

(١) حركة التعريب في العراق، ٢٣٥.

(٢) انظر: مشروع قانون اللغة العربية، ٣٤٥، والبرنامج التنفيذي وآليات العمل لقانون اللغة العربية، ١١٧، واللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، ١٣٢.

وكانت سورية في العقود الأولى من استقلالها عن فرنسة عام ١٩٤٦ شبيهة بالمغرب العربي في انكشاف أمر حكوماتها السرية، وعلاقتها بفرنسة، فإن الفرنسيين لم يرحلوا عنها إلا بعد أن جعلوا بيد خلاياهم الباقية كثيرا من تصريف أمور الدولة، وكانت تتخلل الحكمَ بعد جلائها انقلابات، يعود فيها السلطان المعنوي إليها، فكانت تشير بطريق سفاراتها ومؤسساتها من وراء حجاب بأسماء الوزراء، والأمناء، ورؤساء المصالح، حتى أيقن العارفون أنهم لم يفقدوا من الاحتلال إلا شخصه[1]. وكان رجالها في التعليم يجدُّون في التشكيك في الإسلام، والعربية، والتاريخ، والاستهانة بهن جميعا[2]، ويشلون من كل مرفق من مرافق الدولة يكونون فيه ما توحي إليهم أن يشلوه، ويبعدون عنه الصالحين، ما استطاعوا. وغفل المسؤولون عن إزالتهم من مناصبهم بعد رحيل فرنسة، فأبقوهم فيما كانوا يتولون من أعمال، فكانوا يُخفون في أنفسهم ما لا يبدون للناس، فكانت أقوالهم أقوال الوطنيين، وأعمالهم فرنسيةَ الروح، أجنبيةَ الغرض، عدوًّا لكل مخلص، صديقا لكل مفسد، وهم يعملون في البلد كأن الفرنسيين فوق رؤوسهم، يراقبونهم. وكان بعضهم من موظفي المخابرات الفرنسية السوريين، وقد تولوا المناصب العليا في الدولة بعد سنين غير طويلة من الاستقلال، وكانوا يسترون ذلك بالتشدق بالقومية، والعروبة، وخدمة المجتمع![3].

وليس اعتمادنا -إذ نعرض لهذه القضية- الحديثَ عن مكايد السياسة، ولا الكشف عنها، وإن كانت قضيتنا جزءا منها، وإنما أردنا لنُبْطِل ما يسوَّغ به الإصرار على معارضة التعريب، والتمادي في التعليم باللغات الأجنبية، ونبيِّنَ أنها قضية سياسية، لا علاقة لها بحقيقة العربية، ولا بقدرتها على استيعاب العلوم، وأنَّ ما يُلتمَس لها من حجج ليس فيه ما يقتنع به ملتمسوه، ولا مردِّدوه، ولا المصرُّون عليه؛ فيُقنِعوا به، وإن كثر ترداده، وطال حتى جاز على من لا يعرف جليَّة أمره، كما قال المرحوم الدكتور المهدي المنجرة: لا أقبل من أحد

(١) من حاضر اللغة العربية، ٩٧.

(٢) السابق، ٨.

(٣) السابق، ٥٨ وما بعدها (الهامش).

أن يقول إنها قضية تربوية، وإن التعريب صعب، وصعْبٌ أن نعلِّم الكيمياء وعلم الأحياء بالعربية، فإن التجارب في العالم بأسره، برهنت على أنه لا تقدُّم من دون تعليم العلوم باللغة الوطنية، ولكن أناسا درسوا في فرنسة، ولهم مناصب، ويستولون على القرار في كل مكان، وحياتهم كلها مبنية على اللغة الأجنبية، ولَمَّا ذهب الاستعمار، استخلفهم على البلاد؛ لينوبوا عنه فيما يريد -يريدون الحفاظ على منافعهم، هذه هي الحقيقة[1]. واستيقان هذا -إذا استيقَنَّاه- جدير بأن يخرجنا من ذلك الجدل العقيم، والتمثيل الطويل، ذي الإخراج الهزيل، لنعترف بأن ما نحن فيه أمرٌ، قرَّرته السياسة، وهي التي تعدل عنه، إن شاءت، أو تتمادى فيه؛ فليس لنا إلا التسليم ريثما تقتنع بأن من الخير أن تعدل عنه، اعترافا منا بالعجز عن تغييره، لا انخداعا به، ولا تصديقا لها فيما تدَّعي، أو نجدَّ في النضال حتى نغيره، لكنْ بأساليبَ غير التي كنا نصطنع، أما أن نبقى على الجدال والدفاع عن العربية وصلاحيتها للعلوم، وإقامة الأدلة على ذلك، وظنِّ أن مخالفَنا إنما يخالفنا جهلا به، فمن التغفيل، وضلال السعي، وإضاعة العمر والجهد فيما لا طائل فيه، وهو مما يَنسأ في عمر المأساة؛ لِمَا يوهم من أن لتلك الدعاوي وجها، يُعذَر به من ينتحلها.

إن من قرأ تاريخ التعريب في الوطن العربي لم يخالجه الشك في أن العربية تُكاد، ويُصَرُّ على إخراجها من حياة العرب، وإحلال الفرنسية والإنجليزية محلها. وهذا الكيد تتواطأ عليه الدول المستعمرة وصنائعها، من الساسة، والمثقفين، ومن هذا التواطؤ والتبعية يستمد الصنائع سلطانهم السياسي والثقافي، ومكانتهم في الدولة. والتبعية إما تبعية فكرية، تجعل وجهة الصنيعة موافقةً وجهةَ المستعمر، وإما تبعية نفعية، تجعل التابع يساير السياسة الأجنبية رجاء خيرها، أو اتقاء شرها. ويرهن الصنيعة في الحالين بلاده لسياسة خارجية، لا تريد إلا منافعها، ولا تعتدُّ بمصالح الغير. ومن علم أن الدول القوية في العالم تنظر إلى لغات غيرها وثقافاتهم وهوياتهم نظرة نفعية، وترى أن إضعافها، والقضاء عليها وسيلة لكسر لحام أهلها، واستتباعهم، وأن ذلك وسيلة إلى ضمان منافعها، والتمكين لها من غير عناء، واتخاذ البلاد ضيعة، تجني ما تُغِل،

---

(١) انظر: النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب، ٤، والفرنكفونية أو الاستعمار الجديد، ٥٨.

وسوقا تبيع فيها ما تنتج، واتخاذ شعبها عمالا رخاص الأجور، وجنودا، تقاتل بهم أعداءها، وتحتلُّ بلاد من تستضعف، وهي -إلى ذلك- لا تناكفها، ولا تنافسها، وليست لها سياسة دونها، فليس من الممكن أن تخشاها على شيء -عِلمَ أنْ ليس في العالم دولة إلا ويمكن أن تتدخل فيها هذه الدول، كما قال كاسبر واين برجر، وزير خارجية أمريكة الأسبق: ليس في الأرض مكان قصيٌّ عند أمريكية، ولا أمة ليست مُهمَّة لمنافعها[1]، وعلم أن اللغة والهوية لا يمكن أن تكونا بمعزل عن تدخلها. هذا إلى أن طمس الهوية، وإحلال لغة المستعمر محل اللغة الوطنية وسيلة من وسائل الاستتباع الاقتصادي، يوليها الاستعمار عناية كبيرة.

وقد أورثت عداوة الغرب التاريخية للعالم الإسلامي عداوةً حضارية، من مقتضياتها أن يشن عليه الحرب أبدا، ويخشاه على نفسه ومنافعه كما يخشى العدو عدوه أن يقوى ويتمكن؛ فينتقم منه، ويزيده الجهاد في الإسلام خوفا منه؛ فهو يظن أن كل قوة للمسلمين سيترتب عليها أن يغزوا الغرب ويحتلوه كما غزوا إسبانية، وأوربة الشرقية، وحاصروا فينة. وهذا سبب إجماعه على حرب الاتجاهات الإسلامية، وتأييده الاتجاهات «الليبرالية» في الوطن العربي، لضعف علاقتها بأصولها الحضارية، وحرصها على مماثلة الغرب، وربط أسبابها بأسبابه، وعدم شعورها بأن لها هوية دونه، يمكن أن تكون سببا للتباين، أو تناقُض المنافع. وقد اقتضى هذا أن تكون في السياسة الغربية خطط ثابتة، تحول بين العالم الإسلامي والاستقلال والنهوض. وهي بديهيات، أحسب أني في غنى عن إيراد شواهد على صحتها. وتنال العربية من ذلك بقدر مكانتها من الحضارة الإسلامية، وبقدر ما يُخْشى من أثرها في قوة العالم الإسلامي ونهضته، فمن المعلوم أن ليس في العالم الإسلامي لغة، اجتمع عليها المسلمون، أو يمكن أن يجتمعوا عليها سوى العربية؛ لأنها لسان دينهم وكتابهم، ووعاء تراثهم، فليس فيهم أحد إلا وهو يحبها، ويحرص على تعلمها، ويقدسها أو يكاد يقدسها؛ لأن كثيرا من شعائر دينه لا يؤدَّى إلا بها. وقد بلا الاستعمار الغربي، ولا سيما فرنسة، ما كان للعربية من أثر في جمع الكلمة، وصيانة الهوية، وتأبِّ

---

(١) صحيفة الجارديان البريطانية، ٢٠ مايو ١٩٨٤ (نقلا عن الهيمنة اللغوية، ١٥).

على الاستعمار. هذا إلى أن إخراج العربية من حياة المسلمين أكبر وسيلة إلى تجهيلهم بالإسلام، وجهلهم به أكبر عون عليهم؛ لأنه ينزع عداوة الغرب من الصدور، ويجردهم مما يخشى على نفسه من عقائدهم. وهذا من أسباب حرصه على إخراجها من حياة المسلمين قاطبة، ومحاربة الحرف العربي، وإخراجه من أكثر الدول الإسلامية التي كانت تصطنعه في آسية وإفريقية وشرقي أوربة، حتى لم يبق له وجود إلا في لغاتٍ قليلة، كالفارسية، والأردو، والبشتو، والكردية. وهو من أسباب أن لغات إسلامية، كالفارسية، والتركية، والملاوية، لم تنل من كيد الاستعمار وحربه ما تنال العربية؛ لأنها لغات إقليمية، لا تتجاوز أهلها، ولا تجمع غير من يتكلمون بها.

(٢)

وأصرح ما تكون الحكومات الخفية وأعمالها وحربها على العربية، وعلاقتها بالاستعمار، في المغرب العربي، ولا سيما الجزائر، والمغرب الأقصى، وأخفى ما تكون في المشرق العربي؛ فقد أتيح لها من التمكن في المغرب العربي، وعُرِف -من أجل ذلك- من تاريخها وعلاقاتها بفرنسة ما لم يُعرَف من تاريخ نظيراتها في المشرق وعلاقاتها بالدول الأجنبية. هذا إلى أنها تعلن آراءها وعقيدتها الثقافية من غير جمجمة، وتنفذها من غير وجل؛ لتمكُّنها، وأن ليست لها معارضة، تخشاها على سلطان أو منفعة، وهي تأوي من فرنسة الممسكة بزمام الأمور في المغرب العربي إلى ركن شديد، ومعلوم ما تتسم به سياسة فرنسة اللغوية والثقافية من غلو، وحرب على ثقافات من تستعمر من الشعوب ولغاتها، ولا سيما العرب والعربية، والإصرار على استبدال لغتها بها، جالبا ما جلب ذلك على البلاد المستعمَرة، للأسباب التي يحرص من أجلها الاستعمار على نشر لغته، واستبدالها بلغات من يستعمر، ولسبب آخر، ربما يخص فرنسة دون سائر الدول المستعمِرة، هو أنها تتوسل بنشر الفرنسية في مستعمراتها إلى وقايتها الموتَ؛ فإن الباحثين من الفرنسيين وغيرهم يذهبون إلى أنها صائرة إليه في عقود، ونشْرها في المستعمرات يعيطها حياة خارج فرنسة، تحول بينها وبين أن تصير لغة إقليمية، لا تتجاوز فرنسة. هذا إلى ما صرح به ساستها من

أنهم يريدون استلحاق المغرب العربي بالفرنسية، لكنهم يتخذون لكل دولة ما يلائمها، من التدخل السافر، أو من وراء حجاب، فسياستها في الجزائر أصرح منها في تونس والمغرب، فهي تعارض تعريبها علانية، وتذم ما يُنجَز منه، وتعده من التطهير اللغوي، ويمكن أن يدفع النخب الجزائرية إما إلى الهجرة، وإما إلى البؤس. وتزعم أن سبب حرص الجزائريين على التعريب كرههم فرنسة، وهي تعطيهم عشرات المليارات كل عام، وتستقبل منهم الملايين[1]. وتنظِّم التظاهرات في باريس لتندِّد بما يصدر من قرارات التعريب في الجزائر، وتهدد وتتوعد على ألسنة كبار ساستها، وتستصدر من الاتحاد الأوربي من البيانات ما يشد أزرها، وينصر سياستها. هذا إلى ما يسمى في الجزائر «حزب فرنسة»، وهو تيار كبير وقوي جدا، وممتاز في تفكيره، ومعيشته، ومستميت في الحرب الضروس التي تشنها على التعريب، وهو يمسك بزمام الدولة، وله قادته ومنظروه، ويعمل على الإبقاء على تبعية الجزائر لفرنسة في كل شيء، ويرى أن التعريب يهدد وجوده[2]. ومن اطلع على الحملات التي شنها الإعلام الفرنسي على مصادقة مجلس النواب الجزائري على قانون استعمال العربية عام ١٩٩٢، وما أدلى به الفرنسيون من تصريحات، استيقن أن الجزائر ما استقلت، وإنما هي مستعمرة فرنسية حقيقةً لا مجازا، ولكنها بيد حكومة خفية، تسيِّرها على وفق خطة، وضعتها فرنسة، أما غير هذه الحكومة، فأشخاص يُخدَع بهم الشعب، على ما تقتضي السياسة من تهدئة الخواطر، وعدم استثارة المشاعر، ونكء الجروح، كما يدل على أن فرنسة ما زالت -كما كانت- تعدُّ الجزائر جزءا لا يتجزأ منها، وليس السماح باستقلالها مما تفكر فيه، وكل ما فعلت، إذ خرجت منها جيوشها، أنها غيرت خطتها، فوضعت حكمها في أيدي حزبها في الجزائر، تجنبا للإحراج الدولي، وتخلصا من تكاليف الحرب المادية والبشرية، ولكنها مازالت تستعمرها استعمارا حقيقيا. وقبل صدور القانون المذكور حثَّ وزير الفرانكفونية الفرنسي، ألان دوكو يوم الخميس ٢٧ ديسمبر ١٩٨٩ الجزائريين على إسماع الحكومة صوتهم؛ لئلا يُحرَموا ثروة الفرنسية، إذا أُمضِيَ قانون

---

(١) اللغة العربية: واقع وآفاق، ٨١.

(٢) انظر: قضية التعريب في الجزائر، ٤٩، وعبد الحميد الإبراهيمي: لجأت إلى لندن لأن حزب فرنسة حاول تصفيتي

استعمال العربية، كما أراد نواب الشعب الجزائري، وقال: إن للجزائريين لغتين: العربية والفرنسية، فالأمر يعود إليهم، في مطالبة الحكومة بالاحتفاظ بالفرنسية[1]. وقال جاك روزو، ناطق فرنسة الرسمي: إننا لجدُّ ساخطين على هذه الإجراءات التي هي سباق بين الإسلاميين من جبهة الإنقاذ الإسلامية وجبهة التحرير الوطني الحاكمة، إن فرنسة والفرنسيين هم الذين يقدِّمون مرة أخرى كبش فداء في هذا الصراع. وإننا لنلحُّ على الحكومة الفرنسية بشدة أن تفعل ما يحمل الحكومة الجزائرية على التفكير مليا فيما فعلت[2]. وقال جورج ماريون، مراسل «لوموند»: إن ضحايا التعريب هم الفرانكفونيون والبرابر (القبائل)، وما أقدمت عليه الجزائر من أمر التعريب منشؤه ضغط الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وإنما التعريب إرهاب ثقافي للمتكلمين بالفرنسية[3]. ومن الطريف أن ألان دوكو قال بعد قوله هذا ببضعة أشهر لنواب الفرنكفونية في اجتماعه بهم (في ٢٧/ ٥/ ١٩٨٩): «إن من ضيَّع لغته ضيع روحه»[4]. ومن قرأ ما قال الفرنسيون بمناسبة إقرار قانون استعمال العربية حسب أن القانون يعنيهم دون الجزائريين، وأنه سينفَّذ في فرنسة، لا في الجزائر، وعلى الفرنسيين لا على شعب حر مستقل، من حقه أن تكون له لغة، وخصوصية، واختيار، ولو كان خطأ، أو مضرًّا به، كما للفرنسيين الحق في ذلك. وهذه الحقيقة هي التي أبان عنها شارل ديغول، إذ قال: لقد كانت الجزائر تنزل من حياتنا القومية منزلا، لا مجال للموازنة بينه وبين سائر البلاد التي كنا نستعمرها: لقد تعززت مكانتنا في إفريقية والبحر المتوسط باحتلالنا الجزائر، فقد أقمنا فيها مركز تسلل إلى المغرب وتونس والصحراء، وجنَّدنا من أبنائها كثيرا من المحاربين الجيدين[5]. وكان شارل ديغول يبني خططه الاستعمارية على أن المغرب العربي جزء من أوربة، فإن رئيس وزراء بريطانية، ونستون شرشل لما سأله في إبان الحرب الثانية: ما البلاد التي تريدها فرنسة مستعمراتٍ لها؟ قال له: جنوبي شرقي آسية،

---

(١) مصير وحدة الجزائر، ٣٦٥.

(٢) السابق، ٣٦٦، واشهدي يا جزائر، ٤١٩.

(٣) مصير وحدة الجزائر، ٣٧٣.

(٤) السابق، ٣٥٥.

(٥) السابق، ٦٠.

وجنوبي أوربة[1]، يعني المغرب العربي، وهو ما اقتنع به الرئيس الأمريكي روزفلت بعد ذلك، فقد قال عام ١٩٤٥، قبل أن تتحرك سفينته من المغرب: هذه الحرب جعلتنا ندرك أن شمالي إفريقية هو الحدود الأمنية للعالم الحر[2]، يعدُّ المغرب العربي حدود الدول الغربية (العالم الحر)، كما يعده شارل ديغول جنوبي أوربة. وما زالت سياسة شارل ديغول في الجزائر هي سياسة كل من تلاه من الرؤساء الفرنسيين، وما يزال الفرنسيون يعدون شمالي إفريقية، من تونس إلى نهر السنغال (حدود موريتانية الجنوبية) مجالهم المهم الذي لا يدَّخرون وسعا للحفاظ عليه، ولو في أسوأ الأحوال؛ لأن خسارته ستغلق آخر فصول الإمبراطورية، وتعيدها إلى مسدسها الداخلي[3]. ولهذا ردد جاك شيراك عام ٢٠٠١ ما يشبه قول شار ديغول: إن الجزائر هي الشريك الأهم، وكذلك تونس والمغرب، لكن للجزائر مكانة من الضمير الجماعي الفرنسي أكبر من ذلك[4]. وكان الكاردينال لافيجري يقول: علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة نصرانية عظيمة، أي فرنسة أخرى، يسودها الإنجيل دينا وعقيدة، فهذه مشيئة الله[5]. وقال توفيق الشاوي -وكان يَدْرُس في فرنسة، قبل استقلال تونس والمغرب والجزائر- تصديقا لذلك: كنت أسمع أن الفرنسيين كانوا يرون أن قضية تونس والمغرب ليستا إلا فرعا لقضية الجزائر؛ فقد احتلوا الجزائر قبل تونس بخمسين عاما، وقبل المغرب بمائة عام. وكان غرضهم، إذ احتلوا تونس والمغرب، الحفاظ على بقائهم في الجزائر، وكان بعض ساستهم يقول: «إن المغرب وتونس ليسا إلا قرطين في أذني الجزائر»[6]. وقال أحد الفرنسيين: إن الحرب الوحيدة التي فيها فائدة، وهي -من أجل ذلك- الحرب المشروعة، هي حربنا في الجزائر[7].

وقد شرعت فرنسة في بناء حكومتها الخفية في الجزائر، وإعداد العدة

(١) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ١٨٢.

(٢) السابق، ١٨١.

(٣) السابق، ١٨٢.

(٤) الرئيس جاك شيراك يقر بتحسن العلاقات بين البلدين ويوضح: على الجزائريين التخلص من عقدة الثورة.

(٥) مصير وحدة الجزائر، ٨٧.

(٦) مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي، ١٠٥

(٧) الجزائر: الأمة والمجتمع، ٣٣٦.

للتمكين لها، وتسليمها مقاليد الحكم منذ أيام الثورة الجزائرية الأولى، فإن شارل ديغول، لما أيقن أن الجزائر مستقلة لا محالة، دعا ضباط فرنسة الجزائريين إلى قصر الإليزيه، في ١٣ من مايو عام ١٩٥٨ م، فأخبرهم بأن فرنسة خارجة من الجزائر، وأن عليهم أن يتهيؤوا هم وأبناؤهم لقيادتها، بالدخول في الثورة، فعاهدوه على ذلك[١]. فاندسوا في الجيش الوطني الشعبي، وتبوءوا المناصب القيادية فيه. وتنبه لذلك المجاهدون الأوفياء، وتصدوا له بما يملكون، لكن الخطة كانت أقوى من وسائل الدفاع[٢]، فسعوا في إفساد ذات بين القادة؛ ليقضوا على الثورة. وأمرَ أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بعد سبعة عشر شهرا من بدء الثورة أن يلتحقوا بمكاتب جبهة التحرير الوطني بالقاهرة وتونس والرباط، وكانت هذه المكاتب فيما بعْد مكاتبَ حكومة الجزائر المؤقتة، فسيطروا على جهازها الخارجي، وقادوا المفاوضات مع فرنسة، ووقَّعوا اتفاق إيفيان بنص واحد بالفرنسية، ثم رجعوا إلى الجزائر بعد مارس عام ١٩٦٢، فأسسوا الدولة المتفرنسة فيها، بعد أن أجهضوا الثورة. وكان الاتحاد يضمُّ الطلبة المتعلمين تعلما فرنسيا، والذين يدرسون في المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية في الجزائر وفرنسة، وكان مقره في باريس، وينتمي أكثره إلى طبقة الموظفين والمستعملين في الإدارة الفرنسية، والأثرياء، فوجدوا أنفسهم بعد عام ١٩٦٢ على الموجة التي وضعهم عليها خريجو مشروع شارل ديغول، فجمَّدوا خريجي الجامعات والمعاهد العربية، وفرضوا عليهم أن يبقوا على هامش الإدارة المفرنَسة، وكذلك فعلوا بخريجي الكليات والأقسام المعربة بالجزائر «المستقلة»، وتربعوا مدة طويلة على مدرسة الإدارة، والوظيفة العامة، وكانت هي «غرفة عمليات» الحرب الصليبية التي تُشَنُّ على العربية[٣]. وكان توقيعهم وثيقة الاستقلال بالفرنسية إيذانا بعدم استقلال الجزائر اللغوي والثقافي عن فرنسة؛ لما يعني من أن الفرنسية، لا العربية، هي لغتها الرسمية، وأن هويتها يمكن التبدل بها. وكان الوفد الجزائري كأنما ينوب

---

(١) ضباط فرنسة في المغرب العربي، ٢٤.

(٢) شاهد على اغتيال الثورة، ١٨٧.

(٣) الجزائر في التاريخ، ٦٩٩، والتعريب في الجزائر، ٤٠ وما بعدها، وخمس عشرة سنة من النضال، ٩٩، ومشكلات التعريب، ٢٨ وما بعدها.

عن دولة ناطقة بالفرنسية، فكان يخاطب الفرنسيين ويكتب وثائقه ومعاهداته بلغتهم، لا بلغته. ولم يُنَصّ في المعلن من بنود المعاهدة على أن العربية ستكون لغة الجزائر، لا في التعليم، ولا في الإدارة، بل ما ذُكرت مرة واحدة إلا ما جاء في المادة الثانية من إعلان المبادئ: أن لكل من البلدين إقامة منشآت تعليمية ومعاهد جامعية في البلد الآخر، وستتضمن المناهج التي تسير عليها هذه المنشآت تعليم العربية في الجزائر، والفرنسية في فرنسة[1]. ولكنها نصت على احترام الفرنسية وتعليمها الفرنسيين الذين كانت فرنسة تتوقع أن يبقوا في الجزائر بعد الاستقلال، ليستعملوها في الشؤون السياسية والإدارية والقضائية والتعليم[2]، وأن النصوص الرسمية التي ستصدرها الحكومة الجزائرية ستنشر أو تبلَّغ بالفرنسية واللغة الوطنية (ولم تسمها)، وأن تُستعمل الفرنسية في المعاملات بين المرافق الجزائرية العامة وبين الجزائريين الخاضعين للقانون المدني العام، وللجزائريين الحق في استعمال الفرنسية، ولا سيما في الشؤون السياسية والإدارية والقضائية، وهو ما يفهم منه الازدواج اللغوي في الإدارة، وأن تكون الفرنسية واللغة الوطنية التي لم تسمها متساويتين. وجعلت للفرنسية في الإذاعة والتلفزة نصيبا، «يلائم مكانتها في الجزائر»[3]. ولعل من آثار هذه المعاهدة نصَّ دستور الجزائر لعام ١٩٦٣ في المادة ٧٦ على جواز استعمال الفرنسية مع العربية. وجاء في الفقرة الأولى: يجب تعميم العربية في أقرب وقت ممكن، في أرض الجمهورية كلها. وهي تقتضي استمرار هيمنة الفرنسية إلى أن يعمم استعمال العربية[4]. ويدل توقيع وزير خارجية الجزائر، محمد الصديق بن يحيى، على اتفاق الجزائر الذي أُطلق به الديبلوماسيون الأمريكيون المحتجزون في طهران عام ١٩٨١ بالفرنسية، على ما يدل عليه توقيع معاهدة إيفيان بها، وكان محمد هذا أحد الذين وقعوا على معاهدة إيفيان أيضا. وكان لاتفاق الجزائر هذا ثلاثة نصوص: نص إنجليزي لأمريكة، ونص فارسي لإيران،

(١) نهاية حرب التحرير في الجزائر: اتفاقيات إيفيان، ١١٦

(٢) تاريخ الجزائر الثقافي، ٩/ ١٠٣.

(٣) نهاية حرب التحرير، ١٠٠، وإشكالية الهوية والحوار مع الآخر في الفضائيات العربية: دراسة حالة Canal Algérie والجزائرية الثالثة، ٤٢٤.

(٤) مكانة اللغة العربية في قانون الإجراءات المدنية الجديد، ٢٠٠٨.

ونص فرنسي للجزائر[1]؛ لأنها -في نظر الموقِّع- هي لغتها الرسمية، وليست لها لغة سواها. وكان كثير مما انتهت إليه الجزائر إلى اليوم في شأن الهوية والعربية بتخطيط من فرنسة، وإمضاءٍ من حكومتها الخفية في الجزائر. وكانت تلك الخطة هي مقتضى عدِّ فرنسة الجزائرَ جزءا لا يتجزأ منها، كما نَصَّ على ذلك الدستور الفرنسي ذات مرة[2]، وردده ساسة فرنسة مرارا، ومقتضى ما كان بعض الفرنسيين يقول، من أنها «هي لحمنا، وعظمنا، ودمنا»[3]، وقول الجنرال كاترو، حاكم الجزائر منذ عام ١٩٤٣: ليست الجزائر مستوطنة فحسب، بل هي أرض فرنسية «بكل ما تحمل الكلمة من معنى السيادة»، إنها جزء من فرنسة في البحر المتوسط، وجزء منها لا يتجزأ[4]، وقولِ شارل ديغول بعد «الاستقلال» إن فرنسة ستعمل ما في وسعها حتى تنتهي الجزائر بالضربة القاضية بعد ثلاثين عاما[5]، وبعد ثلاثين عاما من الاستقلال دخلت في حرب، شنَّها على الشعب «ضباط فرنسة» في الجيش الجزائري، بعد أن ألغوا الانتخاب النيابي عام ١٩٩٢؛ لأن جبهة الإنقاذ الإسلامية فازت فيه، وحملوا الشاذلي بن جديد على الاستقالة، وتولوا الأمر علانية، فكانوا -كما قال محمد بو ضياف عام ١٩٩٢- يسيِّرون الجزائر بأوامر، تأتيهم من قصر الإليزي بالناسوخ[6].

وكان مع هذا الجيش جيش آخر كبير، من الإداريين والخبراء المتخصصين (التكنوقراط)، أعدَّه شارل ديغول طوال حرب التحرير، فتولوا جميعا مقاليد الحكم بعد «الاستقلال»، فكانوا «قوة ثالثة»، تسيطر بها فرنسة على الجزائر، وإطارا، اندمج فيه آلاف الموظفين من غيرهم. وأعدَّ شارل ديغول هذا الفريق بتوسيع مراكز التدريب الإداري للشبان، وتوسيعِ دفعة لاكوست (وهو الوزير الفرنسي المقيم بالجزائر بروموسيون لاكوست، وكان يشرف على إعداد هذا الفريق)، وفتْحِ الجامعة، وآلاف المدارس، فتضاعف التلامذة الجزائريون في

---

(١) اللغة والهوية، ٧.
(٢) مولود قاسم، ١٢٦.
(٣) السابق، ١٢٨.
(٤) الحركة الديغولية في الجزائر، ٥٩.
(٥) الجزائر من أحمد بن بله إلى عبد العزيز بو تفليقة، ٨١.
(٦) السابق، ٦٥.

التعليم الإعدادي والثانوي مرتين، وتضاعف طلاب الجامعة أربع مرات، وكان تعليمهم تعليما فرنسيا، يستعصي معه تعريب الجزائر. وبعد تخرجهم تولَّوا المناصب العليا المهمة، وكان معظمهم من أبناء البيوت المتفرنسة والإقطاعيين الذين كانوا يعينون فرنسة على قتال جيش التحرير، وهم البذور التي لَمَّح شارل ديغول إلى أنه تركها في الجزائر، وستونع بعد حين[1]. وكان شارل ديغول قد أجَّلَ مفاوضة قيادة الثورة الجزائرية، والاتفاق على وقف القتال سنين، ريثما يعد هذه الحكومة ويمكِّن لها في الجزائر قبل إعلان الاستقلال، فلَمَّا أُعْلِن استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ قال قولته الشهيرة: «الجزائر حرة، لكنها جزائر فرنسية». وهذا معنى قول الوزير الفرنسي المكلف شؤون الجزائر: إن شارل ديغول عمل على تأخير التعريب في الجزائر إلى أمد بعيد. وكان من دأب شارل أن يتكيف مع ما يجدُّ -إذا وجد نفسه محاصرا ومهددا- للحفاظ على منافع فرنسة بأقل التكاليف؛ فأقرَّ استبدال الاشتراك بالسيادة، أي الاستعمار العسكري، لَمَّا حُمل على الاعتراف باستقلال بعض مستعمرات فرنسة، فحوَّل الاستعمار من استعمار قديم إلى استعمار جديد، يحفظ لفرنسة منافعها في مستعمراتها بعد خروجها منها[2]. ويعني الاشتراك أن تشارك فرنسة مستعمراتها فيما كانت تستبد به دونها من مواردها، دون تكاليف مالية أو عسكرية أو سياسية، مع بقائها صاحبة القدح المعلى في ذلك الاشتراك. وهذا ما كان منها في بلدان المغرب العربي كلها، فقد رحَّلت جيوشها، وأبقت من صنائعها من يقوم مقامها في القيام على منافعها. وكانت القاعدة التي بنى عليها شارل ديغول سياسته في الإبقاء على الجزائر فرنسيةً: حافظوا على الفرنسية في الجزائر «المستقلة»، تضمنوا بقاءها فرنسية. وكان يرى أنه يمكن حكومةَ الجزائر المستقلة أن تكون لها سياستها الخارجية المستقلة، لكن إذا بقيت الفرنسية مسيطرة على إدارة الجزائر، استمرَّ تجدد انفتاحها على فرنسة، وسيطرةُ البضاعة الفرنسية على سوقها، والفرنسية على ثقافتها وصناعتها؛ فكان ذلك عونا على غرس حبِّ فرنسة وكل ما هو

---

(١) اللغة والسلطة والمجتمع، ٧٣، والمواجهة باللغات، والتعريب في الجزائر، ٣٦ وما بعدها، وغوص في أعماق الصحفي والكاتب المبدع يحيى أبو زكريا، ١٥.

(٢) الحركة الديغولية في الجزائر، ٥١.

فرنسي في أفئدة الأجيال، وبذلك يُحْسَم مصيرها.

ومَن عرف الذين تولوا الإدارة الجزائرية بعد الاستقلال، والمناصب العليا التي تبوءوا، علم مبلغ نجاح خطة شارل ديغول، ومبلغ تحكم فرنسة بهم في الحكومات التي حكمت الجزائر بعد الاستقلال، وعرف بُعْدَ ما بين الجزائر والاستقلال، فقد كانت الحكومة العلنية تسير في أثر الحكومة الخفية راغمة، والحكومة الخفية تنقل الخطو على ما ترسم لها الحكومة الفرنسية. وبلغت هذه الحكومة من التحكم في مفاصل الدولة والسيطرة على كل صغير وكبير منها حدًّا جعل الحكومة العلنية لا تملك سوى إصدار القرارات التي لا يُمضَى منها إلا ما أرادت الحكومة الخفية، حتى المراسيم التي كان يصدرها هواري بو مدين، وكانت هي التي ترسم له بعض ما يفعل، كتسمية كبار الموظفين في مناصبهم، كالوزراء فمن دونهم. ومما يدل على مبلغ سيطرتها وتحكمها في الدولة أن ٩٨٪ من موظفي الوزارات والدواوين والولايات والشركات السامين في الجزائر كانوا مفرنسين، ولم يَسلم من ذلك إلا وزارة الشؤون الدينية ووزارة العدل، والمعلمون، أما المعرَّبون، فلم يكونوا يتجاوزون ٢٪. وكان ثمانية وأربعون واليا، وأربعون أمينا عاما، وأكثر من مائتي رئيس دائرة، و٣٣٦ رئيس قسم من الذين درسوا بالفرنسية. وكان الولاة كلهم عام ١٩٩٠ ممن درسوا بالفرنسية. ومنذ الاستقلال لم يتولَّ منصبَ والٍ ممن درسوا بالعربية سوى اثنين. ووكلاء الوزارات ليس فيهم معرَّب، ما عدا وزارة الشؤون الدينية، ووكلاء الوزارات هم الحكام الحقيقيون، فإن من الكثير ألا يصدر الوزراء إلا عما يشيرون به، وهم الذين بيدهم التنفيذ، فيمكن أن يشيروا على الوزراء بما شاؤوا، ويعطلوا من قراراتهم ما شاؤوا. وكان ٩٠٪ من موظفي التلفزة العربية من الدارسين بالفرنسية. وكان في الجزائر قانون غير مكتوب، ولكنه هو المعمول به، يقول إن هذه المناصب لا يتولاها إلا من كانت دراسته الأصلية بالفرنسية[1].

من أجل ذلك لم تبادر الدولة بعد الاستقلال إلى تعريب الإدارة والموظفين الذين ورثوا عن الاستعمار الفرنسي لغته وثقافته؛ فازداد الطلب على المتعلمين بالفرنسية للحلول محل الموظفين الفرنسيين، ولم تكوِّن الموظفين المعربين

---

(١) حزب البعث الفرنسي، ١٣٨ وما بعدها.

ليكونوا نواة لتعريب الإدارة بالتدريج، وكان الجزائريون عامة مهيئين لتعلم العربية بعد الاستقلال، ولو انتهزت الدولة هذه القابلية لَعُرِّبت الإدارة وسائر المؤسسات في سنين قليلة، وإنما استمرت في تكوين الموظفين بالفرنسية مع مضاعفة الجهود لنشر التعليم بها في المدارس القائمة منذ عهد الاحتلال، فتضاعفت تلك المؤسسات مرات بعد ذلك، لتعميم التعليم، وإقبال الجزائريين على تعليم أولادهم في المدارس الرسمية. ولم تهتمَّ بتعريب التعليم اهتماما كافيا في المؤسسات التعليمية، فقد بدأ التعريب في السنة الدراسية ١٩٦٢/ ١٩٦٣، بإدخال العربية بمعدل ساعة في اليوم، في الابتدائية، وثلاث ساعات في الأسبوع في الإعدادية والثانوية، فلم يكن له أثر في إنزال العربية منزلتها، وإنما رجَّح كفة الفرنسية في التعليم، وفرْنسة جيل بعد ما الاستقلال، وكان إيذانا ببدء تعلم الفرنسية تعلما ذاتيا[١]. ولما رفع بعض النواب إلى حكومة أحمد بن بله عقب الاستقلال مشروعا، يطالب باستبدال العربية بالفرنسية في الإدارة والتعليم، كما هو مقتضى أن تكون الجزائر حرة مستقلة، رفضته كما رفضت حكومة المغرب التعريب بعد استقلالها، لمَّا طالبها به المثقفون والمناضلون والمجاهدون. وظلَّ التعريب مجمّداً طوال حكم أحمد بن بله[٢]، وكان مردُّ ذلك إلى تمكُّن «حزب فرنسة» في الحكم بعد الاستقلال، واستيلائه على الإدارات التي أعده شارل ديغول للاستيلاء عليها منذ حين، وبسبب سياسته في توجيه الدولة، وحؤوله دون التعريب، تغيَّرت نظرة غير المتعلمين من الجزائريين إلى الفرنسية، فبعد أن كانوا يعدونها لغة العدو الكافر، ويمنعون أبناءهم تعلمها، صاروا يعدونها لغة المنافع والمناصب، والمستقبل، وأقبلوا على تعليمهم إياها، وفضلوها على العربية[٣]، وصار كثير من الناس يعدون الثقافة الفرنسية أفضل الثقافات وأرقاها، ويحتقرون العربية وثقافتها، وكان بعضهم يحضر دروسا مسائية في اللغات الأوربية، كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية، ولا يتعلمون العربية، بل كانوا يتجاهلونها ويحاربونها فيما يشرفون عليه من مؤسسات[٤].

---

(١) حزب البعث الفرنسي، ١٢٠ وما بعدها، والتعريب بين المبدأ والتطبيق، ٦٦.

(٢) قضية التعريب في الجزائر منذ الاستقلال إلى عهد بو تفليقة.

(٣) حزب البعث الفرنسي، ١٣٥.

(٤) السابق، ١٣٦.

وحصرت الحكومة الخفية التوظيف في المتعلمين بالفرنسية في معظم المجالات والمناصب المهمة في الدولة[1]. ومما أعان على ذلك أن المدرسة العليا للإدارة، وقد أنشئت لتعريب الإدارة في الجزائر بعد الاستقلال، ظلت محرمة إلا على الحاصلين على الثانوية العامة بالفرنسية، وكان امتحان دخولها -إلى ذلك- بالفرنسية أيضا. وكانت هي التي تخرِّج الإداريين، والقضاة، والديبلوماسيين، فكونت جيلا جديدا من المتعلمين بالفرنسية، زيدت فيمن كانوا قبلهم من موظفي شارل ديغول، فكونوا فئة اجتماعية كبيرة، تتمتع بصلاحيات كبيرة في التشريع، والتنفيذ، وتربطهم منافع مشتركة، وأفكار وثقافة واحدة[2]. واتحدوا على المنافع، والحفاظ على ما بلغوا منها، على الوجه المعروف في السياسة أن «السياسة تصالُح على المصالح»، وعلى عداوة التعريب، وبلغوا القمة من غير تدرُّج، ولا جدارة بها؛ فكانوا يخشون السقوط منها في كل وقت. فأنزلوا أنصار التعريب في الحضيض، وتولوا أمر التعريب والتخطيط له وتنفيذه، من دونهم، وأبعدوهم عن مراكز القيادة في كل شيء، وسوَّدوا ملفاتهم وشوهوهم تشويها تهتز له الضمائر، بالطعن في كفايتهم، والنيل من أشخاصهم، وامتهان كرامتهم، وتعقيد مشاعرهم، ومعاملتهم معاملة العبيد، وعزلهم وفرض الغربة عليهم، وأصبحت كلمة Arabisont (المعرَّب) هي العنوان الشامل للمطاعن والمثالب التي تلصق بهم، فلغتهم لغة الشعر والخيال، والفرنسية لغة العلم والحضارة، وهم الممثلون لسلبيات العصر، والمتفرنسون هم الممثلون لإيجابياته، وكان ذلك نتيجة دراسات عميقة، تسير بالتعريب إلى نهاية محددة محكوم عليها بالإخفاق[3].

ولما أصدر هواري بو مدين في يوم ٢٦ أبريل عام ١٩٦٨ مرسوما يقضي بإجبارية تعلم العربية على الموظفين ومن يماثلهم، اعتقد البعض أنه بصدور هذا المرسوم قد تم التعريب، وأن المسألة مسألة وقت قصير، غير أن المسؤولين عن التنفيذ كانوا مفرنسين كلهم أو شبه مفرنسين، ويحسبون أن التعريب مضرٌّ

---

(١) التعريب: المبدأ والتطبيق، ٦٠ - ٦٤ (نقلا عن السياسة اللغوية في المجتمع الجزائري، ٢١٠ وما بعدها)، وأضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر ٢، ٦٩.

(٢) التعريب بين المبدأ والتطبيق، ٦٠ - ٦٤ و ٦٨.

(٣) التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، ٣٥ وما بعدها.

بهم؛ فتصدوا له، فوقفوا تعليم العربية على الحُجّاب وصغار الموظفين، وعدُّوا تعليمهم لغة ميتة مضيعة للوقت، وسعى كثير من المديرين إلى اختلاق عراقيل، تحول دون إتمام المشروع، فلما فطن إلى ذلك بسطاء الموظفين حملوا البرنامج على غير محمل الجد. ولم تقم بعض الإدارات بما ينبغي أن تقوم به من التعريب، ولا سيما تلك التي لها صلة قوية بالشعب الذي لا يعرف أكثره الفرنسية، كالأحوال المدنية، والبريد، والمواصلات، والبلديات، والولايات، والدوائر[1]. وكانت لهم مخابر فرنسية، تعمل على مشروع سري للقضاء على التعليم العالي المعرَّب بما يسمَّى المدارس العليا، وهي مدارس تسمَّى المدارس المتخصصة في الصحافة، والتجارة، والسياسة، والتسويق، والاقتصاد، وغيرها، ما عدا الطب؛ لأنه ما زال يدرَّس بالفرنسية[2]، وهي تابعة للإدارات والوزارات، وتزداد قوة وكثرة، وليس لها تخصص فني أو علمي، ولا غرض غير أن تستغني الإدارة التي تنشئها بخريجيها عن خريجي الجامعات المعرَّبين. فكانت الحكومة في عهد بو مدين والشاذلي بن جديد كلما شرعت تعرِّب قطاعا من الحكومة، بتدريب من يَحتاج إليه من الموظفين، أو إلحاقهم بمدرسة الإدارة، أنشأ الممسكون بزمام ذلك القطاع من الحكومة السرية «مدرسة»، تعلم بالفرنسية، تخرِّج من يحتاج إليه القطاع من الموظفين، ثم مكَّنت لهم فيه، قبل أن تفرغ الحكومة من إعداد من كانت تعدُّ له من المعربين؛ ليحولوا دون تعريبه، أي إن الدولة كانت تكوِّن المعربين، فتسبقها الحكومة السرية إلى توظيف غيرهم من المتفرنسين[3]. وكان المتفرنسون يتبوءون المناصب المهمة في وزارتي التربية والتعليم، والتعليم العالي، فكانوا هم الذين يضعون المناهج والخطط، ويكتبون التقارير، فكانوا يفرضون ما يريدون، فوقفوا بالتعريب عند السنة الثالثة الابتدائية، وفرضوا تعليم الحساب بالفرنسية من السنة الخامسة. وكانوا يرون أن التعليم في السنين الثلاث الأولى من الابتدائية بالعربية لا ضير منه، ولا يؤثر في التعليم، ومن السنة الخامسة تصير العربية غير صالحة للتعليم؛

---

(١) التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، ٣٨ وما بعدها.

(٢) ضباط فرنسا بالمغرب العربي، ٤٣.

(٣) حزب البعث الفرنسي، ١٣٧.

إذ تغدو المقررات جادة، ولا يؤديها إلا لغة متقدمة، كالفرنسية[1]. وكانت إعادة العربية والثقافة الإسلامية إلى مكانتهما تتطلب إفراغ الإدارة الجزائرية من أكثر من فيها[2]، وهو مما رغب عنه حكام الجزائر «المستقلة»، مع أنه كان هو العلاج الأوحد؛ لأن التمكين لهؤلاء في الدولة هو الذي أبقاها في يد فرنسة، وما كان يخرجها منها إلا أن تُنتزع منهم، وتجعل في أيدي الوطنيين.

ولعل من المستحسن أن يُضرَب مثل لتحكم صغار الموظفين المتفرنسين من هؤلاء في أمر الدولة، فيما يتعلق بالعربية، وتنفيذهم سياسة فرنسة المعادية للتعريب، الجادة في الحؤول دونه، والمجاهرة بذلك دون خوف أو تردد مجاهرةً تشبه التحدي، وتدل على ثقة بالنفس، على مخالفتهم الدستور والقانون، والمعلنَ من سياسة الدولة الرسمية، ففي عام ٢٠٠٥ ذهب أحد الجزائريين إلى البريد ليحوِّل مبلغا من المال، فرفض الموظف طلبه؛ لأنه كتب الحوالة بالعربية، فلما رأى منه الإصرار على عدم التحويل أو يكتبَها بالفرنسية، ذهب الرجل إلى إدارة البريد المركزية، ليشكوه إليها، فقال له الموظف الذي استقبله فيها: اكتب الحوالة بما شئت من اللغات -ولو العبرية- إلا العربية[3]. والأصل أن يكون هذا وذاك موظفين صغيرين، ليس لهما من الأمر شيء، وإنما ينفذان سياسة وزارة البريد ويعملان بنظامها، وهو نظام، وضع أصله الدستور، وفصَّله القانون؛ فليس لأحد أن يخالفه. ولما سُمِّيَ أحدهم مديرا للشبيبة والرياضة في مدينة الأغواط أمر موظفي إدارته بعدم استعمال العربية في المراسلات والمعاملات الإدارية، واستعمال الفرنسية مكانها، بل أمر بفَرْنَسة الوثائق المكتوبة بالعربية قبله، وتوعَّد من خالفه بالويل والثبور، وعظائم الأمور[4]. ويهمل بعض المديرين في وزارة الفلاحة المراسلات التي تَرِدُهم بالعربية، ويتلف بعضهم الصحف الرسمية المكتوبة بالعربية، ويحتفظ بالفرنسية[5]. وكان هؤلاء الموظفون الصغار يعادون العربية على قدر مناصبهم، كما يعاديها من

---

(١) التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، ٤١ وما بعدها.

(٢) حوار من زوايا مختلفة مع يحي أبو زكريا، ١٦.

(٣) مصير وحدة الجزائر، ٤٥٧.

(٤) النصوص والواقع، ومدير يمنع استعمال اللغة العربية.

(٥) وزارة الفلاحة لا تحب العربية.

هم أكبر منهم على قدر مناصبهم. ولو لم يكونوا جزءا من منظومة في الدولة، لها سياسة مستقلة عن سياستها الرسمية، وبرامجُ، متَّفق عليها، وغايات، يريدون بلوغها، ما أقدم واحد من هؤلاء الموظفين على ما أقدم عليه؛ فليست لهم مصلحة فيه، ومخالفتهم القانون تعرِّضهم للمحاسبة، والإخراج من العمل. ومن هذا القبيل إلغاء وزير التجارة الجزائري، عمارة بن يونس، قانون تعريب وسْم المواد المستوردة، يوم ١٣ نوفمبر ٢٠١٤، وإعفاء المستوردين من غرامة المخالفة، والسماح لهم بتعريب السلع في خمسة وأربعين يوما، بعد أن تدخل مستودعات التجار، وكان القانون يلزمهم تعريبها قبل دخول البلد. ويعني تعريب الوسم أن تعرَّب بيانات السلع المستوردة، كمكوناتها، ومصدرها، وموردها، وتاريخ إنتاجها وانتهائها، إلخ، وذلك لحماية المستهلك ومنع الغش. وكانت غرامة المخالفة عشرين مليون سنتيم، وحجز السلع في الموانئ حتى تعرب. وسوَّغ الوزير إلغاء القانون بأنه أراد وضع تكاليف التعريب عن التجار، فإنهم يدفعونها في بلد التصنيع بالعملة الصعبة، وإخلاء مستودعات الموانئ من السلع المخالفة[1]. ويذكِّر عمله هذا بعمل عبد اللطيف رحال، لما تولى وزارة التعليم العالي في عهد هواري بو مدين.

وكانت الحكومة الخفية هي التي تعزل الوزراء من مناصبهم، إذا رأت منهم جدا وصدقا في التعريب، وتولي من تثق بعدائهم إياه، فلما تولى الشاذلي بن جديد وزارة الداخلية، فعرَّب منها في سنتين ما لم يُعرَّب من الجزائر طوال المدة التي استقلَّت فيها، أخرجه منها «نواب الفاعل» -كما يسميهم الدكتور أحمد بن نعمان- لتحصينها من التعريب[2]، وكذلك فعلوا بوزير العدل المجاهد، الدكتور بو علام بن حمودة، لما عرَّب وزارة العدل، وهو أحد ضباط جيش التحرير، وإنما اختاره هواري بو مدين وزيرا للعدل من أجل أن يعرب وزارته[3]، ولكنه أقاله، لَمَّا فعلَ، كما أقال الشاذلي من وزارة الداخلية، على حبه إياه، وإعجابه به، وعلى ما كان بينهما من مودة. وأخرجوا المجاهد عبدالكريم

---

(١) بن يونس يغتال اللغة العربية على الحدود، والتعريب في الجزائر بين أزراج وبن يونس.

(٢) مصير وحدة الجزائر، ٤٣٦.

(٣) مذكرات جزائري، ٢/ ١٠٨.

بن محمود من وزارة التربية عام ١٩٧٧، وهو صاحب خطة الإصلاح الرائعة والرائدة التي وضعها عام ١٩٧٦؛ ليحولوا دون تنفيذ خطته، ولولا مكانه مصطفى الأشرف، وأخرجوا عبد الحميد مهري من الأمانة العامة لوزارة التربية، وأخرجوا معه اثنين وثلاثين موظفا ساميا، من الموظفين الوطنيين لمعارضتهم خطة مصطفى الأشرف[1]. وإخراج عبد الكريم بن محمود وعبد الحميد مهري وسائر الموظفين الوطنيين من وزارة التربية، وهم بهذه الكثرة، والمكانة العلمية والتاريخية، في عهد هواري بو مدين، أقوى رؤساء الجزائر، وأجدِّهم في التعريب، وأشدِّهم تعصبا له، وأبعدِهم من فرنسة، يدل على مبلغ تمكن الحكومة الخفية في الجزائر. وأدلُّ منه أن يكون الذين يُحَلُّون محل المعزولين أناسا مناقضين لهم في التوجه الفكري والثقافي، والنظرة إلى العربية والتعريب، والفرنسية والفرنسة، وفي العلاقة بفرنسة، وأن يولوا أهم الوزارات، وأشدها تأثيرا في خاصة الناس وعامتهم، وأمسها بالعربية والتعريب، كعبد اللطيف رحال، ومصطفى الأشرف، ورضا مالك، وقد وَلَّى الثلاثة في عام، أما عبد اللطيف، فولاه وزارة التعليم العالي في أول العام الجامعي ٧٧/ ٧٨، وما أن تسلمها حتى ألغى الشُّعَب المعرَّبة في كلية العلوم بجامعة العلوم والتقنية بباب الزوار (حي بالجزائر العاصمة)، وكليةِ العلوم بجامعات الجزائر، ووهران، وقسنطينة، والشُّعَب المعربة للجذوع المشتركة، وحوَّل طلابها بجامعة باب الزوار إلى مدرسة إعداد الأساتيذ بالقبة، ومنعهم مواصلة دراستهم العليا خمس سنين، بعد حصولهم على الليسانس، ليحول بين الأساتيذ المعربين في التعليم العالي وتعريب التعليم الجامعي؛ فكان عام ٧٧/ ٧٨ عام تطهير للمعاهد الجامعية والعلمية والتقنية من العربية، وطَرَد طلابَ الشُّعَبَ المعربة بعد شهرين من بدء الدراسة بكلاب الشرطة، بعد أن أغلق أقسامها، فغادروا الجامعة وهم يبكون[2]. ولكن المجلس الشعبي الوطني (مجلس النواب) ألغى قراره في دورة الخريف التشريعية لعام ١٩٧٨، بعد ما يشبه محاكمة له أمام مجلس الشعب،

---

(١) اشهدي يا جزائر، ٢٠.

(٢) التعريب في الجزائر، ٥٧ وما بعدها و٨٠، ومولود قاسم، ١٤٤

وألغاه بومدين أيضا[١]. ولا يخفى ما في تصرف عبد اللطيف رحال هذا من الأدلة على أنه مرتبط بجهة غير رسمية، وليس متقيدا بخطة الحكومة التي هو وزير فيها، ولا ببرنامج الرئيس الذي سماه وزيرا، بآية ما خرج عنه من غير أن يستشيره، أو يُعْلمه بما يريد أن يفعل. وأما مصطفى الأشرف، فولاه وزارة التربية، وكان من كبار منظري التفرنس في الجزائر، وأشدهم مناقضة لتوجه بومدين، وكان يسخر من العربية، ويقول إنها لغة حروز، ومتخلفين[٢]، ويعدها أفيون الجزائر، وسببا من أسباب نكستها[٣]. وتجرَّأ لما أن سُمِّي وزيرا على إعلان عدائه للمعربين بجملة من التصريحات والمقالات، نشرها بالفرنسية في جريدة «المجاهد» اليومية في أغسطس من ذلك العام، وصفهم فيها بصفات غير لائقة بهم ولا بوزير ومثقف وكاتب مثله، كتشبيههم بـ «حفاري القبور»، وتسميتهم «البرجوازية المتخلفة»، و«القانعين بالحثالة»، و«ذوي المعرفة التقريبية»، والمتسرعين إلى التعريب الذين تدفعهم الرغبة المكبوتة في استكمال شخصية الإنسان باستعمال لغته، وهذه الأمنية هي التي جعلتهم يتَّسمون بالعجلة والاضطراب والارتجال. وقال إن الشعب الجزائري تعلم الفرنسية كي يعوض ثقافته البائدة بثقافة أخرى، يتوصل إليها بلغة أجنبية، وإن العربية غير طبيعية، وغير قادرة على نقل الأفكار، وتوعية الجماهير، وكان يرى أن التعريب غير ممكن ما لم تتخلص العربية من مفرداتها الغريبة والحماسية، ومن الوسائل الساذجة التي تستعملها في تدريس العلوم[٤]. ويرى أن الأدب الجزائري هو الأدب الشفوي المعبَّر عنه بالفرنسية[٥]. ولعل هذه الآراء هي سبب المكانة التي كانت له عند الفرنسيين، كما يبدو من قول شارل ديغول، إذ رآه مكبلا مع المخطوفين من قادة الثورة (أحمد بن بله، ورابح بيطاط، وحسين آيت أحمد، ومحمد بو ضياف، ومحمد خيضر): «السيد مصطفى الأشرف لا

(١) التعريب في الجزائر، ٦٠.
(٢) مصطفى الأشرف كان يصف العربية بلغة الحروز والمتخلفين.
(٣) اغتيال اللغة العربية في الجزائر، ١٧٧.
(٤) السجال اللغوي وتطور التعريب في الجزائر بعد الاستقلال.
(٥) التعريب في الجزائر، ٢٤٥.

يستحق هذا؛ لأنه ابننا»[1]، كما أنها هي سبب تسميته وزيرا للتربية الوطنية. وكان يقول إن الاتجاه الإسلامي في الجزائر يريد أن يدمج الشعب الجزائري فيه بطريقة متغطرسة، ليجعله إسلاميا، ويعرِّبه، متجاهلا ماضي الشعب الثقافي، وثلاثين سنة من الاستقلال[2]. وكتب بمناسبة فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ عام ١٩٩١ مقالا يحرض فيه الحكومة على وقف التعريب؛ لأن ما سماه «الغزو الأصولي» ثمرة تعريب مدرسي رديء، على الطريقة المشرقية[3]. وولّى رضا مالك وزارة الإعلام، وكان رضا من غلاة أعداء الإسلام والعروبة في الجزائر، وقد صرح بالإلحاد في بعض كتبه، وكان أحد المفاوضين على استقلال الجزائر في إيفيان، ولما انقلب ضباط فرنسة على خيار الشعب الجزائري عام ١٩٩٢، تولى رياسة الحكومة، في عهد علي كافي واليمين زروال، وكان من الذين يسميهم الجزائريون «التيار الاستئصالي»، وهو التوجه المتغرب الذي يرى استئصال مخالفيه من ذوي التوجه الإسلامي، وعدم محاورتهم.

وما كل من كان تعليمهم فرنسيا من الجزائريين صنائع لفرنسة، ولا أعداء للتعريب، ولكن فرنسة، منذ عهد شارل ديغول، استعانت بهم على محاربة التعريب وكيد العربية، بما خيَّلت إليهم أن تعريب الإدارة والتعليم يعني فرض لغة، لا يعرفونها (العربية)، وانتزاع أعمالهم منهم، وتسليمها إلى المعربين؛ ليحتجنوا دونهم ما كانوا يحظون به من «تقدم» ثقافي واجتماعي. ولم تكن هذه الطبقة ترجو شيئا غير استمرار ما هي فيه[4]؛ فكان أكثرهم يعادي التعريب، ويتشبث بالفرنسية. وهو أمر كانت تشيعه في المغرب الأقصى بين ذوي الثقافة الفرنسية، وتحضهم على نصرة الفرنسية؛ فغدا لعداوة العربية سبب آخر، هو الخوف على الرزق، والمنصب، والمنفعة. ولما كان هؤلاء الموظفون الكبار هم الذين وُكِل إليهم أمر التعريب، كان لزاما أن يخفق؛ لأنه وُكِل إلى من يعاديه[5]، و«من استرعى الذئب ظلم».

وزاد الحكومةَ الخفية في الجزائر قوة وتمكنا استعانةُ هواري بو مدين بضباط فرنسة في الجيش الجزائري في انقلابه على أحمد بن بله، وعلى مخالفيه من زعماء

---

(١) التعريب في الجزائر، ٢٣١.

(٢) السابق، ٢٣٢.

(٣) السابق، ٨

(٤) اللغة والسلطة والمجتمع، ٧٣، والمواجهة باللغات.

(٥) خمس عشرة سنة من النضال، ٣٥.

الثورة الجزائرية، وكانوا غير راضين عن انقلابه عليه، وتوليه الحكم بالقوة، ولا عن نهجه في الحكم، وسيره بالدولة في طريق الاستبداد، وتعطيل الديموقراطية، وكانت غرضا من أغراض الثورة، وانحرافه بالثورة عن منهجها الذي أرادوا لها. فقرَّب ضباط فرنسة، ومكَّن لهم بعد الانقلاب أكثر مما كان قد مكن لهم في وزارة الدفاع، يوم كان وزيرا للدفاع، فأسند إليهم أهم المناصب، ولم يسمِّ فيها من الوطنيين سوى شابين، جعلهما مديرين مركزيين مدة قصيرة[1]. وكان ذلك محل خلاف كبير بينه وبين الضباط الوطنيين المجاهدين، فقد كانوا يعدُّون مَنْ قرَّبهم ومكَّن لهم من «القوة الثالثة»، وخطرا على الثورة[2]. واتخذ بعضَهم وليجة، كعبد القادر شابُّو، وسليمان هوفمان، حتى كان يقال إنه لا يُعرَف له صديق حميم ومقرَّب غير عبد القادر، وكان عبد القادر وسليمان من كبار ضباط فرنسة في الجيش الجزائري، وكانا مهندسي انقلابه على أحمد بن بله[3] وكان لضباط فرنسة صلات متعددة وقديمة بفرنسة: درس فيها بعضهم، كمحمد العماري، وفوضيل شريف، وكانوا يتبعون مع الجزائريين الطرق الوحشية التي كان يتبعها الجيش الفرنسي معهم في حرب التحرير، وسموا بعض الوحدات الخاصة بالأحرف الأولى من اسم بعض الوحدات الفرنسية التي عاثت في حرب الجزائر الأولى فسادا، مثل: RPC 18، وهو اسم أحد أفواج المظليين المستعمِرين من فرقة المظليين العاشرة التابعة للجنرال ماشو، وأخرج بعضهم، كالعربي بلخير، وعباس غزيل، ومحمد تواتي، وخالد نزار، ومحمد العماري، قدامى جيش التحرير من الجيش الجزائري[4].

ولعل هذا ما جعل بو مدين يستعين أيضا بأناس، يخالفون توجهه، كعبد السلام بلعيد، وبن يحيى، فقد كان بومدين عروبيا إسلاميا، وكان هؤلاء علمانيين[5]. وربما كانت استعانته بهم كاستعانته بغيرهم من المتفرنسين، أمرا، زينه المحيطون به من حزب فرنسة، وكان ذلك إيذانا بنهاية الثورة، وانتصار التفرنس في مسيرته الزاحفة إلى مؤسسات الدولة، ولا سيما الإدارات المهمة. وكان يأبى أن يسمع فيهم قول من ينبهه على علاقتهم بفرنسة، وخطرهم على الثورة والبلد[6]، ويأبى ما يطالب

---

(١) في أصل الأزمة الجزائرية، ٩٠.
(٢) مذكرات الشاذلي بن جديد.
(٣) الجزائر من أحمد بن بله إلى عبد العزيز بو تفليقة، ٣٤، وفي أصل الأزمة الجزائرية، ٣٣.
(٤) الحرب القذرة، ٣٢.
(٥) حمروش فرمل تعريب الإدارة و«خوَّف» الشاذلي بالألمان.
(٦) شاهد على اغتيال الثورة، ١٧٢.

به الشعب وقادة الثورة من تطهير الجيش من «جيش فرنسة»، ويقول لمن طالبه به: «من الطاهر ابن الطاهر الذي يريد أن يطهر الجيش؟»[1]. وربما كانت علاقته السرية بفرنسة، بعد توليه الحكم، وما كان يكون بينه وبين شارل ديغول من اتفاقات ومعاهدات غير معلنة، تضر بمصالح الجزائر، من أكبر الأدلة على اغتيال الثورة الجزائرية، وتبدل العلاقة بين الجزائر ومستعمِرتها، وأن بعض ما كان يعلن به من انتقاد على فرنسة، وإظهار عداوتها ضرب من الخداع والتمويه على الجزائريين. ففي ٢٣ من أكتوبر عام ١٩٩٧ -مثلا- نشرت المجلة الفرنسية تقريرا، أوردت فيه تفاصيل بقاء الجيش الفرنسي في قاعدة وادي الناموس بإقليم بني ونِّيف، جنوب غرب الجزائر إلى عام ١٩٧٨، وهو العام الذي توفي فيه بو مدين، وكان ذلك برضا وتسهيل منه، وتخطيط وإشراف من عبد القادر شابُّو. وكان السماح للجيش الفرنسي بالبقاء في القاعدة المذكورة إلى عام ١٩٦٨ لتجريب الأسلحة الكيميائية والنووية مما نص عليه بند سري ملحق باتفاق إيفيان، على أن يترك الجيش الفرنسي عتاده بعد انتهاء العقد مقابلَ خمسين مليون فرنك فرنسي. فلما اقتربت نهاية العقد، قَبِلَ بومدين تمديده بشروط، أهمُّها السرية التامة، وخفض ثمن العتاد إلى أقل من النصف، وكان الاتفاق بينه وبين ديغول. وكان الجيش الفرنسي طوال السنين العشر التي قضاها في وادي الناموس يُظْهِر للجزائريين أنه شركة نفط فرنسية، وكان الجيش الجزائري يحرسه ويشرف عليه ويساعده[2]. وكان ذلك من مقتضيات علم بومدين أن بقاءه في الحكم، على كره من أكثر قادة الثورة، وبغير رضا من فرنسة وجيشها في الجزائر أمرٌ غير ممكن؛ فكان يفعل هذا ونحوه؛ ليقلل مخالفيه، ويستعين ببعضهم على بعض. وقد خطط عبد القادر شابو للانقلاب عليه بأمر من فرنسة عام ١٩٧١، فأخفق، فدبر له بو مدين حادثا، أودى به[3]. وكانت حجة بومدين والشاذلي من بعده في التمكين لحزب فرنسة إيثار الاستعانة بأبناء الجزائر في تنظيم الدولة والمجتمع على غيرهم من الأجانب[4].

وكان رؤوس حزب فرنسة في الإدارات معروفين، وكان من اليسير إخراجهم

---

(١) في أصل الأزمة الجزائرية، ١٠٢ و ١٠٤ وشاهد على اغتيال الثورة، ١٧٢.

(٢) بقاء الجيش الفرنسي في الجزائر إلى سنة ١٩٧٨.

(٣) انظر: في أصل الأزمة الجزائرية، ١١٦ وما بعدها (الهامش).

(٤) حزب البعث الفرنسي، ١٣٤.

مما كانوا فيه، لو جدَّ ساسة الجزائر في بناء الجزائر المستقلة حقا، وتحرروا من المآرب الخاصة، فقد قال علي كافي، إذ كان الأمينَ العام لمنظمة المجاهدين، إن عند منظمته قوائم بأسماء الذين خرَّجهم لاكوست وولاهم المناصب العليا في الدولة[1]. وكان بعض ضباط فرنسة في الجزائر معروفين في الجزائر وخارجها، ومعروفة علاقتهم بفرنسة، وقد نصح أحد المشفقين على الثورة الجزائرية لبعض قادتها بأن يخرجوهم من مناصبهم، وقال له: إياكم وأن تقرِّبوا الضباط الذين انضموا إليكم، فإن الخطر كل الخطر في هؤلاء الذين خانوا الوطن، ومن خان الوطن مرة يخونه مرات[2]. بيد أنَّهم ما أُخرجوا من مناصبهم، وأن مَن نَصح كان أحكم وأنصح للجزائر، وأشفق عليها من بعض ساستها. وهذا يصدِّق قول عثمان سعدي إن الثورة الجزائرية عملاق في تاريخ الثورات البشرية، لكن قادته كانوا صغارا، لا بجثثهم، وإنما بتفكيرهم الهزيل[3]. وقد ارتكب بو مدين بذلك وباصطناعهم واصطناع من اصطنع من حزب فرنسة والاستعانة بهم خطأ فادحا، في حق الجزائر وثورتها وهويتها، فقد أعان على تفكيك الثورة، والخروج بها عن مسارها، وحال بين الشعب وجني ثمرتها، والتمتع بمكاسبها بعد ١٣٢ عاما من عذاب فرنسة وإذلالها، وجدِّها في مسخه وإخراجه من دينه، وطمس هويته، ومكَّن لحكومة الجزائر الخفية، فكانت تتحكم في قرارات الدولة كلها، صغيرها وكبيرها، منذ ذلك العهد إلى اليوم، فحالت دون التعريب، وانقلبت على ما أُنجز منه، ومكَّنت للفرنسية[4]، وانقلبت على ميثاق جبهة التحرير، ودستور الجزائر الذي ينص على أن العربية هي لغة البلاد الرسمية.

وقد صارحه أحمد طالب الإبراهيمي مرة بما يأخذ عليه قادة الثورة، وبما أراد شارل ديغول، إذ أمر ضباط فرنسة بالفرار من جيش فرنسة إلى جيش التحرير، فردَّ عليه بأنه كان عارفا بهم وبما أراد شارل ديغول، وقال له إن الجزائر أفادت من خبرتهم التقنية في مناصب التنفيذ، وإنه لم يولهم مناصب القرار، وذكر منهم عبد القادر شابو، فقال إنه أقدر ضباط الجيش الفرنسي الذين التحقوا بجيش

(١) مصير وحدة الجزائر، ٥٠.
(٢) شاهد على اغتيال الثورة، ١٨٧.
(٣) التعريب في الجزائر، ١٤.
(٤) حزب البعث الفرنسي، ١٤٠

التحرير[1]. وهو خلاف المعروف من أنه أسند إليهم المناصب المهمة جدا في وزارة الدفاع إذ كان يتولاها[2]. على أنه ليس لزاما أن يتولوا «مناصب قرار» حتى يوجهوا الدولة الوجهة التي يريدون، ففي وسع كل من تولى منصبا كبيرا في الدولة، وإن لم يكن «منصب قرار»، أن يبذل جاهه، ويسخِّر علاقاته في بلوغ ما يريد من أصحاب «القرار»؛ فقد كانت جبهة التحرير ترسم خطط التعريب، فيلتقي كبار الضباط في وزارة الدفاع، كقاصدي مرباح، والعربي بلخير، ليضعوا الخطة التي تحبطها، ويكون معهم بعض الوزراء، كوزير التعليم العالي[3]، مع أن التعريب كان أبعد شيء من مهمة وزارة الدفاع، وكان قاصدي مرباح أمينا عاما لها، وليس لِلَجنةٍ من الضباط مناقشة قرار الحزب الحاكم ولا النظر فيه، في الأحوال العادية، فضلا عن تغييرها أو الخروج عنها[4]. وكان قاصدي مرباح من خاصة هواري بومدين، ولذلك ولاَّه أهم المناصب، وأعظمها خطرا، كرياسة المخابرات، ورياسة الأمن العسكري، وأمانة وزارة الدفاع العامة، وكان له مع ذلك تحيز للفرنسية، كما يبدو من قوله لصحيفة الشعب يوم ١٣/ ٤/ ١٩٨٩ إنه رفض تسمية وزير وطني بعينه في حكومته؛ لأنه لا يعرف الفرنسية[5]. وربما كان قاصدي مرباح، إن لم يكن من حزب فرنسة، وحكومتها الخفية، ممن قال مصطفى الأشرف إنهم مثل فرحات عباس في قربهم الشديد من الفكر السياسي الفرنسي[6]، وهو أولا وأخيرا واحد من أهل المغرب العربي الذين كان لفرنسة والفرنسية على قلوبهم سلطان، لا يستطيعون نضاله، وإن أعلنوا بعداوتها. وأقلُّ ما كان لعمل بو مدين من المضارِّ أنه زرع عيون فرنسة في الجيش والإدارة، فكان من اليسير عليها متابعة ما يدور فيهما، والتخطيط لإحباط ما يقرِّر. وقد أقرَّ -بعد أن فات الأوان- بما فعلت به الحكومة الخفية، فقال إن الإدارة البيروقراطية هزمته، وأقامت بينه وبين الشارع جدارا عاليا، ما كان يستطيع أن يَظْهَره[7]. ويدل

---

(١) مذكرات جزائري، ٢/ ٤٧٤.

(٢) مذكرات الشاذلي بن جديد.

(٣) التعريب في الجزائر، ٩٤.

(٤) السابق، ٩٦.

(٥) مصير وحدة الجزائر، ٤٤٧.

(٦) الجزائر: الأمة والمجتمع، ١٩٤.

(٧) حزب البعث الفرنسي، ١٣٠، وحمروش فرمل تعريب الإدارة.

على ذلك كتابه إلى الوزراء في الثالث عشر من ذي الحجة عام ١٣٨٩ هـ: لقد أمرتكم باتخاذ التدابير الكفيلة بأن تَعْمَل المصالح الإدارية بلغة الوطن، وتدعَ اللغةَ الأجنبية، غير أنه بلغني أن بعض المصالح الإدارية ترفض قبول ما يقدَّم إليها من وثائق بالعربية، وترغم أصحابها على ترجمتها إلى الفرنسية، وهي لغة أجنبية، وهذا خرْق خطير للأصول التي بُنِيَت عليها مؤسساتنا، وعرقلة صريحة لخطة التعريب، إلخ[1]. وهو كلامُ مغلوب، أحيط به، فلا حول له ولا قوة، إلا العتاب، لا كلام من بيده الأمر، وليس في وسع أحد أن يخالف ما يريد وما يرسم به؛ إذن لعزله، وعاقبه عقابا، يزَع غيره. ولقد قد كان خيرا من عتاب، يبعث به إلى وزير من حزب فرنسة، هو سماه في الوزارة، أن يسمي وزيرا من حزب الجزائر، يغنيه عن المتابعة، وعن مرسوم، يبين له ما ينبغي أن يفعل. وكان بومدين يعزل الوزير المجاهد المخلص، ويولي مكانه الوزير من حزب فرنسة، كما قد رأينا، فيعطل خططه، ويسير بالوزارة في الاتجاه الذي أراد من أوعز إليه أن يسميه فيها.

وقد ذهب محمد العربي الزبيري إلى أن بومدين لم يكن جادا في التعريب، ولم يصدر أمرا أو مرسوما بإنجاحه، على ما كان يكرر من أن العربية ليست لها ضرَّة في الجزائر، وأن الدولة ستبذل ما في وسعها لإنزالها المنزلة اللائقة بها، وكان يبدي موافقة مطلقة على إسناد أهم المناصب في الدولة إلى المتعلمين بالفرنسية، وكانت الدولة -ما عدا الجيش والحزب (جبهة التحرير)- بأيدي المتفرنسين، يتصرفون فيها كيف شاؤوا، ولم تكن قراراته بأكثر من حبر على ورق، ولذلك قيل إنه ضرَّ التعريب أكثر مما نفعه. ولما أراد تعريب التعليم العام، جعل الفريق الذي وكل إليه أمره مفرنسا كله، وكان هذا الفريق لا يخاطب التلامذة إلا بالفرنسية، وكان يجبرهم على استعمالها في الفُسَح، وفي علاقاتهم بالإدارة، وكانت وثائق الإدارة كلها بالفرنسية، أي إنهم فعلوا بالتعليم ما كانت تفعل فرنسة في عهد الاحتلال. وبوخْي من أعداء العروبة والتعريب أَلْغَى التعليم الأصلي، وكان يشرف عليه مولود قاسم، بعد أن أخذ يثمر تكوين العلماء الذين يمكن التعويل عليهم في إعادة بناء الشخصية

(١) مصير وحدة الجزائر، ٥٠٦.

الوطنية التي كان الاحتلال قد قضى على جلها[1]. وهو من أخطائه الجسيمة التي كان لها من الآثار السيئة في الجانب الذي نُعنَى به هاهنا ما قد علمنا. غير أن ذلك لم يكن من عدم جدٍّ في التعريب، ولا من أنه لم يصدر مرسوما لإنجاح التعليم، فإنَّ كتابه الذي نقلنا بعضه آنفا يدل على عكس ذلك، لكن الذين أحاطوا به كانوا يتصرفون فيما يصدر عنه، فيعطلونه أو يمضونه، على ما تقتضي سياستهم في الجزائر، وكانوا هم الذين يزينون له ما يأتي وما يذر. ولولا جدُّه ما كان ما كان من التعريب في الجزائر. أما قضاؤه على التعليم الأصلي، فيبدو أنه كان بمكيدة من حكومة الجزائر الخفية، جازت عليه كما جازت على غيره من الرجال الوطنيين[2]. ويقول بعض المطلعين إنه مات غاضبا على من كانوا يحيطون به، حتى الوطنيين الذين كانوا يظهرون حب العربية والغيرة عليها[3].

غير أنه -مع ذلك- هو أبو التعريب في الجزائر، فقد شن حملة تعريب كبيرة منذ عام ١٩٧١، وندب لهذه المهمة محمد الصالح اليحياوي عضو جبهة التحرير، وعضو جمعية العلماء سابقاً، ومما أُنجز في عهده تعريب الإدارة، والوثائق الرسمية، والمراسلات، واتبع في التعريب أسلوبا حازما، كإصدار أمر باشتراط نجاح كل مترشح للوظيفة العامة في امتحان في العربية، وعدم توظيف من ليست له معرفة كافية بها، واشتراط الترقية بالحصول على شهادة إجادة لها، وأصدر عام ١٩٧١ مرسوما رئاسيا بوجوب معرفتها على موظفي الدولة كافة، وفتح فصولا ليلية لتعليم الموظفين إياها، وأقساما دراسية بها في كل إدارة، وعُرِّبت المدرسة العليا للإدارة بالعاصمة، ومعاهد التكوين الإداري، وصدر عام ١٩٦٩ مرسوم جمهوري بإنشاء مكاتب للترجمة في الوزارات لتعريب الوثائق الإدارية. وكان من أول قراراته زيادة رواتب الموظفين الذين يتعلمون العربية فيما لا يزيد على أربع سنين، وعرب

---

(١) نكبة التعريب في الجزائر ١.

(٢) انظر: مولود قاسم، ٢٣١.

(٣) حمروش فرمل تعريب الإدارة.

وزارة الأوقاف، ووزارة الدفاع، وبعض أقسام وزارة الخارجية، والإعلام، ووزارة الشباب والرياضة، والطيران المدني، والإذاعة، وكان لوزارة العدل السبق في التعريب، فعربت المحاكم والمحاماة فكان القاضي لا يحكم إلا بالعربية، ولا يُترافع في المحاكم إلا بها، وعربت السنوات الثلاث الأولى من التعليم الابتدائي، وثلث المدارس الإعدادية تعريبا تاما، وعرب التاريخ والجغرافية في التعليم الإعدادي كله، وفي عام ١٩٧٦ صارت العربية إجبارية في الكليات كلها، وعرب التاريخ والجغرافية، والفلسفة وعلم النفس والاجتماع، والحقوق والاقتصاد، وعربت معاهد تكوين المعلمين عام ١٩٧٣، وعربت المدارس العليا لتكوين أساتيذ التعليم الثانوي[١]، وقامت مدرسة الإدارة العليا بتهيئة الإداريين. لكن كبار الموظفين المتفرنسين كانوا يعرقلون مسيرة التعريب حماية لوجودهم ومنافعهم في الإدارة[٢].

وكان ما أنجز في عهد الشاذلي بن جديد أضعاف ما أنجز في عهد بو مدين (٨٠٪)، وطفر التعريب طفرة نوعية بإنشاء المدرسة الأساسية عام ١٩٨٠/ ١٩٨١، وهي توحيد الطور المتوسط والطور الابتدائي بعد اختصار المتوسط من أربع سنوات إلى ثلاث، وجعْله إجباريا. وعُرِّبت معاهد إعداد المعلمين عام ١٩٧٣، والمدارس العليا لإعداد أساتيذ التعليم الثانوي[٣]، وقارب الأطفال الذين يعرفون العربية عام ١٩٨٠ أربعة ملايين، وأصبح ٧٠٪ من طلاب التعليم العام والتعليم الفني وتأهيل المعلمين معربين، و٥٠٪ من الصفوف العلمية، و٣٠٪ من صفوف الشُّعَب التقنية[٤]. أما التعليم العالي، فعربت العلوم الاجتماعية كلها (علم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والآثار، والتربية، والفلسفة)، ومعاهد الحقوق في الجامعات كلها، والعلوم السياسية والاقتصاد، والصحافة، في الجامعات

---

(١) التعريب والقومية العربية، ١٠٤ وما بعدها و ١٢٢ - ١٢٤، وقضية التعريب في الجزائر، ٢٤، والازدواجية اللغوية الأمارة، ٩٥ (الهامش)، وقضية التعريب في الجزائر منذ الاستقلال إلى عهد بو تفليقة.

(٢) قضية التعريب في الجزائر، ٢٤، والتعريب والقومية العربية، ١٢٢ - ١٢٤.

(٣) السابق، ١٠٤ وما بعدها.

(٤) السابق، ١٠٣.

كلها، وأُقِرَّ تدريس الاصطلاحات العلمية بالعربية في المعاهد العلمية الطب والصيدلة والهندسة[1]. وعربت لافتات الشوارع، فكان تعريبها أفضل تعريب للافتات المدن العربية وقراها، وكان ذلك في بداية العقد التاسع من القرن العشرين[2].

وكان الشاذلي بن جديد، منذ توليه، مستعدا للتعريب، فقد تخلص من أخطر المحيطين به من أعداء التعريب، وأسند كثيرا من الحقائب الوزارية المهمة إلى رجال معربين، وسمى مجموعة من السفراء المعربين، وأنشأ المجلس الأعلى للغة العربية، ووضع حدا لهيمنة المدرسة الوطنية للإدارة. لكن حزب فرنسة كان يتفنن في إقامة العراقيل المتنوعة لمنع التعريب، وتوسل بالإشاعة إلى ما أراد، فوظف وسائل الإعلام، وكانت كلها تقريبا بيده، وأذاع في الناس أن المدرسة الأساسية تعيد إلى الوراء، والعروبة والإسلام يعيدان إلى عصر الانحطاط، وأذاع التغريبيون في المسؤولين أن التعريب يمكِّن لحزب البعث العربي في الجزائر، وأن العربية عاجزة عن تبليغ العلوم الدقيقة، فحتّم أن يكون التدريس بالفرنسية[3]. وحال حزب فرنسة بين الشاذلي وتعريب الإدارة، ولا سيما العربي بلخير، ومولود حمروش، رئيس الحكومة في عهده، وخالد نزّار، وعلي هارون، فقد همس مولود في أذنه مرة، على هامش جلسة للتصويت: أن السفير الألماني اعترض على قانون تعريب الإدارة، وأن ألمانية ستقطع علاقتها بالجزائر، إذا أُمْضيَ؛ لأن ألمانية تريد بقاء الحرف اللاتيني في الجزائر، وكان خالد نزار وعلي هارون أبرز المعارضين للتعريب[4]. وكان من اليسير على مولود أن يخدعه؛ فقد كان الشاذلي -على وطنيته، وتدينه الفطري، ونشأته في بيت متدين[5]، وصدْق انتمائه العربي الإسلامي، ومواقفه المشرفة، كإغلاقه

---

(١) التعريب والقومية العربية، ١٠٦.

(٢) الازدواجية اللغوية الأمارة، ٩٥ (الهامش).

(٣) نكبة التعريب في الجزائر ٢.

(٤) حمروش فرمل تعريب الإدارة و«خوّف» الشاذلي بالألمان، http://www.echoroukonline.com/ara/articles/229487.html.

(٥) انظر: جهاد الجزائر، ٣٧٨.

المؤسسات التعليمية الفرنسية في الجزائر خوفا على الأطفال من الفَرْنسة[1]، وإصراره على توقيع قانون استعمال العربية عام ١٩٩١، وجدِّه في التعريب، وتعريبه وزارة الداخلية لما تولاها[2]- امرأً غير متعلم، وما كان له من الفطنة ما يتبين به ما أراد مولود؛ فلم يفطن -مثلا- إلى أن ألمانية لا تعنيها الفرنسية، ويستوي عندها إخراجها من الإدارة وإبقاؤها فيها؛ فما كانت لتقطع علاقتها بالجزائر من أجلها، وما بينها وبين فرنسة من عداوة تاريخية يُبعِّد أن تحرص على بقاء الفرنسية في الإدارة الجزائرية. وقد رفض وزير تعاونها مرة أن يوقِّع اتفاقا، قدَّمه وفد من وازرة الخارجية الجزائرية بالفرنسية؛ حتى يُكتَب بالعربية؛ لأنها لغة البلاد الرسمية، كما ينص على ذلك دستورها[3]. ولو كانت الإنجليزية لغة الإدارة الجزائرية، لأمكن أن يكون لذلك وجه، ولو ضعيفا. ولعل مولودا خاف أن يفطن الشاذلي إلى ضعف مسوغه، فقال له إن ما يهم ألمانية هو بقاء الحرف اللاتيني في الجزائر، فجازت عليه الخدعة؛ إذ كان الحرف اللاتيني هو الحرف الذي تستعمله ألمانية أيضا. هذا إلى أن الشاذلي كان لا يعلم أن مولودا ربما كان من حكومة فرنسة الخفية في الجزائر[4]، وله في التحيز للفرنسية مواقف معلومة، هذا أحدها، ومنها قوله للصحافة الفرنسية في ٩ سبتمبر ١٩٨٩ إن الفرنسية لغة وطنية ثانية في الجزائر[5]. مع أنه كان من الدفعة الأولى المعربة التي تخرجت في كلية الحقوق[6]، ولعل ذلك مما أعان على ستره، والصرف عن حقيقته[7]. وخدعت الحكومة الخفية الشاذلي، فأحاطت به، كما فعلت ببومدين، فكان أسيرا لها في بعض ما يأتي، فأحال على التقاعد -مثلا- من كانوا معدودين في رجال بومدين، كعبد العزيز بو تفليقة، ومحمد الصالح يحياوي، وعبد السلام بلعيد، ومحمد الشريف مساعدية، وأحلَّ محلَّهم «ضباط فرنسة»، كخالد نزار، وعباس غزيل، ومحمد العماري، وعبد المالك قنايزية، والعربي

---

(١) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، ٨١.

(٢) مصير وحدة الجزائر، ٤٣٦.

(٣) خمس عشرة سنة من النضال، ٣٣٩.

(٤) في أصل الأزمة الجزائرية، ١٧٤.

(٥) مصير وحدة الجزائر، ٤٤٧.

(٦) مذكرات جزائري، ٢/ ٢٣٨.

(٧) السقوط الكبير.

بلخير، ورقَّاهم إلى جنرالات. واتخذ العربي بلخير أمينا للرياسة، وأفرط في الثقة به، ومكَّن له في الدولة، حتى كان هو الحاكم الحقيقي، وأصبح غولا، يُخشَى جانبها، وهو واحد من كبار «ضباط فرنسة» في الجزائر، ومن أشدهم عداوة للتعريب[1]. وكان هؤلاء وأمثالهم هم الذين اختاروه رئيسا، وراعوا في اختياره طيبه، وسهولة توجيهه[2]، وهم الذين انقلبوا عليه لإصراره على توقيع قانون تعميم استعمال العربية.

واشتدت ضراوة الحكومة الخفية في الحرب على التعريب، منذ عام ١٩٨٨ إلى نهاية ما يسمى العشرية الدموية، وجدَّت في محاربة جمعية الدفاع عن اللغة العربية، فكسرت باب مقرها، وسرقت ما فيه، وقطعت عنها الكهرباء والهاتف، وكسَّرت زجاج سيارات أعضائها، فشكت إلى رياسة الحكومة، ورياسة الجمهورية، ووزارة الداخلية، ووزارة الثقافة والشباب والرياضة، ووالي الجزائر، فلم تردَّ عليها كلها[3]، كأن الذي كان يفعل ذلك هو مخابرات الدولة؛ فكانت تلزم الصمت إزاء ما تفعل؛ لأنها هي الحكومة الحقيقية التي لا يُعترَض عليها. ثم صودر مقر الجمعية بما فيه، وأُعْطِيَتْه جمعية متفرنسة (فرنكفونية)، ثم قَطعت عنها وزارة الثقافة المساعدة التي تعطيها الجمعيات الثقافية[4]. هذا إلى امتناع الصحافة عن نشر ما كان يكتب رئيسها عن قضايا العربية وأعدائها في الجزائر، وامتناع دور النشر عن نشر كتب أعضائها مخافة أن يُنتقَم منها[5]. ولما أنشأ بومدين لجنة للتعريب، قامت الحكومة الخفية بتشويه عملها من أجل أن تؤلِّب عليها الرأي العام، وتَصْرِف الحكومة عنه، فكان مما عملت أن شوَّهت الكلمات الفرنسية المكتوبة على لافتات المرور باستعمال طلاء بشع، وكسَّرت شواهد القبور المكتوبة بالفرنسية، وصوَّرت حطامها، ونسبت ذلك إلى أعضاء لجنة التعريب، وأرسلت صوره إلى بومدين، لاستعدائه عليهم، لكن ذلك لم

(١) الجزائر من أحمد بن بله، ٣٦ و ٤٨.
(٢) في أصل الأزمة الجزائرية، ١٧٢ وما بعدها، والجزائر من أحمد بن بله، ٣٦ و ٤٨.
(٣) خمس عشرة سنة من النضال، ٣ وما بعدها.
(٤) التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكفونية.
(٥) خمس عشرة سنة من النضال، ٣٢٢ وما بعدها، وفرنسا والأطروحة البربرية، ٨.

يَجُز عليه[1]. ولما كان الدكتور عثمان سعدي سفيرا للجزائر في العراق وسورية وقَّع معهما اتفاقين، ينزلان بموجبهما للجزائر عن حقوق التأليف والنشر لكل كتاب جامعي مقرر أو مرجع مترجم، وأن للجزائر أن تختار ما شاءت من الكتب التي شُفِع كل من الاتفاقين بأسمائها، وتَطبع منها بالأوفست ما شاءت، لتدرِّسها في جامعاتها. وشحنت سفارة الجزائر في دمشق وبغداد سبعمائة كتاب عراقي، وأربعمائة كتاب سوري إلى وزارة التعليم[2]، فنسخت منها مئات آلاف النسخ، وعاقدت ستين أستاذا سوريا على تدريسها، فلما تولت حكومة مولود حمروش، ألغت العقود بين الجزائر والحكومة السورية على تعريب التعليم[3]، واستردَّت الكتب المطبوعة من المكتبات، وألقتها في المخازن، أو أتلفتها، وأتلفت ما كان معها من أشرطة، لئلا يفاد منها في تعريب التعليم[4]، فلم يوقف لها على خبر، وكان وزير التعليم العالي بعد ذلك يزعم أن الكتب العربية غير موفورة. وبدل أن يتابع الطلاب دراستهم بالعربية تابعوها بلغة أجنبية، هم فيها ضعاف، فرسب منهم ٨٠٪، وإنما نجح أبناء الذين يتكلمون بالفرنسية في بيوتهم، ويحرصون على تقوية أبنائهم فيها، وتوريثهم إياها، وهم الذين كانوا يوافقون الإدارة الاستعمارية، ويحافظون على الفرنسية بعد الاستقلال[5].

وفي عام ١٩٩٢ أراد وزير التربية الجزائري، الدكتور علي بن محمد لِيُدْخل الإنجليزية في التعليم؛ ليكون للتلامذة الخيار بين الإنجليزية والفرنسية، ويَخرجوا من قبضة الفرنسية المفروضة منذ الاحتلال، فأعدَّ لذلك عدَّته، واستصدر به قرارا من مجلس الوزراء، على أن يُشرَع في العمل به من العام القابل. وكان في قراره منازعةٌ لفَرَنْسة سلطانها في الجزائر، وسيرٌ بها في طريق الاستقلال الثقافي؛ فخططت الحكومة الخفية لإخراجه من الوزارة قبل بداية الموسم الدراسي؛ لتحول دون إمضاء خطته، فسرَّبت امتحان الثانوية العامة قبل الامتحان بيومين، سرَّبت نسخة الامتحان الأصلية ونسخته الاحتياطية كلتيهما،

---

(١) راهن اللغة العربية في أوطانها، ٦٠.

(٢) التعريب في الجزائر، ١٠٨

(٣) فرنسا والأطروحة البربرية، ٣٢١ (هامش).

(٤) خمس عشرة سنة من النضال، ١٩٩.

(٥) التعريب في الجزائر، ١١٩.

إمعانا في إنجاح الخطة[1]. وكانت الطريقة التي سُرِّب بها الامتحان تدل على أن من تولوا تسريبه ما كانوا يخشون عواقب انكشاف عملهم، فقد كانوا يوزعونه علانية، ويعطونه كل من وجدوا في الشارع، ويخبرونه بأنه امتحان الثانوية العامة، ويسألونه أن يعطيه غيره؛ فلم يبق مركز من مراكز الامتحان في الجزائر العاصمة لم يسجِّل أن معظم الطلاب كانت بأيديهم مواضيع مقررات ذلك اليوم كلها، لا يحاولون إخفاءها، وفي يوم الامتحان وَجد الطلاب الأسئلة وأجوبتها معلَّقة في المدارس. وكانت أوراق الامتحان في خزانة حصينة جدا في الوزارة، ليس في وسع أحد أن يصل إليها، إلا إدارة الأمن وحدها، وكان وزير الداخلية يومئذ هو العربي بلخير، أحد كبار ضباط فرنسة في الجزائر، وقد حال دون أن يُحَقَّق في الحادثة، وكان ذلك في عهد محمد بو ضياف[2]. وفهم الوزير علي بن محمد أن «تسريب الأسئلة طبخ هاهنا وهناك»، أي في الجزائر وفرنسة[3]؛ فاستقال كما أرادت الحكومة الخفية، وأخفقت خطة إدخال الإنجليزية في التعليم، وبقيت الفرنسية كما كانت، غير منازعة، وسُمِّيَ مكانه أحمد جبار، وكانت مهمته إعادة امتحان الثانوية، وإلغاء خطط سلفه، وبعد نحو عامين عاد إلى عمله في جامعة باريس، بعد أن أتم ما كلَّفته الحكومة الخفية[4]. ولم يقف الأمر عند هذا، وإنما تجاوزه إلى الانتقام من الوزير علي بن محمد، بأن سَلَّطت عليه من جنود وزارة الداخلية مَنْ نَهَب منزله في اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى، بعد أن انتهزوا خروجه إلى بلدته ليقضي فيها أيام العيد مع والديه، وتركوا باب داره مفتوحا على مصراعيه، بعد أن نثروا كل ما كان فيها على الأرض، ولم يدعوا شيئا يخفُّ حمله من الأجهزة الإلكترونية والملابس والأحذية، والحلي، إلا أخذوه، ولم تحرك الشرطة ساكنا لكشف الفاعلين[5]. وفي عام ٢٠١٢ أصدر وزير البريد والاتصال والإعلام، موسى بن حمادي أمرا بتعريب وزارته، فشبَّ في الوزارة، بعد أسبوع من أمره، حريق عظيم، أصاب جزءا كبيرا من الوكالة

---

(١) مؤامرة منسية عمرها عشرون سنة.

(٢) لقاء مع وزير التربية الجزائري الأسبق علي بن محمد.

(٣) الشعب يريد إسقاط بن غبريط.

(٤) يوميات محارب في معاركه الأخيرة.

(٥) الموضع السابق.

التجارية للاتصال، وأتلف أساس الاتصالات بوسط الجزائر، بتخريب الأسلاك والألياف البصرية، وتدميرها تدميرا تاما؛ فانقطعت الشابكة، والهاتف الثابت، والناسوخ عن آلاف الحرفاء، وعُزِلت مؤسسات الدولة، ومنها قصر الحكومة، والمجلس الشعبي الوطني، والوزارات التي بالمكان المحترق، وتضررت منه المصارف والبريد بسبب عجزها عن تحويل الأموال، لانقطاع الشابكة. ولَمَّح بعض المراقبين إلى أن الحريق ربما كانت له علاقة بتعريب الوزارة [1]، وإذا لم يصح ذلك، فهو يدل على أن من الشعب من يتوقع مثله من الحكومة الخفية في الجزائر؛ لما يعلمون من عداوتها التعريبَ، وجدِّها في الحؤول دونه.

وبلغت الحكومة الخفية من التمكن في الدولة، والسيطرة على أجهزتها أنَّ المجاهدين من ضباط الجيش وأبناء المجاهدين والمصلحين كان لا يستطيع أحدهم أن يعلن رأيه فيما تفعل، أو يسير سيرة تخالف ما تريد منه إلا أقيل من منصبه، فقد كان علي كافي -إذ كان رئيس مجلس الدولة، بعد انقلاب ضباط فرنسة على خيار الشعب عام ١٩٩٢ وهو ضابطٌ من ضباط جيش التحرير، وابن مصلح من مصلحي الجزائر- لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة فيما تكيد به العربية، على ما كان يستنكر منه في نفسه[2]. وبلغت أوج قوتها بعزل الشاذلي بن جديد بعد أن استماتت في ثنيه عن إمضاء قانون تعميم استعمال العربية في الجزائر، وردِّه إلى مجلس النواب، لقراءته ومناقشته مرة أخرى، من أجل أن تُعِدَّ العدة لإسقاطه، إذا صُوِّت عليه مرة أخرى، فلما أبى إلا إمضاءه، ووقَّعه في ١٦ من كانون الثاني عام ١٩٩١، عزله الجيش يوم الحادي عشر من يناير عام ١٩٩٢، وكان زعيم الذين عزلوه الضابط السابق في جيش فرنسة بالجزائر، اللواء خالد نزار، وأحضر محمد بوضياف، فجعله رأسا لمجلس الدولة الأعلى. وكان بو ضياف غير متحمس للعربية، بل كان من أشد رؤساء الجزائر عداء لها[3]، ولا يؤمن إلا بالفرنسية، وكان يعلِّم أبناءه في مدارس البعث الفرنسي بالمغرب، فكانوا لا يحسنون التكلم ولا الكتابة بالعربية، حتى العامية[4]، وقال

---

(١) طوارئ لضخ أجور ١٥ مليون جزائري.

(٢) خمس عشرة سنة من النضال، ٨.

(٣) لوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية.

(٤) خمس عشرة سنة من النضال، ٧، وخمسون سنة من التعدد اللغوي، ٦٩.

يوم ٢٩/ ٦/ ١٩٩٢ إنه لا يرى التعريب؛ لأنه خرَّج آلاف الشبان الضائعين البطَّالين[١]. وتكلم بالفرنسية في لقاء له مع الصحافة الدولية في السادس عشر من فبراير عام ١٩٩٢، وكذلك فعل في مقابلته في القناة الفرنسية الثالثة في ١٨ من مارس عام ١٩٩٢. وردَّ بمناسبة عيد المرأة على صحافيات جزائريات بالفرنسية[٢]. وكان بعض المتفرنسين في الجزائر يعدُّونه «طوق النجاة الأخير، الذي كان بإمكانه إعادة الجزائر إلى مساري «الحداثة» و«التحديث» الحقيقين[٣]. فأمر محمد بو ضياف المجلس الاستشاري -وهو الذي خَلَفَ المجلس الشعبي الوطني المنتخب الذي حلَّه الجيش، وكان يرأسه رضا مالك- فأعد مرسوما تشريعيا، جمَّد به قانون تعميم استعمال العربية الذي أمضاه الشاذلي بن جديد، فظل مجمَّدا حتى ألغى اليامين زروال تجميدَه عام ١٩٩٦، وأسَّسَ المجلس الأعلى للغة العربية لمتابعة تنفيذه، فحملته الحكومة الخفية، ولا سيما وزارة الدفاع، على الاستقالة من الرياسة كما حملت عليها الشاذلي، لذلك السبب بعينه.

وكانت استقالة الشاذلي ومجيء محمد بوضياف الطور المهم الذي أعدت فيه الحكومة السرية بالجزائر العدة لجعل التعريب يخفق، فقد اتهمت التعليم بتخريج الإرهابيين، وهي تهمة قديمة جديدة، وقدمت لبوضياف صورة سوداء عنه، وحذرته تعميم استعمال العربية. واختصرت عمل المجلس الأعلى للغة العربية في التكريمات، دون ما أنيط به من متابعة إمضاء قانون تعميم استعمال العربية، وتقديم تقارير عن ذلك إلى الرئيس. وبعد اغتيال محمد بوضياف اجتمعت فئة من النواب في ٢٩ يونيو عام ١٩٩٢، فناقشت مشروع قانون، كان على مكتبه، وكان معهم تونسيون، فزعموا أن تعليم الفصحى ألحق الضرر بالفكر، ومكَّن الفكر «الأصولي الظلامي» الديني من الانتشار، وهو الذي أدخل الحركة الإسلامية في البلاد[٤]. وكان ما اتهمت به الحكومة الخفية التعريب تردادا لما كانت تنشر صحافة فرنسة، وما أدلى به ساستها ومثقفوها

---

(١) مصير وحدة الجزائر، ٤٤٧.

(٢) مبادئنا بين جموح السياسة وخبار الشعب، ٨٣ و٨٤.

(٣) خمس عشرة سنة من النضال، ٧، وخمسون سنة من التعدد اللغوي، ٦٩.

(٤) القصة الكاملة لتجميد قانون تعميم اللغة العربية.

من تصريحات معادية للتعريب والعربية، منذ عهد الشاذلي بن جديد إلى عهد اليامين زروال.

وفي إبريل عام ١٩٩٩ انتُخب عبد العزيز بوتفليقة رئيسا للجزائر، فجمَّد القانون من غير مرسوم، وصيَّر المجلس الأعلى للعربية هيئة استشارية، لا علاقة لها بتنفيذ القانون، وصير مجمع اللغة العربية الجزائري هيكلا، فيه موظف واحد، هو رئيسه، دون برنامج، أو عمل، أو إنتاج[١]. وخطب في مايو عام ١٩٩٩ في الطلبة الجزائريين، فشكَّك في كفاية العربية لتعليم العلوم، ثم زار فرنسة في يونيو عام ٢٠٠٠، فخطب في الجمعية الوطنية الفرنسية، فوضع أعضاؤها السماعات على آذانهم، يظنون أن سيخطب بالعربية، بيْد أنه خطب بالفرنسية، فعلموا أنما أراد ليطمئنهم بأنه مخلص للفرنسية، ولن يخونها[٢]. وكان يرسل الإشارة تلو الإشارة إلى أن من الواجب إعادة استعمال الفرنسية في الإدارة، لأن التعريب لم يرْقَ إلى الأمل الذي كام معقودا عليه، وإنما أخفق إخفاقا ذريعا، وأن استعمال الفرنسية في الإدارة ليس بمخالف للدستور، ولا شيء يمنعه، وأن الخلاف في استعمال الفرنسية في الجزائر صراع عقدي على صياغة المجتمع، ومن الخطأ إقصاء الفرنسية؛ فإنها جزء من التراث الجزائري، وتمكِّن من الانفتاح على العالم الخارجي. وتجاوز ذلك إلى مخاطبة الشعب بها، على كل حال، ولم يستثن من ذلك الفلاحين، وكبار السن، في الأقاليم النائية، وردَّ على من يتذمرون من كلامه بلغة المستعمر، وأنه غير لائق برئيس دولة عربية، بأنه كان يتكلم بالعربية والفرنسية قبل الاستقلال، وأن الفرنسية أيسر تعلما من العربية[٣]، وأقال الدكتور عبد الملك مرتاض من رياسة المجلس الأعلى للغة العربية، وكان من المنتقدين عليه سياسته اللغوية وكلامه بالفرنسية في المناسبات الرسمية. وفي ١٩ إبريل ١٩٩٩ أُهمل قانون تعميم اللغة العربية، ونحيت العربية من المجالات المهمة كلها، وبدأ هجوم الفرانكفونية على العربية، فالرئيس ووزراؤه يخاطبون الشعب بالفرنسية، ولا يتكلم الرئيس بالعربية في المحافل الدولية التي يحضرها، وفي

---

(١) التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكفونية.

(٢) لوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية.

(٣) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٤٣ وما بعدها.

أسفاره إلى الخارج إلا نادرا[1]، وصار بعض الطامعين في الوزارة يتبارون أمامه أو في التلفزة في الكلام بالفرنسية، علَّهم ينبهونه على فرنسيتهم الديغولية، ليفضلهم بها على الذين يتكلمون بالعربية[2]. وألَّف لجنة لإصلاح التعليم، جعل رئيسها واحدا من غلاة الحركة البربرية، يدعى ابن زاغو، معه مائة وستون من الشيوعيين والمتفرنسين، وتيار التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية البربري الذي يرأسه سعيد سعدي المعادي للعرب والعربيَّة والإسلام. وجعل جلَّ أعضائها قادة في أحزاب شديدة العداوة للإسلام والعروبة، مشهورين بشن الحملات على التعليم الجزائري، ووصفه بأشنع الأوصاف، لأسباب، لا علاقة لها بالتربية، ولا بالمنهج التعليمي، وبعضهم موظفون متقاعدون، أكثرهم مع من غلب، وهوى كثير منهم قريب من التغريبيين، وقليل من أعضائها من المنتمين إلى الاتجاه الوطني العربي الإسلامي، لكنهم كانوا يغلِّبون المطامع، وينتظرون المكافأة على المواقف. وكانت خالدة مسعودي -مستشارة عبد العزيز بوتفليقة، وعضو التجمع من أجل الثقافة، وهي بربرية معادية أشد العداء لعروبة الجزائر وإسلاميتها- هي الرئيسة الحقيقية لهذه اللجنة. وكان مما أوصت به اللجنة أن العربية هي التي مهدت للأصولية والفكر الظلامي (الفكر الإسلامي)، وأن القضاء عليها من شأنه إلغاء أهم سبب من أسباب الغلو، وأن الفرنسية ضرورة إستراتيجية للجزائر، وبها لا بالعربية، ستتقدم وتزدهر. والشق الأول من التوصية هو نص البيان الأوربي الذي أصدره تعليقا على إمضاء الشاذلي بن جديد قانون تعميم استعمال العربية، أما الشق الثاني، فمما يترتب على الشق الأول، فإذا كانت العربية هي مصدر الأصولية والفكر الظلامي، فإن اللغة التي ينبغي أن تخلفها هي الفرنسية لا محالة، فليست بإسلامية، وهي الضرورة الإستراتيجية. وكان أكثر من ٩٠٪ من أعمال اللجنة منصبًّا على أمور التعليم الابتدائي والثانوي، وكان المكتب الذي يسيِّرها مؤلفا كله من جامعيين لا يعرفون التربية من الداخل، ولا علاقة عضوية لهم بها، ما عدا واحدا منهم كان في التعليم الثانوي قبل أكثر من عقد من الزمن، ثم انقطع للعمل في حزبه.

---

(١) واقع الإصلاح التربوي في الجزائر، ١٢٧.

(٢) الإدارة العمومية والرئاسة تخلت عن العربية، واطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، ١٠٤ - ١٠٦.

وكان من توصياتها إلغاء التربية الإسلامية وتعويضها بما سمته التربية المدنية والأخلاقية[1]، وأن تعاد الفرنسية سيرتَها الأولى في الجزائر قبل التعريب. ومن آثار العمل بتوصياتها أنه في عام ٢٠٠٢ قرر مجلس الوزراء أن تدرَّس الفرنسية من السنة الثانية الابتدائية بدلا من السنة الرابعة، كما كان معمولا به من قبل، على أن يبدأ ذلك في العام ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥، ويبدأ تعليم الإنجليزية من السنة الأولى المتوسطة، بدلا من السنة الثامنة، وجُعِلت الفرنسية لغة تعليم المواد العلمية في الثانوية[2]، بعد أن كانت معربة. وقال في قمة بيروت الفرنكوفونية في ١٨ أكتوبر عام ٢٠٠٢: «يجب علينا أن نعرف اليوم كيف نتخلص من الحنين الحساس الذي يعبر عنه الانطواء على النفس، وننفتح بلا أي عقد، على ثقافة الآخر، لمواجهة رهان الحداثة، والنمو بطريقة أفضل، بأنفسنا، وفي أنفسنا، ...، واستخدام اللغة الفرنسية رباط يضمن وحدتنا»[3]. ويناقض هذا أنه قاطع قمة المنظمة الفرنكفونية التي عقدت بين ٢٨ و ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٦ ببوخارست الرومانية[4]، ودعا المدارس الخاصة إلى التخلي عن الفرنسية للعربية في هذا العام أيضا، ولذلك نشأت منذ عام ٢٠٠٧ مائتا مدرسة في الجزائر تدرس بالعربية[5].

وإنما كانت لجنة ابن زاغو صورية، يخادع بها الجزائريون عن أمر، بُرِم بليل، هو أن الذي وضع خطة ما يسمى «إصلاح المنظومة التربوية»، في عهد عبد العزيز بو تفليقة، خبراء فرنسيون، لكن حزب فرنسة في الجزائر -وكان تغيير المنظومة من برنامجه- احتال على الجزائريين، فأراهم أنه يريد استيراد «إصلاحه» من ولاية كيبيك الكندية؛ لأن استيراده من فرنسة يثير حفيظتهم، فعدلوا عنه، فأرسلت فرنسة خبراءها إلى كيبيك، ليلقاهم بها الجزائريون الذين وُكل إليهم أمر «الإصلاح»، وهم المجموعة التي تولت كتابة تقرير ابن زاغو، ومنها وزير التربية ومقرر اللجنة. وأقام الوفدان الفرنسي والجزائري في كيبيك

(١) وزير التربية الجزائري الأسبق فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا.
(٢) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، ٨٢.
(٣) المشهد اللغوي وتعليم اللغات في المغرب الكبير من النشأة إلى أيامنا، ١٩٦.
(٤) السابق، ١٩٦.
(٥) السابق، ١٩٧.

ستة أشهر، يُعِدَّان التقرير، فلما فرغا منه، اجتمعت لجنة ابن زاغو بالجزائر اجتماعا صوريا؛ لتمضيه من غير أن تغير منه فاصلةً فما فوقهما. وكان التقرير سريا جدا، ولم يتعدَّ عملُ اللجنة الاستماع إلى مضمونه بالفرنسية. وكانت لجنة كيبيك تطمع أن يُمضَى من غير أن يناقشه الشعب وخبراء التربية المتخصصون في الجزائر، بيد أن أمره انكشف؛ فنزعت مكرهةً إلى أن يُمضَى بطريق المؤسسات الدستورية على أنه إصلاح، لا غنى عنه. وكانت الحكومة تخشى مناقشته مع التربويين الجزائريين، لِمَا تجد من اليأس من إجازته، فراغت وزارة التربية إلى تنظيم أيام طويلة في الصيف للإقناع به، ومساندته، وتدخلت في ذلك فرنسة تدخلا صريحا، فأرسلت خبراءها ليسوِّغوه، ويسوِّقوه[1]. وكل شيء في هذا التقرير، وإعداده، ولجنته، وغاياته، مريب، وغامض، ويدل على أنه ليس جزائريا، ولا لمصلحة الجزائر، وإنما هو فرنسي بحت، ولمنفعة فرنسة وحدها، ويبين عن أطماعها القديمة الجديدة في الجزائر. ومما يدل على ذلك قول ميشال فوزال، رئيس المجلس الإقليمي الفرنسي في الجزائر يوم ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٥ إن فرنسة بحاجة إلى الجزائر، وحيويةِ شبابها للمحافظة على هويتها الثقافية، فقد بنى عليه بعض الجزائريين أن «إصلاح» المنظومة التربوية بالجزائر مشروع تغريبي، غرضه تجريد الجزائريين من هويتهم، وجعلهم خدما لهوية فرنسة، ففرْض الفرنسية منذ السنة الثانية الابتدائية، قبل أن يتعلم الطفل صياغة جملة بلغته الأم، وإلغاء مادة الشريعة، وتقليل ساعات التربية الإسلامية، ونقص معدلها، إنما هو تمثيل لأغراض فرنسية بحت[2]. وقال علي كافي، رئيس المجلس الأعلى للدولة من عام ١٩٩٢ إلى ١٩٩٤، في حوار له مع مجلة «الوسط» في ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٠ إن الحيل التي تروم إفساد التعليم غاية في الخطر؛ لأنها ستوجه الأزمة وجهة أخرى، لا تُحمد عقباها[3]. يلمح إلى عمل لجنة ابن زاغو، وما تريد بالتعليم. على أن ما كانت حكومة الجزائر تخبئ عن شعبها من أمر هذه اللجنة وتوصياتها بشأن الفرنسية قد انكشف، فأصبحت الجزائر

---

(١) انظر: قولوا للشعب الحقيقة، وقبلة للثوار أم للمفسدين الفرنسيين.

(٢) مصير وحدة الجزائر، ٥٠٠.

(٣) السابق، ٥١.

-بالاتفاقات التي عقدتها مع وزارة الخارجية الفرنسية- تستقدم أساتيذ الفرنسية لإحياء المنظومة التربوية، وفَرْنَسة ترعى الفرنسية رعاية رسمية، وقد أنهى ذلك الجدل الذي كان دائرا في لجنة ابن زاغو في أولوية الفرنسية والإنجليزية في التعليم بالجزائر[1]، فقد استقدمت وزيرة التربية والتعليم، نورية بن غبريط أحد عشر خبيرا فرنسيا للمساعدة على صياغة «إصلاحات» الجيل الثاني، أو ما يعرف بـ «إصلاحات الإصلاحات»، وبدأت عام ٢٠٠٢ م. وقال المطلعون على الشأن التربوي في الجزائر إنهم قَدموا في عمل يمتد إلى عام ٢٠١٧، ويتضمن تكوينا تربويا، يوافق «الإصلاحات» المقبلة والمناهج الجديدة، ولا سيما طريقة تدريس الفرنسية[2]. وهذا كله يسوِّغ ما قال بعض الجزائريين من أن عهد عبد العزيز بوتفليقة أسوأ عهد مرَّ على العربية بعد الاستقلال[3]؛ فقد بعث صراعا، كان يوشك أن يخمد، وعاد بعد نحو من أربعين عاما من الاستقلال إلى مخاطبة الشعب بالفرنسية، وصارت التلفزة الجزائرية لا تتحرج من تقديم المسؤولين الجزائريين وهم يخاطبون الشعب بالفرنسية، ويسمون ذلك «انتهاك المحرمات»، وصارت الفرنسية هي لغة الإدارة العامة، ومنها الرياسة، رمز السيادة، والمراسلات، والاجتماعات، والتصريحات، وخطَّط للعودة بالتعليم إلى ما كان عليه قبل التعريب؛ ففتح لفرنسة شهوة مشاركة الجزائريين في تنشئة أبنائهم، والترويج للفَرْنسة (الفرنكوفونية) في العالم[4]. وفي عهده شرطت سفارة فرنسة الإذن للجزائريين بدخول فرنسة باجتياز امتحان في الفرنسية تجريه للمتقدمين، وأعفت منه الحاصلين على الثانوية الفرنسية، والدرجات الجامعية التي تدرَّس بالفرنسية[5]. وكان ذلك بعد صدور قرار ما سُمي إعادة الاعتبار للفرنسية، ومساواتها بالعربية. وكان قصد السفارة حمل الجزائريين على تعلم الفرنسية والتخصص فيها[6].

---

(١) الإنجليزية تهزّ عرش الفرنسية في الجزائر.

(٢) بعد قرار وزارة البريد: هل ستختفي الفرنسية من الوثائق الرسمية الجزائرية؟.

(٣) انظر: إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، ١٢٩ وما بعدها، واللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، ٨٢، ولوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية.

(٤) الإدارة العمومية والرئاسة تخلت عن العربية، ووزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا.

(٥) اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، ١٢٦.

(٦) السابق، ١٢٧.

فعهد عبد العزيز بو تفليقة -إذن- عهد ردة عن التعريب في الجزائر؛ بما جَمَّد من قرار تعميم استعمال اللغة العربية بمؤسسات الدولة كلها، منذ توليه الرياسة، ومكَّن للمتفرنسين في مفاصل الدولة، ودافع عنهم، وأتاح لهم أن يمكِّنوا للفرنسية، ويحاربوا العربية ما شاؤوا، كما قلَّد خليدة تومي منصب وزيرة الثقافة اثني عشر عاما، من عام ٢٠٠٢ إلى ٢٠١٤، وهي من أشد الناس تعصبًا للفرانكفونية والعلمانية في البلاد، وكان الفساد في عهدها بالملايين في ميزانية الثقافة، ومع ذلك نالت تأييده وتأييد العلمانيين[١]، وقلد نورية بن غبريط وزارة التربية والتعليم، على كثرة شكاوي الشعب منها، وكثرة ما سيِّر من تظاهرات ومسيرات مطالبا بإقالتها، لمصادمتها ثقافة الشعب، وخروجها على ثوابته، وتحديها منظمات المجتمع المدني وقراراتها، وفصلها الأساتيذ المضربين[٢]، وكثرة الفضائح في عملها، فقد ثبت عليها أكثر من عشرين فضيحة في التربية والتعليم في مدة قصيرة (أقل من ثلاث سنين)، منها تسريب امتحان الثانوية العامة عام ٢٠١٦[٣]. ومع ذلك ظل الرئيس يجدد الثقة بها، ويبقيها في إدارة «الإصلاحات» التربوية، على ما أنشرت من صراع الهوية، بعد خمودها ما يزيد على ثلاثين عاما[٤]. وهو أمر، ما ينبغي أن يَتوقع غيرَه من عرف كيف تولَّى عبد العزيز بو تفليقة الرياسة، وملابسات توليه إياها، فقد جاء على حين انتصارٍ من فرنسة على الشعب الجزائري، بعد إلغاء خياره السياسي عنوة، والثأر من الاتجاه العربي الإسلامي الذي كسر شوكتها في حرب التحرير بالحؤول بينه وبين الحكم، وتولي حكومتها الخفية الحكم علانية، وإقالة الشاذلي بن جديد لإصراره على إمضاء قانون استعمال العربية؛ فمن غير الممكن أن يتولى رياسة الجزائر حينئذ مَن لا ترضى عنه، أو مَن له برنامج، يخالف ما تريد. ولذلك قال بعض المطلعين إن سياسته اللغوية هي ثمن ما تعهدت به من إسكات ضباطها عنه، ما مكَّن للفرنسية، وإن كان المعروف أن فوزه بالرياسة كان بتدبير ممن

(١) لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية في الجزائر.
(٢) الشعب يريد إسقاط بن غبريط.
(٣) الموضع السابق.
(٤) لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية.

يسمون صقور الضباط[1]، أي ضباط فرنسة في الجزائر، وإذا صحَّ ذلك، فهؤلاء لا يرضون إلا عمن رضيت عنه فرنسة، وليس لهم قرار دونها. ويرى بعض الباحثين أنه بعد عام ١٩٨٩ تغيرت سياسة الجزائر، فغدت أكثر لينا في معاملة فرنسة، ولاسيما عهد عبد العزيز بوتفليقة، وربما غضت فرنسة الطرف عن بقائه في الحكم مدة طويلة، على عدم أهليته للحكم، مقابل الحفاظ على منافعها في الجزائر وعدم فتح ملفات، تتعلق بالحقبة الاستعمارية، وكانت السياسة الجزائرية إلى عام ١٩٨٩ تتسم بالقوة، وقد أحرج بومدين الحكومة الفرنسية في كثير من المحافل الدولية والإفريقية والإقليمية، ولذلك سمته وتخلصت منه[2].
وفي تاريخ عبد العزيز، وشخصيته، وتوجهه الفكري والسياسي -إلى ذلك- ما يحمل على الظن أن له استعدادا لأن يقبل بتنفيذ سياسة فرنسة في الجزائر لقاء أن ترضى به رئيسا لها، فقد استقبله شارل ديغول عام ١٩٦٣، وكان المقرر أن تكون مدة اللقاء بينهما نصف ساعة، ولكنه استمر ساعتين، وبعد اللقاء قال شارل: «هذا الشاب يريد لنا خيرا»[3]. وما يفهم من ذلك أنه راضٍ عن توجهه السياسي، ورأيه في مستقبل علاقة الجزائر بفرنسة، وأن في ذلك الرأي خيرا لفرنسة، وأنه كان واثقا بأن فرنسة يمكن أن تبلغ عليه ما تريد. ولا يرضى شارل ديغول عن سياسي جزائري إلا أن يدني الجزائر من مراد فرنسة، ومرادها أن تبقى جزءا منها لا يتجزأ، وأن يمكِّن للفرنسية فيها تمكينا يعينها على ما تريد من استلحاقها. مع أن عبد العزيز كان ضابطا في جيش التحرير، ثم واحدا من وليجة بو مدين، بعد الاستقلال، ورجالِه الذين أُخرِجوا من الحكم في عهد الشاذلي بن جديد، بإشارة ممن كانوا يتولون الأمر من «أهل الحل والعقد»!. ولعل ما آنس منه شارل ديغول في ذلك اللقاء، وما علمت منه فرنسة بعد شارل ديغول، سبب أنه كان مرشحها القريب لخلافة بومدين[4].

وقد بين الكاتب الفرنسي، هيرفي بورج، في مذكراته جانبا مجهولا من توجه عبد العزيز بو تفليقة، ورأيه في فرنسة والعلاقة بينها وبين الجزائر، يحسن أن

(١) الجزائر من أحمد بن بله، ١٠٩.
(٢) «الجربوع الأزرق».. ذكرى التجارب النووية الفرنسية مازالت تؤلم الجزائر، https://www.alhurra.com/algeria/2021/02/13
(٣) بو تفليقة والمصالحة مع فرنسة.
(٤) انظر: في أصل الأزمة الجزائرية، ١٦٧.

يشار إليه هاهنا؛ لأنه يبيِّن سبب أنه كان المرشح القريب منها لخلافة هواري بو مدين، ويفسر بعض سياسته اللغوية، كما يفسر علاقته بفرنسة بعد الحكم. وكان هيرفي صديقا لعبد العزيز، على عهد بومدين، وقال إنه في عهد بومدين -على ما كان بينهما من صداقة- كان يضمر خلافه في وجهته السياسية وعلاقته بفرنسة، وكانت له رغبة في إحراق المراحل مع فرنسة، ولم يكن «مفتونا بأوثان الثورة، وأبطال الاستقلال، وأغاني المفاخر، وعبادة الشهداء»، التي تُستعمَل في الغالب للانتقام والعقيدة، والنهج السياسي، وكان يرى أن على فرنسة أن تدرك أن الجزائر ليست ثلاثة أقاليم، وأنها بلد، سيد، مستقل حر في تحالفه، واختياراته الديبلوماسية، وحركته في السياسة الدولية، وقد صنع التاريخ بينها وبين فرنسة وشائج حميمة، وسيكون أهل الجزائر أغبياء إن تنكروا لذلك، ومن الخير لهم وللفرنسيين أن يتعلموا العمل معا، من غير أحكام سابقة، ودون تحفظ، ولا عُقَدِ فَوْقٍ أو نقْصٍ. ولكنه كان ينتظر مبادرة رمزية تقوم بها فرنسة تجاه الجزائر. ولم يُتح له العمل بنظريته هذه في العلاقة بين فرنسة والجزائر إلا عام ١٩٩٩، وهو العام الذي تولى فيه الرياسة. وهذا يفسر سياسته تجاه فرنسة والفرنسية، وكلامه بالفرنسية بمناسبة وغير مناسبة، غير أن فرنسة لم تكن مستعدة لتعامله معاملة خالية من عقدة الفوق، ولا من أحكام سابقة؛ لأن معدتها لَم تهضم استقلال الجزائر[(١)]. لكن هذا وحده -وإن كان يكشف جانبا مهما من شخصية عبد العزيز بوتفليقة- لا يفسر ما صنع من الفرْنسة، فإن بعض رأيه هذا قد يكون له ما يسوغه، كتجاوز الماضي، بشرط أن تكون المبادرة من فرنسة، وأن يكون منها اعتذار نصوح، وتعويض مجز عن جرائمها في حق الجزائر والجزائريين، يتبعهما احترام لسيادة الجزائر، وعدول عن الأطماع التي كانت وما زالت هي التي تصنع علاقتها بها؛ وإنما يفسره أكثر من ذلك ما تعلَّمَ من رأس الشاذلي بن جديد، واليامين زوال، وأن لا بقاء لرئيس جزائري، لا يطأطئ رأسه للفرنسية، ويخلي بينها وبين أن تبلغ ما تريد لها فرنسة من صبغ الجزائر صبغة فرنسية، تلحقها بها كما صبغت اللاتينية الشعب الغالي صبغة رومانية، ألحقته باللاتين، وأن كلامه بها وسيلة يتوسل بها إلى طمأنة فرنسة على ذلك،

---

(١) بو تفليقة والمصالحة مع فرنسا.

وإثبات حسن نيته تجاه الفرنسية، كما فهم مجلس النواب الفرنسي، وأن فرنسة قد تنتهز ذلك ما اتَّسع، وتعطيه من الأدلة على رضاها عنه، وما يتبع رضاها من المدِّ له في الحكم، ما يُوزِعُه بالتمادي فيما يفعل، كالبرقية التي بعث بها إليه جاك شيراك بعد القمة الإفريقية بالقاهرة، يشكره فيها؛ أن تكلم بالفرنسية[1]. هذا إلى أنه ليس في حاجة إلى كثير من الذكاء ليعلم أنه رئيس مستعمرة فرنسية، يحكمها جيش فرنسي ذو جنسية جزائرية، أو مزدوج الجنسية، ألغى خيار الشعب، ودمرها على رؤوس أهلها بأمر من فرنسة وعون وتخطيط وإشراف وتسليح؛ فليس في وسعه أكثر من المداهنة، وإمضاء ما يقرر الجيش الذي جاء به إلى الرياسة، وهو محيط به.

(٣)

أما تونس، فتمكَّن فيها المتفرنسون بعد الاستقلال في مراكز الحكم والإشراف والقرار والتسيير في الإدارة، وفي المؤسسات التربوية والتعليمية، فاطَّرحوا التعريب[2]، وكانوا يشايعون الحبيب بورقيبة في مشروعه؛ ليتبلَّغوا به منافعهم السياسية والفكرية، وهي تخالف ثقافة الشعب التونسي. وقد اجتمع هؤلاء فيما يسمى الحزب الدستوري، وهو حزب كان يحصر نفسه في دائرة المثقفين ثقافة فرنسية، ويعادي علماء الزيتونة وخريجيها، وأصحاب الثقافة العربية الإسلامية. وكانت الصحافة المحلية في عهد الاستعمار الفرنسي تغذي هذا الاتجاه، وهي -في الجملة- تابعة للإدارة الفرنسية والماسونية اليهودية التي كان لها سلطان كبير في الاقتصاد والمجتمع التونسي، وأثر كبير في اتساع ما بين الحزب وعلماء الزيتونة وطلبتها، وكل ذي توجه إسلامي[3]. وقد انقسمت الدولة وأجهزتها وتصدعت، وظل الحاكمون في تونس: «الإصلاحيون»، والمنتمون إلى الطبقة الوسطى (البروجوازية) في العقد السابع مجمعين على معاداة التوجه العروبي والتحرر العربي[4]، ولكن ذلك كان غير

---

(١) مصير وحدة الجزائر، ١٩١.

(٢) محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، ٢٦٠.

(٣) مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي، ١٠٦.

(٤) التعريب وتنسيقه في الوطن العربي، ٣٤.

معلن، كما كانت سياسة الإبقاء على التعليم الفرنسي كما كانت أيام الاحتلال، وإسناد التعليم إلى فرنسيين، غيرَ معلنين[1]. وكان التعليم التونسي الرسمي قبل الاستقلال متأثرا تأثرا شديدا بالتعليم الفرنسي، لغة وفكرا، وكانت العربية فيه لغة ثانوية، بل لغة من اللغات الأجنبية في معظم المعاهد، وكانت برامجه نُسَخًا من البرامج الفرنسية، عارية من الروح الوطني، وتُعرِض إعراضا مطلقا عن كل ذي صلة ببيئة التلامذة، فلا تدرِّس تاريخ البلاد العربية والإسلامية ولا جغرافيتها، ولا جغرافية تونس، وإن دُرِّست دُرِّست كما تدرَّس مدغشقر، وجغرافية أسترالية. ولكنه يملأ عقول التلامذة بتاريخ فرنسة، وسير زعمائها، ووقائعها من عهد الغاليين إلى تاريخ ريشيليو[2]، وما يتبع ذلك من تفاصيل، كأسماء الأودية، والأنهار، والحوادث الصغيرة، وكانت الكتب المقررة هي الكتب التي يدرسها تلامذة فرنسة، أو لا تختلف عنها إلا قليلا، من أجل ذلك كان التلامذة لا يفهمون بعض العبارات الواردة فيها، كالعبارة التي تقول على ألسنتهم: «أجدادنا الغاليون»؛ فليس فيهم من يعتقد أنه غالي، ولا أن له سلفا في فرنسة، ينتسب إليه، ويعتز بتاريخه. وكانوا مع ذلك مجبرين على حفظ ما يدرسون؛ من أجل أن يجتازوا الامتحان، ولا سيما امتحان الشهادة الابتدائية[3].

ولما كانت الفرنسية هي الغالبة على الإدارة التونسية في عهد الاحتلال، كان حتما أن يكون الذين يتولونها بعد الاستقلال هم الذين يحسنون الفرنسية، وهم الصادقيون، وخريجو مدارس البعوث الفرنسية، وأُقصيَ ذوو التعليم العربي الإسلامي من الوظائف الكبرى[4]، كما أُقصي نظراؤهم من الجزائريين. ولما وقع بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف ما وقع من نزاع على رياسة حزب الدستور الجديد، انحاز صالح إلى التوجه القومي الناصري، وانحاز معه الزيتونيون، وانحاز الصادقيون إلى بورقيبة، وأعرضوا عن المشرق، واتجهوا

(١) خمس عشرة سنة من النضال، ٩٩.

(٢) أرماند جان دو بلاسيس دو ريشيليو: رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنسي، كان وزير الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، ثم أصبح كاردينالا ورئيسا للوزراء عام ١٦٢٢م حتى توفي عام ١٦٤٢م، وهو خريج السوربون، ومؤسس أكاديمية اللغة الفرنسية.

(٣) كتاب التاريخ المدرسي، ٣٠ وما بعدها، و١٣٤ و ٣٧٧ وما بعدها.

(٤) بورقيبة والإسلام، ٣٤ و ٨٧، والازدواجية اللغوية الأمارة، ١٧١، وعلاقة الهوية باللغة بين التنظير والواقع، ٦٩.

إلى الغرب، وقضوا على التعليم الزيتوني، ووحّدوا التعليم على الازدواج اللغوي، وأغلقوا مدارس تحفيظ القرآن. وكانت لهم عصبية للفرنسية وثقافتها، وازدراء للعربية، وما يمت إليها بصلة، من آداب، وعلوم، وفنون، وأفكار، وكان أكثرهم لا يعلِّمون أبناءهم في المدارس التونسية، وإنما يعلمونهم في المدارس الفرنسية في تونس وخارجها. ويتلخص رأيهم في العربية والفرنسية في العبارة التي تنسب إلى زعيمهم باش حانبة: «التثقيف بالفرنسية، وتعليم العربية». ودرست عُصَب منهم في جامعات فرنسة، هي التي تولت تسيير وزارات التربية والتعليم[1]. وكانوا -كما يبدو من كلام باشَ حانبة- يعارضون فكرة الكُتَّاب العصري، والإبقاء على الكتاتيب القرآنية، ويُلحُّون على أن تكون المدارس في تونس مدارس عربية فرنسية، على غرار المدارس الحكومية. ولما اتهم الزيتونيون باش حانبة بأنه يريد القضاء على العربية، قال: إن دراسة العربية ضرورية للتونسي حتى لا يفقد فرديته (هويته)، ولكن تقدم التونسيين الثقافي يجب -لكي يتم سريعا- أن يكون بلغة أوربية[2]. وهذا ما عملت به حكومة بورقيبة بعد الاستقلال، وكان بورقيبة من خريجي المدرسة الصادقية، ويرى رأي خريجيها، وهو السياسة التي كان مدير التعليم في تونس إبان الاحتلال، لويس ماسويل، يتبعها. واستمر الصادقيون في الحكم ثلاثين عاما مع بورقيبة، وما يزيد على عشرين مع زين العابدين بن علي، وحافظوا على فوق الفرنسية في المؤسسات التعليمية كلها، ولم يكن التعريب إلا شعارا يُتَقَرَّب به إلى الدول العربية رجاء أن تعين على ضائقة اقتصادية، إذا أَلَمَّت[3].

وكان بو رقيبة يعدُّ الحفاظ على الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي أمراً محموداً وتقدمياً، وكان هو سياسته في التعليم طوال حكمه، وكان لا يخرج عن تلك السياسة مكرها إلا عاد إليها. وظلت السياسة التعليمية من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٨ على ما كانت عليه في عهد الاستعمار[4]. أي إن ما كان في هذه المدة

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ٧٤ وما بعدها، والمسألة اللغوية في تونس، ٣٧٨، والازدواجية اللغوية الأمارة، ١٢٢، وضعف التعريب النفسي، ١٣١.

(٢) التعليم في المغرب العربي، ٧٤ وما بعدها.

(٣) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٤ وما بعدها.

(٤) التعليم في المغرب العربي، ٧٧.

من تعريب -على قلته- لم يكن من عمل حكومة «الاستقلال»، وإنما هو مما أمضت من خطط الاستعمار، ولا كان دالا على عزم منها على الوفاء بمطالب الحركة الوطنية، التي كان همها استرداد الهوية التونسية، فقد نص «إصلاح» عام ١٩٤٩ -مثلا- على جعل العربية لغة تدريس بعض المقررات الأساسية، واقترَحَ أن تُجعَل حصص العربية والفرنسية في السنتين الأوليين من الابتدائية متساوية، وهي أربع عشرة ساعة وعشر دقائق لكل منهما، وزاد حصصَ العربية في سائر السنوات الابتدائية، فجعلها إحدى عشرة ساعة وعشرين دقيقة، في المدارس الفرنسية العربية، وهي التي يدرس فيها التونسيون، أما المدارس الفرنسية الخالصة التي كان يرتادها أبناء الأغنياء وحدهم، فجَعل للعربية فيها ساعتين، في السنتين الأوليين، وثلاثا لسائر السنوات، وجعل حصص العربية في الثانوية بين تسع ساعات وثلاث عشرة، في الأسبوع، على حسب السنوات[١].

وكان العزم على مواصلة الحكومة التونسية سياسة الاستعمار الفرنسي في التعليم هو ما تدل عليه أقوال كبار قادة الحزب الدستوري الذي تولى الحكم بعد الاستقلال، وهي سياسة قائمة على الازدواج اللغوي في التعليم[٢]، كما يدل عليه تكليف بورقيبة جان دوبياس، مدير مركز البحوث النووية الفرنسية أيام شارل ديغول، رسْمَ خطة التعليم في تونس بعد الاستقلال سرًّا، وكان ذلك على إثر تأليف الحكومة لجنة لوضع السياسة التعليمية في تونس «المستقلة» عام ١٩٥٨، فكانت توصياتها -في الجملة- تدعو إلى توحيد التعليم، وتعريب العامِّ منه، وتعميمه، والحفاظ على القيم الثقافية الوطنية وإحيائها، والانفتاح على الثقافة العصرية، والعزم على اللحاق بركب الحضارة التقنية، والتنمية، والنهوض بالإنسان. فكلَّف بورقيبة جان دوبياس أن يعد خطة مضادة لخطتها. وكان من غير المتوقع أن تخرج خطته عن سياسة فرنسة في تونس، وهي أيضا سياسة بورقيبة التي لا يريد غيرها، ولو أراده لالتمس التخطيط له عند غير جان. وكان مجمل ما أوصت به خطة جان أن التعليم بالعربية مخاطرة؛ لأن العربية غير مهيأة للتعليم، ولا تصلح إلا للدين والفلسفة، وكان أول من

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ٧٩.
(٢) السابق، ٨٣.

وصفها «بالعجز، وأنها ليست لغة علوم، ولا تصلح لتعليم العلوم الدقيقة»[1]، واتهم التعليم الزيتوني بالثقل، وضعف الأداء، وأوهم الزيتونيين أن سيُخَصُّون بالدراسات الشرعية تمهيدا لعزلهم عن نظام التعليم الجامعي الذي وَضع نواته الأولى على منوال النظام الفرنسي، وتولت ذلك لجان انتداب فرنسية، أقصت الزيتونيين وذوي التعليم العربي. ورسم جان خطة سرية لاجتثاث التعليم الزيتوني في تونس، كما كشف عن ذلك عالم الذرة التونسي البشير التركي، وكان عنده أصل خطة جان، فأمضى الحبيب بورقيبة خطته، وكان القضاء على التعليم الزيتوني قد أعيا قبله فرنسة طوال استعمارها تونس[2]. وقال جان إن قدَر تونس -بسبب موقعها الجغرافي- أن تكون صلة بين الشرق والغرب، وهذا ما جعلها تتميز بـ «موهبة الازدواج اللغوي»[3]، وازدواج لغة التعليم هو الذي يلائم الدولة الحديثة، وهو الذي جعل التعليم الصادقي يكوِّن النخبة التونسية. وأوصى بجعل السنتين الأوليين من الابتدائية بالعربية، وجعْل سائر السنوات مزدوجة اللغة بين العربية والفرنسية، وأن يعرَّب التعليم الابتدائي سنة بعد سنة، ويجعل التعليم الثانوي ثلاث شعب: شعبة (أ)، وتكون معربة كلها، وشعبة (ب)، وتكون انتقالية مزدوجة، أغلب موادها بالفرنسية، وشعبة (ج) وتكون فرنسية خالصة، ثم تنتقل بالتدريج إلى (ب)، ثم تجعل الشُّعَب كلها معربة، أي تنقل إلى نظام شعبة (أ). وكان في هذا إقرار بازدواج لغة التعليم، يجعل الفرنسية لغة المواد العلمية والتاريخ والجغرافية والفلسفة، والعربية لسائر المواد[4]، وهي مواد ليست بذات أهمية كبيرة، في نظره، ونظر كثير ممن ينظرون إلى التعليم نظرة مادية. ومن أجل تعريب الإدارة والتعليم أُرسل مئات الطلبة في بعوث رسمية إلى جامعات المشرق العربي، ولا سيما سورية، لدراسة العلوم بالعربية. لكن بعد عشرة أعوام ظل التعليم الابتدائي كما هو،

---

(١) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠٩، وجريدة الصباح، ٢٠/ ٥/ ١٩٧٩ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣١ - ٣٤).

(٢) تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، ٤٥٢.

(٣) التعليم في المغرب العربي، ٨٩.

(٤) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠١، والبورقيبية والهوية، ٢٧٣.

لم يعرَّب، وألغيت الشعبة (أ)، مع نجاحها الباهر في تعريب العلوم، على ما كان يُشَنُّ على طلابها وأساتيذها من حرب نفسية، ولم يتبين بعض التونسيين أن خطة جان دوبياس كانت خدعة إلا بعد إلغاء الشعبة المعربة، وإبقاء (ب) و(ج). وأُلغي الابتعاث إلى المشرق، ورُدَّ الطلبة الذين كانوا يدرسون في مصر وسورية في أثناء الدراسة، بعد نحو سنتين من ابتعاثهم، وقُطعت منح من لم يعودوا، وكانوا كثيرا، وكانوا يدرسون الآداب العربية، والعلوم العصرية. وتُذُرِّع إلى ذلك بحوادث سياسية طارئة بين مصر وتونس، أما غرض ذلك الحقيقي، فكان منع الطلبة الزيتونيين مواصلة دراساتهم الجامعية، وتقليل تأثيرهم في دولة الاستقلال. واتجهت الحكومة بدلا من جامعات المشرق إلى جامعات فرنسة لتخريج موظفيها الكبار، ريثما تهيئ الجامعة التونسية[1]. وتأثر تدريس اللغات، ولا سيما الفرنسية، بخلاف بورقيبة السياسي مع زعماء القومية العربية، ولا سيما بعد دعوة بورقيبة في أريحا عام ١٩٦٥ إلى الاعتراف بدولة الكيان الصهيوني، فأصبحت كل دعوة للتعريب مرادفة للقومية العربية، ولا سيما بعد خروج تونس من جامعة الدول العربية، وموقفها المتحرر من الوحدة المصرية السورية. وإن موقف تونس الرسمي من التعريب لم يتغير في الحقيقية، ولم يتبدل في روحه، على ما جد بعد ذلك في الساحة العربية من تطورات سياسية، ومع زوال أسباب الخلاف بين الحكم التونسي وحكومات الوحدة العربية في المشرق، وهذا يدل على أن تفكير رئيس تونس -منذ الاستقلال- كان مبينا على مواقف محددة وسابقة، من قضايا ما بعد الاستقلال»[2]. وكان مما ترتب على ذلك أن تستعين تونس بأساتيذ أجانب، كان أكثرهم من فرنسة، بلغوا بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ م ما بين ٣٧ و٤٠٪ من أساتيذ الثانوية، وما بين ٤٥ و ٤٧٪ من أساتيذ التعليم العالي. وكان لهؤلاء آثار سيئة في التعريب، فقد قووا مكانة الفرنسية في تونس،

---

(١) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠٣ و ١١٦، وتاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، ٤٢٨، وصدى الذكريات، ١٩٢ وما بعدها (نقلا عن: البورقيبية والهوية، ١٦٨)، والتعريب والفرنكوفنية في العهد البورقيبي، ١٩٧.

(٢) التعريب والفرنكوفنية في العهد البورقيبي، ١٩٦.

وفرضوا فرضا أن تكون الفرنسية لغة كثير من الأعمال والإدارات بالمدارس الثانوية والكليات الجامعية، وكان أكثرهم يدعو من أجل ذلك إلى امتهان الثقافة الوطنية واللغة العربية، ومعارضة التعريب؛ لأنه في نظرهم «ضرب من ضروب مناهضة الغرب والتعصب للعروبة، وهو رجوع إلى الوراء، وسبب من أسباب التأخر». وكانوا يروجون لدعوى عالمية الثقافة الفرنسية. وربما كان كثير منهم يحمل -على ما يتظاهر به من تقدمية- آراء شبيهة بما صرح به وزير التربية الفرنسية Fouchet: «لقد خسرنا إمبراطورية استعمارية، فيجب أن نتدارك ذلك بتشييد صرح إمبراطورية ثقافية»[1]. وفي العقد الثامن تراجعت تونس عن هذه الخطة، وفكرت في العودة إلى العربية، عملا بالدستور، كما زعم رئيس وزرائها الهادي نويرة. فعربت السنوات الأربع الأولى من التعليم الأساسي، فكان لا يشارك العربية غيرها في التعليم، وشاركتها الفرنسية في السنوات الثلاث الأخيرة من هذه المرحلة، وكانت مدتها سبعا. وعربت الفلسفة، وعلوم العربية، والدين، والعلوم الإنسانية، واستمر تعليم الرياضيات بالفرنسية[2].

وقال جان في خطته هذه إنه يشك في صلاحية العربية للعلوم والتقنية، وهو شك، كان ينبغي أن يطعن في نزاهته عند مَن خدعه من التونسيين نجاحُ الشعبة المعربة نجاحا باهرا، وفوقُ طلابها طلاب المعاهد الثانوية في تونس كلها، ونجاح تعريب التعليم العام في المشرق العربي كله. وكان جان أجدر الناس بألا يستشار في أمر اللغات، ولا سيما العربية؛ فما كان لغويا، ولا تربويا، وإنما كان مدير مركز بحوث نووية، لا شأن له باللغة ولا التربية، وأكبر الظن أنه ما كان يعرف العربية، وإنما يرجم بالغيب، على ما تقتضي سياسة فرنسة. وقال إن التعليم الفرنسي بتونس سوف يتيح لها أن ترسل إلى فرنسة كل عام مائة ألف عامل[3]. وإرسال تونس أبناءها عمالا إلى فرنسة لم يكن بيد دوبياس، وهو يدل على أنه ينظُر لفرنسة أكثر مما ينظر لتونس، إذ يرضى لشعبها أن يكون

---

(١) محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، عبد العزيز عاشور، التعليم ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، ٢٤١.

(٢) التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، ١٠٧ - ١١٢.

(٣) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠٩، وجريدة الصباح، ٢٠/ ٥/ ١٩٧٩ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣١ - ٣٤).

مجرد عمال في مصانع فرنسة، بدلا من أن يكون شعبا صناعيا منتجا، كالشعب الفرنسي. وما أدري أكان يتوقع أن تخفق خطته؛ فيترتب على إخفاقها كثرة الانقطاع عن الدراسة، فاتجاه المنقطعين إلى فرنسة بحثا عن العمل، أو الهجرة السرية، التي قد يغرق كثير من أهلها في البحر قبل أن يصلوا إلى وجهتهم؟.

وقد عُمِل بخطة جان؛ لأنها صادفت هوى في فؤاد مَن وَكَلَ إليه وضعها، وألغيت خطة اللجنة التونسية، وكانت تريد تونس متقدمة، غنية بعقول رجالها واختراعهم وإبداعهم عن فرنسة ومصانعها، والعمل فيها بأجور زهيدة، مع الغربة، وما يلقى المهاجرون المسلمون من سوء معاملة الفرنسيين. ولكن الحكومة تظاهرت بأنها مزجت بين خطة لجنة السياسة التعليمية وخطة جان، وكان مما عملت في جانب التعريب أن عربت السنتين الأوليين من الابتدائية، وأقرت الازدواج فيما عدا ذلك من الطور الابتدائي، فجعلت للعربية خمس عشرة ساعة، وللفرنسية عشرا في السنة الثالثة، وجعلت للفرنسية فيما بعد السنة الثالثة خمس عشرة ساعة، وللعربية عشرا، وأقرت الازدواج في الثانوية[1]. وهو عمل لا يكاد يختلف عن آخر «إصلاح» في عهد الاستعمار عام ١٩٤٩. وعممت الفَرْنسة بالتدريج في التعليم الابتدائي والثانوي، كما اقترحت خطة جان، فلم يكن يدرَّس بالعربية إلا العربية والتربية الإسلامية والوطنية[2].

وكان لخطة جان دوبياس أثر كبير في ثقافة الطبقة الحاكمة في تونس وفكرها، وسياستها اللغوية، ورأيها في العربية والفرنسية، جَعَلَ الفرنسية تنال عند التونسيين منذ الاستقلال إلى اليوم تلك المكانة المتميزة، في التعليم، والإدارة، والحياة العامة. فقد أوحى وصفه العربية «بالعجز، وأنها ليست لغة علوم، ولا تصلح لتعليم العلوم الدقيقة»، و«ليست مهيأة لذلك»، إلى الحبيب بورقيبة بعض ما كان يقول فيها، وظل يتذرع به إلى إخراجها من التعليم، ويردد قول جان هذا، منذ قرأه في خطته، ويقول إن العربية لغة شعر ودين وفلسفة، ولا تصلح لغةً للعلم[3]. وأخذ المتفرنسون من التونسيين يرددون قوله إنَّ قَدَر

(١) التعليم في المغرب العربي، ٨٨ - ٩١.
(٢) الإصلاح التربوي المنتظر في تونس.
(٣) البورقيبة والهوية، ٢٧٢.

تونس وموقعها الجغرافي أن تكون دولة مزدوجة اللغة، وإنها صلة بين الشرق والغرب، وهذا ما هيأها لـ «موهبة الازدواج اللغوي»[1]، وإن ازدواج لغة التعليم هو الذي يستجيب لحاجات الدولة الناشئة. ويتمسكون بالفرنسية، ويمكِّنون لها، ويؤثرونها على العربية، ويسوغون ذلك بقرب تونس من فرنسة، وإيطالية، وجنوبي إسبانية، واليونان[2]، ويقولون إن ذلك لا بد أن يَعتدَّ به أهل تونس؛ فيحرصوا من تعلم اللغات الأوربية على ما لا يحرص عليه بلد عربي، متعللين بأن موقعهم يحتم عليهم أن يكونوا جسرا بين العرب وأوربة، أي أن يكونوا في منزلة بين المنزلتين، ليست لهم هوية غير الوساطة بين حضارتين، لا ينتمون إلى واحدة منهما، وإن كانوا أميل إلى الحضارة الغربية، أو ما يسمونه حضارة البحر المتوسط، منهم إلى الحضارة المشرقية. وهو شيء أوحاه الفرنسيون أيضا إلى بعض أهل المغرب من أجل أن يعلقوهم بالفرنسية، ويضعوا من مكانة العربية في نفوسهم، ويضعفوا انتماءهم الحضاري؛ فكان بعضهم يقول إن شمالي إفريقية كان أبدا قنطرة بين الشرق والغرب، فمضمون تعليمنا وشكله يجب أن يكوِّنا الشخصية المغربية التي تستمد عناصرها من الحضارة الشرقية والغربية، فالثقافة العربية ضرورة لهم لتملُّك الحضارة الإسلامية، وإتقان لغة أجنبية واحدة في الأقل ضرورة أخرى؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لترقية التكوين العام وتحسينه[3]. ويقول بعضهم إن للمغرب خصوصيته الحضارية التي تربطه بفرنسة وأوربة والبحر المتوسط، وإن علاقته بالمشرق العربي ليست سوى حادث سير، سيُشفى من كَدَماته بعد حين، ومَنْ أبان لهم عوار هذه الثقافة اتَّهموه بالغلو الديني أو الانتماء إلى العقيدة القومية[4]. وكان الحسن الثاني يقول إن المغرب وسط بين إنجلترة والسنغال، وبلجيكة وموريتانية، وموريتانية ومالي وألمانية، والمسافة التي بين طنجة والشرق الأقصى تساوي المسافة التي بينها وبين سواحل أمريكة. ومقتضى هذا أن نتطلع إلى أوروبة، من غير أن نترك خلفنا إخوتنا الأفارقة، وشركاءنا في تاريخ المغرب، وإذا انفتلنا من

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ٨٩، ودراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠٨ وما بعدها.

(٢) لغتنا العربية والسياسة، ٣٨.

(٣) التعليم في المغرب العربي، ٣٧.

(٤) المشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني.

الصلاة، وولَّينا وجوهنا شطر اليمين لم ننس ما علينا أن نتعلمه من علوم وصناعة، تمكّننا من خوض المعارك المقبلة مسلحين. ومن واجبنا أن نراجع التعليم ونصلحه كل خمس سنين أو ست؛ لأننا لا نتعلم لأنفسنا، بل نتعلم لأن نَرُوج في السوق العلمية العالمية؛ «فعلينا، إذن، أن نأخذ دائما بعين الاعتبار المناخ الجهوي، والقارّي، والعالمي»[1]. وهو شيء صنعه الفكر الاستشراقي، في قراءته الانتقائية لحضارة الشرق عامة، والحضارة العربية خاصة، فخُدع به المغاربة والتونسيون؛ فعاشوا على استهلاك الأوهام، ولكثرة ما كُرِّر عليهم صار عندهم كالمسلَّمات. وهذه الثقافة تعين على فهم ما يسيطر على الحكومات المغربية من نزوع إلى التعدد اللغوي «المتوحش»، وإحلال اللغات الأجنبية محل العربية الفصحى في التعليم، على الوجه الذي قد رأينا.

والحاجة إلى اللغات الحية من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى هذا ونحوه، بيد أنها لا تسوِّغ أن يَعُدَّ المغرب العربي نفسه مجرد قنطرة، ليس لها أكثر من عمل الدليل السياحي الذي يتعلم اللغات من أجل أن يعين السائحين على قضاء حاجاتهم في بلد لا يعرفون لغته، أو يقضي حاجاته إذا خرج من بلده، ولا أن ينسى من أجل ذلك شخصيته الحضارية، ولغته التي هي عنوانه وهويته، ولا أن يتجاهل أن العربية هي الوسيلة التي لا يتأتى أن يفهم الشعب المغربي العلم إلا بها، وأن اللغات الأجنبية لا يمكن أن تقوم مقامها، مهما تبلغ معرفته بها. ثم إن العزة الحضارية تقتضي ألا ينظر المرء إلى نفسه نظرة تسقطه من عين غيره، وألا ينسى الندية في التعامل، وأن فناء الشخصية الذي يُبين عنه المتفرنسون من أهل المغرب العربي لا يجدون على الشاطئ الغربي من بحر الظلمات ما يدانيه، ولا مَنْ يقدره، فضلا عن أن يعامله بالمثل، فالتعدد الثقافي الذي ترفع أوربة شعاره -مثلا- تعدُّد من جهة واحدة: فعلى حين تبذل دول جنوبي المتوسط -وهي عربية كلها- جهودا ممتدة، وتنفق أموالا ضخمة لتعلُّم لغات شمالي المتوسط وثقافاته، لا يبذل الاتحاد الأوربي جهدا يذكر للانفتاح على لغة جيرانه العرب، على ما له من قدرات تقنية ومالية عظيمة. فالذين يتعلمون العربية في المدارس الفرنسية، من حيث هي لغة اختيارية مما يسمونه اللغات النادرة

---

(١) ما وراء الفرنكوفونية: من أجل كفاءة عبر ثقافية ومتعددة اللغات.

-مثلا- لا يتجاوزون ٠٧ر٠٪، ومع ذلك لا تجد أوربة حرجا في الاستنجاد بدول جنوبي المتوسط لمساعدتها على مواجهة تقدم الإنجليزية والتمريك، حرصا على التنوع الثقافي. وكيف يكون تعاون أو اندماج متوسطي، والحال هذه؟[1]. لقد قال المهدي المنجرة: كنا مضطرين إلى تعلم أدبكم ومسرحكم وأشعاركم وموسيقاكم لأجل فهم قيمكم الاجتماعية الثقافية، فماذا عملتم من مثل ما عملنا؟ لا حوار مع الجنوب بسبب مشكلة الاتصال الثقافي الحضاري، وقد برهن الغرب على أنه غير مستعد الآن لفهم غير القيم الغربية، كما قرر الاستمرار في سياسته الاستعمارية، لا بالطريقة العسكرية والاقتصادية والسياسية فحسب، ولكن بالهيمنة الحضارية والثقافية أيضا، ولدى الغرب خوف من القيم الحضارية في العالم غير الغربي كله[2]. ولن تكون علاقة المغرب العربي بأوربة أحسن حالا من علاقتها بتركية، فإنها تقف على بابها منذ عام ١٩٦٣، تسألها أن تقبلها عضوا في اتحادها، وتنازلت عن كل شيء من أجل ذلك، فلم تفعل، ومن غير المتوقع أن تفعل. ومن أسباب ازورار الغربيين عن العرب رغبةُ العرب فيهم، وتهالكهم عليهم، فقد تركا في نفوسهم أن في وسعهم أن يبلغوا منهم ما أرادوا من غير أن ينيلوهم شيئا، فهم يتهافتون عليهم وعلى لغتهم وحضارتهم، والغربيون أغنياء عنهم، ويرون أنهم غير أهل لأن يَرَوْهم بالعين التي يحبون أن يُرَوا بها، وما يرون من إقبالهم على تعلم لغاتهم يغنيهم عن تعلم العربية، فهم يكتبون إليهم بلغاتهم، لا بالعربية، ويستقبلون منهم ما يبعثون به إليهم بلغاتهم، فأي حاجة لهم في أن يتعلموا العربية، إلا أن يُخِصَّ فيها خبير، أو رجل أمن؟.

وشمالي إفريقية لم يكن يوما قنطرة بين الشرق والغرب، وإنما كان جزءا من الشرق العربي الإسلامي، تشع منه الحضارة الإسلامية على الدنيا كما تشع من الشرق، ولم تكن له -مذ تقلّد الإسلام- خصوصية دون الشرق العربي الإسلامي، تسوغ أن يُجعل مجرد قنطرة، أو وسيط بينه وبين غيره، لا في لغته، ولا في دينه، ولا في حضارته؛ إذ الشيء لا يكون وسيطا بين نفسه وغيره، وإنما يَتوَسَّط بين المختلفين مَنْ كان مغايرا لهم؛ فليس لأحد من أهل هذا العصر

---

(١) عن: إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٤٦ وما بعدها،

(٢) السابق، ٤٧.

أن يجعله لقيطا حضاريا. وقد كانت هذه الدعوى بعينها مما يردده الكماليون في تركية[١]، غير أنهم لم ينظروا إلى التركية كما ينظر المغاربة إلى العربية، ولا عاملوها كما عاملوها، وهو دليل على أنها تعلة، لم يجدوا ما يسوِّغون به ازورارهم عنها وتعلقهم الفرنسية وغيرها، وخدعة يخدعون بها الشعوب عما يريدون بها، فيغرقونها في دعاية مضلة كهذه، وأن العربية غير صالحة للعلم، كما ادعى جان دوبياس، وأن اللغة الأجنبية هي لغة الانفتاح، والحضارة، والعلم وما يجدُّ فيه؛ فليس للعرب مندوحة عنها، وإنما العربية لغة الدين، والفلسفة، والأدب، وليس لها مجال تصلح له في هذا العصر غير ذلك. وقد ترتب على هذا أنْ غدا الازدواج اللغوي هو السياسة المتبعة في التعليم التونسي منذ الاستقلال إلى اليوم، وأن تونس لم تعرِّب التعليم العلمي كما عربه المغرب والجزائر.

وكان بورقيبة -لولعه بالفرنسية والثقافة الفرنسية- يتكلم بالفرنسية في لقائه القادة الأمريكيين والألمان، وتُكتب بها مَحاضر اجتماعات الوزراء. والتقى مرة -قبل الاستقلال- المستشرق الفرنسي جاك بيرك، فكان بينهما حوار، تكلم فيه جاك بالعربية، وتكلم بورقيبة بالفرنسية. ولما أثنى جاك على الحضارة العربية، أراه بورقيبة أنها لا تعنيه، وقال له: لك أن تدرس الماضي، أما أنا، فعليَّ إخراج شعبي من جمود التراث، وتصور الدين الظلامي[٢]. وكذلك كان كبار الساسة في عهده وعهد زين العابدين بن علي، متفرنسين معادين للعربية، ولانتماء تونس العربي الإسلامي، وكان بعضهم يجاهر بذلك[٣]. وهو خلاف ما يفعل الزعماء الوطنيون في العالم، كالزعيمين الفيتناميين، هوشي منُّه وجياب، فقد لبث هوشي بفرنسة سنين، وكان يعرف الفرنسية، وكان جياب يجيدها، وهو خريج المدارس الفرنسية، وكان أستاذا للتاريخ بالفرنسية، غير أنهما تخليا عنها، وثبتا على لغتهما، فما كانا يتكلمان إلا بها[٤]. وكان بورقيبة -مع

(١) انظر: صدام الحضارات، ٢٧٩.

(٢) الازدواجية اللغوية الأمارة، ٢٠٦ و ٢١٦، وضعف التعريب النفسي، ١٣٢، وبورقيبة والإسلام، ١٩٥، والبورقيبية والهوية، ٢٧٠ وما بعدها.

(٣) المسألة اللغوية في تونس، ٣٨٢.

(٤) اللغة والهوية، ٦.

ذلك- يدَّعي الاستقلال عن كل دولة، حتى أمريكة، ويدَّعي على فييتنام التبعية لروسية، لاستعانتها على حرب أمريكة بالحزب الشيوعي الفرنسي، والمناهضين للاستعمار والرأسمالية[1].

وظل إلى آخر أيامه في الحكم متمسكا بالفرْنسة، معارضا ما أُنجز من التعريب، على قلَّته. ويتفق كثير من الباحثين على أنه كان يتعمد طمس هوية تونس العربية الإسلامية، وإلحاقها بالغرب، وهو ما عُرِف به في الداخل والخارج، وكان يبغض الإسلام والعروبة، ويعدُّ كل ما له صلة بهما عارا، وكان في ذلك شبيها بمصطفى كمال فيما فعل بتركية، فقد ألزم التونسيين علمانية كعلمانية مصطفى كمال، وأضعف جامع الزيتونة، وقضى على سلطان العلماء بمصادرة الأوقاف، وجرَّد الإسلام من السياسة، وقضى على التعليم الإسلامي، وتحكم جهاز أمنه تحكما تاما في التعليم الديني، ونقل الوظائف التعليمية من جامع الزيتونة إلى جامعة تونس، واستولى على المساجد، فكانت لا تُفتح إلا أوقات الصلاة، وتغلق في غيرها، وأفرغ المكتبات الإسلامية أو أغلقها[2]. وكان يتعلق بالغرب، ومعتقداته، ولا سيما فرنسة، وتراث اليعاقبة، تعلقا، يبلغ حد الفتنة[3]، لا يكون مثله في مثقف واع، وإنما يكون في العوام، وأنصاف المثقفين الذين يستهويهم المظهر دون المخبر، وآية ذلك ماديته، وتحرره من قيم المجتمع التونسي، وولعه بالإثم، وتعلقه الفرنسية، وكلامه بها في مقامات لا يليق بوطني أن يتكلم فيها إلا بلغته، وتشدده في إلزام التونسيين اللباس الإفرنجي، وغضبه أن يدخل عليه وزيره الأول قصر الحكم لأمر عاجل من غير أُرْبَة (كرافتة)، وكفره بالحَسَن من قيم الغرب، كالديموقراطية، وما يتبعها من تعدد، وانفتاح، واحترام للخلاف، فقد كان مستبدا، يقتل مخالفيه، من غير محاكمة نزيهة، ويغتالهم، ويسجنهم، ويستعمل أجهزة الدولة في محاربة أعدائه، ويضغط على القضاء ليعجِّل بمحاكمتهم، وعلى وزارة الداخلية لتنفِّذ أحكامه، وقتلَ كثيرا من قادة الكفاح المسلح في الساحات العامة أمام الناس، وحكم

---

(١) بورقيبة بلسان بورقيبة، ١٦٧.

(٢) الصراع على الهوية الدينية في تونس والمغرب العربي، ص ٢.

(٣) الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ٣٥٤، وبورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٦٤ و ٢٢٧، وفرانكفوية بورقيبة هل بنت تونس أم دمرتها، ٢٩.

على كثير بالقتل في غيابهم، وقتل من التونسيين في عامين أكثر من ألف رجل، وهو ضعف مَنْ قُتِل في الثورة على فرنسة مدة عامين، وأكثر أربع مرات من القتلى الذين ماتوا منذ بداية الحماية عام ١٨٨١ إلى بدء المفاوضات الأولى عام ١٩٥٤[١]. ويزوِّر الانتخابات، ويقول إنه ناضل طوال حياته للوصول إلى الحكم ومزاولته، ولا يرضى أن يقاسمه أحدا[٢]. وفي أول انتخاب متعدد عام ١٩٨١ استدعى وزير داخليته قبل ليلة من الانتخاب، وأمره أن تكون الصناديق كلها ملأى بمرشحي حزبه، وقال له: لا تصدِّق أن الشعب التونسي ناضج للديموقراطية؛ فلم ينجح في ذلك الانتخاب غير حزبه[٣]. وفي انتخاب عام ١٩٧٤ كان المرشحَ الأوحد للرياسة، وفاز برياسة رابعة بنسبة ٩٨ر٩٩٪[٤]. وكان يرى أن التعدد السياسي يورث الصراعات والمزايدات، والتخريب، وأن فتح باب الحرية يتيح لمن لا يستحق الحرية أن يلجه؛ فيستعملها للهدم، وزرْع الكراهية والحقد، وتشتيت شمل الشعب، وتقويض أسس الدولة. ونصَّب نفسه رئيسا طوال الحياة، وظل يتمسَّك بالحكم، حتى بعد أن ثبت عجزه عنه، منذ عام ١٩٧١، لأمراض أصابته، كان أولها عام ١٩٦٠؛ فتعطلت أجهزة الدولة، وعمها الاضطراب[٥]. وكان إلى ذلك يتصف بالفساد المالي، على وجه يقل مثله، فقد وضع ثروة البيت التونسي المالك من الجواهر في الخزينة العامة باسم وسيلة بن عمار، قبل أن يتزوجها، وأما الأموال والأملاك، فتولى إدارتها أمينه علالة العويتي، بأمر منه، وبعد سنين صار السؤال عنها جريمة. ولا يُعرف مصير أرصدة الحزب في جنيف، وبلجيكة، وبيروت، والقاهرة، ولا كثير من الأموال التي تبرعت بها السعودية، ومصر، وباكستان للتونسيين إبان جهادهم فرنسةَ، وكانت تسجل باسمه، ولا مصيرُ المساعدات التي كان يتلقاها قبل أن يصير رئيسا. دعك من عدم الفصل بين ما يملك هو وابنه، وما يملك وتملك

---

(١) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٢٠٦.

(٢) البورقيبة والهوية، ٤٥، وهل بورقيبة مستبد؟، ٥٨، والحبيب بورقيبة: المهم والأهم، ٣٦٩ (نقلا عن: البورقيبة والهوية، ١٩).

(٣) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٣٦٤.

(٤) السابق، ٣٤٥.

(٥) البورقيبة والهوية، ٨٢ و ١٠٧، ومحمد مزالي يعترف بأكبر أخطائه.

زوجه الأولى، ماتليد، وتملك زوجه الثانية، وسيلة بن عمار[1]. ويؤكد بعض العارفين به أنه لم يكن شديدا مع الذين يسرقون الخزينة العامة، ولا الذين يرتشون من الشركات الأجنبية. بل كان يعتقد أن الزعيم تاجر ماهر، يجب أن يعرف كيف يحافظ على حرفائه. ومما لا يخطر لأحد أنه ترك حسابات في المصارف باسمه، أو ضياعا أو عقارات؛ وإنما خرج من القصر تقريبا كما دخله، غير أن مما لا شك فيه أن كل شيء كان بيد بنت أخته، سعيدة ساسي، وزوجه وسيلة بن عمار وأهل بيتها[2]. وكان -إلى ذلك- ينفق مال الدولة على شهواته بغير حساب، على وجه جعل بعض الباحثين يشبهه بأمراء الدولة العباسية، كما تصوِّرُهم الكتب القديمة، ويبذِّره في المناسبات التافهة، كعودته من رحلة إلى إفريقية، وعيد ميلاده، وقد يستمر عيد ميلاده ما يزيد على أسبوع، ويجعله بمنزلة العيد الوطني، ويبلغ البذخ فيه والأبهة ما لم يبلغ في عهد البايات[3]. من أجل ذلك قيل إن استقلال تونس أوهام وأكاذيب، والذين دخلوا نعيمه قلة من التونسيين، هم أُسَرٌ من أهل المنستير الكبرى والأسر القريبة من بورقيبة، وبضع أسر قريبة من وسيلة بن عمار من أهل العاصمة. واستحوذ هؤلاء على كثير من أرض الأوقاف، وأملاك الدولة المسترجعة، وحصلوا على القروض بسهولة لبناء قصور فخمة ودارات على الشواطئ الرائعة في قَمْرَت، وقرطاج، والحمامات[4]. أي إن نكبات الاستقلال وُزِّعت على البلاد كلها بالتساوي، واختصت بمزاياه بضع أسر محظوظة[5]. وكان الذي تغير من تونس هو اسم النظام، فقد تغير من الملكية إلى الجمهورية، واسم الحاكم من الباي إلى الرئيس، وتغيرت العقيدة من الإسلام إلى العلمانية والليبرالية، أما ما عدا ذلك، فبقي على ما كان عليه من الفساد، إلا أن الناس نالوا من الضنك، والتعذيب، والقتل، والسجن، والانتقام ما لم يكونوا يعرفون. هذا إلى شيء ليس بدون ذلك، هو تدمير تراثهم وحضارتهم وتاريخهم، والحؤول بينهم وبين دينهم، والتدخل في شؤونهم

---

(١) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٢٢٠ وما بعدها.

(٢) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٢٢٢.

(٣) السابق، ٣٠٥.

(٤) السابق، ٢٧٨.

(٥) السابق، ٢٧٨.

لخاصة، ومضايقتهم في كل شيء، باسم الحداثة، وحَمْلهم على خلاف ما يعتقدون باسم حداثة لم يكن منها إلا ما قد رأينا، مما هو مباين للحداثة في كل شيء[1]، وطَمَس العلاقات والروابط الاجتماعية والدينية، وألغى المحاكم الشرعية، ووقف التعليم بجامع الزيتونة، وأبطل الأوقاف، وأصدر مجلة الأحوال الشخصية التي تمنع تعدد الأزواج، وحوَّل الزوايا ودور الطرق الصوفية مراكز للحزب الدستوري، واجتهد في فصل تونس عن محيطها العربي، وتراثها الحضاري الإسلامي، وإن كانت النفعية ربما حملته في بعض المقامات على الإقرار بانتمائها العربي، وكان يعتقد أن لها شخصيتها المختلفة عن الشخصية العربية، منذ آلاف السنين، أما العرب، فأمم شتى، وآية ذلك انقسامهم دولا.
وكذلك كان حاله مع الإسلام، فمنذ سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٥٦ لم يظهر مخالفة للإسلام، بل كان يستشهد بالآيات والأحاديث في عمله السياسي، وكذلك كان يفعل في كثير من المناسبات الدينية والسياسية، كالمولد النبوي الشريف، وزيارات قادة الدول الإسلامية لتونس. ولكنه بعد ذلك كان يسخر من الصلاة، ويدعو إلى ترك الحج لتوفير ما ينفق فيه من المال، والاستعاضة عنه بالحج إلى مقام الصحابي أبي زمعة البلوي بالقيروان، ويتطاول على الأنبياء، ويتنقصهم، ويرى أنه خير من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويشكك في قصص القرآن، ويعدُّها أساطير، ولا يؤمن بالديانات، ويرى أن الرسل ليسوا بمبعوثين من الله، وإنما هم أناس، ساعدتهم قدراتهم وأحوالهم الاجتماعية على حمل الرسالة[2].

وكان تعلقه فرنسة تعلقا عاطفيا، لا ينتج إلا التبعية، والمسارعة في هواها، والقيام على منافعها، والتفريط في مصالح الوطن، بل محاربتها، ولذلك كان هو وحماني ديوري، وسنغور، والأمير سيهانوك مؤسسي المنظمة الفرانكفونية[3]، ولا نفع لهم ولا لبلادهم فيها إلا أنها تعينهم على البقاء في الحكم؛ لأنها تقربهم زلفى إلى فرنسة، وإنما هي وسيلة من وسائل التمكين لمنافع فرنسة الاقتصادية والسياسية والثقافية في العالم. وكانت سياسته اللغوية جزءا من رأيه في العلاقة

---

(١) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٢٦٩.
(٢) خطاب الهوية في النظام التربوي وأثره على الشباب الطالبي في تونس، وبورقيبة والإسلام: الزعامة والإمامة، ١٨٢
(٣) فرانكفونية بورقيبة هل بنت تونس أم دمرتها.

بفرنسة، ورأيه في الإسلام، عقيدةً وشريعة، فضلا عن أنها كانت تمثيلا لعقيدته الفكرية التي كانت تخالف الهوية التونسية، ولم يكفَّ طوال المدة التي قضى في الحكم -وهي تزيد على ثلاثين عاما- عن إعلان عدائه للهوية العربية الإسلامية وركنيها الرئيسين: الإسلام، العروبة[1]. أما ما كان يقول في بعض المناسبات الرسمية، فإن استمالة بعض القادة العرب كانت تقتضيه أن يعترف بانتماء تونس العربي، أما في غير ذلك، فكثيرا ما أعلن برفضه العروبة وكلِّ ما يمت إليها بصلة. وزادت عداوته الإسلامَ والعروبة بعد تأييد جمال عبد الناصر صالحَ بن يوسف، وما تبعه من أعمال مسلحة، كادت تطيحه، وكانت بعون من ليبية والجزائر[2]؛ فكان يقول بعد ذلك: إن ما يربطنا بالعرب ليس إلا ذكريات تاريخية، ومصلحة تونس أن ترتبط بالغرب، ولا سيما فرنسة، ومرسيلية أقرب إلينا من بغداد ودمشق والقاهرة، واجتياز البحر المتوسط أسهل علينا من اجتياز صحراء ليبية[3]. وهذا يعني -عنده- أن تونس ليست بأكثر من شخصه، وليست بشعب مستقل عمن يحكمه، له هويته وتاريخه، وعلاقاته الثقافية والحضارية والدينية الثابتة المستقلة عن علاقات الحكام السياسية العارضة، وتوجهاتهم الفكرية ومنافعهم، لكن ذلك هو دأب المستبدين. وإن كان بعضهم يرى أن رأيه في العروبة والإسلام كثيرا ما كان مدفوعا بحب الظهور بمظهر «رجل الحداثة الأول في تونس على منوال أتاتورك»[4]، وكان معجبا به إعجابا يبلغ حد الفتنة[5].

ومن عداوته للعربية إنحيازه إلى العامية، وتعصبه على الفصحى، وقوله إن اللغة التي يتكلمها الشعب ويفهمها كل تونسي، مهما يكن نصيبه من الثقافة، والجهةُ التي ينتمي إليها، ليست هي الفصحى، وإنما العامية؛ فمن حق الأدب العامي والشعر العامي أن يحتلاَّ مكانتهما عند الشعب، وأن يكونا هما أدبه وشعره[6]. وقال في مقابلة له في التلفزة الفرنسية في يوليو عام ١٩٧٢:

(١) بورقيبة وإشكالية الهوية في تونس.

(٢) الموضع السابق.

(٣) الموضع السابق، والهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ٣٥٥.

(٤) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٣٨٧.

(٥) السابق، ٦٤ و ١٦٣.

(٦) البورقيبة والهوية، ٥٩.

لا أكلمهم (التونسيين) بالعربية الفصحى، لغة القدامى، بل بالعربية التي يستعملونها (العامية)[1]. وتغليب العامية على الفصحى، وعدّ الفصحى لغة ميتة، والعامية هي اللغة الحية، هو سياسة فرنسة في المغرب العربي كله، إلى اليوم. وحافظ طوال حكمه على سياسة الازدواج اللغوي مع وضع العربية في المرتبة الثالثة بعد الفرنسية والعامية. وكان ذلك رأي بعض وزرائه أيضا، فقد قال وزيره الأول، الهادي نويرة مرة، ردًّا على حركة التعريب: إن ما يهمُّ تونس في المقام الأول هو التقدم، وهي منفتحة على اللغات كلها، ومنها الصينية[2].

وإنما كان بورقيبة واحدا من رجالات فرنسة في تونس، وكان على صلة بها قبل الاستقلال، فقد اعترف بأنه أقام علاقة مع سفيرها بالقاهرة، حين كانت سفارة فرنسة تُبغِّي من تشقُّ به مكتب المغرب العربي بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي، وتفسد الميثاق الذي جمع عليه أعضاءه، ووقَّعه علاَّل الفاسي عن المغرب، والحبيب بورقيبة عن تونس، والشاذلي المكي عن الجزائر، وينص بنده الثاني على مواصلة الكفاح حتى تحرير المغرب العربي كله من فرنسة، فاقترح رئيس حكومتها يومئذ، بيير مونداس فرانس الاستقلال الذاتي على تونس، فقبلت، وعلى المغرب مفاوضات إيكس ليبان، بشروط فقبل، من أجل أن تتفرغ للجزائر، وكانت تعدها امتدادا طبيعيا لها[3]. فأعطته مالا وجواز سفر، بعد أن كتب تقريرا، قال فيه إنه -إن أصيب بخيبة في حس فرنسة السليم- ما زال يعتقد إقامة دولة تونسية ذات سيادة، مرتبطة بفرنسة بمعاهدة جديدة؛ لأنه يؤمن إيمانا تاما بأن تونس لا يمكن أن تحيا دون مساعدة من فرنسة، وإن إمكان إنشاء مجلس نيابي منتخب وحكومة بقيادة ملك شرعي ستكون مفيدة لفرنسة وتونس[4]. وأقرَّ جلبير غرانغيوم بأن فرنسة أعانته على القضاء على الحركة اليوسفية عام ١٩٥٦/ ١٩٥٧[5]. وقال ألان سافاري، وزير الشؤون المغربية والتونسية أمام مجلس النواب الفرنسي في يونيو عام ١٩٥٦: لقد وقَّعت فرنسة

(١) السياسات اللغوية، ١٢٨.

(٢) الازدواجية اللغوية الأمارة، ٢٠٦، وبورقيبة وإشكالية الهوية في تونس.

(٣) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

(٤) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ١٤٣.

(٥) اللغة والسلطة والمجتمع، ٥٨.

في العشرين من مارس عام ١٩٥٦ وثيقة استقلال تونس؛ كي تقفَ الثورة التي تنخر تونس، وتقطع محاولات الالتحام بحركة الثورة في الجزائر، وتمنع تونس الاشتراك في الجامعة العربية، وتساندَ حزب بورقيبة، صديق فرنسة؛ ليعمل على وقف المد القومي العربي تجاه إفريقية الشمالية[١]. وكان هذا سبب ما أعلن بورقيبة من تبرُّئه من الجامعة العربية، وأن ليس منها وليست منه، وأنه لا يبالي نداءاتها، ولا شتائمها[٢]. وقال علال الفاسي إن توقيعه وثيقة استقلال تونس مع فرنسة أعظم خيانة وقعت في شمالي إفريقية منذ مائتين وخمسين عاما[٣]. وسمى محمد عبد الكريم الخطابي اتّفاقهما اتفاق الخزي والعار، وعشَّاق المناصب، فقد سلم الموقعون عليه بلادهم، وسودوا تاريخ تونس المسكينة، لولا أن قيض الله له رجالا لم يرضوا بتلك المهانة[٤]. ولما نقله المقيم العام الفرنسي بتونس من جزيرة جالطة إلى جزيرة دي كروا، بإقليم بريتون عام ١٩٥٤ لمفاوضته، قال للصحفيين: إن ما أريده «في البداية هو الاستقلال الذاتي، وإن حقوق الفرنسيين الاقتصادية والإستراتيجية والثقافية ستحترم»[٥]. يسمي مطامع فرنسة الاستعمارية في تونس حقوقا، ويَعِد بأن يحترمها، على الوجه الذي تريد فرنسة، مقابل استقلال ذاتي، ليس غير. وكان ما قال قبل التفاوض هو ما تعهَّد به في التفاوض، وبعد توليه الحكم، ولعله من البنود السرية التي لم تُعلَن للتونسيين، وآية ذلك أن ما سماه حقوقا ثقافية ظل محترما طوال حكمه وبعْدَه إلى اليوم، كما أن المعاهدات التي أبرمتها فرنسة مع حكومة الباي في إبان الاستعمار بقيت على حالها، ولم يُغيَّر منها شيء، ولم تراجعها دولة «الاستقلال» بما يجعلها أجدى على تونس مما كانت عليه في إبان الاستعمار، وإنما بقيت على ما فيها من إجحاف، وتحكيم لفرنسة في مواردها، تصيب منها ما تشاء، ولم يُلغ باتفاق «الاستقلال التام» أشدُّ الاتفاقات بين تونس وفرنسة إجحافا، كالفصلين ٣٣ و ٣٤ من اتفاق الاستقلال الداخلي، وإنما عَرَض للجوانب الأمنية وحدها،

(١) صفحات من تاريخ الحركة القومية العربية في تونس.

(٢) الموضع السابق.

(٣) البورقيبية والهوية، ١٩٨.

(٤) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

(٥) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ١٨٠.

وتغاضَى عن المسألة الاقتصادية والمالية. وقد مُنيت تونس بسبب هذه الاتفاقات المجحفة بخسائر جسيمة، لم تُعِرْها حكومة «الاستقلال» أدنى اهتمام، فقد بلغ إنتاج حقول النفط التونسية -مثلا- عام ١٩٧١ أربعة ملايين طن، أي ٣٠,٤ مليون برميل، لم تنل تونس من ريعها أكثر من ٣٠٠ مليون فرنك فرنسي، أي ٥٥٠ ألف دولار، بمعدل ٠,٢ دولار للبرميل، على حين كان سعر البرميل يومئذ نحو ٣,٦ دولار، أي إن السعر الذي كانت تبيع به فرنسةَ نفطها لم يزد على ٦٪ من سعر النفط المتداول، كما كشفت عن ذلك الوثائق التي نشرتها هيئة الحقيقة والكرامة التونسية عام ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م[١]. وكان من بنود الاتفاق الذي نالت به تونس استقلالها عدُّ الفرنسية لغة غير أجنبية في تونس. وهو بند لم يكن موضع خلاف بين المفاوضين التونسيين والفرنسيين، فقد أصرَّ الوفد الفرنسي على أن تحتفظ الفرنسية بمنزلتها القانونية التي تجعلها لغة تونس المستقلة، ولم يعترض الوفد التونسي[٢]. وقال بيار منداس فرانس، رئيس وزراء فرنسة يومئذ، إن فرنسة كانت تَعدُّ بورقيبة المفاوض المثالي الذي تثق به بسهولة؛ لأنها هي التي صنعته، وأعطته الملامح التي تريد، وهي إذ حاورته إنما حاورت ظلها، وكان ذلك سبب سهولة اتصالها بالحزب الدستوري الذي كان يقوده[٣]. ويصدقه ما قال بورقيبة في صحيفة «لوفيغارو»: «لقد كافحت لأمتِّع بلادي بالحرية والكرامة، لكن حبي فرنسة ووفائي لها لا ينقطع أبدا، وكنت أكافح باسم الثقافة التي تلقيتها، وبوحي من الأفكار الفرنسية، ومعلميَّ وأساتذتي الفرنسيون هم الذين صنعوني»[٤]. وكان يقول لقادة الدول الغربية: إن تونس جزء لا يتجزأ من الغرب[٥]. وإذا صح ذلك، كان من اليسير تفسير تشبثه بالفرنسية، وإصراره على عدم التعريب، ومخادعته التونسيين في البداية، ثم انقلابه على وعوده بالتعريب؛ فإن اصطناع الفرنسية أقصر الطرق إلى قلب فرنسة؛ لأنه من أعظم

(١) انظر مثلا: هيئة الحقيقة والكرامة تنشر حول نهب فرنسا للبترول التونسي، وبلاغ توضيحي، وهيئة الحقيقة والكرامة تنشر وثيقة تؤكد استمرار نهب فرنسا للثروات التونسية، وعاجل: هيئة الحقيقة والكرامة تنشر وثائق خطيرة.

(٢) البورقيبية والهوية، ٢٠٣.

(٣) الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال، ٧ - ٣٨ (نقلا عن: البورقيبية والهوية، ١٩٤).

(٤) البورقيبية والهوية، ٥١.

(٥) السابق، ٢١٦.

ما تتوسل به إلى استبقاء سلطانها في مستعمراتها. وكانت شخصيته واضحة للفرنسيين خاصة، والغربيين الذين بلوه وعرفوه من كثب، عامة، وأقوالهم فيه تجلِّي حقيقته تجلية لا مزيد عليها، كقول أحدهم إنه أكثر العرب قربا لفرنسة، وأكثر الفرنسيين قربا من العرب، وقول الديبلوماسي الأمريكي، روبار ميرفي: لم ألتق خارج فرنسة رجلا أكثر فرنسية من بورقيبة في العالم العربي، ولا عربيا أقل عروبة منه[1]. وكان يعتقد أن أهل المغرب العربي سيظلون مرتبطين بفرنسة ارتباطا ثقافيا وجغرافيا واقتصاديا، وعلى ذلك بنى قوله إن غرضه تحويل الروابط التي تربط تونس بفرنسة تحويلا تدريجيا، يجعلها قائمة على قبولٍ حرٍّ، يرغب فيه التونسيون[2]. أي إنه يريد ليصنع التونسيين صناعة تجعلهم يقبلون ما تريد بهم فرنسة، ويرغبون فيه، بدلا من إكراههم عليه، وكانت وسيلته إلى ذلك الفَرْنَسة، وإخراج العربية من أهم شؤون الحياة في تونس. وقد بلغت سياسته من تونس ما أراد، فغدت علاقة تونس بفرنسة، على الوجه الذي تريد فرنسة مما يرغب فيه كثير من التونسيين، وعلاقتهم بالفرنسية -في نظرهم- هي التي صنعت ما يرون أنهم يَفضُلون به العرب، ولا سيما أهلَ المشرق، وينسبون الفضل في ذلك إلى بورقيبة. وترتبت على ذلك مكانة فرنسة والفرنسية عند التونسيين، واغتباطهم بما يعرفون من الفرنسية. على أن تونس لا تختلف في ذلك عن سائر المتفرنسين من أهل المغرب العربي، كما أبانت عن ذلك قولة كاتب ياسين، إن الفرنسية في الجزائر غنيمة حرب، وقول عبد العزيز بو تفليقة إن الفرنسية جزء من تراث الجزائريين. وهذا مما يفسر احتفاء فرنسة ببورقيبة احتفاء قلما احتفته بواحد من حكام مستعمراتها، فقد خططت له في الرابع من إبريل عام ٢٠٠٤ ساحةً بباريس، تجاه مبنى وزارة الشؤون الخارجية، سَمَّتها ساحة بورقيبة، ونصبت فيها تمثالا نصفيا له يوم ٢٠ مارس ٢٠١٣، بمناسبة الذكرى السابعة والخمسين لاستقلال تونس، وكان الذي تولى نَصْب التمثال عمدة باريس، برتداند دولانوي، وهو أحد الأقدام السوداء الذين عادوا إلى فرنسة بعد استقلال تونس، وقال إنه تكريم لمن كان مناضلا للاستعمار،

---

(١) البورقيبة والهوية، ٢١٧.

(٢) السابق، ٢١٨.

وصديقا لفرنسة[1]. كما يفسر قول شارل ديغول، يقرِّظه: «لو وُلِد بورقيبة في فرنسة لكان حاكما لإحدى المحافظات الجنوبية»[2]. ولا يخفى التناقض بين وصف بورقيبة بمناضل الاستعمار ووصفه بأنه صديق فرنسة، إذ كانت فرنسة هي الاستعمار، ونضالها لا يكون إلا من عدم الرضا بها، فكيف يكون صديقها مَن يناضلها، ولا يرضى باستعمارها؟ وكيف تكرمه، وتقيم له نصبا، ولا يكون ذلك إلا عن رضا عنه، وحرص على تخليده؟. وإنما كانت علاقة الاستعمار كله بمن يناضله من الوطنيين علاقة عداوة لا مكان فيها للصداقة.

ومن توكأ على ما أُثِر عن علاقة بورقيبة بفرنسة، قبل الاستقلال وبعده، أمكن أن يستخلص منه أن نضاله وسجنه إنما كانا تمثيلا، غايته صناعة بطل، يقبله التونسيون نائبا لهم، وتقبله فرنسة وكيلا لها، ومن دأب الاستعمار أن يفعل ذلك ونحوه بمن يريد أن يصنع منهم أبطالا، يخدع بهم الشعوب، كما فَعل بمصطفى كمال أتاتورك. وقد أقرَّ بورقيبة بأنه لو لم يُسجَن، ما وثق به التونسيون، وقال: لو أن فرنسة اختارت المكافأة أو الحوار، لأثبتت علينا تهمة التعاون، وجعلتنا أضحوكة[3]، وهي تهمة، كانت لجنة الحزب الدستوري تتهمه بها، وتعلن أنه صنيعة فرنسة[4]، وما كان يدفع عنه التهمة إلا التمويه بالسجن ونحوه. ولما عمت الساحلَ التونسي في الخامس من أيلول تظاهرات، سقط فيها بعض القتلى، قال بورقيبة إنه انتصر على مخالفيه ومتهميه بالخيانة[5]. وهو فحوى ما قد رأينا آنفا من اعترافاته، ومن قول بيار منداس، وألان سافاري، وما قال هو من أن نضاله كان بوحي من فرنسة، وأساتيذه ومعلميه الفرنسيين. ولا يخفى أنَّ ما كان بينه وبين فرنسة قبل الاستقلال وبعده، لا يكون بين وطني ومستعمِر، وهو سبب عدِّنا حكومته «حكومة سرية»، على إعلانه بما كان يفعل بالعربية، ومجاهرته بعداوتها، والتمكين للفرنسية؛ لما كان بينه وبين فرنسة من علاقة سرية خاصة، أقرَّت وأقرَّ بها، وبأنه كان صنيعتها، وظهر ذلك في قبوله

---

(١) السابق، ١٩١.

(٢) السابق، ٢٣٦.

(٣) بورقيبة سيرة شبه محرمة، ٩٩.

(٤) السابق، ١٣١.

(٥) السابق، ٩٩.

كلَّ ما عرضت عليه، وإصراره على اصطناع الفرنسية في كل شيء في تونس، ومعارضته التعريب، وإن قلَّ، طوالَ حكمه، وهو أمر ما كان له أن يفعل غيره، ما دامت تلك علاقته بفرنسة. وإنما أطلنا الوقوف عند بيان هذه العلاقة، وتسقط مظاهرها، والأدلةِ عليها إيضاحا لسياسة بورقيبة اللغوية، وتبيانا لحقيقتها، وكشفا لأصولها الثقافية والسياسية، وإظهارا لبُعد ما بين ما كان يدَّعي لتلك السياسة من غايات من حقيقة ما كان يريد، ودواعي ما كان يفعل.

وكانت العلاقة بينه وبين فرنسة كالعلاقة بينها وبين زين العابدين بن علي، والمخابرات الفرنسية، فكثيرا ما كان زين العابدين يأتي باريس، فيتاح له أن يدخل قصر الإلزي، والإدارات الاستخبارية، بمزاج الرجل المقبل على الحياة، المحب للعيش الجيد، وكان يتردد على مطاعم يهود تونس الشعبية. وبعد ترقية بورقيبة إياه إلى وزير دولة عام ١٩٨٧ كان يتردد على وكالة المخابرات الأمريكية بتونس، ويتحاشى الاتصال بالملحق العسكري في السفارة الفرنسية، وهو الرجل الذي كان ينبغي أن يتصل به، وهذا مما جعل وزارة الخارجية الفرنسية تبدي وجلها من علاقاته بالأمريكيين. وترتب على ذلك أن كُتب عنه تقرير للحكومة الأمريكية، يزكيه، ويصفه بالصلاحية لأن يخلف بورقيبة في حكم الجمهورية الثانية[١].

ولم تتغير سياسة بورقيبة اللغوية قليلا إلا حين تولى محمد مزالي الوزارة الأولى، وغدا خليفته (في آخر العقد الثامن)، وإن كان تغيرها -على قلته- تغيرا آنيا، كان سببه الحاجة، فإنما سمَّى بورقيبة محمد مزالي وزيرا أول لحاجته الاقتصادية إلى المشرق العربي، فشرع في تعريب التعليم الابتدائي، أي تدريس الرياضيات والعلوم بالعربية، ولكن الحكومة الخفية في تونس أبطلت تعريبه وهو في طور الانتقال من الابتدائية إلى الثانوية؛ لأنها كانت غير راضية عنه، وشنَّت على تعريب الثانوية حملة بدعوى عدم الاستعداد، فلما أقال بورقيبة محمد مزالي، تروجع عن التعريب، وعادت الفرنسية إلى الابتدائية كما كانت[٢]، وأصدرت حكومة رشيد صفر -خليفة محمد مزالي في الوزارة الأولى- في

(١) صديقنا بن علي، ٤٩ وما بعدها.

(٢) التعليم في المغرب العربي، ١٥٨.

أول اجتماع لها أمرا بإعادة الفرنسية إلى الصف الثالث الابتدائي، بعد أن كان تعليمها يبدأ من الصف الرابع[1]. ولما استدرج مزالي بورقيبة ليعلم سبب إقالته إياه، قال له: «يا سي محمد، عرَّبت ياسر التعليم؟ قلت لك: لا تعرب»[2]. أي: عربت التعليم كثيرا، وقد أمرتك ألا تفعل. وذكر الوزير محمد الصياح أن بورقيبة «كلمه في التعريب وأحدث له من عمل المرحوم محمد مزالي ذكرا مشينا»[3].

وقال محمد مزالي إنه حين كان وزيرا للتربية عرَّب السنة الأولى الابتدائية، وكان بورقيبة حينئذ يعالَج في باريس من انهيار عصبي، فاتصل به الهادي نويرة، وهو يومئذ محافظ البنك المركزي، وعلي الزواوي المدير بالبنك المركزي أيضا بأن الرئيس غاضب من فعله، ولمَّح إلى أن الذي كان غاضبا هو الهادي وعلي، لا الرئيس[4]، فربما كان في شغل بمرضه عن تونس كلها، لا التعريب وحده. ومما يؤيد ذلك أن الهادي نويرة استدعاه مرة بعد محاضرة له في قاعة ابن رشيق بتونس عن التعريب، وقال له: أنت ما زلت عضوا في لجنة الحزب المركزية، فكيف تفعل هذا؟[5]، يستنكر حديثه عن التعريب؛ لأن التعريب مباين لسياسة الحزب. غير أن أهم محاولة تعريب في تونس كانت في عهد محمد مزالي، وقد تولى وزارة التربية ثلاث مرات (١٩٧٠- ١٩٨٠)، وكان وزيرا أول من عام ١٩٨٣ إلى ١٩٨٦. لكن التعريب في عهده اتسم بالعشوائية؛ فلم يبن على خطة مدروسة، ولا دراسات معمقة، فبقي شكليا ظاهريا، تقرره الحكومة وتنفذه، ولم يشارك فيه الخبراء المتخصصون[6]. ثم روجعت الخطط التربوية، وترتبت على مراجعتها خطط مدروسة لتعريب بعض التعليم، شرع في تنفيذها في العام الدراسي ١٩٧٦ - ١٩٧٧ م، فعرب التعليم الابتدائي بالتدرج، وفرغ من تعريبه تعريبا تاما في العام الدراسي ١٩٨٠ - ١٩٨١ م، فغدت العربية هي لغة التعليم الوحيدة في السنوات الأربع الأولى، واللغة الرئيسة في السنوات

---

(١) نصيبي من الحقيقة، ٢٢.

(٢) نصيبي من الحقيقة، ٢٣.

(٣) في الإصلاح التربوي لسنة ١٩٩١: بين النص الرسمي والنص الغائب، ٢٥.

(٤) السابق، ٢٨٦.

(٥) نصيبي من الحقيقة، ٢٩٠.

(٦) تونس: خطة لإصلاح تعليم اللغات.. «التعريب العكسي»، موقع الشبكة العربية العالمية، محمد الحمار.

الثلاث الباقية، وكانت تدرس معها الفرنسية لغةً أجنبية. وعربت الفلسفة في التعليم الثانوي في العام ١٩٧٦ - ١٩٧٧م، وإنما عربت لأن الحكومة كانت تظن يومئذ أن من أسباب انتشار الماركسية في الشباب -كان اليسار قد اكتسح الجامعات والمعاهد الثانوية- دراسة الفكر الشيوعي في مقرر الفلسفة، وكانت تدرس بالفرنسية، فقررت الحكومة تعريبها لتخليصها من الماركسية، وآرائها في الثورة ونقد أسس الدولة الطبقية. وشرع في تعريب سائر العلوم الإنسانية، وأكمل التعريب في العام ١٩٨٠ - ١٩٨١ م، فغدت العربية هي لغة الأدب والدين والعلوم الإنسانية، أما العلوم الطبيعية والرياضيات، فاستمر تعليمها بالفرنسية[1].

وكان بورقيبة في بداية الاستقلال يوهم التونسيين أنه صائر إلى التعريب، فيقول لهم: أريد أن ألاحظ لكم أن التعليم بالمدارس الثانوية سيكون متجها إلى التعريب، واستعمال العربية لغةَ تدريس للمواد كلها، إلا إذا اقتضت الضرورة -وذلك لأجل مؤقت- استعمالَ الفرنسية للإفادة من الإمكانات التي بأيدينا، ريثما تُعِدُّ المدارس المعلمين الذين يعلِّمون المواد كلها بالعربية، ويجب أن نمر بمدة انتقالية في شجاعة وتحمُّس، ويكون رائدنا فيها خير الأمة ومستقبلها، وتهيئة النشء لتكوين أمة قادرة صالحة غير متخلفة عن ركب الحضارة[2]. وهي الوعود التي وعدت بها خطة جان دوبياس، غير أن بورقيبة لم يفِ بما وعد. ويقول الباحثون إن النظام التربوي في تونس ظل ملتزما -في الجمله- سياسة بورقيبة التي أرساها طوال أكثر من نصف قرن، حَكَمَ ثلاثين سنة منها بنفسه، وحكم زين العابدين بن علي ثلاثا وعشرين. فلما تولى محمد الشرفي وزارة التعليم من عام ١٩٨٩ إلى ١٩٩٤، تقدم بمشروع للإصلاح التربوي باسمه، وتضمن فصولا تبين الهوية التونسية التي يراد تلقين الناشئة إياها، وهي الهوية العربية الإسلامية[3]، ونصَّ على أن تدرَّس العلوم كلها، العلمية والإنسانية،

---

(١) محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، عبد العزيز عاشور، التعليم ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، ٢٥٠.

(٢) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ٩٩.

(٣) الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ٣٥٩.

بالعربية، في أطوار التعليم الأساسي كلها[1]، وأن من أغراضه أن يتقن الطلاب العربية من حيث هي لغة وطنية؛ لتُمْكِنَ الإفادة منها في التعليم والإنتاج في مختلف مجالات المعرفة والعلوم الإنسانية، والعلوم والتقنية، بالإضافة إلى ضمان إتقان الطلاب لغة أجنبية أخرى؛ لتمكينهم من الوصول إلى إنتاج الأفكار العالمية والنظريات التقنية والعلمية والقيم الإنسانية، وإعدادهم لرصد التقدم المحرز، وللإسهام في وسيلة لتحقيق إثراء الثقافة الوطنية وتفاعلها مع الثقافة الإنسانية العالمية». وفي المادة التاسعة من مشروعه هذا: «في كل مرحلة من مراحل التعليم الأساسي يتم تدريس جميع المسائل المتعلقة بالعلوم الإنسانية والعلوم والتكنولوجيا باللغة العربية». وتصل نسبة عدد الحصص التي تدرس اللغات ٥٨٪ من ساعات التدريس: ٣٠٪ للعربية و٢٨٪ للفرنسية. والتعريب في التعليم العالي يسير ببطء، وينحصر غالبا في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، أما التخصصات العلمية والتقنية فتبقى اللغة الفرنسية هي اللغة الأساس»[2]. بيد أن الفعل كان مخالفا للقول، وأن حصص الفرنسية وضواربها فيه في الابتدائية والثانوية، كانت كثيرة، فقد كانت الفرنسية تنال إحدى وأربعين ساعة من حصص التعليم الابتدائي والثانوي، وتنال العربية سبعا وخمسين، فالفرق بينهما ست عشرة ساعة. وتنال الفرنسية خمس ساعات في كل سنة من سنوات التعليم الأساسي، وكذلك تنال العربية، مع أن الأولى لغة رسمية، والأخرى لغة أجنبية . وفي السنتين الأولى والثانية من التعليم الثانوي تدرَّس العربية أربعَ ساعات ونصف الساعة، والفرنسية ثلاثَ ساعات ونصفا لكل سنة، والإنجليزية ثلاث ساعات، فمجمل ما تنال اللغة الأجنبية ست ساعات ونصف، وما تنال العربية ثلاث ساعات ونصف. هذا إلى المواد العلمية والتقنية، وتدرس بالفرنسية، ومدتها عشر ساعات ونصف. وفي السنتين الثالثة والرابعة الثانويتين تساوي المدة المخصصة للعربية المدة

(١) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٥، وعلاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠١ وما بعدها

(٢) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠١ وما بعدها.

المخصصة للفرنسية في الشُّعَب كلها، مع فرق يسير في شعبة الآداب، ومع زيادة ساعات الفرنسية في الشعب العلمية والتقنية، وعشر ساعات للمواد الأدبية، أي إن الفرنسية كانت مادة مقررة، ولغةَ تدريس، وكان نصيبها من الساعات بين سبع عشرة وأربعٍ وعشرين في الأسبوع، وتلازم الطفل في مختلف الشعب، وتقتصر العربية على بعض المواد التي ليست في الشعب كلها، وهي اختيارية، كالفلسفة، والتفكير الإسلامي، والتاريخ، والجغرافية، والتربية المدنية[1]. ويُستخلَص من هذا أن قانون محمد الشرفي كان بعيدا مما يُدَّعَى له من إرساخ الوعي بالهوية الوطنية التونسية والانتماء الحضاري العربي الإسلامي، بل كان أدنى إلى الخداع، فإن الشخصية التي ينتجها هذا النظام لا يمكن أن تعتزَّ بلغتها، ولا أن تنتمي إلى ثقافتها، وأقلُّ ما ينتهي إليه أن العربية لغة قاصرة، ولا يمكن أن تكون لغة علم وتعلم، وأن الفرنسية هي البديل[2]. وما أحسن فيه محمد الشرفي سبقه إليه محمد مزالي، فهو الذي جعل العربية لغة تدريس العلوم والرياضيات من الصف الأول إلى الصف الرابع الإعدادي، وجعل للفرنسية عشر ساعات، في الابتدائية، وكانت تدرَّس لغةً أجنبية[3]. ولعل محمدا الشرفي لم يكن جادا في التعريب، وإنما أُكرِه عليه، فقد ورد في وثيقة سرية صادرة من السفارة الفرنسية بتونس أن مشروعه كان يطمح إلى ردِّ الاعتبار للغات الأجنبية، ومنها الفرنسية، بعد سنين من التعريب في عهد محمد مزالي، وزيرا للتربية، ورئيسا للوزراء، فالفرنسية في تخطيط السياسيين الجدد ستظل لها المكانة المميزة في العلم والتقنية، وتقوية القيم الإنسانية والعلمانية. وبناء على هذه السياسة أُدخلت الفرنسية عام ١٩٩٤ مادة إجبارية في المواد المقررة في شهادة الثانوية للشُّعب كلها، ولم تنل العربية ذلك إلا قبل سنتين من نهاية حكم زين العابدين بن علي[4].

(١) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١٠٢، والمسألة اللغوية في تونس، ٣٧٦، والهوية: الإسلام العروبة التونسة، ٣٥٩
(٢) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٦.
(٣) نصيبي من الحقيقة، ٣٠٥.
(٤) البورقيبية والهوية، ٣٨٢.

وأعيد استنساخ مشروع الشرفي فيما يعرف بتعليم الغد ٢٠٠٢ / ٢٠٠٧، أو إصلاح الإصلاح، وقد حافظ المشروع على فوق الفرنسية العربيةَ، وزاد في التعليم بعض اللغات الأجنبية، كالإنجليزية، وقد أدخلت في التعليم الأساسي، بعد أن كان تدريسها مقتصرا على التعليم الثانوي، قبل أن تلحق بالإعدادي[1]. ولم يتغير الأمر كثيرا بعد الثورة، فقد أعلن وزير التربية المؤقت يوم ٢٧ من أغسطس من عام ٢٠١٤ إدراج الفرنسية في التعليم الرسمي ابتداء من السنة الثانية للتعليم الأساسي، وكان ذلك قبل نحو أربعة أشهر من نهاية مهامه ومهام سائر أعضاء الحكومة المؤقتة، فنسف ما أنجز المناضلون قبله من جهود مضنية من أجل حماية الناشئة من لوثة اللسان والضياع بين لغتهم العربية واللغة والفرنسية. وما يفهم من هذا العمل أن هنالك صفقة مشبوهة بين الوزير والاتجاه المتفرنس في الداخل والخارج[2]. بل ربما كانت بينه وبين فرنسة من غير وساطة، أو بين حكومته وفرنسة التي تهتبل الضائقة التي تمر بها تونس من أجل أن تنتزع منها ما استطاعت من المكاسب ما دامت في حال ضعف. وأعظم مكسب تناله فرنسة في تونس هو مزيد من الفرنسة، يتبعه مزيد من التبعية.

ولم يبد الحكم في تونس يوما عزمه على تعريب شامل، والإجراءات المتخذة في التعليم العالي مثلا تتميز بليونة قصوى، فيصعب على كل طبقة اجتماعية أخرى أن تريد مواصلة المهمة بحجة استعمال التعريب[3]. وليس في تونس عناية كبيرة بالتعريب، والمهم فيها هو الحداثة، والعربية لا تعدو أن تكون عنصرا مساعدا، أقصى ما يرجى منه أن يدعم النزعة التونسية[4]. وكانت سياسة الحبيب بورقيبة اللغوية جزءا من رأيه في العلاقة بفرنسة، ورأيه في الهوية

---

(١) المسألة اللغوية في تونس: من أجل مقاربة سسيو – سياسية، سالم لبيض، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ٣٧٧.

(٢) ماذا وراء مفاجأة ادراج تعليم اللغة الفرنسية في السنة الثانية من التعليم الاساسي؟ صحيفة الصباح، أحمد ذياب، ومحمود الذوادي، والبشير السالمي، الخميس ١١ سبتمبر ٢٠١٤ م.

(٣) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ٥٦.

(٤) السابق، ٦٠.

الإسلامية، عقيدة وشريعة، فضلا عن أنها كانت تمثيلا لعقيدته الفكرية التي كانت تخالف الهوية التونسية، ولم يكفَّ طوال المدة التي قضاها في الحكم عن «إعلان عدائه للهوية العربية الإسلامية ومقوماتها الرئيسية المتجسدة في العروبة والإسلام»[1]. وفي العقد الثامن من القرن العشرين بلغت هذه الحرب حدا لا يطاق، حتى قال أحد الباحثين في علم الاجتماع: إن تونس عادت دولة غير مسلمة، وإن مشروع الفرنسة بلغ غايته، فلا يمكن مشروعا آخر أن ينافسه[2]. ومما يصدق هذا أني لقيت في أيام زين العابدين بن علي شيخا تونسيا كبيرا من أهل جربة، بالمسجد النبوي الشريف، فسألته: كيف الإسلام في تونس؟ فقال لي: أُوفَى، أُوفَى! أي: انتهى انتهى. وصار بعضهم يرى التفريق بين فرنسة التي استعمرتنا، وفرنسة التي تحررنا منها وأصبحت تربطنا بها علاقات تعاون نزيه، واحترام متبادل، وكان لذلك أثر في تقوية مكانة الفرنسية من جديد في المجتمع التونسي، وعدِّها نافذة على العالم لمتحضر، ووسيلة لاكتساب العلوم العصرية، وقوَّى حظ المتكلمين بها من التونسيين، في الوظائف والمناصب السامية. هذا إلى الرأي الذي يقول: إن اللغة وسيلة، وليست بغاية، والغاية هي نهضة المواطن التونسي[3] اقتصادا واجتماعا وثقافة، ويمكن أن يكون ذلك بكل لغة، حتى الصينية، كما قال الهادي نويرة. والمهم أن تكون لغة راقية عصرية، ولماذا لا تكون الفرنسية لتونس هي لغة التقدم والرقي؟. وأرسخت هذه الفكرة في عامة الأذهان، فلم يبق أحد من التونسيين، في عهد الاستقلال، يرغب أو يقتنع بتعليم أبنائه العربية، أو الثقافة الزيتونية وحدها. فتهيأت أسباب القضاء بالتدرج على التعليم الثانوي الزيتوني التقليدي أولا، ثم على الشعبة العصرية التي كانت تسمى الشعبة (أ)، في مقابل الشعبة (ب) التي يغلب فيها التدريس بالفرنسية، ولا سيما العلوم. ثم حذفت الشعبة (أ)، وبقيت شعبة (ب) و(ج)، ثم استقر

---

(١) بورقيبة واشكالية الهوية في تونس، سالم لبيض، مدونة سالم لبيض.

(٢) من الحبيب بورقيبة إلى بن علي: تجفيف الينابيع من ١٩٥٧ وحتى ١٩٨٧ م، عبد الباقي خليفة، موقع شبكة الحوار.

(٣) التعريب والفرنكوفنية في العهد البورقيبي، ١٩٨.

التعليم الثانوي الرسمي في تونس على نظام الشعبة (ب)، وأصبحت الشعبة (ج) من اختصاص البعثة الثقافية الفرنسية في تونس، وأصبح الإقبال عليها من التونسيين في تزايد من سنة إلى أخرى، وبعد أن أفرغ التعريب من كل عداء للفرنسية وثقافتها، وأصبحت الدعوة للتعريب ترادف الرجعية والانغلاق والتوجه نحو المشرق، كان لا بد من قيام بديل لها، له قوة الثبات والمكافحة، فظهرت مصطلحات التونسة، والأصالة، وهما مفهومان أنسب وأدق لبناء الشخصية التونسية وصنع الأمة التونسية. وإذا التونسة تصبح أهم وأسبق، في سياسة الدولة، من مجرد التعريب، وإذا التعريب ينبغي أن يتأخر، ويجعل على مراحل، كلما توفرت الظروف والكفاءات والوسائل. ولذلك لم تسجل في تونس الرغبة ألبتة في تنفيذ سياسة التعريب بأيد غير تونسية بورقيبية»[1].

ويرى سالم لبيض أن النظام التربوي في تونس كان يعلن الحرص على الهوية والانتماء، ويبطن التحريض عليهما، ويحرص على صنع نوع من الازدواج، كما يبدو من كلام محمد الشرفي، صاحب ذلك المشروع، فقد قال بعد ذلك بست سنين إن العالم العربي فيه أمم شتى، لكل منها خصوصيته، ومشروع الوحدة يعسر إنجازه الآن، فليس للتعليم أن يدعو إليه أو يعاديه، والفتح الإسلامي يعرض على الدارسين عرضا تمجيديا وجدانيا، ولا يقدم من حيث هو حدث تاريخي، ويربى الطفل على روح القومية العربية الإسلامية، ليعيش عند التخرج من المدرسة واقع الوطن التونسي، وهو ما يسبب له انفصاما في الشخصية، لا يمكن تجاوزه إلا باسترجاع التلميذ الماضي التونسي، وأن يوطن تاريخه، ويستعيد مجد قرطاج، وجلالة حضارة تونس في القرون الأولى من الميلاد[2]. فهو إذن يريد أن يسلخ التلميذ التونسي من تاريخه الإسلامي العربي وحضارته، ويعلقه بحضارة وثنية، ليست هي التي أعطت تونس الحالية معناها، ولا بوأتها إلا التبعية للاستعمار اللاتيني الذي

---

(١) التعريب والفرنكوفنية في العهد البورقيبي، ٢٠٢.

(٢) المسألة اللغوية في تونس: من أجل مقاربة سسيو - سياسية، سالم لبيض، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ٣٧٧.

ما كان له في تونس أثر، يوازن بالإسلام وما صنع بها. وإنما هو مهندس من مهندسي التمزيق، ومسخ الهوية، وفصل تونس عن تاريخها الحقيقي، كما كان يفعل غيره من دعاة الفرعونية والفينيقية والأمازيغية في مصر والشام والجزائر والمغرب، الذين يعدون الوطن العربي أرضا تحوي متناقضات شتى من الديانات والأعراق والحضارات، وليس للحضارة العربية الإسلامية أن تكون هي الوعاء الذي يجمعها، والقاسم المشترك الذي يؤلف بينها. ولا يخفى بعد ما في هذا من استبداد، وتجاوز للشعب التونسي الذي ينتمي جله إلى العرب دينا ولغة وحضارة، ولا يبغي بالعروبة والإسلام بدلا. وقد كانت هذه هي سياسة بورقيبة أيضا.

ولما عُزل بو رقيبة حاول الحزب الدستوري، بعد أن غير اسمه، وحدَّد غاياته وسياساته، أن يعطي الهوية العربية الإسلامية مكانة أكبر، ويعترف بها هويةً لتونس، بعد أن ظهرت الدعوة في نهاية حكم بورقيبة إلى أن تصالح تونس هويتها العربية الإسلامية[1]. وبعد أن كانت الحكومة تتهم الداعين إلى التعريب بالرجعية والتبعية أصبح معارضو سياسة التعريب -وأغلبهم من جيل ما بعد الاستقلال، ومن فئات اجتماعية راقية- يتهمون الحكومة بالرجعية والسلفية والانغلاق عن المذاهب الفلسفية الحديثة، والتيارات الفكرية الديموقراطية والاشتراكية، ومع محاولة وزارة التربية القومية إنجاح خطة التعريب، حافظت الوزارة على منزلة الفرنسية لسانا وثقافة، مع أنها نقصت ساعات التدريس بها في السنوات المعربة من الابتدائي والثانوي. وأظهرت الحكومة عدم ترددها في قبول المساعدة على سياسة التعريب من بلدان شقيقة، كالعراق، وعادت البعوث التعليمية شيئا إلى المشرق بما يشبه ما كانت عليه أول الاستقلال، ونكبة فرنسة في معركة بنزرت، في صيف ١٩٦١، وقطع العلاقات الثقافية مع فرنسة لثلاثة أشهر أو أربعة، وأصبحت التونسة ترادف الاستغناء عن المتعاقدين الأجانب، وترادف ندب الأساتيذ القادرين على التعريب وعلى أن يسدوا مسد المتعاقدين[2].

---

(١) بدايات ملتبسة، ١٢.

(٢) التعريب والفرنكوفنية في العهد البورقيبي، ٢٠١.

ويفهم من هذا أن التعريب في تونس لم يكن قرارا إستراتيجيا، وإنما كان ردة فعل، على السياسة الفرنسية، أو توددا إل السياسة العربية، حين تكون في حاجة إليها. وكان مما تم في عهد بن علي: منع استعمال لغة أجنبية في المراسلات الموجهة إلى المواطنين التونسيين، وفي الأعمال الداخلية الخاصة بالإدارة والمنشآت العامة، من منشورات، وقرارات، ومذكرات، وتقارير، ومراسلات بين الإدارات التونسية، ويبدأ العمل بذلك من يناير عام ٢٠٠٠، والأمر بإتمام تعريب المطبوعات الإدارية قبل ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠٠، وإتمام تعريب الإعلام في الإدارة والمنشآت العامة، على ألا يتعدى ذلك ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠، والانتهاء من إعداد المعجمات اللازمة لتهييء رصيد معرفي من الاصطلاحات في مجالات المعرفة كلها، قبل نهاية ديسمبر ٢٠٠١، ومنْع استعمال المطبوعات والمنظومات الإعلامية التي لا تستعمل العربية بعد ٣١ من ديسمبر ٢٠٠٠، إلا إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة[١]. غير أن هذه القرارات جاءت في حال من عدم التوافق السياسي بين فرنسة والحكومة التونسية، وكذلك ما شاكلها من الإجراءات، إنما كانت تتخذ حين تضطرب العلاقة بين تونس وفرنسة، كما جاء في دستور ١٩٥٩، والميثاق الوطني عام ١٩٨٨، والمنشور الخامس والأربعين عام ١٩٩٩، ولكنها كثيرا ما تبقى على الورق، ولا يعمل بها[٢]؛ فما كانت أكثر من ضغط عابر على فرنسة، وسبب ذلك أن العُصَب السياسية في عهدي بورقيبة وابن علي كانت متفرنسة معادية للعربية وانتماء تونس العربي الإسلامي، حتى تجرَّأ بعضها على إعلان ذلك صراحة، ولم تختلف آراؤها، ولا سياستها[٣]، وحكمت ٣٠ سنة مع حكم بورقيبة، وأكثر من ٢٠ سنة مع ابن علي، وكانوا يسيطرون على أجهزة الحزب الحاكم، ومؤسسات الدولة، وكانوا بمنزلة الحكومة السرية في تونس، وكان منهم وزراء، وأساتيذ جامعيون، ومديرو

---

(١) المسألة اللغوية في تونس، ٣٨١.
(٢) السابق، ٣٨٢.
(٣) السابق، ٣٨٢.

إدارات[1]، فجعلوا التعريب في تونس أمرا صعبا، وعصيا، أحيانا[2]، وحافظوا على فوق الفرنسية في المؤسسات التعليمة الابتدائية والثانوية، والجامعية، ولم يكن التعريب سوى شعار يرفع أحيانا؛ لتجتاز به بعض الأزمات، وفي بعض الأطوار الفاصلة[3]. وقد انتصروا إلى الآن في معركة الفرنسة، وإخراج العربية من جل شؤون الحياة، وصَبْغ الشعب التونسي بصباغ فرنسي شامل، من التعليم إلى الحياة اليومية، ويظهر هذا الصباغ فيما يتسم به جل المثقفين في تونس، ولا سيما النساء، من احتقار العربية، وعدم الارتباط النفسي بها، والرغبة عن استعمالها في جل شؤون الحياة، والتكلم بالفرنسية على كل حال، وحبها، والإدلال بمعرفتها، والزهو بالتكلم بها، واستعمالها في كل شيء، حتى التوقيع، وصكوك الأرضين. ويلقى المتفرنسون في تونس عونا ماليا وفنيا ودعائيا من فرنسة، والمنظمة الفرانكوفونية العالمية[4]. ولما أُعلنَ تعميم استعمال العربية، كشفوا القناع، وبدا أنهم فيالق من الخلايا النائمة، يستندون إلى جماعات الضغط الجائلة في فرنسة، ويستقوون بها على بلدهم. وقد قابلت الصحافة الفرنسية ذلك بحملة مضادة كتلك التي قابلت بها قانون استعمال العربية في الجزائر[5]. وتولت مجلة «جون أفريك» إعلان ملحمة مواجهة التعريب، فأعدَّت في يناير عام ٢٠٠٠ ملفا عن التعريب في تونس، كان من عنواناته: «في تونس: هل بقي للغة الفرنسية مستقبل؟»، «حَمْلة التعريب على أشدها»، «الدوافع اللامفهومة بين تونس وباريس». ومن أشد ما قالت مكرا: إن إحياء التعريب قد بسط من جديد الجدل في الهوية، وهي الهدية السخية للمتطرفين[6]. أي إن التعريب مطلب من مطالب «المتطرفين»، ووسيلة من وسائل صنعهم، كما زعمت لجنة ابن زاغو لعبد العزيز بو تفليقة، في هذا العام أيضا (٢٠٠٠)، وكما كانت فرنسة والإعلام الفرنسي يقولان أبدا، كلما أريد إنزال العربية منزلتها في

---

(١) السابق، ٣٩١.

(٢) الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، ٣٥٥.

(٣) المسألة اللغوية في تونس: من أجل مقاربة سسيو – سياسية، سالم لبيض، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ٣٧٥.

(٤) السابق، ٣٩١.

(٥) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، أحمد معتصم، ٨٠.

(٦) الهوية العربية والأمن اللغوي، ٣٧٨.

الجزائر. وهو دليل على ما بين هذه اللجنة ومحرري مجلة «جون أفريك» من نسب فرنكفوني، كالنسب الذي بين الحكومتين الخفيتين في تونس والجزائر.

وكشف الشاعر التونسي، سمير ساسي عن مخطط في تونس لضرب العربية في وقت ما، تقوم عليه العصبة العلمانية الحاكمة ذات التعليم الغربي، وهي عصبة تتولى مناصب عالية في الوزارات المشرفة على المقررات وبرامج التدريس، وقد تمكَّنت من فرض برامجها التي تقوم على العداء للعربية؛ لأنها تحيل على الاتجاه الإسلامي، وهم يعدُّونه مانعا من الأخذ بناصية العلوم الحديثة، والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى، ويعدون مقاطعة الثقافة «التقليدية والخرافية» تبدأ من قطع الطريق على العربية؛ لأنها لم تستوعب العلوم الحديثة، ولكنهم ظلوا يعملون على بلوغ هذه الغايات في صمت؛ لأن الواقع والذهنيات ليس من اليسير أن تسمح بالاعتداء على أصول الشعب التونسي الثقافية[1]. وبعد ثورة الياسمين عام ٢٠١١ كان جدل عريض في الهوية واللغة في تونس، كأن القضية لم تناقش طوال المدة التي سبقت الثورة، وكأنما كان ما كُتب عنها في الدستور وما شاكله من النصوص شكليا، ولم يكن له أثر في حياة التونسيين، ما عدا القضاء ووزارة العدل[2]. وكان ممن شاركوا في الجدل في هذه القضية راشد الغنوشي، وقال إن حزبه يؤيد تعلم اللغات، ولا سيما أنفعها، على ألا تفقد تونس هويتها. فلم يثر قوله هذا حفيظة فرنسة -وهي تعد تونس إحدى مستعمراتها القديمة، ومجال تدخلها الحيوي، وعضو المنظمة الدولية للفرانكوفونية- فحسب، بل أثار أيضا جدلا عريضا في العصب المتفرنسية التي تعد الفرنسية غنيمة حرب، لا يمكن التنازل عنها، وخطا أحمر، لا يجوز المساس به، وإنما يجب الحفاظ عليه[3].

ولا تنافس الفرنسية العربية في التعليم الرسمي فقط، بل تنافسها أيضا في نوع من التعليم الابتدائي الخاص بأبناء الأغنياء، تنتشر مدارسه في العاصمة وضواحيها، وتدرس فيها الفرنسية من السنة الأولى، ومقرراتها

---

(١) اللغة العربية في تونس.

(٢) المسألة اللغوية في تونس، ٣٨٢.

(٣) السابق، ٣٨٤.

موافقة للمقررات الفرنسية، وتكاليف الدراسة فيها باهظة. وفيها دروس زائدة على المقررات الفرنسية، يدرسها كثير من الطلاب، يبلغون كل عام نحوا من ١٣ ألف تلميذ، يقدمها مركز اللغات التابع للمعهد الفرنسي للتعاون في تونس، ومؤسسات فرنسية تعليمية في العاصمة وبعض المدن، تتبع وزارة التربية الفرنسية، وتدرس بالفرنسية المواد كلها، في أطوار التعليم كلها، الابتدائي والإعدادي والثانوي، وبرامج التدريس فيها هي المعتمدة من وزارة التربية الفرنسية، «وهي بمنزلة الكيبوتزات» (مستعمرات) التربوية الفرنسية على الأراضي التونسية، ولا يدخلها إلا من توافرت فيه شروط معينة، مثل الجنسية الفرنسية، وإتقان الفرنسية، واليسار[1]. ويتزايد الإقبال على هذه المدارس، مع ارتفاع رسومها الدراسية، وعدم قدرة الطلاب على تحملها إلا أبناء الموسرين. وهي تتيح للخريجين الدراسة في الجامعات الخارجية، ولا سيما الجامعات الفرنسة وجامعات الدول الفرنكوفونية في أوربة وكندة. ويترتب على الدراسة فيها انسلاخ الطلاب من ثقافتهم ولغتهم، والاندماج الكامل في الثقافة الفرنسية بقيمها وأخلاقها[2]. وفي تونس ١٢٠٠ مؤسسة فرنسية، يعمل فيها ١٠٦٠٠٠ عامل وموظف. ويُعين المعهد الفرنسي على تعليم الفرنسية بالدورات التي يقدمها لشرائح مختلفة، وبمِنَحٍ للدراسة في فرنسة، يُمنحها الطلبة، وبالإعانة بالمال على العمل الثقافي في الخيالة، والمسرح، وتظاهرات المجتمع المدني، والندوات العلمية التي تقيمها الجامعات ومراكز البحوث[3]. ولا يخفى أن غاية هذا واحدة، هي استلحاق تونس، واصطناع الصنائع الذين تبلغ عليهم فرنسة ما تريد منها، وهي غاية سياسة فرنسة اللغوية في مستعمراتها كلها، ولا سيما المغرب العربي. وربما جاز أن يسلك في أعمال الحكومة الخفية في تونس ما فعل وزير التربية المؤقت يوم الأربعاء ٢٧ أغسطس عام ٢٠١٤،

---

(١) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٨ وما بعدها.

(٢) السابق، ٣٧٩.

(٣) السابق، ٣٧٤.

قبل نحو من أربعة أشهر من إنهاء مهامه ومهام الحكومة المؤقتة، فقد أعلن تعليم الفرنسية من السنة الثانية الابتدائية؛ وهو عملٌ، يشعر بوجود صفقة بينه وبين التوجه المتفرنس في الداخل والخارج[1]. وإنما حَمَلنا على عدِّ هذا في أعمال الحكومة الخفية أنه مخالف لما نص عليه الفصل التاسع والثلاثون من دستور تونس لعام ٢٠١٤، من أن الدولة تعمل على تأصيل الناشئة في هويتهم العربية الإسلامية وانتمائهم الوطني، وإرساخ العربية وتقويتها وتعميم استعمالها[2]، ومخالف لما تقتضيه حال تونس الخارجة من حكم مستبد، دام ما يزيد على نصف قرن، حال فيه بينها وبين هويتها ولغتها، وألزمها الفرنسية إلزاما، فلم تَجْن منها إلا كثرة رسوب الطلاب، وانقطاعهم عن الدراسة، وإخفاق التعليم. ومثل هذا يقتضي المراجعة، وإعادة النظر في التعليم باللغة الأجنبية. وربما كان أدلَّ من هذا على ما نريد مسارعة وزير مؤقت، في حكومة مؤقتة، مهمتها تسيير الأمور، إلى اتخاذ القرارات الكبرى المتعلقة بمصير شعب، بمعزل عن الشعب، كأنما يخشى ألا يتاح له ولا لغيره ممن هم على شاكلته، ومن يريدون ما يريد، أن يكونوا في منصب كهذا، يمكِّنهم من بلوغ ما يريدون.

لقد قال أحمد معتصم إن التعريب في تونس كان هو الأبطأ في دول المغرب العربي، لكنه كان الأفضل والأعمق، وأنه قد عربت أطوار التعليم العام كلها، وغدا التعليم العالي والنظام المعلوماتي هو المستهدف[3]، غير أن ما عرب من التعليم العام هو مقررات العلوم الإنسانية، كالأدب والفلسفة والتاريخ، أما المواد العلمية، فإنما تدرس بالفرنسية، وأن التعريب في تونس لا يختلف كثيرا عنه في سائر أقطار المغرب العربي، بل في الجزائر والمغرب من تعريب التعليم ما هو خير مما في تونس، فقد عرب التعليم العام كله، ومنه المقررات العلمية في الثانوية، في المغرب والجزائر، وإن

---

(١) ماذا وراء مفاجأة إدراج تعليم اللغة الفرنسية في السنة الثانية من التعليم الاساسي؟.

(٢) دستور تونس، ٧.

(٣) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، أحمد معتصم، ٨٠.

كان يشوب التعريب كثير من التردد والتذبذ، والتراجع، والضعف، ولم يعرب التعليم العلمي في تونس ألبتة، ولم يكن تعريب التعليم الابتدائي والمتوسط، يعني أن العربية نالت فيهما مكانتها اللائقة بها، وإنما كانت الفرنسية تزاحمها مزاحمة شديدة، وكانت ساعاتها مع ساعات الإنجليزية تفوق ساعات العربية، ولم يكن بين ساعات الفرنسية والعربية فرق كبير من حيث العدد، مع أن المقررات العلمية كانت تدرس بالفرنسية، أي إن مجموع ساعات الفرنسية كان يفوق مجموع ساعات العربية. وقد علمنا مبلغ ما يعاني الطلاب في المغرب العربي كله من التعلم بالفرنسية، وما يمنى به طلابه من الضعف في الفرنسية والعربية، وما يترتب على ذلك من كثرة الرسوب، والفصل. فزعم أن التعريب في تونس ناجح لا تتضح الأسس التي يبنى عليها. وإلقاء نظرة سريعة على مكانة الفرنسية في التعليم يبين بعد تونس من التعرب، ومبلغ سيطرة الفرنسية على تعليمها، «فـ ٦ , ٩٨٪ ممن هم في المدارس التونسية يتعلمون الفرنسية بغض النظر عن مبلغ إتقانهم إياها في مسيرتهم التربوية في حياتهم العامة. كما يبرز الحال المتميز في تصيير تونس بلدا ينتج الفرنسية المنتشرة في مؤسسات التعليم العالي كلها المتصلة بالآداب والعلوم الإنسانية، فضلا عن تدريسها في أغلب الشعب والاختصاصات التي تتولاها الجامعة التونسية. ولا نبالغ إذا قلنا إن ٣٥٠ ألف طالب يدرسون في تلك الجامعة يتلقون دروسا في الفرنسية، وهو أمر لا يقع في فرنسة ولا في البلدان التي تكون فيها الفرنسية هي اللغة الأم»[١]. وتستعمل العربية في رياض الأطفال، والسنوات الأولى من المرحلة الابتدائية، وفي الصفوف العليا من الابتدائية تدرس الفرنسية لغة ثانية. وتستعمل في تدريس التعليم الابتدائي والإعدادي، وكثير من مقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية بالتعليم العالي، كالتعليم الثانوي والجامعي، وتدريس العلوم والرياضيات، والتأليف، وكتابة البحوث[٢].

---

(١) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٣.

(٢) علاقة اللغة بالهوية بين التنظير والواقع: المجتمع التونسي نموذجا، ٤١ وما بعدها.

(٤)

ولفرنسة خطة للهيمنة على المغرب، تشمل الكنيسة، والإدارة، وضباط المخابرات، وضباط الجيش، ومؤسسات البحث الجامعي، ووسائل الإعلام، وصناعة عصبة أدبية فكرية مرتبطة بها في عقيدتها، وقيمها وعواطفها وتوجهها؛ لتلائم المهمة التي تُهَيَّأ لها في مغرب الاستعمار الجديد[١]. وتقوم سفارتها بالمغرب مقام الحكومة، فتتصرف تصرفها، فترعى النتاج الثقافي المغربي الذي يصطنع الفرنسية، من غناء، وأدب، ومسرح، ورقص، وغيرها، وتقيم كل عام معرضا للكتاب الفرنكفوني بطنجة، تعارض به معرض الكتاب الدولي الذي تقيمه وزارة الثقافة المغربية، وتقيم فيه ندوات وحوارات، وتعطي الكتاب الفرنكفوني بالمغرب جائزة كل عام[٢]. وهي تتوسل إلى ما تريد بالمغرب بوسائل، أهمها التعليم، ونشر الفرنسية، ومحاربة العربية. فالتعليم والفرنسية ينقلان قيم فرنسة وحضارتها، ويصبغان مَن تريد بالصباغ الفرنسي، ومحاربة العربية تعين على إحداث فراغ فكري وثقافي، يهيئ لقبول ما يُتَلَقَّى من ثقافة فرنسة بطريق اللغة والتعليم. وتستعين على نشر الفرنسية والتعليم الفرنسي بأمرين: مدارس البعث الثقافي الفرنسي بالمغرب، ومهمتها فرْنسة أبناء طبقة الأثرياء، والطبقة الوسطى، ومنها السياسيون، والأعيان، وإعدادهم لتولي المناصب العليا في الإدارة؛ ليقوموا بما تريد من ربط المغرب بمنافع فرنسة، ورفْد الطبقة الحاكمة بقادة صالحين للوصل بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد[٣]. الأمر الثاني التعليم الرسمي: ويُفرنَس فيه أبناء سائر الشعب فرنسة أقلَّ؛ لأن عملهم في المغرب المتفرنس محصور في أن يكونوا أعوانا للرؤساء في المكاتب الإدارية. وهي تصنع من خريجي المدارس المغربية والمدارس الفرنسية في المغرب، والجامعات والمعاهد الفرنسية، ومن الفرنسيين المقيمين بالمغرب عُصبة ترعى منافعها، وتجعل الفرنسية وسيلة للتميز المترف، والانتماءِ إلى هذه العصبة[٤]. وهي سياسة في التعليم الفرنسي بالمغرب، كان قد وضع

---

(١) النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب، ٩.

(٢) المسألة اللغوية في تقرير الخمسينية، ١٠٩.

(٣) اللغة العربية: الصراعات المتداخلة، ١٣٨ وما بعدها.

(٤) اللغة وأنظمة الحكم في المغرب العربي.

أصولها الماريشال ليوتي، فقد أَلَّف عام ١٩١٢ -وهو العام الذي احتُلَّ فيه المغرب- لجنة للتعليم، جعل مهمتها تكييف برامج التعليم مع ما كان يريد من تخريج موظفين على شاكلة الموظفين الفرنسيين، يُختارون من نخبة المجتمع المغربي، فيدرسون بالفرنسية ما يُعدُّهم لتولي الوظائف المهمة في إدارات الدولة ومرافقها، كالبنوك، والبريد، والجمارك، والضرائب، والتجارة؛ ليكون ولاؤهم لفرنسة، أما غير النخبة، فكانوا يدرسون ما يُعدُّهم لما يلائم حالهم وطبقتهم الاجتماعية من الحرف والمهن[١]. وإنما كان الفرق بين التعليم في عهد الاستعمار والتعليم في عهد الاستقلال أن الذي كان يشرف على الأول هو الفرنسيون، والذي يشرف على الثاني حزب فرنسة؛ ولذلك كانت السياسة والغايات في العهدين واحدة. وقد نبه على ذلك محمد عابد الجابري، فقال إن المشروع الاستعماري بلغ ما يريد من الاستمرار في المغرب بالعصبة التي صيغت في مختبراته التعليمية، وتولت زمام الأمور بعد الاستقلال. ولما كانت مهمة التعليم تتلخص في إعادة إنتاج القيم والمعارف، استُعمل التعليم الفرنسي في صنع جيل من المغاربة قادر على الحفاظ على استمرار المشروع الفرنسي في المغرب؛ لأن مصير هذا الجيل العمل مع حكومة الحماية، إما في الإدارة، وإما في المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية، وهذا ما يؤهلهم لأن يكونوا أعوانا لها، لا ثائرين عليها[٢]. وكانت -منذ أيام الاستعمار- تصطنع من الموظفين من تدير بهم الدولة من وراء ستار، من غير أن تستثير أحدا، وقد بلغوا عام ١٩٥٦ نحوا من ١٣٠٥٠٠ موظف، يحملون شهادات جامعية، وأعطتهم من الصلاحيات ما هيمنوا به على الإدارة[٣]، كما فعلت في الجزائر. وكانت تحتال للتمكين لهم بالمسابقات على الوظائف العامة، لتستخلص من المتنافسين من تريد، وتستثني من لا تريد من المتعلمين تعلما عربيا، وتشترط للتوظيف حصول المترشح على شهادات في الفرنسية، وشهادات مدرسية، ولا سيما شهادة الدروس الثانوية (البروفيه)، ولا تُنال إلا من المدارس الفرنسية[٤]، ثم

---

(١) عن سياسات تعريب ما بعد الاستقلال.

(٢) الفرنكفونية إيديولوجية اليمين المتطرف فيما وراء البحار.

(٣) انظر: اللغة العربية: الصراعات المتداخلة، ١٣١ و ١٣٨ و ١٤٠، ومذكرات جزائري، ٢/ ٥٠.

(٤) اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ٩٩ وما بعدها.

أغناها التعليم عن المسابقات؛ فصارت فرص التوظيف مقصورة على خريجي المدارس الفرنسية، أو تكاد. ويوصف هؤلاء بأنهم فئة تتميز بتجانس ثقافي واجتماعي، يرتبط بمقدار ثروتها وكفاياتها التقنية والثقافية. ولما كانت الحظوة الملكية (الحظوة عند الملك وأقاربه)، شرط الوصول إلى جهاز الحكم، كان حتما أن يقيم ذلك بين الملكية وهذه الفئة شبكة من علاقات التعارف والاعتراف والتواطؤ، تشارك فيها الشخصيات كلها، ومنها بعض من ينتمون إلى المعارضة. وهذه الفئة، أو الطبقة مفرنس أغلبها، إذ معرفة الفرنسية شرط التميز والانتماء إلى الطبقة المترفة، وتعتمد على الفرنسية في حكمها وإعادة إنتاجه، وعلى شبكةِ المدارس الموازية التي بقيت في المغرب، كمدارس البعث الثقافي الفرنسي، وكثيرٍ من المدارس الحرة، وهي تتكاثر في المغرب أكثر من كل بلد آخر من بلدان المغرب العربي. وترتبط هذه الشريحة في مصالحها بالغرب، وفرنسة، وأمريكية، وألمانية، وإسبانية[1]. وترتبط بفرنسة بشبكة من المنافع، تتيح لها السيطرة على قطَّاعات كبيرة، تتجاوز الاقتصاد إلى الثقافة والتعليم والإعلام، وتصنع قوة سياسية، تدافع عن منافعها، وتؤثِّر في القرار السياسي، وتوجهه الوجهة التي تريد، وبيدها جيش البلد، وسياسته، واقتصاده، وإدارته، وصناعته، وأمنه، وتتولى أهم المناصب في الدولة، وبيدها زمامها، ولهذا التحكم في الدولة كانت كما وصفها عبد الإله بن كيران. وهي لا تنتمي إلى الوطن إلا بالجنسية، ورأيها في العربية سيئ جدا، بل يتعدَّى السوء إلى العداوة الصريحة التي لا تقلُّ عن عداوة فرنسة إياها، وتعدُّ التعريب تهديدا لمكاسبها ومستقبلها؛ فتعارضه معارضة شديدة، وتعطِّل كل ما يُنزِل العربية المنزلة التي يقتضي الدستور[2]، لكنها تُلْبِس معارضتها من لباس العلم والوطنية، ما يُلبِس الاستعمار فظائعَه من لباس الأخلاق والتحضر. ومن معاداتها العربية وجدِّها في التمكين للفرنسية أنها نفَّذت من «ميثاق التربية» ما يتعلق بالعامية والأمازيغية واللغات الأجنبية، دون ما يتعلق بالعربية، مع أن الميثاق أقره الملك، ووافقت عليه شرائح الشعب

---

(١) اللغة وأنظمة الحكم في المغرب العربي.

(٢) انظر: اللغة العربية: الصراعات المتداخلة، ١٣١ و ١٣٨ و١٤٠، ومذكرات جزائري، ٢/ ٥٠، والعربية ولغة التدريس وإصلاح التعليم، ٧٠، وتعريب التعليم العالي وتيار الفرنكوفنية بالمغرب، ٢٧.

كلها، واتفقت على «أنه وثيقة شمولية، لا يمكن تجزئتها»[1]، وإنما يجب أن تنفذ كلها من غير تمييز. فمما عَطَّلت من بنوده «أكاديمية محمد السادس للعربية»، وكان مقررا أن تبدأ عملها عام ٢٠٠٠ / ٢٠٠١، والبندُ الذي يوصي بعدم تعليم اللغة الأجنبية الأولى واللغة الأجنبية الثانية إلا في سن بعينه. وقَصَرت رياض الأطفال والمدارس الخاصة على تعليم الفرنسية، أو الفرنسية والإنجليزية، أما العربية، فقلَّما تُعْنَى بها مدرسة خاصة. واقترح الميثاق أن تعرَّب المواد العلمية في التعليم العالي، على أن تعلَّم مع تعريبها الفرنسية والإنجليزية، غير أن التعليم الجامعي لم يعرَّب، ولم تدخل فيه الإنجليزية، لأسباب لم يوضحها أصحاب القرار، وإن كان لا يخفى أنها تتعلق بهيمنة الحكومة الخفية[2]، وما تريد من تبعية المغرب لفرنسة. وتنفيذ بنودٍ من الميثاق وتجميد أُخَر إنما يكون بحسب ميزان القوى، والصراع، والمنافع، والعقائد؛ لأن القرار التربوي المتعلق باللغات يُحتكم فيه إلى مراجع اقتصادية وعقدية، ومنافعَ مؤثرة في إمضاء هذا البند أو ذاك، وليس إلى الأمور الفنية والعلمية والتربوية[3]. ولعل هذه الحكومة هي التي حالت دون ما أراد علال الفاسي على عهد محمد الخامس، من إنشاء مجمع علمي للعربية في المغرب، وقد أعدَّ علال مشروعه، ورفعه إلى محمد الخامس ليبت في أمره، واقترح أمانة دائمة لمؤتمر التعريب[4]، فلم يُمْضَ شيء مما اقترَح.

وقد استصدرت الحكومة الخفية قانونا يجيز افتتاح الجامعات الخاصة لدراسة الطب، من أجل أن تزيد التمكين للفرنسية[5]، وهي تسعى الآن في حمل الدولة على التراجع عن تعريب المواد العلمية في التعليم العام، وقد قطعت في ذلك شوطا كبيرا بإطلاق الثانوية الفرنسية مع بدء موسم ٢٠١٣ الدراسي في ستِّ ثانويات، بمساعدةٍ مِنْ فرع «التعاون الفرنسي» الداعم للثانوية الفرنسية، وصار من المتاح أن يتابع التلامذة المغاربة الذين يدرسون

(١) قضايا استعمال اللغة العربية، ٢٣٧.
(٢) لننهض بلغتنا.
(٣) تدبير تدريس اللغات: الواقع والمأمول، ١٤٨ وما بعدها.
(٤) من أجل تفاعل لغوي، ١١٩.
(٥) هل يتخلص المغربي من جبة الفرنسية في الطب ويستبدلها بالعربية؟.

الثانوية درُوس الرياضيات والعلوم والأدب الفرنسي والتاريخ، بالفرنسية[1].

ووقَّع وزير التربية، رشيد بلمختار مع نظيره الفرنسي عام ٢٠١٤ ما سماه أحد المغاربة «معاهدة التسليم»، أي تسليم عقول أبناء المغرب ومقدَّراته إلى فرنسة، وتنص على الاشتراك في الشعبة الدولية، والثانوية المغربية الدولية، ومساعدة الأقسام التحضيرية للمدارس العليا، ونظام التبريز، والتكوين المهني. وعلق بعض المراقبين على الاتفاق بأنه ليس إلا احتيالا على التعريب ومقدمة للتراجع عنه[2]. أما رشيد، فقال إنه إنما أراد الإفادة من خبرة فرنسة في الهندسة التربوية، وتكوين الأساتيذ، والتقويم، والإشهاد، لمساعدة الثانوية الدولية، عن رضا واقتناع. وبعد ثلاثة أيام من توقيع الاتفاق نشرت جريدة le matin يوم الجمعة ٢١ فبراير مقالا للسفير الفرنسي بالرباط، تحدث فيه عما يؤمل من التعاون التعليمي، وحدد ثلاثة مسارات للغزو الفرنسي للنظام التعليمي الوطني: إقامة مؤسسات فرنسية للتعليم العالي بالمغرب، وقد أخذت تفتح منذ عام ٢٠١٣ في الرباط، والدار البيضاء، وفاس، وطنجة، وتوسيع مجال التعبئة للنموذج الفرنسي خارج الرباط والدار البيضاء، وتشجيع الطلبة المغاربة على الدراسة في فرنسة، بعد أن بلغوا فيها ٣٢٠٠٠، عام ٢٠١٣، وهو عُشُر الطلبة الأجانب الذين يدرسون فيها[3]، وبلغ المسجلون منهم في مؤسسات التعليم الفرنسية بالمغرب ٨٥٪ من طلابها. ويقول المغاربة إن للفرنسية أجهزة متقدمة، تنفذ خططها بكل وسيلة، بطرق، منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو مستتر، أو شبه مستتر[4].

ونشأت «الحكومة الخفية»، أو «حكومة العفاريت» -كما سماها عبد الإله بن كيران-، و«الحكومة الموازية»، و«القوة الثالثة»، و«الحزب السري»، و«جماعة الضغط»، كما يسميها غيره من المغاربة[5]، على إثر عزْل فرنسة محمدا الخامس

(١) مجّلة فرنسية: سياسة التعريب جرَّت على المغرب نتائج كارثية.

(٢) العربية ولغة التدريس وإصلاح التعليم، ٧١، ومعاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد.

(٣) معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد.

(٤) مسار اللغة الأمازيغية، ٤١، والمدرسة المغربية وضرورات التوفيق بين لغات الوجدان ولغات العلم، ١٥١، ولغتنا الجميلة.

(٥) في غمار السياسة، ١٦٣، والبيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٥.

ونفيه إلى مدغشقر عام ١٩٥٣، بعد أن فرَغت من قمع حزب الاستقلال بعامين، فصنعت «قوة ثالثة» من قادة كبارٍ: إقطاعيين، وشيوخ طرق، ورجال من دار المخزن، لحمل محمد الخامس على قطع علاقته بالحركة الوطنية، والتوقيع على ما تُقدِّم له من مراسيم لملاحقة حزب الاستقلال ومناضليه وقتلهم، وإعطاء المستوطنين الغربيين بالمغرب والجالية الفرنسية حقوقا، لم تعطهم إياها معاهدة الحماية، ومنها المواطنة، فلما أبى، اتهمته بالانحياز إلى حزب الاستقلال، والتخلي عن أغلبية الشعب المغربي، ونَفَتْه[1]. فلما أزمعت القبول بعودته و«استقلال» المغرب أعادت صياغة «القوة الثالثة»، وكيَّفتها مع الحالة الجديدة؛ لتجعلها «المنافس الوطني المعتدل» لحزب الاستقلال، والمزاحم له على المؤسسة الملكية، ورتبت الأمور ترتيبا يبدو فيه الفضل في عودة محمد الخامس إلى «المعتدلين»، خصوم محمد الخامس بالأمس، فقد أعلنوا «التوبة»، ودخلوا في «الإجماع» الوطني على عودة الملك[2]. وألزمت المغربَ أن يقبلهم شركاء في مفاوضات إيكس ليبان مع حزب الاستقلال، باسم «الوطنيين المعتدلين»، لتسهيل إمضاء خطتها لما بعد الاستقلال، كما ألزمته أن يقبلهم شركاء في حكومات ما بعد الاستقلال[3]. وقد يسَّر لها ذلك محاصرة المفاوضين المغاربة باتفاقات معلنة وأخرى غير معلنة، تتيح لها الحفاظ على منافعها الاقتصادية والسياسية. وهذه المنافع -مع أنها مادية صرف- تتوسل إليها بصناعة الشخصية المغربية على الوجه الذي تريد، فلما خرجت جيوشها من المغرب استنابتها في حماية مشروعها ومواصلته، وزرْع الشقاق بين الملك والحركة الوطنية لتعوق المشروع الوطني. وبلغ الصراع بينها وبين الحركة الوطنية أوجه بعد إسقاط حكومة عبد الله إبراهيم وتعويضها بطائفة من القوة الثالثة، من أبرزها أحمد رضا كديرة، ومحمد أوفقير، وهو الجنرال الذي استعمل الجيش في الإجهاز على قيادة الحركة الوطنية وقواعدها، ووزير الداخلية، الحسن اليوسي، وكافح المشروعَ الوطني، وأعان ضباط الجيش

(١) البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ١٦.
(٢) السابق، ١٧ وما بعدها.
(٣) في غمار السياسة، ١٧٧ وما بعدها و ١٨٥.

الفرنسي على ملاحقة مناضلي الحركة، ودخل في علاقات مشبوهة مع بقايا موظفي الاستعمار للقيام بحملته الدعائية المعادية للوطنيين[1]. وعملت القوة الثالثة ورجال الأعمال الفرنسيون والمعمرون في المغرب على تخويف البيت الحاكم من الحركة الوطنية أن تصنع به ما صنع الضباط الأحرار بفاروق ملك مصر، والحبيب بو رقيبة بباي تونس[2]، فلقوا أذنا من الحسن الثاني خاصة، وهو يومئذ ولي العهد، وكان مما ترتب على ذلك إقالة حكومة عبد الله إبراهيم المعروفة بوطنيتها، وجدِّها في التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي، وتوطين العلم، والتصنيع. وتولى الحسن الثاني تأليف الحكومة، فكان رئيسا لها نيابة عن محمد الخامس. ثم تبين لمحمد بعد أشهر من إقالة حكومة عبد الله ضرر القوة الثالثة وحلفائها، وانكشف له من أمرها ما كان مستورا عنه، فعقد العزم على التخلص منها، بعد خروجه من عملية جراحية صغيرة، كان يزمع إجراءها، حتى الحسن الثاني، فقد عزم على إخراجه من ولاية العهد، لما بان له من علاقته بها، لكنه قَضَى قبل أن يَقضي فيها[3].

وينتمي إلى هذه العصبة رجال من كبار رجال الحركة الوطنية، متحمسون لربط المغرب بفرنسة، كمبارك البكاي الهبيل، رئيس وزراء أول حكومة مغربية بعد الاستقلال، وعبد الرحيم بو عبيد، ومحمد بن هيمة، وزير التربية والتعليم، وأحمد رضا كديرة، مستشار الحسن الثاني المقرب، وحزبه (جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية)، المعروف بحزب الفيديك، وقد أسسه مستظهرا بعصبة عسكرية، مخلصة للمشروع الفرنسي، يقودها محمد أوفقير، وأخرى اقتصادية وليدة النموذج الريعي الاستعماري[4]. وكان أحمد رضا كديرة محاميا، تخرج مشحونا بأفكار مؤسسات الحماية الفرنسية والأوساط الرأسمالية الاستعمارية وأولئك الذين يسايرونها من موظفي المغرب[5]. وكان هو وأوفقير من ركائز

---

(١) في غمار السياسة، ١٨٥ و ١٨٧ وما بعدها، والمشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني.

(٢) البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٤٧.

(٣) انظر: في غمار السياسة، ١/ ١٨٧ و ٢٠٧ وما بعدها، والبيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٤٩ و ٧٨، وصديقنا الملك، ٢٣٦.

(٤) في غمار السياسة، ١/ ١٨٥.

(٥) السابق، ٢/ ١٨٠.

الوجود الفرنسي في المغرب. وما كان أحمد رضا -كما قال المهدي بن بركة وعبد الرحيم بو عبيد-: «إلا ظل مولاه (الحسن الثاني)، وليس له وجود سياسي خاص إلا الوجود الذي يجعل منه المعبِّر الأمين عن وجهات نظر مولاه، فلو أن الملك قرر غدا الانفصال عنه، فلا شك أنه سيعود إلى ما كان عليه، أي لا شيء»[1]. ويمكن أن يفهم توجه الحسن الثاني الفرنكفوني، وجانب من علاقته السرية بفرنسة، من علاقته بأحمد رضا كديرة.

ويعدُّ المغاربة تسمية إدريس جتُّو رئيسا للوزراء، في عهد محمد السادس، إعلانا لبلوغ مشروع الحكومة الخفية السياسي التكنوقراطي في المغرب أوج تمكنه وانتصاره، ويقولون إن هذه الحكومة قادت طورا كاملا، تحكَّم في تسييره المهندسون المتخرجون في مدارس القناطر والطرق (في باريس)، وتقلدت المناصب كلَّها، وجمعت في يدها المهمات كلها من دون استثناء؛ لأنها تعدُّ رجالها قادةَ هذا الطور من تاريخ المغرب، وحكماءَه. وقد تمكنت منذ عام ٢٠٠٢ إلى انتخاب ٢٠٠٧ من أن تُجهز على كل ما يرتبط بالسياسة، وصيرت المغرب طوال خمسة أعوام كاملة مقاولةً تجارية، تتحكم في تسييرها الأرقام أكثر مما تتحكم السياسة والفكر، وعزلت المغرب عن محيطه العربي الإسلامي، عقدا كاملا، وجعلته سوقا مستهلكة للبضاعة الفرنسية، ومَنْجَمًا كبيرا يصدِّر إليها المواد الأولية والعمال الرخيصي الأجر، وفناءً خلفيا لفرنسة، كما ظهر في حضوره البارز في منظمة الفرنكوفونية العالمية، فقد كان وفد المغرب في دفاعه عن الفرانكفونية في العالم ملَكيًّا أكثر من الملك[2]، وكما ظهر في سياسته اللغوية التي اتسمت بكل ما قد رأينا من إعلان الحرب على العربية من كل مكان، ولعل ذلك كان سبب ما ظهر في هذه الحقبة وبعدها من كثرة الجمعيات الشعبية المدافعة عن العربية في المغرب، لشعور الشعب بأن هويته غدت على خطر من الفَرْنسة الشاملة التي تتقلدها الحكومة المغربية، وتجدُّ في التمكين لها، وصبغ المغاربة بها. ويقول بعض المغاربة إن النموذج المغربي الذي يُعَدُّ امتدادا لحضارة الغرب الإسلامي يجد نفسه اليوم في مواجهة

---

(١) في غمار السياسة، ٢/ ٧١.

(٢) جذور الفرانكفونية في المغرب، والمشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني.

تحديات حضارية غير مسبوقة، ستكون لها آثار وخيمة في مستقبله، وأخطر ما يمكن تصوره في المستقبل المتوسط والبعيد اندثار الهوية المغربية العربية الإسلامية بصناعة أنموذج فرنسي مغربي على شاكلة الأنموذجات الفرنسية في إفريقية السوداء(١). ويدخل في هذا ما فعل رشيد بلمختار، وزير التربية المغربي في حكومة عبد الإله بن كيران، من التمكين للفرنسية في التعليم، فإنما كان إمضاءً لما أمرته فرنسة، وتنفيذا للخطة التي من أجلها أُقحم في حكومة عام ٢٠١١، وتسليما للتعليم المغربي إلى الرئيس الفرنسي، أي تسليما لعقول أبناء المغرب وموارده ومستقبله إلى المستعمر القديم الجديد(٢).

وقد قال اللغوي الفرنسي جان كالفي: إن الاستعمار الأمريكي ينشر لغته بالهيمنة السياسية والاقتصادية، وأما فرنسة، فتنشر لغتها وثقافتها لتهيمن على الاقتصاد والسياسة، فاللغة عندها في مركز القيادة، أما السياسة والاقتصاد، فتابعان، وغاية لا وسيلة. وقال: إن الفرنكوفونية هي سياسة فرنسة اللغوية والثقافية التي تخفي وراءها المنافع الاقتصادية، والرغبة في الهيمنة على الشعوب، وإن الغرض من هذه السياسة ليس نشر اللغة أو الثقافة الفرنسيتين، وإنما التوصل بهما إلى التحكم في عقول مستعمليهما ومصيرهم(٣). من أجل ذلك كانت الفرنسية في سياسة المغرب اللغوية أكثر بكثير من لغة أجنبية، أو لغة تعليم محايدة، وإنما هي وسيلة تحديد العلاقة بينه وبين فرنسة، كما أنها وسيلة لتحديد العلاقة بين فرنسة ومستعمراتها القديمة. فبسببها كان ميل بعض المغاربة إلى فرنسة واقتصادها وسياستها، دون سائر دول العالم، وصارت فرنسة الشريك الاقتصادي والسياسي الإستراتيجي الأول، والحريف (الزبون) الأول، والمستثمر الأول(٤)، وغدا المغرب سوقاً مفتوحة لها، وملحقا من ملحقاتها، تنال فيه من الامتيازات ما لا تنال دولة: يفتح لشركاتها الأسواق دون شركات العالم، ويتيح للفرنسيين من فرص العمل، والرواتب الجزيلة ما لا يتاح لهم في فرنسة، واقتصاده تابع لها ومكمل لاقتصادها، وهياكله والأجهزة الحديثة التي غرست

---

(١) المشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني.

(٢) معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد.

(٣) حرب اللغات والسياسات اللغوية، ولسانيات واستعمار ٣١ (نقلا عن: فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٣).

(٤) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

فيه، في الاقتصاد، والإدارة، والتعليم، امتداد لهياكلها وأجهزتها. وفيه ما يزيد على ١٠٠٠ شركة فرنسية، منها ٤٠٠ فرع لشركة فرنسية من الشركات الكبرى، ولها غرفة للتجارة والصناعة بالدار البيضاء، تجمع شركاتها وفروع مؤسساتها المالية بالمغرب تحت اسم واحد، هو مؤسسة «الوجود الاقتصادي الفرنسي»، وأصدرت عام ٢٠٠٨ دليلا يحمل هذا الاسم، وهذا يعني أن في فرنسة من يعد المغرب مستعمرة اقتصادية تابعة له، لا يحق لدولة أخرى الاقتراب منها[١].

وبسبب هذا أصبح جل الدول الصناعية، كألمانية، وإيطالية، واليابان مقتنعة بأن المغرب مجرد حديقة فرنسية، فهي تأبى منافستها منافسة حقيقية، لاعتقادها عدم جدواها، وقد حيل بين البلد بسبب ذلك وبين الإفادة مما كان يمكن أن تتيحه عروض تلك الدول من خفض تكاليف المشاريع الكبرى. وهذا الاحتجان من أبرز صور التبعية التي أقرها اتفاق إيكس ليبان[٢]. وبعد ما يزيد على نصف قرن من الاستقلال لا يستطيع المغرب التحكم في تدبير الماء والكهرباء والتطهير والنقل تحكما تاما، ينهي الأزمات الطارئة في المدن الكبرى، فأغلب الموظفين الأجانب الذين تأتي بهم هذه الشركات للعمل فيه إنما تأتي بهم لتوفر أموالا تُحوَّل عملة صعبة بعد أن تضاف إليها الأرباح السنوية، ثم تخرج من المغرب، ولذلك تعاني المصارف المغربية شحا في السيولة، حتى إن احتياطي العملة الصعبة في بنك المغرب صار لا يكفي لستة أشهر، بسبب النزف في خزينة الدولة، لعظم أرباح فروع الشركات الفرنسية خاصة، وتحويلها إلى الشركات الأم في فرنسة بسبب المعاملة التفضيلية التي تؤثَر بها، وأغلب المشاريع الكبرى والقطاعات العامة المربحة تحتجنها شركات فرنسية[٣]. وإنما مرد هذا إلى أن الذين يدرسون في مدارس فرنسة في المغرب، أو في فرنسة يتجهون غالبا إلى أن يكونوا أعضاء في الحكومة الخفية التي تدير بها فرنسة المغرب وغيره من مستعمراتها، وتجعلهم نوابا عنها في القيام في منافعها. ويقول المغاربة إن زعماء حزب الاستقلال الذين وقَّعوا اتفاق إيكس ليبان ظلوا حراصا على تعليم أبنائهم

---

(١) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.
(٢) الموضع السابق.
(٣) قراءة في مقالات حول اتّفاقيّة إيكس ليبان.

في مدارس البعث الفرنسي وإرسالهم إلى فرنسة لاستكمال دراستهم العليا بها، ودرسوا في معاهد فرنسة المرموقة، كمدرسة الطرق والقناطر، ومدرسة المناجم، ومعهد HEC، فلما رجعوا تبؤوا المناصب السامية، كالوزارات، والمؤسسات العامة، فخدموا منها فرنسة، وحافظوا على منافعها في المغرب، وعنوا بتنميتها؛ ولهذا كانوا يخصون شركاتها بالصفقات الكبرى في الوزارات والمؤسسات التي يسيرونها، وتبلغ نسبة شركاتها التي تفوز بالصفقات الكبرى ٩٠٪ من الشركات، وتستهلك هذه الشركات منتجات فرنسية، وتوظف مكاتب دراسات فرنسية، وخبراء فرنسيين، أي إن المغرب لا يفيد منها شيئا. ويمكن أن يضرب المثل لخدمة المتعلمين في فرنسة أو مدارسها في المغرب، وما يقدمون لفرنسة من خدمة جليلة، وقيامهم في منافعها بأمْر إدريس بن محمد بن هيمة شركةَ الخطوط الجوية الملكية المغربية -وتولى إدارتها نحوا من عشرة أعوام- أن تحمل السياح الفرنسيين العالقين في المغرب بسبب السحابة البركانية مجانا، وهو شيء لم تفعله شركات الطيران العالمية بسياح بلدانها، وإنقاذ مدير صندوق الإيداع والتدبير العام السابق شركة كلوب ميديتيراني الفرنسية بضخ أموال اليتامى والمحجور عليهم من المغاربة في رأسمالها[١]. وتعلم فرنسة، كغيرها من الدول المستعمرة، أن اللغة أداة مؤثرة في إطالة أمد الاستعمار الاقتصادي، ولهذا أنشأت وزارة للفرانكوفونية، تنفق كل عام ما يعدل ميزانية المغرب، وهي تُخدم اقتصادَها لغتها وثقافتها[٢]، ومن يفرض لغته يفرض تعليمه، ومن يفرض تعليمه يفرض نخبته، ومن يفرض نخبته يفرض تبعيتها لمصالحه الاقتصادية ودفاعها عنها[٣]. وعلى هذا تُبْنَى سياسة المغرب اللغوية غير المصرح بها[٤]، وبهذا ينبغي أن يفسر ما تفعل، من الجد في نشر الفرنسية، ومحاربة العربية.

وكذلك صَنعَ تعليم الفرنسية في الجزائر، فمنذ عام ١٩٦٢ -مثلا- والميزان التجاري بين الجزائر وفرنسة يميل إلى فرنسة، ولم يشذَّ عن ذلك مرة واحدة،

---

(١) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.

(٢) الموضع السابق، وإيكس ليبان المؤامرة الكبرى في تاريخ المغرب، وقراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

(٣) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.

(٤) انظر: التعليم في المغرب العربي، ١٦٤، والسياسة اللغوية والتخطيط، ٥٢.

بأن يعتدل، أو يميل إلى الجزائر[1]. وكذلك صنع تعليمها في إفريقية، فإن المجالات الرئيسة في التجارة والصناعة في السنغال كلها كانت تحت رقابة رؤوس الأموال الفرنسية، و٦٠٪ من تجارة إفريقية السوداء المتفرنسة مع فرنسة، وتصدِّر إليها وإلى الدول المستعمرة ٤٤٪ من قهوتها، و٥٩٪ من قطنها، و٣١٪ من خشبها[2]. وظلت مدة طويلة مصْدرا من المصادر التي تمدها بما تحتاج إليه مما تُخرِج أرضها، فتقدم لها أكثر من ٢٠٪ من حاجاتها الإستراتيجية إلى المعادن، وأكثر من ٩٠٪ من المنغنيز، و٤٠٪ من النحاس واليورانيوم والكوبالت. وتَجِدُ في غرب إفريقية سوقا مفتوحة لمنتجاتها كلها، على ما قد يكون من رداءتها، فضلا عما يتولى الفرنسيون فيها من آلاف الوظائف، وأجهزةِ الأمن، والفِرَق العسكرية النظامية التي تتخذ من بعضها مسرحا لعملها[3].

(٥)

وكيد العربية في المغرب أشد غموضا وخفاء منه في سائر أقطار المغرب العربي، بسبب خصوصية المغرب السياسية، فإن الحكم فيه حكم ملكي عريق، يتوكأ على الدين، وينتحل إمارة المؤمنين، وينتسب إلى آل بيت النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-، والعربية من الدين، ولغة الأجداد، ومقتضى ذلك أن تنال من عنايته ما ينبغي أن ينال الدين الذي يستمد منه شرعيته[4]، وهو -أيضا- مقتضى الأصالة، والحفاظ على تراث الأسلاف، إلا أن ما يقتضي الدين والأصالة تحول دونه الثقافة، والتوجه الفكري، والعلاقات السياسية مع فرنسة، وما يُبنَى عليها من منافع، فهو فرنكفوني، شديد الارتباط بفرنسة، منذ اليوم الأول للاحتلال، ولم يزده «الاستقلال» إلا حرصا عليها، وتعلقا بأهدابها، لتلك الأسباب، ولسبب أهم منها، هو أن العلاقة بها على ذلك الوجه شرط «الاستقرار والاستمرار»، فهو -في حقيقته- كالحكم في تونس، والحكم في الجزائر، وسائر المستعمرات الفرنسية. ومقتضى ذلك أن تكون سياسته اللغوية،

---

(١) التعريب في الجزائر، ١٤٥.
(٢) الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ٣٠.
(٣) الفرانكفونية والعلاقات الدولية، ١٩٢.
(٤) اللغة والسلطة في المغرب العربي.

ورأيه في العربية والفرنسية كسياسة الحكومتين الخفيتين في تونس والجزائر ورأيهما، بيد أن إعلان ذلك لا يساوق «إمارة المؤمنين»، والنسب الشريف، وإن كان العمل به هو السياسة التي لم يَحِد عنها، منذ الاستقلال إلى اليوم. من أجل ذلك كان لزاما أن يكتم سياسته اللغوية، ويحيطها من الغموض بما يحول دون فهم كنهها، ليمكنه أن يؤولها بما يخرجه من الحرج كلما حرِج، ويصرف عن رأيه في العربية، وحقيقة ما يريد بها، وأن تكون له سياستنا لغويتان: سياسة «معلنة، وأخرى مضمرة»، وأن يُخفي أكثر ما يريد، ويعلن أقله[1]. غير أن هذه السياسة -مع ذلك- من الوضوح في مكان، ولا يخفى منها إلا ما تنعقد عليه قلوب السياسيين، من فلسفة وأغراض، ولا يمكن أن تكون إلا واضحة، فإن الفعل أبلغ من القول، وقد أتى على تنفيذها في الإدارة، والتعليم، والإعلام، وسائر شؤون الحياة، ما يزيد على نصف قرن، وآثارها ماثلة لكل ذي عينين في المغرب وغير المغرب، فليس في وسع أحد أن يؤولها تأويلا، يخفي حقيقتها الواضحة، ولذلك قال بعض المغاربة إن الطابع الاستعماري في المغرب أكثر وضوحا منه في سائر المغرب العربي؛ لأن الحكم لم يسع في إخفائه ثقة بمكانته في الشعب قبل الاستعمار، وهي مكانة مبنية على النَسَب[2]. غير أن هذا -إن صح- إنما يصدق على المغرب في عهد محمد الخامس، لا على عهد من تلاه، فلم تكن له تلك المكانة، لانتشار التعليم، والاتجاهات الفكرية والسياسية العلمانية التي لا تعتدُّ بالتاريخ، ولا النسب، ولا الدين، وإنما تعتقد أن ذلك مخالف لطبيعة الدولة الحديثة في الصميم، أما من يعتد بالدين والتاريخ والنسب، فبلغ من التعلم والنضج مبلغا جعله يفهم السياسة ونظام الحكم فهما غير الذي كان يفهمه أهل المغرب الأولون.

وإنما كان وضوح السياسة اللغوية بالمغرب من أنها هي السياسة المعمول بها، منذ «الاستقلال»، ولم يُتَح لغيرها أن يجرَّب، وأن الحاكم -كما جاء على لسان الحسن الثاني- كان يرى أن العربية تصلح للدين، والعبادة، والآخرة، ولا تصلح للعلم، ولا لشؤون الدنيا. وهو الرأي الذي كانت تذيع به فرنسة في المغرب

(١) السياسة اللغوية في يوم دراسي بجامعة القنيطرة، ١٢٩.

(٢) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ٦٧.

العربي كله، وتسعى في إقناع أهله به؛ لتصرفهم عن العربية إلى الفرنسية، ومنها انتقل إلى المتفرنسين من أهل المغرب العربي، وعليه بنيت سياسة المغرب اللغوية وما فيها من ازدوواج، فللفرنسية التعليم «النافع»، والتقنية، والفكر، والإدارة والسياسة، والاقتصاد، والأدب، والثقافة الحديثة، وهي مفتاح الحداثة والحضارة العصرية والانفتاح، وللعربية الفصحى، والعامية، والأمازيغية ما سوى ذلك، كالعلوم الدينية، والثقافة الأدبية العامة، والتراث، والهوية، والأمور المعنوية والرمزية؛ ولذلك صارت العربية الفصحى لغة مفصولة عن الواقع. وهي سياسة رسمتها الحكومة الفرنسية، وأمضتها في إبان الاستعمار، وما زالت الحكومة المغربية تعمل بها وتسير عليها[1]. وقد أبان الحسن الثاني مرة عن رأيه في السياسة اللغوية التي يجب اتباعها في المغرب، فقال: يجب أن ننظم ثقافتنا وتعليمنا بحسب ما هو ضروري، وأن نُصْلح ما هو واجب الإصلاح من أجل استعمال أداة قادرة على صياغة أولادنا صياغة تجعلهم مواطنين صالحين في بلدهم وفي قارتهم التي لا تتكلم بالعربية، وإنما تتكلم بالإنجليزية والفرنسية[2]، أي إن هاتين اللغتين -في نظره- هما اللتان ينبغي أن يجعل إليهما التكوين الحديث، وأن تستعملا لغتين للحداثة؛ لأن القارة التي ينتمي إليها ناشئة المغرب إنما تتكلم بهما، لا بالفصحى. فهو يريد أن يكون أبناء المغاربة مواطنين أفارقة، يتكلمون بالإنجليزية أو الفرنسية؛ لأنهما لغة القارة الإفريقية، لا العربية؛ فإن إفريقية لا تتكلمها. ولم يُخْفِ الحسن يوما حاجة المغرب إلى الفرنسية، وعنايته بجودة تعليمها وغيرته عليها، وكان يرى أنها ليست ملكا لفرنسة، وإنما هي ثقافة تتجاوزها بكثير[3]. ولكنه ربما تظاهر بخلاف ما يرى، كما تظاهر في آخر أيامه للجنة التربية والتكوين -وكان يستقبلها- بأنه ينتفض غضبا على موظفيه؛ أن أنزلوا العربية دون منزلتها، وأوصاهم بها خيرا، وأنكر أن يكون على علم بما فعلوا بها، وأن يكون فكَّر يوما في إضعافها أو إقبارها، وقال إنه أمرَ بإدخالها في تعليم المواد العلمية في التعليم العالي، خلافا للخطة التي تقضي بالتراجع

---

(١) لغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ٤٠٤، وجدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي، ٩٧، واللغة والتنمية والسياسة اللغوية بالمغرب، ٥٠ (نقلا عن: لغة التدريس في قسم اللغة العربية، ٥٤).

(٢) اللغة والاقتصاد، ٦٥.

(٣) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ٦٢ وما بعدها.

عن تعريب المواد العلمية في التأهيلي الثانوي[1]. بيد أن من الصعب أن يوثق بأن ذلك كان رأيه في العربية، لمخالفته المعروف من وجهته الثقافية، وسياسته اللغوية، منذ الاستقلال إلى أن مات، فقد كان قرين الرئيس السنغالي سينغور[2]، والحبيب بورقيبة في توجههما الفرنكفوني، وعلاقتهما بفرنسة. وأصعب من ذلك أن يصدَّق أنه لم يكن على علم بما يفعل بها موظفوه، وهو الذي يقول: لي وسائل تمكنني من البقاء على اتصال مستمر بواقع البلاد اليومي، حتى ليمكنني أن أعرف السعر الذي تباع به الطماطم والأغذية الأساسية في المتاجر والأسواق، كل يوم[3]. وإنما أراد -إذ أنكر أن يكون أراد بالعربية شرا- التخلص من التبعات وتحميلها غيره، ممن لا يمكنه الإنكار خوفا وطمعا. وكان إنكاره من السياسة اللغوية التي يخفي غاياتها. ولو كان صادقا فيما قال، ما اكتفى بالإنكار كما يعتذر صغار الموظفين عما يُرمَون به من تقصير بأن الأمر بيد غيرهم، وأن ليس لهم سوى امتثال ما يؤمرون. هذا إلى أنه كان معارضا للتعريب معارضة صريحة، كما قال أحد المتحمسين لقرار رشيد بلمختار بإنشاء الثانوية الدولية: رشَح من مذكرات كثير من السياسيين المغاربة بُعَيد الاستقلال أن الحسن الثاني ومستشاره، أحمد رضا كديرة، عارضا بشدة تعريب المناهج العلمية عام ١٩٦٢[4]. وكان أحمد رضا رأسا من رؤوس «القوة الثالثة»، وراعيا لمصالح فرنسة في المغرب[5]، وقد رأينا آنفا أن ليس له رأي دون الحسن. وقال عبد العلي الودغيري إن أول محاولة لتعريب الابتدائية، عملا بتوصيات اللجنة الملكية المكلفة إصلاح التعليم وقفت في بدايتها في أوائل العقد السابع، عند السنة الثانية الابتدائية، بضغط قوي من الداخل والخارج[6]، وإنَّ وقْف التعريب عند السنة الأخيرة من الثانوية كان أمرا مدبرا في الخفاء، ومتفقا عليه منذ البداية، وممن دبروه الحسن الثاني[7]. وقال محمد بلبشير الحسني إن

---

(١) السياسة اللغوية، ١٣٣، ولغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ٤٢٥.

(٢) اللغة والاقتصاد، ٦٧.

(٣) ذاكرة ملك، ١٠٦.

(٤) هل سيكون التخلص من التعريب بوابة إصلاح التعليم بالمغرب؟.

(٥) في غمار السياسة، ١٤٣ و ١٩٩و ٢١١.

(٦) العربية ولغة التدريس وإصلاح التعليم، ٦٥.

(٧) السابق، ٦٦.

وزير التربية الوطنية، يوسف بلعباس كلفه آخر عام ١٩٦٢ -في لجنة- إعداد مشروع للتعريب وإصلاح التعليم، فلما فرغوا منه، عُرِض على الحسن الثاني، فأمر أن تعيد اللجنة النظر فيه، ولا سيما ما يتعلق منه بالتعريب، فلما لم تفعل، لقيها بنفسه، فأفصح لها عن رأيه في تعريب التعليم، ولا سيما أطواره العليا، ولو بتدرج، يطول؛ فانتهى عمل اللجنة[1]. أي إنه أخبرها بأنه يعارض تعريب التعليم ولو لم يُنجَز إلا بعد زمن طويل، وهو أمر يطابق الوقوف بالتعريب عند السنة الأخيرة من الطور الثانوي، وأن تعريب التعليم العالي لم يُتكلَّم فيه طوال عهده. ولا يخفى أنه -إذ أمر اللجنة أن تتراجع عن مشروعها، فلما لم تفعل قابلها بنفسه، لعله يثنيها عنه- إنما أراد أن تعلن أنها هي التي رفضت التعريب، ليتظاهر بأنه -إذ رفضه- إنما أمضى قرار لجنة من الخبراء المتخصصين، ليس غير، فلما لم تفعل صارحها بما يرى. وكان هذا دأب اللجان التي أُلِّفت في عهده لمراجعة سياسة التعليم كلها، ما انتهت إلى شيء يخالف سياسته في التعريب إلا أبطله، ولو بعد حين، كما قال أحد المغاربة: نتائج ما يعقد من مؤتمرات وندوات وطنية بالمغرب لبحث أمر التعليم تصطدم أبدا برأي أصحاب القرار القائم على اعتقاد الفرنكفونية، إما لأنهم رهن الاستلاب اللغوي والثقافي، وإما لأنهم يطبقون ما يَرِدهم من المؤسسات الدولية[2]. وهي سياسته أيضا في كل شأن من شؤون الدولة، قبل أن يتولى الحكم وبعد أن تولاه، فقد أرادت الحكومة المغربية في عهد محمد الخامس لتصلح الإذاعة، فسمَّت المرحوم الدكتور المهدي المنجرة مديرا لها، فأعد مشروعا بترتيبها ترتيبا يجعلها مستقلة في تمويلها عن الحكومة، وجعل لها مجلسا إداريا بمنزلة مجلس النواب، يراقب أعمال المدير، ويوجهها الوجهة التي تقتضيها المصلحة العامة، ونوقش المشروع في المجلس الوزاري برياسة محمد الخامس، ووفق عليه يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٥٩، ولكنه جُمِّد، فلم ينشر في الجريدة الرسمية، ولما ثبت للمهدي أن «جهة ما» في السلطات العليا هي التي عملت على تجميده استقال من

---

(١) جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ٩٩ (الهامش).

(٢) أزمة النظام التعليمي في المغرب، ١١٢.

إدارتها في أول يونيو ١٩٦٠[١]. وقال أحمد القاري: بعد نهاية تعريب المواد العلمية في الإعدادية والثانوية بالمغرب، بنجاح، قرر مسؤول ما، في مكتب ما، أن تلك اللعبة يجب أن تتوقف[٢]. وقال عبد الهادي التازي إن أكاديمية المملكة المغربية جعلت دورتها بفاس عام ١٤٠٣ - ١٩٨٣ لـ«لإمكانات الاقتصادية والسيادة الديبلوماسية»، وكان الموضوع بإيحاء من الحسن الثاني، وإن ما قُدم فيه من المحاضرات كاد يُجمع على وجوب قبول التنازل عن بعض الالتزامات الوطنية، من أجل تعاون اقتصادي دولي، فإن ذلك هو مقتضى أننا أصبحنا نكوِّن مع شركائنا في العالم كله مجموعة واحدة[٣]. وعقدت ندوة أخرى عام ١٩٩٧ عن العولمة وآثارها، وكانت أيضا بإيحاء من الحسن الثاني، وتحدث المحاضرون عن أن الشعور بالخصوصية والهوية ظل يلازم المغاربة منذ كان المغرب دولة وشعبا، ولكنهم ظلوا حراصا على أن يبقوا في ركب المجموعة الدولية، ما دامت لا تمس هويتهم وخصوصيتهم[٤]. فما قال المحاضرون في الندوتين، وما انتهوا إليه هو ما أوعز به الحسن الثاني، وما كان يريد، وإنما أوعز به ليسوغ سياسته في التنازل عن الهوية، والسيادة، والالتزامات الوطنية، وهو تنازل يناقض وظيفة إمارة المؤمنين، ولأنه يناقضه أوعز إلى غيره أن يتولى تبعة تسويغه والدعوة إليه. والعالم عند الغرب والمتغربين هو أمريكة وأوربة الغربية وحدهما، وقد يكون المراد به عند المتفرنسين فرنسة وحدها. ولم يتردد، يوم كان وليا للعهد، في منع أن تؤول وزارة التربية والتعليم في حكومة عبد الله إبراهيم إلى المهدي بن بركة، ولا في ألا يكون لحزب الاستقلال وقادته سلطان عليها؛ لِمَا يعلم من رأي الحزب، ولا سيما المهدي، في التعريب، والخروج من التبعية الفرنسية. ولذلك ظلت هذه الوزارة تتردد بين التيارات السياسية، من غير أن تفرط في امتداداتها المرتبطة بما خلفه المستعمر الفرنسي من أثر

---

(١) البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ٥٢.

(٢) لغات حية، ٥٩.

(٣) اللغة العربية: نزعة التعدد اللغوي والثقافي في الميثاق، عباس الصوري، قضايا استعمال اللغة، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس، ١٦ - ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ، ١٥٣.

(٤) الموضع السابق.

ثقافي وتعليمي، ما زال حاضرا إلى اليوم في كثير من مجالات الحياة[1]. وكانت سياسة التعليم أبدا بيد الحسن الثاني، منذ الاستقلال إلى أن مات؛ فلم تتغير السياسة اللغوية عما كانت عليه من الإجحاف بالعربية، في التعليم، والإعلام، والإدارة، والحياة العامة، والسيطرة شبه المطلقة للفرنسية[2].

وقد أقرَّ وزراء التعليم بسوء هذه السياسة، وما جرَّت على التعليم بالمغرب، كعز الدين العراقي، ولبث في وزارة التربية تسع سنين، وستا في الوزارة الأولى، وكان مكينا لدى الحسن، كما تدل عليه توليته وزارة التربية أربع مرات، وجعله نائب الوزير الأول، ووزيرا أول، وتوليته رئاسة مجلس إدارة جامعة الأخوين بإفران، ثم ما رشَّحه له من مناصب دولية سامية، كأمانة منظمة المؤتمر الإسلامي[3]. فقد قال عز الدين العراقي، في أحد مؤتمرات حزب الاستقلال: أثبتت الدراسات الفنية أن مرد انخفاض تحصيل الطلاب إلى ازدواج لغة التعليم[4]. ولكنه ما كان يجرؤ على تغييره، وكان ينتمي إلى حزب الاستقلال المعروف بتوجهه العروبي، ومناهضته للاستعمار، وكان -منذ فجر الاستقلال- وما زال، يعتقد تعميم التعليم، ومغربته، وتعريبه، ومجانيته[5]. فلو كان أمر التعليم إليه، لكان التعريب غاية ما يطمح إليه، وإنما عدل عما يرى إلى ما يريد غيره. ولرسوخ هذه السياسة في المغرب كان ما يشكوه عز الدين العراقي في عهد الحسن الثاني هو ما يشكوه عباس الفاسي، وعبد الإله بن كيران في عهد محمد السادس. واتسمت هذه السياسة بعدم المبالاة -في الظاهر- بما ينال من العربية، ومواطأة من يفعله وتأييده، في الباطن[6].

وفي ١٦ من يونيو عام ١٩٩٤ وجه الحسن الثاني خطابا إلى مجلس النواب، يحثهم فيه على الاجتهاد في وضع ميثاق يحدد المعايير الأساسية للنظام التربوي بالمغرب، لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل، فألَّفَ لجنة من ٣٣٥ عضوا،

---

(١) المساء تفتح العلبة السوداء لـ«اللوبي الفرانكفوني» بالمغرب.
(٢) النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب، ٣.
(٣) انظر: عز الدين العراقي في ذمة الله.
(٤) ثمانون عاما، ٥٢.
(٥) حوار مع صديق أمازيغي، ٩٩ و ٢٤٨.
(٦) انظر: اللغة وخطاب السلطة ٢.

من بين تربوي، وسياسي، واقتصادي، واجتماعي، فوضعت ما يعرف بـ«وثيقة المبادئ الأساسية»، واتفقت فيها على أهداف وأصول للتربية والتعليم، أهمها: الديموقراطية، والتوحيد، وتعريب التعليم، وتعميمه، وكونه إلزاميا ومجانيا، فلم يُنفَّذ شيء مما انتهت إليه؛ لأن الحسن اعترض على تعريب التعليم، ومجانيته[1]. وفي الطور المسمَّى في المغرب طور ركود الإصلاح، ويمتدُّ من ١٩٩٦ إلى ١٩٩٩، أُلِّفت لجنة خاصة بالتعليم أيضا، فرفض الحسن أعمالها؛ لأنها مازالت تفكر بعقلية الماضي في المغربة والتعريب والتوحيد[2]. وكان قد فعل مثل ذلك عام ١٩٧٨[3]. ولما حاول مجلس النواب إصدار قانون تعميم العربية أسوة بقانون تعميم العربية في الجزائر، استعمل حق النقض، فحال دون صدوره[4]. فهو الذي يؤلف اللجان ويكلفها ما تعمل، وهو الذي يلغي ما تنتهي إليه. وفي مقابلة له مع صحيفة الرأي المغربية (L' Opinion)، قال إن الازدواج اللغوي في المغرب هو القدرة على المنافسة، والإعجاز العلمي، وإن العربية وحدها غير كافية لتنمية الفرد[5]. وهذا كله صريح في أن سياسة التعليم وسياسة اللغة كانتا بيده، وأنه ما كان يكلهما إلى غيره، كما أنه صريح في معارضته الثابتة للتعريب من الاستقلال إلى آخر يوم في حياته، وأن رأيه في العربية يختلف عما كان يعلن، غير أن من سياسته أن يظهر بمظهر الديموقراطي الحفي بآراء الخبراء، والأحزاب السياسية، والمفكرين، والمثقفين، الحريص على إشراكهم في القرار، والمفكر الذي يستشرف المستقبل، ويشغله أمر البلد، وأن يبلغ أقصى ما يطمح إليه كل وطني، وربما أبدى من الآراء ما يوهم أنه أَبْعَدُ نظرا من الخبراء والسياسيين والمفكرين، وأنه يضع نفسه موضع الرائد الملهَم الذي يسبق المفكرين، غير أن التجربة أثبتت غير ذلك، وأن القرار كان بيده وحده، وأنه قد يبطل ما يرفع إليه من خطط ودراسات، غير مبال ما نال معدِّيه من تعب

---

(١) التعليم العالي بالمغرب.

(٢) السجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغربي، وتاريخ الإصلاحات التعليمية بالمغرب منذ ١٩٥٦ إلى اليوم.

(٣) التعليم العالي بالمغرب.

(٤) لوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية.

(٥) دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، ٢٤٨.

في إعداده، وما أُنفِق في إنجازه من مال. ومن سياسته أن يأخذ باليسار ما أعطى باليمين، وإنما يستجيب لمطالب قليلة، سرعان ما يتبين عدم جدواها[1].

وكانت اللجان والمجالس تؤلَّف من أجل تعريب التعليم، وتخليصه من الفرنسية فتُحجَب قراراتها، فلا يوقف لها على أثر، بعد أن تصدر، مع أن بعضها كان يؤلَّف بأمر منه، وتصدُر قراراتها بالإجماع، فيظل التعليم يسير سيرته التي كان يسيرها قبل اللجان وقراراتها، أو يتجه وجهة أسوأ من وجهته، وكل سوء أَلَمَّ به لم يكن في يد أحد تغييره، كأن ما كان من لجان ومؤتمرات شيء، يوهم به الشعب أن الحكومة تنظر إلى مطالبه بعين الاعتبار، وأنها جادَّة في الرقي بالتعليم، وجعْله كما يريد، وكما تقتضي المصلحة. وكان هذا التلون، وعدم الثبات سمة من سمات سياسته؛ لأن بعضها كان مناقضا لمطالب الشعب ومصالحه وثقافته وعقائده؛ فكان يتجنب الإعلان بمعارضته، على إصراره ألا يُمْضَى غيرُ ما أراد، كائنة ما كانت عواقبه. ففي عام ١٩٥٧ -مثلا- أُلِّفت أول لجنة ملكية، فأقرَّت بالإجماع أربعة أصول للتخلص من سياسة التعليم الاستعماري، هي: تعريب التعليم تعريبا كاملا، وتعميمه على الشعب، وتوحيد أنواع التعليم المختلفة القائمة، والمغربة، وتعني جعل القائمين عليه مغاربة بدلا من الفرنسيين، فلم يُعمَل بقرارها، وطالب الشعب بانعقاد مجلس التعليم الأعلى؛ لعله يأمر بالعمل بهذه الأصول، فجمِّد، وكان اجتماعه الأول هو اجتماعه الأخير[2]، وكان تجميده على إثر عرْض المشروع الحكومي عليه عام ١٩٦٢، وكان يقضي بالتمسك بازدواج لغة التعليم، وعدِّ الفرنسية لغة العلوم والرياضيات من السنة الأولى الابتدائية إلى الجامعة، فرفضه المجلس بالإجماع[3]. وفي عام ١٩٦٤ دعت وزارة التربية أربعمائة شخص من الأحزاب الوطنية والعلماء والنواب والمؤسسات التعليمية وموظفي الوزارة إلى لقاء للتشاور في برنامج التعليم، سُمِّي ندوة المعمورة، وكان الذي افتتحه الحسن الثاني، وفي أول جلسة للجنة السياسة العامة حُسِمت المعركة بين مبعوثي الوزارة ونواب الشعب بتصويت

---

(١) الحسن الثاني والمراجعات الدستورية.

(٢) ثمانون عاما، ٤١.

(٣) السابق، ٦٦، والسجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغرب.

أعضائها الأربعمائة بالإجماع على أن لغة التعليم في أطواره كلها هي العربية، ولا يُشرَع في تعليم اللغات الأجنبية إلا من التعليم الثانوي، ولكن الأمر بقي على ما كان عليه، ولم يُعمَل بما أُجمع عليه[1]. وفي عام ١٩٦٦ أبطل وزير التربية، محمد بن هيمة ما كان يسمَّى المخطط الثلاثي (١٩٦٥ - ١٩٦٧)، وهو خطة لتعريب التعليم الابتدائي والثانوي، مدتها ثلاث سنين، وأحلَّ محلها ما سماه «المذهب الجديد للتعليم»، وقال في ندوة صحفية، عقدها يوم ٦ أبريل ١٩٦٦: إن تعريب التعليم غاية من الغايات التي عُمِلَ على بلوغها منذ الاستقلال، وأصْلَحُ وسيلة لتعريب التعليم إعداد الأساتيذ الوطنيين القادرين عليه، وسيكون من المستحيل لسنين طويلة أن يجد المغرب من يحتاج إليهم من الأساتيذ الوطنيين لتدريس المواد العلمية بالعربية، ولا سيما في التعليم العالي والتعليم الثانوي، وسيظل استعمال لغة أجنبية أمرا حتميا في المواد العلمية[2]. وهو ما يعني الرجوع عما كان قد أُنْجز من التعريب إلى الفرنسية. فحَرَم آلاف التلامذة الذين درسوا الابتدائية بالعربية دخولَ الثانوية، وكانت تدرَّس بالفرنسية، وامتحان دخولها بالفرنسية، وعدل عن سياسة إعداد الأساتيذ بالعربية. ثم كان ما يُسمَّى مناظرتي إفران عامي ١٩٧٠ و١٩٨٠[3]. وقد دعا إلى الأولى الحسن الثاني، بعد ما عمَّ السخط رجال التعليم كافة، واندلعت إضرابات المدارس الثانوية في مايو من عام ١٩٧٠، وتلتها إضرابات كليات الجامعة كافة، وأقيل وزير التعليم الثانوي والعالي. وأيقن المعنيون بالتعليم استحالة بلوغ أصل من الأصول الأربعة مع سياسة الفرنسة المفروضة بالقوة على وزارة التعليم[4]. وكان ظاهر دعوة إفران أنها دعوة لمندوبي الشعْب وأعيانه للنظر في سياسة التعليم، بعد أن تبين الحسنُ شدة معارضة المجتمع كله لمذهب محمد بن هيمة، وإنما كان غرضها التراجع المؤقَّت عن أصول التعليم الأربعة، ولكنها انتهت دون إصدار قرار، لشدة معارضة حاضريها خطةَ محمد بن هيمة[5]. وكانت علاقة الحسن الثاني

(١) ثمانون عاما، ١٤٦ وما بعدها.
(٢) السجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغرب.
(٣) السابق.
(٤) ثمانون عاما، ١٤٦ وما بعدها.
(٥) الإصلاحات التعليمية بالمغرب، ١٨٩.

بمحمد مميزة، فقد كان يجمعهما التفرنس، والانتماء إلى «القوة الثالثة»، وكان ما فعل ابن هيمة عن اتفاق بينهما، بل بأمر من الحسن الثاني، كما تدلُّ على ذلك قرائن كثيرة، وكانت خطته ومذهبه في الفرنسة أسوأ خطة ومذهبٍ سمعةً في تاريخ المغرب الحديث إلى اليوم، ولا يشبهه في ذلك إلا رشيد بلمختار، لكن خطتي ابن هيمة ورشيد كانتا بأمر من غيرهما، وكان الذي أمرهما يؤيدهما تأييدا مطلقا، ولذلك أُمضيَت.

وبعد تراجع ابن هيمة عن التعريب، ساءت حال التعليم جدا، حتى أيقن الحسن الثاني أن التعريب غدا واجبا، بعد أن تبينت شدة ضعف الطلاب في الفرنسية، فأعلن وزير التربية والتعليم بمناسبة الموسم الدراسي لعام ٧٨-١٩٧٩ تعريب سائر الطور الابتدائي، وخطة عشرية لتعريب التعليم الثانوي من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٨، وبعد استكمال تعريب التعليم الابتدائي عام ١٩٨٢، شُرِع في تعريب التعليم الإعدادي في سبتمبر ١٩٨٣، ثم في تعريب التعليم الثانوي عام ١٩٨٧[١]. غير أن الحكومة الخفية سرعان ما كرَّت على تعريب التعليم العام لتقضي عليه أيضا، وذلك بعد مدة قصيرة من تخرُّج الدفعة المعربة الأولى في الطور الثانوي، فقد حاولت -كما فعلت في مناظرة إفران- أن تحصل على موافقة سياسية وشعبية على خطة جديدة، فدعت إلى إنشاء لجنة جديدة لإصلاح التعليم عام ١٩٩٤، فأقرت مشروع ميثاق وطني للتربية والتعليم، من عشرة أصول، فكان مصيره كمصير سابقه؛ فقد رفضه الحسن الثاني، كما رفض غيره، وكان ما يراد من هذه اللجنة هو التراجع عن التعريب ومجانية التعليم، لكن مجلس التعليم أبى ذلك. وظل الفراغ قائما، ومشكلات التعليم تتراكم وتتعقد، ووزراء التعليم يعترفون بهذه الأصول قولا، ويتجاهلونها عملا، ووضْع ميثاق وطني للتعليم هو العقدة المستعصية على الحل، وموضع الصراع بين الشعب والحكومة «الخفية الخاضعة لشروط الهيمنة الاستعمارية»[٢].

ثم صدر الميثاق الوطني للتربية والتكوين عام ١٩٩٩، فكان هو أسلوبَ الحسن الثاني الجديد في التراجع عما تمَّ من تعريب التعليم العام، وإن كان

---

(١) الإصلاحات التعليمية بالمغرب، ١٩٠.

(٢) ثمانون عاما، ٤٢.

الميثاق إنما فُرِغ منه بُعَيد وفاته، غير أن اللجنة التي أعدته أُلِّفت في حياته. وورد في مقدمته أنه يستمد روحه من «النهج التربوي الحسني»[١]، وهي عبارة يصدِّقها ما فيه من تراجع عن التعريب، وخطط للتمكين للفرنسية. وقد جعلَ هذا الميثاق الأولوية لإتقان اللغات الأجنبية، وجعَل نصيب العربية من العناية تحسينَ استعمالها والتدريس بها، وزاحمَها بإيجابِ تعلُّمِ لغتين أجنبيتين في الابتدائية[٢]، واكتفى باستعراض بعض المبادئ التي ستؤدي إلى العودة إلى «التعدد اللغوي المتوحش» التي كانت متبعة في العقد السابع[٣]. وهذا يدل على إصرار واضعيه على فرْنسة المغرب، وأن كل ما يقال في التعريب هو ما تقتضي «إمارة المؤمنين» أن يقال لـ «الشعب العزيز»؛ لأن إمارة المؤمنين التي تستمد شرعيتها من الإسلام ليس في وسعها أن تعارض التعريب علانية، ولا أن تعلن بعداوة العربية، وعدمِ صلاحيتها للعلم، والجدِّ في إخراجها من الحياة، كما فعل بورقيبة، كما يدلُ الميثاق وسياسته في تعليم الفرنسية على أن فَرْنسة المغرب هي دار القرار، وعليها المدار، ولا بد منها، وإن طال السفر. ولهذا كان الميثاق الوطني استمرارا للنهج التربوي الذي غلب على المنظومة التربوية منذ «إصلاح» ١٩٦٦ المعروف بمشروع محمد بن هيمة، و«الإصلاحات» التي أعقبته، ولا سيما «إصلاح» ٨٠/ ١٩٨١، المعروف بـ «نحو نظام تربوي جديد»، والبرنامج الاستعجالي ٢٠٠٩/ ٢٠١٢، وكان بعد الميثاق، وهي «إصلاحات»، لم تُبْنَ على غايات وطنية محددة، وإنما كانت تخضع لأمور خارجية، وأخرى اقتصادية وسياسية ونخبية[٤]. وهذا يصدِّق ما قال الخبراء من أن سياسة المغرب التعليمية قائمة على التخبط، كما يظهر في إقرارها الأصول وعملها بعكسها، وإصدارها القرار ثم تنسخه، حتى صار التعليم حقل تجارب، يفتقر إلى المنطق والمسوغات المقنعة؛ وإنما ذلك لأن التعريب ليس هو ما تريد الحكومة الخفية،

---

(١) أزمة النظام التعليمي في المغرب، ١٨.

(٢) الإصلاحات التعليمية بالغرب، ١٩١.

(٣) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الأورومتوسطي، ٨٦.

(٤) أزمة النظام التعليمي في المغرب، ٥ وما بعدها، وعبد القادر أكجيل، الكاتب العام لنقابة مفتشي التعليم: التخبط في تطبيق مبدأ التعريب ساهم في تعميق الازدواجية والإحساس بالدونية.

ولا ما تقتنع به، وإنما كانت تدفعها إليه الضرورة الشعبية دفعا[1]. وهي حال التعليم في مستعمرات فرنسة في المغرب العربي كله، فقد اتسم بالاضطراب، بل التخبط، وعدم الثبات على حال؛ إذ كانت حكوماته تريد الشعوب على ما يخالف فطرتها، وهو تعليمها بغير لغتها، وتصر على ذلك إصرارا؛ لأنه مقتضى توجه حكوماتها العلنية، وسياسة حكوماتها الخفية، ولكنه يخفق، ولا بد أن يخفق، فتتراجع عنه خروجا من الحرج، ثم تعود إليه، ولا بد أن تعود إليه؛ لأن عودتها هي ما تصرُّ عليه باريس، وهكذا دواليك. ومن صور ذلك ما قال سالم لبيض في تعليم الفرنسية في تونس: كان الجدل يدور حول تدريس الفرنسية من السنة الثالثة الابتدائية، لكن الصراع ومزيدا من ارتماء الحكم في حضن فرنسة جعلا الفرنسية تدرَّس من السنة الأولى عام ١٩٦٨، ثم من السنة الثانية عام ١٩٧١، ثم رُجع إلى تعليمها من السنة الثالثة عام ١٩٧٦، ثم رُجع عن ذلك إلى تعليمها من السنة الثانية عام ١٩٨٦، بعد أن أُخِذ على التعليم ما سُمِّي التعريب السريع والمبالغ فيه[2].

ومما يدل على عدم جدِّ الحكومة المغربية في التعريب، وأن كل ما كانت تظهر للشعب، وتَعِده من الوعود أمر تخادعه به عما كانت تعَضُّ عليه بالنواجذ: أن التعليم الابتدائي لم يعرَّب إلا عام ١٩٨٢، أي بعد الاستقلال بستة وعشرين عاما، ولم يقرر أن التعريب خيار لا رجعة عنه إلا عام ١٩٧٨، ولم يشرع في تعريب التعليم الإعدادي إلا عام ١٩٨٣، أي بعد الاستقلال بسبعة وعشرين عاما، ولم يشرع في تعريب التعليم الثانوي إلا عام ١٩٨٧، أي بعد واحد وثلاثين عاما من الاستقلال، وكان ذلك بضغط شديد من واقع التعليم وتدنيه، وكثرة انقطاع التلامذة عن المدارس قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة، ولم ينجز إلا عام ١٩٩٠، وهو العام الذي تخرجت فيه أول دفعة تحمل الثانوية المعربة تعريبا تاما[3]، أي بعد نحو من أربعة وثلاثين عاما من الاستقلال، ولم يمغرب التعليم الابتدائي إلا عام ١٩٦٧، أي بعد الاستقلال بإحدى عشرة سنة، ولم

---

(١) الإصلاحات التعليمية بالغرب، ١٩٢.

(٢) المسألة اللغوية في تونس، ٣٧٥.

(٣) الإصلاحات التعليمية بالمغرب، ١٩٠، ونظرة عن تدريس اللغات وتعلمها، ٣٣ و ٣٦ وما بعدها.

يمغرب التعليم الإعدادي والثانوي إلا عام ١٩٨٦، أي بعد الاستقلال بثلاثين عاما، وكان تدريس اللغات الأجنبية، وهي الفرنسية والإنجليزية والألمانية موكولا كله إلى أجانب، وكان يدرِّس العربية مغاربة وأجانب[1]. وكان التعريب شكليا، ولا بد أن يخفق؛ فإن شرط نجاح تعريب التعليم تعريب الحياة، بحيث يتيسر للمرء من فرص العمل بلغته ما لا يتيسر للمتعلم بلغة أجنبية، لكن سياسة الحكومة في فرْنسة الإدارة والاقتصاد، وسماحها للمدارس الخاصة بأن تتخذ اللغات الأجنبية لغة للتعليم، وقصْرَ الشركات والمؤسسات المالية التوظيفَ على خريجي المدارس الفرنسية، ومن يجيدون لغات أجنبية، تتوسل بذلك إلى التمكين للمتفرنسين، واستمالة من تراد فرنسته، لكونها كلها بيد حزب فرنسة، وحرمانها خريجي التعليم العربي منه، كان حصارا للتعريب، وتبغيضا له إلى الناس، وحملا لهم على الإقبال على التعليم الأجنبي طمعا فيما يتيح من أعمال ومنافع؛ فصارت المدارس الحكومية -لأنها معربة- ملجأ الفقراء الذين ليس في وسع أوليائهم الإنفاق عليهم في التعليم الخاص، وخريجوها لا يتاح لهم إلا الوظائف الثانوية، كالمهن، والعمل في القضاء، ونحو ذلك. ومن وازن هذا بفتنمة الطب في تسعة أشهر، وفتنمة التعليم بأطواره كلها في عام واحد، وتطهير نظام التعليم من آثار الاستعمار الفرنسي كلها، وتسطير نظام تربوي فيتنامي جديد، في خمس سنين، مبناه على الوطنية، والعلمية، والشعبية[2]، عرف حقيقة المعاذير التي يعتذر بها معارضو التعريب في المغرب، ومبلغ ما يستصغرون عقول الشعب، وعلِمَ ما هو أهم من ذلك: ما بين الوطنية والتبعية، وما تنتج هذه وما تنتج تلك. ولو أراد المغرب أن يبني دولة صناعية حديثة، لكان في وسعه أن يفعل في أقل من المدة التي عرَّب فيها التعليم الابتدائي وحده (٢٦ عاما)؛ ولا سيما أن التعريب فيه سهل؛ لأنه بلد عربي، ولم يستعمل قبل الاستعمار الفرنسي لغة رسمية غير العربية، وحضور العربية والثقافة العربية الإسلامية فيه قوي ووطيد، والفرنسية دخيلة، ولا يعرفها إلا أقل الناس، وما زالت كذلك، على ما بذل في التمكين لها منذ الاستقلال إلى اليوم، والتعريب

---

(١) تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين، ٣٤ - ٣٧.

(٢) اللغة والهوية، ٤٥ و ٤٧ وما بعدها.

فيه مسألة قرار، ليس غير، ولو أن الحكومة قررت تعريب الحياة العامة، ومنها التعليم العالي، لنجح بنسبة لا تقل عن ٨٠٪ في السنة الأولى، كما نجح تعريب المواد العلمية في الثانوية في العقد الثامن من القرن الماضي، دون مشكلة كبيرة، ولكن السياسة هي التي تأبى[١]. وقد لمح علال الفاسي إلى أن سبب ذلك كسل عقلي، وأيدٍ خفية هما اللذان يعرقلان سير التعريب في الإدارة، وإلا فهي متيسرة، ولا تكاد تجد واحدا أو اثنين في المائة من الموظفين المغاربة يجهل كل شيء بالعربية. فالمسألة مسألة عزم من الدولة غير متيسر[٢]. وتعريب التعليم العام كله غاية في السهولة، ولا سيما الابتدائي، ويمكن إتمامه في مدة وجيزة، ومن صوره أن تستعار الكتب من أحد الأقطار العربية، ويدخل عليها من التغيير ما شاءت حكومة المغرب. ولكن ما يُتعلَّل به لعدم تعريب التعليم هو ما يُتَعَلَّل به لعدم تعريب الإدارة، وهو دليل على أن العلة واحدة: عدم الإرادة، غير أن الإعلان بذلك ليس من «السياسية»، ولا بد من شيء يخادع به الناس عن الحقيقة، ويسوِّغ لهم ما يُفعَل، كما يسوِّغ الاستعمار الاحتلال بإرادة التنوير، ونشر الحضارة!

وتؤثر عن الحسن الثاني أقوال كثيرة، توهم خلاف ما قدمنا، كقوله: إنا لنحمل رسالة منذ القدم، هي الدفاع عن العربية والإسلام، ولا بد للمغربي في هذا الجناح من العالم أن يظل كذلك: الجنديَّ الأصيل الذي يدافع عن حضارة، وإطار عيش، وفضيلة، هي دينه، ومواطنته، من حيث هو مسلم، وعربي، وإفريقي، إن التعريب قاعدة انطلاق لا رجعة فيها لإصلاح التعليم العام والتعليم الخاص، امتثالا للدستور، فقد نص على أن العربية هي لغة البلاد الرسمية، على ألا يخل التعريب بجودة البرامج. ولهذا تجب تقوية البرامج الدراسية وتغيير أساليب التلقين، والتوسل بالوسائل العصرية، مع تكثير حصص اللغات الأجنبية؛ حتى يكون تلامذتنا وطلبتنا في حال يؤهلهم لامتلاكها، لتساعدهم على فتح آفاق جديدة في تكوينهم، وليتمكنوا من مسايرة التطور العالمي. منطقنا مبني على

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ١٥٧، وموسى الشامي: في المغرب نحتاج إلى قرار سياسي من أجل تعريب العلوم والبحث العلمي.

(٢) من أجل تفاعل لغوي، ١٠١ وما بعدها.

أصلين: أن دين المغرب الإسلام، ولغته العربية، كما هو منصوص عليه في الدستور؛ فعلينا أن ننطلق من هذين الأصلين حتى نحافظ على أصالتنا، ونبقى متشبثين بديننا، ونبقى عاملين بالسنة والجماعة، وأن نشدَّ بقوة وعزمٍ على وحدة مذهبنا، ألا وهو المذهب المالكي. علينا أن نربي أبناءنا على حفظ كتاب الله الكريم، وأن نربيهم على العلم والأخذ بسنة نبيه الكريم[1]. غير أن العبرة بالأفعال لا بالأقوال التي تُستغفَل بها الشعوب، وتُتملق العواطف؛ لتُخمَد.

وكانت المشاريع التي يعالج بها المغرب إخفاق التعريب أبدا هي تطلُّب المشاريع التي تقوِّي الطلاب والمدرسين في الفرنسية، مع أن العلاج الحقيقي كان عكس ذلك: أن تُعلَّم العربية، ويُعلَّم بها، وتُعطَى من الوقت ما يكفي لتعلمها، ولا تضارَّ بلغة أجنبية، حتى تتمكن في عقول التلامذة، وأن تعلَّم الفرنسية أو غيرها، من حيث هي لغة أجنبية، ولا يعلَّم بها. وقد أخفقت تلك المشاريع كلها؛ لأنها تريد الناس على خلاف ما فطروا عليه، ولو كان يمكن أن تنجح لنجحت بالمحاولات الأولى، بيد أنها كانت كلما زيد في ساعات الفرنسية، وكُثِّفت برامجها، ازداد التلامذة ضعفا فيها وفي العربية، على أنها لو نجحت لكان أقصى ما يمكن أن تفعل أن تقيم ازدواجا لغويا في المغرب، لا يمكن معه الحفاظ على هوية، ولا بلوغ ما تبلغ الشعوب التي تتعلم بلغاتها. وإذا كانت غاية التعريب صون الهوية والتمكين لها، وكان للفرنسية ما تريد لها السياسة المغربية من التمكن، فإن مجرد التدريس بالعربية لا يصون هوية ولا يمكِّن لها، والحكومة المغربية إذ تفعل ذلك تتناقض في دعاويها؛ لأنها تسلب بيدها اليسرى ما تعطي باليمنى: تمكِّن للفرنسية في الدولة كلها، وتسلِّم أزمَّتها إلى الذين صنعتهم فرنسة على عينها، وأعدتهم للتمكين لها في بلادهم، ورعاية منافعها فيها، ثم تدَّعي أنها تريد صون الهوية بتعريب التعليم!

وفي عام ١٩٩٦ قدَّم وزير التربية الفرنسي، فرانسوا بايرو سراً لوزير التعليم المغربي رشيد بلمختار الخطة التي ينبغي أن يسير عليها التعليم في المغرب، وسُمِّيت مشروع «المسالك المزدوجة»، وظل الأمر سرا بينهما، ولم يعلم به الشعب إلا في ١٩ من رجب ١٤١٧ هـ، إذ كشفت أمرَه صحيفة «الاتحاد

---

(١) ما وراء الفرنكوفونية.

الاشتراكي»، فكتبت «العَلَم» أنه اختراق كامل لسيادة المغرب، وعدوان سافر على الشعب المغربي، واستهتار مهين بالقيم والمؤسسات الثقافية والديموقراطية كلها، واعترف رشيد بلمختار بأن هذا المشروع من مشاريع التعاون الفرنسي المغربي التي نتجت من الاتفاق بينه وبين نظيره الفرنسي[1]، واعترف بأنه عاقد أساتيذ فرنسيين على تدريب الأساتيذ المغاربة الذين يحتاج إليهم المشروع، مع أن في المغرب آلاف الأساتيذ الجامعيين الذين لا عمل لهم، واعترف به الوزير الفرنسي أيضا، وقال إن غرضه خلْق مسالك مزدوجة في نظام التعليم المغربي، تفضي إلى شعبة فرنسية للثانوية العامة المغربية، وسيبدأ العمل به من الصف الأول الثانوي، مع بداية عام ١٩٩٧ الدراسي، ويمتد بالتدريج إلى سائر المسار التعليمي[2]. وكان مشروع «المسالك المزدوجة» ردة أخرى عما أُنجز من تعريب التعليم العام، وهي ردة شرَّعها الميثاق الوطني للتربية والتكوين بعد ذلك بثلاثة أعوام (عام ١٩٩٩)، كما كان مشروع الثانوية الدولية إلغاءً للتعريب، وسيرا بالتعليم المغربي وجهة جديدة. وقد هجمت الصحافة الوطنية على مشروع المسالك المزدوجة، وبيَّنت كيف قُرِّر ونُفِّذ، وكيف فوجئ به القائمون على التعليم الثانوي، وبصدور الأمر بالشروع في تنفيذه دون استشارة أحد من المعنيين بالتعليم، وبإلحاح وتصميم غريبين، وقالت إن فرنسة هي صاحبة هذا المشروع، كما تدل على ذلك تصريحات وزير تربيتها فرانسوا بايرو[3]. ولا يخفى أن ما فعل رشيد بلمختار مع فرانسوا بايرو هو ما كان قد فعله عز الدين العراقي عام ١٩٨٢ مع ألان سافاري، وترتب عليه ما قد علمنا من إعتاب فرنسة بالحد من التعريب، والاحتفاظ للفرنسية بامتيازها وتقويتها والتمكين لها في التعليم. وهذا من أقوى الأدلة على أن رشيدا إنما ينفذ سياسة الدولة العليا، كما كان ينفذها عز الدين العراقي، كما أن كل ما ذكرنا، وما سنذكر يدل على ذلك دلالة صريحة، كما تدل عليه زيارة فرانسوا بايرو وألان سافاري قبله، وتدخلهما في شأن التعليم بالمغرب على أن المغرب ما زال مستعمرة فرنسية، وإن غادرته

---

(١) ثمانون عاما، ٦٢ وما بعدها.

(٢) السابق، ١٦٥.

(٣) انظر: صحيفة الاتحادي الاشتراكي، ١/ ١٢/ ١٩٩٦، وصحيفة العلم، ٥/ ١٢/ ١٩٩٦ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣٠).

جيوش فرنسة العسكرية، وأن فرنسة تنتهك سيادته إذ تتدخل في اللغة التي ينبغي أن يَصطنع، وأن قبول الحسن الثاني بذلك دليل على المنزلة التي ينزلها نفسَه من فرنسة، وهي منزلة أشرنا إليها مرارا، وعللنا بها مطاوعته إياها في سياستها اللغوية في المغرب. كما يدل تدخل وزير الشؤون الخارجية الفرنسي موريس شومان في التعريب في الجزائر، والطريقة التي سأل بها أحمد طالب الإبراهيمي عنه على أن فرنسة ما زالت تعد الجزائر جزءا منها، ولا تعترف باستقلالها. وقد زار موريس شومان الجزائر عام ١٩٦٩، فأراد مقابلة أحمد طالب، وهو يومئذ وزير التربية، فلما دخل مكتبه، صاح قائلا -قبل أن ينطق بكلمة من كلمات المجاملة المعتادة-: «سيادة الوزير، ما الذي يعنيه التعريب؟»(١): يستنكر أنْ عرَّب السنتين الأوليين من التعليم الابتدائي(٢)، وهو أمر ما كانت فرنسة تمانع فيه في بعض أقطار المغرب العربي، كتونس، كما قد رأينا آنفا، ويريده أن يتراجع عنه؛ لأن التعريب في الجزائر، في عرْف الفرنسيين، تطهير لغوي، وإخراج للفرنسية من الجزائر، وهي تريد أن تُخرِج بها العربية. وكان ذلك في عهد هواري بو مدين، أقلِّ رؤساء الجزائر اعتدادا بفرنسة، وأقلهم خضوعا لها، في الظاهر. وكانت الطريقة التي ردَّ بها أحمد طالب على موريس تدل على الشعور بأن ليس في وسعه أن يقول غير ما قال، وأن عليه أن يلزم الأدب معه في الخطاب؛ لما قد علم من أن هواري بو مدين ليس هو الذي يحكم الجزائر، وإنما تحكمها حكومة سرية متصلة بفرنسة، فقال له: سيادة الوزير، قبل أن أبين لكم ما التعريب، اسمحوا لي أن أقول لكم إن فرنسة بعد مائة وثلاثين عاما من «الرسالة الحضارية» المزعومة تركت وراءها في الجزائر ثلاثمائة ألف طفل جزائري، يتعلَّمون الفرنسية، وهم الآن نحو مليونين، فاستدار موريس إلى معاونيه، فقال لهم: هذا خلاف ما قلتم لي(٣). فموريس إنما لقي أحمد طالب ليعاتبه في التعريب، ويثنيه عنه؛ لأنه يعني إخراج فرنسة من الجزائر، واستقلالَها عن مستعمِر، يصر على أنها جزء لا يتجزأ منه، وكان في الطريقة التي سأله بها

---

(١) مذكرات جزائري، ٢/ ٥٠.
(٢) السابق، ٢/ ٥٣.
(٣) السابق، ٢/ ٥٠.

جفاء، لا يكون -في العادة- إلا من الرئيس لمرؤوسه، وكان رد أحمد طالب عليه رد موظف على رئيسه، وقد جاء يتفقد عمله، لا ردَّ ندٍّ، يشعر بأن سيادته وكرامته نيل منهما، وأن وزير خارجية فرنسة ما كان له أن يتدخل في أمر، كلغة التعليم في الجزائر. وكان الذي يلائم ذلك الشعور -لو وجده أحمد طالب- أن يقول له: إن هذا شأن، يخص الجزائريين وحدهم، كما أن تعليم الفرنسية وغيرها من اللغات في فرنسة شأن يخص الفرنسيين، غير أنه عدل عن ذلك إلى طمأنته على أن حال الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال خير من حالها في عهد الاستعمار أضعافا مضاعفة، فقد صار الذين يتعلمونها من أطفال الجزائر مليونين، بعد أن كانوا ثلاثمائة ألف!.

وتولي رشيد بلمختار وزارة التربية في عهد محمد السادس بعد أن كان قد تولاها في عهد الحسن الثاني، وما عمل في العهدين دليل على استمرار فرْنسة التعليم، وأنْ لم يتغير منها شيء؛ فإن رشيدا مشهور باتجاهه المتفرنس، وامتناعه عمدا عن الكلام بالعربية، والمجاهرة بأنه لا يعرفها، وليس له -إلى ذلك- من المؤهلات العلمية سوى ديبلومين، أحدهما من المدرسة الوطنية العليا للمهندسين الجويين، بتولوز، بفرنسة، والآخر من المعهد الدولي للتسيير والتنمية، بسويسرة، وليس له علاقة بالتربية والتعليم ولا بالفكر والفلسفة، وكذلك كان شأن الذين تولوا وزارة التعليم بالمغرب: إما أطباء، وإما مهندسين، وليست لهم علاقة بالتعليم، ولا معرفة بنظم التربية[1]. وكانت ولاية رشيد الأخيرة في حكومة حزب العدالة والتنمية الأولى، وهو حزب إسلامي، يخالف رشيدا في كل شيء، ولا سيما السياسة اللغوية والتعليمية، وكان الذي سماه وزيرا للتربية والتعليم هو محمدا السادس، وكان ذلك منه دليلا على تأثره أباه، أو حذو سياسته على سياسة أبيه؛ ولهذا كان رشيد يتصرف في بعض عمله بمعزل عن رئيس الوزراء، عبد الإله بن كيران، كما أصدر يوم ١٩ من أكتوبر عام ٢٠١٥ أمرا لمديري الأكاديميات الإقليمية للتربية والتكوين[2]، بتدريس

---

(١) ازدواجية التعليم بالمغرب وأثرها في المجال التربوي، صحيفة الأمة المغربية، ٢٠/ ٤/ ٢٩٩٢ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٧٤).

(٢) الأكاديميات هاهنا هي إدارات التعليم.

الرياضيات والعلوم الطبيعية بالفرنسية، في شعبتي العلوم والتكنولوجيات الميكانيكية، والعلوم والتكنولوجيات الكهربية، من أول الموسم الدراسي لعام ٢٠١٦/ ٢٠١٧، ويمكن الشروع في تدريسها بالفرنسية من الموسم الدراسي الحالي ٢٠١٥/٢٠١٦، إذا تهيأت أسباب ذلك[١]. فعَلَ ذلك بغير علم من رئيس الحكومة، وهو عمل، يخالف السياسة المعمول بها في المغرب منذ ما يزيد على عقدين، كما يخالف سياسة الحزب الحاكم، ويعارض الخطة التي أقرها المجلس الأعلى للتعليم، وقراره في لغة التدريس[٢]. وقد أغضب فعله رئيس الحكومة، وحزب العدالة والتنمية، ونقابة الجامعة الوطنية لموظفي التعليم التابعة للاتحاد الوطني للشغل، كما أغضب جمعيات الدفاع عن العربية، وجمعيات أولياء التلامذة، فنظم اتحاد جمعيات أمهات التلامذة وأوليائهم وقفة أمام وزارة التربية بالرباط استنكار لقراره ورفضا له[٣]. غير أن رشيدا اكتفى من الرد على ابن كيران -إذ أمره بالرجوع عما فعل- «بابتسامة، لها من الدلالة ما يكفي»، كأنما يتحداه، ولا يأبه بكلامه، ولا بالرسالة التي وجه إليه في جلسة عامة، شاهدها أكثر المغاربة[٤]، وكان القرار الذي أُمضي هو قرار وزير التربية، لا قرار الوزير الأول. وهو غني عن التعليق، ويدل دلالة صريحة على سياسة المغرب اللغوية، وأن كلَّ ما يخالف ما فعل رشيد بلمختار مما يُخادَع به الشعب عن تلك السياسة التي لم يغيرها المغرب منذ انتهجها، كما يدل على أن رشيدا إنما وُضِع حيث وُضع ليفعل ما فعل، وأن استخفافه بقول ابن كيران، وتحديه إياه، وعدم امتثاله أمره إنما كان لأن ابن كيران ليس بالذي سماه في منصبه، وليس بالذي يعزله، ومن سماه إنما أراده لما فَعَل، كما لمح إلى ذلك بعض المنتقدين عليه من المغاربة، فقالوا إن الوزارة إنما أُسندت إليه من أجل «الجبهة»، و«التواطؤ» لا على الكفاية[٥]، ولَمَّح بعضهم إلى توجهه الفرنكفوني، وولائه لفرنسة، فقال إنه «لا يعرف الشعب، ولا يعرفه الشعب»،

(١) تدريس المواد العلمية بالفرنسية يثير جدلا حول الهوية المغربية، وبيان إلى الرأي العام الوطني.

(٢) انظر: فرنسة المواد العلمية.

(٣) الموضع السابق.

(٤) بلمختار يرمي بكلام بنكيران في سلة المهملات.

(٥) انظر: رشيد بن المختار: الوزير الهارب بعورة من خمسة نجوم.

وإنه غارق متفانٍ في خدمة غاياته السياسية، وعقيدته غير الوطنية، وغير العلمية، وغير التربوية، وإنه أسوأ وزير تعليم مغربي، بعد سلفِه وقدوته، محمد بن هيمة، وكان ابن هيمة قد قاد أكبر ردة عن إتمام استقلال المغرب، وعن سيادته الثقافية واللغوية[1]، وقال: كيف يُعقَل أو يُقْبَل أن يجهل وزير تربية لغة بلده الرسمية، ويعجز عن التحدث بها، ثم يتولى وزارة التعليم غير مرة؟ وكيف يؤتمن على تعليم الملايين من أبنائنا، والحكمة تقول: «الناس أعداء ما جهلوا؟!»[2].

ومن وضع عمل رشيد في سياقه السياسي، فهم بسهولةٍ أنه ليس إلا تنفيذا لسياسة، قُرِّرت قبل هذا بمدة، وليس اجتهادا يجتهده بمعزل عن الحكومة الخفية، فقد قال محمد السادس عام ٢٠١٣ بمناسبة «ثورة الملك والشعب»: إن التعليم يواجه صعوبات ومشكلات، بسبب اصطناع برامج ومناهج تعليمية، لا تلائم سوق العمل، فضلا عن الاختلال الناجم عن تغيير لغة التدريس في المواد العلمية من العربية في التعليم العام إلى اللغات الأجنبية في التخصصات التقنية والتعليم العالي، وهو ما يقتضي إعداد الطالب إعدادا لغويا لتسهيل متابعته للتعليم الذي يتلقاه[3]. فما يفهم من هذا أن سياسة المغرب العليا قررت التراجع عن تعريب التعليم العام إلى تدريس المقررات العلمية بالفرنسية؛ فهي التي تؤهل الطالب لمتابعة دراسته في التخصصات العلمية والتقنية؛ لأن الجامعة إنما تدرسها بها لا بالعربية، هذا إلى أن المعنيَّ بانتقاد محمد السادس هو التعليم الحكومي دون التعليم الخاص؛ لأن لغة التعليم الخاص هي الفرنسية، بخلاف لغة التعليم الحكومي. ودليل ثالث على أن انتقاد محمد السادس كان إيذانا بالتراجع عن التعريب أنه كان منصبًّا على اصطناع بعض البرامج والمناهج التعليمية التي لا تلائم متطلبات سوق العمل، والذي تتطلبه سوق العمل في المغرب العربي هو الفرنسية، والبرامج التي تدرس بالفرنسية. وقد بدأ التراجع عن التعريب في عهد الحسن الثاني، وكان رشيد بلمختار هو الذي نفذه عام ١٩٩٦ ببرنامج المسالك المزدوجة، ونفَّذه على عهد محمد السادس

(١) فرنسة تدريس الرياضيات والفيزياء تثير سخط ناشطين مغاربة.

(٢) الريسوني: يجب إقالة الوزير بلمختار.

(٣) منظومة التربية والتكوين بالمغرب في أفق الجهوية الموسعة، ١٨.

عام ٢٠١٥ ببرنامج الثانوية الدولية الفرنسية. وقال أحد المغاربة المتحمسين لإلغاء التعريب، مشيدا بتوقيع رشيد بلمختار على قرار تعميم الثانوية الدولية الفرنسية بثانويات المغرب إن الأمر يستوجب علاجا بالصدمة، يبعث الروح في الجسد التعليمي المتهالك، ولن تكون الصدمة التي تأخرت كثيرا إلا بتفكيك الأصول الأربعة التي حكمت منظومة المغرب التعليمية منذ الاستقلال، ولا سيما التعريب والمجانية، وتغيير لغة تدريس الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية، من الصف السادس الابتدائي، ليكون الباب مفتوحا لاستكمال التكوين العلمي في الطورين الإعدادي والثانوي بالفرنسية، مع تعليم جامعي إنجليزي. وقال إن أول خطبة خطبها محمد السادس في مجلس النواب في أكتوبر عام ١٩٩٩، وكان ذلك في إبان إعداد الميثاق الوطني للتربية والتكوين، أوصى فيها الشباب المغربي بأن «لا يستشعروا عقدة من نظامنا التعليمي الذي نتشرف بكوننا من خريجيه»، وقال إن ذلك منه كان إشارة ذكية، لم تحسن لجنة مزيان بلفقيه التقاطها لإحداث نظام تعليمي مزدوج، والتخلص من التعريب تخلصا نهائيا[1]. فالكاتب يرى أن محمدا السادس يرى التخلص من التعريب والاتجاه به وجهة فرنسية إنجليزية خالصة. وهي سياسة كان يراها الحسن الثاني قبله، فإنه لما تدنى تحصيل الطلاب في الجامعة بسبب اختلاف اللغة التي يدرسون بها في التعليم العام عن اللغة التي يدرسون بها في الجامعة، قرر أن يجعل التعليم العام كله بالفرنسية. ولمح بعض الكتاب إلى أن الانفصام بين الطلاب المغاربة والعربية ازداد مع الحكم الجديد، ولا سيما بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، إذ قرن بعض الأساتيذ الفرنسيين الغلو بالإسلام والعربية، فجارى الحكم منطقهم، وعمل على تقوية الفرنسية في مختلف المرافق، ومحاربة العربية وتهميشها. وكانت تلك خاصيةَ «العهد الجديد» في المغرب: التوجه الكلي نحو فرنسة[2]. وليس هذا خاصا بالعهد الجديد، في الحقيقة، فقد كان هو سياسة الحسن الثاني، فقد رأينا أن تراجعه عن تعريب التعليم العام كان بتأثير من الحرب التي أعقبت إلغاء انتخاب الجزائر عام ١٩٩٢، وخوْفه أن

---

(١) هل سيكون التخلص من التعريب بوابة إصلاح التعليم بالمغرب؟.

(٢) المشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني.

ينتشر التطرف في المغرب بسبب التعريب. ولعل الذين ربطوا لمحمد السادس الغلو بالإسلام والتعريب بعد الحادي عشر من سبتمبر هم الذين ربطوه للحسن الثاني بعد إلغاء الانتخاب الجزائري.

لقد انعقد الإجماع الوطني في المغرب على المطالبة بتعريب التعليم في عهد الحسن الثاني، ووقع من الإضرابات، والتظاهرات ما مات فيه مئات العمال والطلاب اعتراضا على سياسة التعليم، وأقيل الوزراء، وبقيت الفرْنسة على حالها، بل ازدادت الحكومة جدا فيها، وحرصا على تقويتها، ولم تغيِّر من سياستها شيئا. ومن العادة أن يؤثِّر الرأي العام في سياسة الحكومات، ولو تأثيرا يسيرا؛ لأنها تخشى غضبة الشعوب، وترجو رضاها، وتطمع في أصواتها، إذا كانت ديموقراطية، غير أن سياسة المغرب اللغوية ليست محل نظر عند من بيدهم الأمر؛ لأنها عقيدة، أو كالعقيدة، وهو رهينة لها، وليس له معنى دونها، ولا بقاء لحكومته بغيرها، وليست قضية علمية أو تربوية، أو سياسية، أو اقتصادية، تراجع، ويعاد النظر فيها بما تقتضي المصلحة، كما يعاد النظر في سائر شؤون الدولة، فيُدخَل عليها من التغيير ما يجعلها أكثر نفعا، وأقل ضررا، وأدنى إلى ما يرضي الرأي العام. وقد فقد الشعب الثقة بالحكومات المغربية من أجل ذلك، حتى قال أحد المغاربة: هذه الحكومات التي وقفت متخاذلة أمام هيمنة الثقافة الأجنبية طوال عهد الاستقلال، وأعلنت في نهاية الأمر إخفاقها المطلق في التصدي للهيمنة، وإغراق البلاد بسبب ذلك في مشكلات اقتصادية وسياسية وعقدية مستعصية، لا تجد لها حلا، كيف يُتوقَّع أن تصلح التعليم، وهي المسؤولة عن استمرار فساده؟[1]. وهو دليل آخر على أن اصطناع الفرنسية من أجل التفتح على العالم ليس هو غاية اصطناعها في الحقيقة، فإن في العالم من اللغات ما هو أهم من الفرنسية، وأقرب إلى المغرب، وأوسع انتشارا في العالم. والذين فرضوا الفرنسية لم ينفتحوا إلا على فرنسة وحدها، ولم يُعْنَوا بتعليم لغات دول، بينها وبين المغرب منافع مشتركة، كالبرتغال، وإسبانية، وإيطالية، وألمانية. وكانت إسبانية وما زالت تستعمر جزءا من المغرب، وهي أقرب إليه من فرنسة، والإسبانية هي اللغة الرابعة في العالم، والفرنسية

---

(١) النظام التربوي في المغرب، ١٠.

هي اللغة التاسعة[1]. ولكن المنظور إليه في فرض الفرنسية منافع فرنسة، لا مصالح المغرب، والذين يفرضونها ليسوا بأكثر من قفازات مغربية، في أيد فرنسية. ولهذا كانت الفرنسية في سياسة المغرب العربي قضية، يترتب عليها نوع علاقتها بفرنسة، وليست مجرد لغة أجنبية محايدة، كما هي حال اللغات في دول العالم التي تملك أمرها، فالمغرب العربي الذي يصطنع الفرنسية هو حظ فرنسة من القسمة التي اتفق عليها سايكس وبيكو، وأمضاها المنتصرون في الحرب الثانية، والمغرب العربي إذا اصطنع الإنجليزية، أو الإسبانية، خرج من سلطان فرنسة، وكان تابعا لأمريكة، أو إسبانية، أو مستقلا، من أجل ذلك ،كان الفرنسيون في فرنسة في حِلٍّ من عدم استعمال الفرنسية، والعدول عنها إلى الإنجليزية، وتغيرت سياسة فرنسة الرسمية تجاهها وتجاه الإنجليزية، ولم تتغير سياسة دول المغرب العربي تجاه الفرنسية، منذ استُعمرت إلى اليوم؛ لأن سلطان فرنسة السياسي عليها لم يتغير، والمنافع التي من أجلها استعمرتها ما تزال كما كانت، والفرنسية من أهم الوسائل إلى تلك المنافع، غير أنها وكَّلت بها حزبها، ثم كانت من ورائه، بضغطها، وترغيبها، وترهيبها، وخططها السرية والعلنية، وعلاقاتها بالساسة، ومعاهداتها، ما أعلن منها وما لم يعلن. لكن السياسة الغربية مبنية على الاستغفال، والدعاية المضلة، فلذلك تسوِّغ فرنسة فعلها وفعل حزبها وسياستهما في فرض الفرنسية بما قد رأينا من المسوغات التي غدت مكشوفة لمن كانت مستورة عنه، لكن منتحليها لا يملكون غير تردادها؛ لأنهم إذا نَكَبُوا عنها لم يبق لهم ما يخادعون به.

ولم يَجْنِ المغرب من احتجان فرنسة إياه إلا خسارا، كما لم يجن من الفرنسية إلا ما قد رأينا: فقطاع الأعمال والاقتصاد -مثلا- يشكو هذا الاحتجان، وتجارة المغرب الدولية مقصورة على فرنسة ثم إسبانية، دون سائر العالم، ومنها الوطن العربي، حتى الجيران منه، وهو ما أصاب ميزان البلد التجاري بعجز مزمن. ولا بد من تنويع الأسواق، والانفتاح على البلدان الصاعدة، كالصين والهند، ولكن الجهل باللغات غير الفرنسية حال دون ذلك. فغلبة الفرنسية على السوق المغربية حالت دون التنمية والتقدم الاقتصادي، كالسياحة، والصحافة،

---

(١) إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٨٥.

والاتصالات، والتقنية[1]، كما عاقت استيعاب العلم، والتقدم، وصنعت بأبناء المغرب ما قد علمنا، وحالت بينهم وبين الانفتاح على ما عند شعوب العالم، وجعلتهم وقفا على فرنسة، يصدرون عنها في كل شيء، وليس عندهم إلا ما عندها.

(٦)

وكانت حصيلة عمل الحكومات الخفية في المغرب العربي -كما اتفق على ذلك الباحثون في أمر التعريب والتعليم في المغرب العربي- أنها لم تغير شيئا ذا بال في نظامها التعليمي عما كان عليه في إبان الاستعمار الفرنسي، ولا سيما أيامه الأخيرة، فقد كان نظاما موروثا -في الجملة- عما وضعت فرنسة، وكان أكثر الذين تولوا التعليم فيه بعد الاستقلال فرنسيين، فلم يختلف استقلاله عن احتلاله، ولذلك كان الشيخ عبد الكريم الخطابي -رحمه الله- يسميه «الاحتقلال»[2]. فنتائج عمل الحكومات المغربية في السنين الأولى من الاستقلال في التعليم مناقضة مناقضة تامة لـ«المذهب التعليمي» الذي أُقِرَّ، وأُقرَّت فيه الأصول الأربعة، ونالت الإجماع الوطني، وكانت مناقضتها إياه موضعَ تشهيرٍ من الأحزاب، والنقابات، واتحاد الطلاب[3]، فبعد الاستقلال (عام ١٩٥٦) أُحْيِيَ التعليم بالفرنسية، من الروضة إلى الجامعة، وباءت محاولات التعريب بالإخفاق، لأسباب عدة، منها سيطرة جماعات الضغط الداعمة للفرْنسة في الحكومات المتعاقبة على القرار، ولا سيما ما يتعلق منه بالتعليم. وبعد كثير من اللقاءات والمناظرات عُرِّب التعليم العام، وبقيت الجامعة فرنسية[4]. وكذلك الأمر في تونس، فإن السياسة التعليمية فيها من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٨ كانت واحدة، هي تلك التي أقرتها حكومة الاستعمار، في آخر عهدها[5]. ومواصلة الحكومة التونسية سياسة الاستعمار التعليمية،

---

(١) إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٩١ وما بعدها.

(٢) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

(٣) التعليم في المغرب العربي، ٣٢ وما بعدها.

(٤) دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، ٢٥٢.

(٥) التعليم في المغرب العربي، ٧٧.

والحفاظ على مكانة الفرنسية من التعليم هما ما كانت تدل عليه أقوال كبار قادة الحزب الدستوري الذي تولى الحكم بعد الاستقلال، وهي سياسة قائمة على الازدواج اللغوي في التعليم[١]، كسياسة المغرب. وهو ما أشار إليه جلبير غرانغيوم: تواصِل الدولة الوطنية (في المغرب العربي) المهمة التي بدأها الاستعمار، وقد أكملت مخططاتهِ في الغالب منذ السنين الأولى للاستقلال، فهي بذلك وارثة له[٢]. وقال: ما من حكومة في بلدان المغرب العربي الثلاثة إلا ونظامها في الحكم دليل على أصلها الاستعماري[٣]. وقال كلود حجاج: إن فَرَنْسة المستعمِرة ليست هي التي أنشأت الفرانكفونية وإنما أنشأها الذين جاؤوا لمفاوضتها على استقلال بلادهم[٤]. وقال جان لويس كالفي: ليس من قبيل الاتفاق أن يبدأ تاريخ الفرنكفونية عقب حركات الاستقلال الصورية في مستعمرات فرنسة القديمة[٥]. وجلبير، وكلود، وجان فرنسيون. وتوافُق سياسات دول المغرب العربي الرسمية تجاه العربية اليوم وسياسة فرنسة في إبان الاستعمار، يدل على أن فرنسة هي مصدر هذه السياسة كما كانت مصدر تلك، وكل ما جدَّ هو أن الذي يقرر هذه ويمضيها مغاربة، يحكمون في الظاهر، وكانت فرنسة هي التي تقرر تلك وتمضيها، وهي التي تحكم في الظاهر والباطن. وكانت الفرنسية في عهد الاستعمار لغة المغرب الرسمية، فهي لغة التعليم، والإدارة، والاقتصاد، والعلم، والثقافة الحديثة، أما العربية، فلغة الدين والتراث[٦]، وما تزال العربية والفرنسية بعد الاستقلال كما كانتا قبله، بل ساء حال العربية في بعض الأمور عما كانت عليه أيام الاستعمار، وتبدلت النظرة إلى فرنسة والفرنسيين، والتاريخ الفرنسي في المغرب، فقد كان الماريشال ليوتي -مثلا- يلزم بالقانون أصحاب المحالّ التجارية والشركات والمؤسسات كتابة أسمائها بالعربية وتحتها أسماؤها الفرنسية، ولا تحلو لأصحاب المحال

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ٨٣.

(٢) اللغة والسلطة والمجتمع، ١١٨.

(٣) السابق، ١٦٣.

(٤) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٥٩.

(٥) الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، ١٥.

(٦) انظر: جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ٩٧، وتدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين، ٣١.

التجارية التي نبتت بعد الاستقلال كتابة أسمائها إلا بالفرنسية، ويقدم أغلب المطاعم المغربية أسماء الطعام بالفرنسية وحدها، كما تفعل المطاعم الفرنسية في فرنسة[1]. وصار ضباط فرنسة الذين احتلوا المغرب، وقتلوا الآلاف من أهله، كليوتي، رموزا مغربية، تسمى بهم المدارس والشوارع، تعظيما لهم، كما سَمَّت حكومة المغرب إحدى مدارسها «ليسي ليوطي»، وهو الذي استعمر المغرب، وقتل الآلاف من أبنائه، ولكنها جعلته رمزا للتعليم الجيد الذي يتهافت عليه المغاربة، ويدفعون من أجله نصف رواتبهم الشهرية، ليضمنوا لأبنائهم مواصلة الدراسة في معاهد فرنسة، والحصول على شهادات، تؤهلهم لتقلد المناصب العليا[2]. وكان جل التلامذة في مغرب الاستعمار لا يتمكنون من إنهاء الطور الدراسي الذي يدرسونه، وإنما يُطرَدون أو ينقطعون قبل الحصول على الشهادة الابتدائية[3]، وما زال هذا بعينه يقع في مغرب الاستقلال! أما الخلاف الأكبر بين العهدين، فأن الفرنسية نالت من التمكن والانتشار، وإقبال الشعب، بعد الاستقلال، ما لم تنل في عهد الاحتلال، فلم يستطع الاستعمار نشر الفرنسية بين السكان طوال الاحتلال إلا بقدر يسير، لا يزيد على ٢٥٪ في المغرب، و٢٠٪ في تونس، و٣٠٪ في الجزائر، وعممتها حكومات الاستقلال، وأدخلتها في أعماق الريف، ووسعت رقعة أنصارها بنسبة، بلغت عام ١٩٧٨، ٦٣٪ في المغرب، ويزيد المتعلمون فيه بالفرنسية من خريجي مدرسة الاستقلال على خمسة ملايين، و٦٩٪ في تونس، ويزيد المتعلمون بالفرنسية فيها على ثلاثة ملايين، و٧٠٪ في الجزائر، ويزيد المتعلمون بها على ثلاثة ملايين ونصف، ويبلغ المتعلمون بالعربية في المغرب مليونين، وأربعة ملايين في الجزائر، ومليون في تونس، والأمية في المغرب ٧٦٪، و٥٩٪ بالجزائر، و٥٤٪ بتونس[4]. وصارت الفرنسية -فوق ذلك- لغة أمًّا لطائفة كبيرة من المغاربة، تزداد بانتشار التعليم الفرنسي الخاص، وتعليم البعوث الفرنسية، ولا سيما المعهد الثقافي الفرنسي. وذهبت ملاحم أهل المغرب العربي، ولا سيما الجزائر والمغرب

---

(١) أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال.

(٢) قراءة في مقالات حول اتفاقية «إيكس ليبان».

(٣) التعليم في المغرب العربي، ٢٥.

(٤) أزمة اللغة العربية في المغرب العربي، ١٠٣.

الأقصى، وبطولاتهم الأسطورية في جهاد الفرنسيين والإسبان هدرا، وسطرتها التبعية السياسية والثقافية في عالم النسيان، ومُحيت من الذاكرة بوسائل كثيرة، ودعاو أكثر، كأن الدماء إنما سالت لتوطين الفرنسية، وجعْلها تتوغل في الحياة العامة بعد الاستقلال ما لم تتوغل قبله، وما كان يُسعَى فيه، ويُقاتل من أجله يُعادَى ويُحارَب كما كانت فرنسة تعاديه وتحاربه، لكن الشعوب والحكومات نابت عنها فيما كانت تفعل، بعد أن كان سلفها يقاتلها عليه، وصارت العربية تعاني من أبنائها أكثر مما عانت من أعدائها، فقد جعلها سلفهم رمز المقاومة أيام الشدة، وجعلوها عنوان التخلف، أيام الرخاء[1]، وخرج معظمهم من جلبابها لغةً وثقافة، وصاروا يجدون صعوبة كبيرة في الاتصال بمصادر الثقافة العربية الإسلامية؛ لأن جلها مكتوب بالعربية[2]، فغدا المغرب -مثلا- «جنة الفرنسية»[3]، والذين يتكلمون بها من أهله عام ٢٠٠٧ م ٥ر٤١٪، وهم اليوم يقتربون من نصف الشعب[4]. وغدا بعض كبار مثقفيه يعتقدون أنه بلد متعدد اللغات، وترى طائفة منهم أن التعريب أمر محايد، وينبغي أن يظل مقتصرا على المجالات الدنيا من الدولة، ولا يتجاوزها إلى الصناعة والتسيير، وإنما يقتصر على تهذيب الجماهير ووعظها[5]، وأن العربية لغة عامة الشعب، وليست لغة خاصته، ولا لغة الدولة، ولا يمكن التعويل عليها في اللحاق بركب الدول المتقدمة[6]. أما التمكين للفرنسية، واكتسابها كما تُكتَسب اللغة الأم، فأمر عملي، وهو ما ينبغي أن تحرص عليه الدولة.

ويفسر الباحثون استمرار السياسة اللغوية بعد الاستقلال على ما كانت عليه قبله بأنها أثر لسياسة لم تُحسَم حسما واضحا في التفاوض على الاستقلال[7]، فقد دخل المغرب وتونس -مثلا- في مفاوضة الاستقلال بمنطق سياسي،

---

(١) انظر: إصلاح النظام التربوي، واللغة العربية هويتنا القومية، ١٩ وما بعدها.

(٢) جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ١١٠ وما بعدها.

(٣) أستاذ اللغة والأدب بالمغرب عبد الصمد بلكبير في حوار مع صحيفة عربي ٢١: الاستعمار يستهدف المغرب باستهدافه اللغة العربية.

(٤) ثلاثية لغات الألفية الثالثة في المدرسة المغربية، ٢٣.

(٥) اللغة والسلطة والمجتمع، ٦٣.

(٦) انظر: لغة التنمية والتعليم في الجزائر، ٨، وإشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العونمة، ١٣٧.

(٧) السياسة التعليمية بالمغرب، ٤٩ (نقلا عن: مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، ١١٨).

هو منطق التسوية وأنصاف الحلول، وليس بمنطق ثوري؛ فكان ما انتهى إليه التفاوض «الاستقلالَ في إطار التبعية المتبادلة»، أي التبعية لفرنسة. ويعني هذا في الجانب الذي يهمنا (التعريب) أن تَقْبل الحكومات «المستقلة» بالنظام التعليمي كما وجدته، وأن تدخل عليه ما تراه لازما من الإصلاحات، على ألا تَمسَّ روحه. ولهذا كانت الحقيقة التي حكمت عمل حكومات المغرب كلها أنها منذ الاستقلال لم تقاطع فرنسة في مجال من المجالات(١). وهذا معنى قول بعضهم: إن معاهدة إيكس ليبان كانت من أكبر الخيانات، وكانت مجرد تسوية بين فرنسة وزعماء، يسعون إلى مناصب سياسية، ومنافع يحوزونها لأنفسهم(٢)، وإن فرنسة أعطت المغاربة الاستقلال بشروط، أولها أن يظل بعض بنود المعاهدة سرًّا من أسرار الدولة، وأن يحافظ الحزب المفاوض (حزب الاستقلال) على منافع فرنسة في المغرب مائة عام من تاريخ إعلان الاستقلال، تنتهي عام ٢٠٥٥، وأن يظل المغرب رهن التبعية الاقتصادية واللغوية والثقافية لفرنسة(٣). وكان استقلال تونس والجزائر كاستقلال المغرب، في أن الذين فاوضوا فرنسة منهما خرجوا على الذين كانوا يجاهدونها انخداعا وتعجلا للاستقلال، كما خرج عليهم محمد الخامس ومن معه من الحركة الوطنية؛ فحالوا دون الانتصار على فرنسة انتصارا يترتب عليه استقلال حقيقي. فقد خرج الذين فاوضوا فرنسة من الجزائريين على قادة الثورة، وكانوا معدودين في الفرنكفونيين، وخرج الحبيب بورقيبة عن الحركة الوطنية في تونس. ولذلك شبَّه الشيخ محمد عبد الكريم الخطابيُّ اتفاق إيكس ليبان مع المغاربة باتفاق «جي مولي» مع بورقيبة، فكلاهما كان مكيدة «مدبَّرة، نجح فيها العدو وعملاؤه في تخدير الشعب المسلم وتشجيعه على الاطمئنان إلى استقلال مزيف. وقال إنه حصل على معلومات دقيقة ومفصَّلة تفصيلا تاما لكشف المؤامرات المصطنعة التي دُبِّرت للمجاهدين(٤). ولهذا كان الاستقلال في الحقيقة مسرحية خادعة، أو استقلالا صوريا، كما قال محمد عابد

---

(١) التعليم في المغرب العربي، ٢٦ وما بعدها.

(٢) مباحثات إيكس ليبان.. كواليس خمسة أيام انتهت باستقلال المغرب، ومحام مغربي يتهم الدولة بالوقوف في وجه اللغة العربية.

(٣) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان، وإيكس ليبان تعيد نفسها مع مشروع طنجة تيك المغربي الصيني.

(٤) قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان.

الجابري: كانت مفاوضات إيكس ليبان بين الليبراليين «المعتدلين» في الحكومة الفرنسية، وأمثالهم في قيادة حزب الاستقلال عملا ناجحا من حيث الإخراج المسرحي[1]؛ فقد كانت بين فرنسة وظلها في المغرب، لكن المغاربة خُدعوا بها، إذ كان ظاهرها يوهم أنها بين فرنسة والمغرب، وإنما كانت بين فرنسة وفرنسة؛ فلم يخالف ما بعد الاستقلال من أمر المغرب ما قبله. وكذلك كانت مفاوضات الاستقلال بينها وبين التونسيين والجزائريين، فقد صرح بعض الفرنسيين بأن مفاوضات فرنسة والحبيب بورقيبة كانت بين فرنسة ورجالها، أو بين فرنسة وظلها، فانتهت باستقلال تونس في حدود التبعية لفرنسة، وظلت مقيدة بقيود كثيرة، تجعل من غير الممكن أن يخرج الحكم التونسي عما ترسم له فرنسة، في كل شيء: التجارة، والاقتصاد، والتعليم، والجيش، والشرطة، والمجالس البلدية، وهو ما أبان عنه قول قائد الجيوش الفرنسية في جنوبي تونس، العقيد مولو، لأحد الصحفيين عام ١٩٥٧، وقد اختطف مولو المعتمَد الذي نصبته حكومة تونس «المستقلة»: «تونس؟ ما أعرفها! انظر على بعد ٤٠ كم إلى الشمال»، يعني أنه إذا ما نظر إلى ما بتونس من جيوش فرنسة، علم أن لا دولة لتونس في تونس، وإنما هي فرنسة وحدها[2]. هذا إلى بنود سرية، يقتضي بعضها أن تكون الفرنسية هي لغة البلد الرسمية، ومنها ما ينافي سيادة البلد، وما هو مضر به، كما قد رأينا من البند السري الملحق باتفاق إيفيان، وما يقضي من بقاء الجيش الفرنسي في وادي الناموس إلى عام ١٩٦٨، واتخاذه مختبرا للتجارب الكيميائية والنووية الفرنسية. فالحديث عن التعريب في المغرب العربي حديث عن عَرَض، أما المرض الذي هذا عرضه، فهو أن المغرب العربي لم يستقل، ولا فاوض على الاستقلال، وإنما فاوضت فرنسة نفسَها إذ فاوضت رجالها من أهل المغرب العربي مفاوضة صورية، تبعها استقلال صوري، كما سماه جان لويس كالفي، ثم خرجت جيوشها، وبقيت تدير البلاد بأيدي صنائعها، وبعوثها، وسفاراتها، ومخابراتها، فكان لزاما أن تبقى الفرنسية بعد الاستقلال كما كانت قبله، وأن يكون ما يُنجَز من التعريب ألعوبة تقتضيها السياسية إلى حين، ثم يعاد بها إلى ما

---

(١) في غمار السياسة، ١/ ١٧٩.
(٢) البورقيبية والهوية، ٢٠٣.

كانت عليه. ولم يكن هذا خاصا بالتعليم، وإنما كان عاما في كل شأن من شؤون البلاد، تتعلق به منفعة فرنسة، كما قال محمد اسليم: تتلبس كل دولة مغربية بنوع من الخطيئة الأصلية؛ لأنها تُعدُّ وارثة نظام استعماري أجنبي غير إسلامي، وخليفة له، وهذا الإرث لا يمس البنية الرمزية للحكم أو مكان السلطة فحسب، وإنما يمس سائر مظاهر هذا الحكم وأعماله. فالحكومة، والإدارة، والتوجهات الاقتصادية، وتصور المجتمع، والأمة، كلها أشياء، أحدثتها فرنسة، واتبعتها دول المغرب، في مجملها. ومما يدل على ذلك أن الدستور الجزائري مقتبس في مجمله من الدستور الفرنسي، وأن قانون ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ الجزائري أقرَّ التشريعَ الاستعماريَّ إلا ما عارض منه السيادة الوطنية، وكذلك قانون المغرب وتونس[1]. وما كان بورقيبة والحسن الثاني ليعرِّبا تونس والمغرب، وهما من طراز سنغور في فرانكفونيته، ولهما -يعدُ- من الارتباط بفرنسة ما هو معلوم، وما دلَّ عليه تاريخهما هو ما أبان عنه تمثال بورقيبة في باريس، وما قالت فيه فرنسة. أما الجزائر، فكانت في الظاهر بيد بن بله وهواري بو مدين والشاذلي بن جديد، وهم مجاهدون مخلصون للتعريب، غير أن كل شيء كان بيد حزب فرنسة، في الحقيقة، وكان هو الذي يقود البلد، حتى كان انقلاب عام ١٩٩٢، فأعلنَ ببعض كان يُسِرُّ، وساق الجزائرَ علانية إلى حيث تريد فرنسة، أو ساقتها به إلى حيث تريد.

(٧)

وما ينبغي أن يظن أن سياسة الحكومات الخفية اللغوية كانت عن إعجاب بالاستعمار ولغته وعلمه وحضارته، ولا تحرٍّ لفوائد تفيدها الشعوب من تعلمها، ولا أنها كانت تحرص على النزاهة، وعدم التعصب، والحفاظ على التحصيل العلمي، والتفتح، والحداثة[2]، فإنما هذه خِدَع تخادِع بها الشعوب، أما الحقيقة، فأنها ما أرادت إلا منافعَها، وهي منافع وافقت منافع الاستعمار، وقد أتاحت لها موافقتُه وعونُه على تبلُّغ ما يريد من بلادها أن تُملَّك أَزِمَّة البلدان،

---

(١) مكانة اللغة العربية في قانون الإجراءات المدنية الجديد، ٢٠٠٨، واللغة وأنظمة الحكم في المغرب العربي.

(٢) محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، ٢٤٦.

وتُحَكَّم في الاقتصاد والسياسة، وتسيطر على الإدارة والإعلام، وأتاحت هي للاستعمار أن يسيطر بها على البلاد، دون أن يثير من نقمة أهلها ما كان يثير الاحتلال العسكري، فجعل نفسه سندا لها، وعونا على البقاء في الحكم، وجعَلَت لغته مصدر الرزق، والوسيلة إلى المال، والجاه، والمنصب؛ لتعينه على احتلال العقول، وما يترتب على احتلالها من منافع سياسية واقتصادية وثقافية؛ فكان ذلك سبب انتشارها ومعاداة اللغات الوطنية؛ لأن اللغات الوطنية تتيح نشر المعرفة، وتبطل مسوغات استئثار فئات قليلة من الشعب بمنافع البلد، دون أهله[1]. وقد عرَّف روبرت فليبسون «الاستعمار الحديث» بأنه التوسل بالاقتصاد أو السياسة أو غيرهما من الوسائل إلى التأثير في الدول، سواء أكانت مستعمَرة مِن قبلُ أم لم تكن[2]. ولمح إلى أن بعض الرؤساء الأفارقة كان يعلم أن بقاءه في الحكم مشروط بالمضي في تنفيذ سياسة الاستعمار اللغوية في بلاده، ولو أضرَّ ذلك بلغته الوطنية، من أجل ذلك سعى بعضهم في إغلاق المنظمة اللغوية التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية؛ لأن دفاعها عن اللغات الإفريقية كان يقضُّ مضجعه، وكانت مهمة هذه المنظمة تقليل استعمال لغات الاستعمار، وتشجيع استعمال اللغات الإفريقية في التعليم، والتجارة، والاتصال المحلي والإقليمي[3]. وترتب على هذا في بعض المستعمرات ضربٌ من النفاق الاجتماعي، إذ يعلن بعض الشعوب بتمجيد لغاته، والمطالبة بمساواتها بسائر اللغات، ويُسِرُّ بتعليم أبنائه باللغات الأجنبية؛ لينالوا أفضل فرص الأعمال، ويُسِرُّ برفض تعليمهم باللغات الوطنية؛ لأنه لا يغني من المال والأعمال والمناصب شيئا. هذا إلى ما يرون من أن اللغات المحلية الأخرى تهدِّد لغتهم، وأن العامي منها لا يفهمه إلا أهله، ولا تهدد اللغة الأجنبية لغةً محلية، وتُفْهَم في بلاد كثيرة[4]. ومن هذا القبيل أن دساتير الدول العربية كلها

(١) الهيمنة اللغوية، ١٦، والسياسة اللغوية، ١١٨ وما بعدها، والمساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني.

(٢) الهيمنة اللغوية، ١٠٦.

(٣) السابق، ٤١ وما بعدها.

(٤) انظر: كلمات العالم، ٢١٣ و ٢٢٧ و ٢٣٥ و ٢٤٠ و ٢٥٨ و ٢٩٨ و ٣٨٢ وما بعدها، واللغة والسلطة والمجتمع، ٩٣، والتازي: عند ما اعتمدنا التعريب في المغرب أعلنت فرنسا سحب أساتذتها العلميين، ولغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ٤٠١ وما بعدها.

تنص على أن العربية هي لغة البلاد الرسمية، وأن بعض أنظمة التعليم، وقوانينَ بعض الجامعات، تنص على أن العربية هي لغة التعليم «إلا في حالات شاذة»، يُلتمَس لها -عند الضرورة- استثناء من مجالس الجامعات، ولكن ما تنص عليه الدساتير لا يُعمَل به، والحالات الشاذة في الجامعات هي «القاعدة المتبعة»[١]، وما ينص عليه قانونها هو الحالة الشاذة، بحكم الواقع، وقانون الواقع أمضى من قانون الورق، الذي لا يوقف له على خبر إلا أن يفتَّش عنه في الأرشيف. لقد وضع النيجيريون قوانين لتعزيز لغاتهم الوطنية، فلم ينجحوا؛ لأن الحكومة السرية لم تجدَّ في العمل بها[٢]، ولما صارت الإنجليزية لغة الهند الرسمية، في إبان الاستعمار الإنجليزي، صار العارفون بها من الهنود وسطاءَ بين الإنجليز والشعب، وكان حرص الإنجليز على نشْر الإنجليزية في الهند مما يسرُّهم؛ لأنه يزيد قيمة ما يعرفون من اللغتين، وعدمُ نشرها يحط من مكانتهم؛ لأنه يسقط اللغة التي ينالون بها المال والمناصب؛ فكانوا يسعون في نشر الإنجليزية، واصطناعها لغة رسمية، على عكس ما كان يريد غيرهم من الناطقين بالهندية. وبعد الاستقلال استماتت الإدارة الهندية في الدفاع عن الإنجليزية، فرجَّح جهاز الخدمة المدنية استعمالها، ولكنه ما كان يستطيع الخروج عن القرارات السياسية الصريحة بفرض الهندية. ولما آل الحكم إلى مزدوجي اللغة بعد رحيل الإنجليز، رأوا أن انتشار الإنجليزية في الأقاليم التي ينتمون إليها يسوي بينهم وبين سائر الشعب في معرفة الإنجليزية ويؤهلهم لمنازعتهم ما كانوا يستأثرون به دونهم؛ فجعلوا الإنجليزية لغة رسميةً مركزية، واللغات الفرعية لغات وطنية محلية، ولم يصطنعوا لغة وطنية رسمية يلتقي عليها الهنود كافة؛ حفاظا على منافعهم[٣]. وهذا يجيب عن سؤال، كان قد سأله أحد اللغويين: لماذا لم تستطع أمة المليار نسمة (الهند)، ووطنُ كثير من العادات العريقة في الثقافة العالمية أن تطَّرح لغة الغزاة السابقين، مع أن الأكثرية المطلقة منها تريد لغة وطنية واحدة؟[٤]. واستمرت الفرنسية لغة رسمية في رواندة، على وحدة الروانديين

---

(١) التجربة العربية في تعريب العلوم، ٦٦.

(٢) كلمات العالم، ٢٥٩.

(٣) السابق، ٥٥ و ١٤٦ وما بعدها و ١٦٣.

(٤) السابق، ١٣٢.

اللغوية؛ لأنها كانت هي السبيل إلى الوظائف، وهي التي أتاحت لساسة رواندة ما استأثروا به من التعليم العالي، وإقصاء ٩٩٪ من الشعب عما أرادوا من منافع البلد[١]. ولا يختلف اصطناع الفرنسية والإنجليزية في الوطن العربي والحرب على العربية عن اصطناعهما في مستعمرات بريطانية وفرنسة في آسية وإفريقية، والحرب على لغاتها الوطنية، فهما مبنيان على عقيدة نفعية بحت، وليس الجانب الثقافي منها إلا الجانب الظاهر[٢]، ولذلك قال أحدهم: الفرنكوفونية في المغرب جامع للمنتفعين بالفرنسية، يوحدهم لدفع مخاطر التعريب، وهم كالحركة البربرية، من حيث مناهضة العربية والدفاع عن استمرار الفرنسية في مكانتها المتميزة التي تتبوؤها في المغرب العربي[٣]. وما تعثُّر محاولات تعميم استعمال العربية في الوطن العربي إلا أثر من آثار التشبث بالمواقع الإدارية، والمنافع المادية، والاستماتة في الدفاع عنها بالتشكيك في تجربة التعريب[٤].
وبهذا علل جلبير غرانغيوم الخلاف بين أنصار التعريب وخصومه في المغرب العربي، فقال إنه صراع على الحكم بين طبقات اجتماعية، مصالحها متعارضة، وهي تتوسل بالعربية والفرنسية إلى غاياتها[٥]، وإن لم يكن الفريقان سواء، في الحقيقة، فأنصار التعريب يدافعون عن هوية، وحضارة، وتراث، وجامعة تجمع شمل العرب، وتصون وحدتهم، وهو أمر يفعله الوطنيون في العالم كله، وتفعله الدول، ومنها فرنسة، صونا لهويتها وسيادتها، وتطلُّبهم المنافع بالتعريب، إن صحَّ، كتطلب المرء الرزق لقاء العمل يتقلده، فينفع بأدائه، وينتفع بما ينال منه، وليست له تبعات ولا أضرار تنال الوطن، وكثير منهم يعرف من الفرنسية ما يعرف المتفرنسون، وربما كانوا أعلم بها من بعضهم، ولو أرادوا بها ما أراد المتفرنسون لنالوه. وإنما يدافع خصومهم عن لغة مستعمر وثقافته، ومنافعه، ويؤثرونها على مصالح وطنهم، غير معتدين بما يترتب على ذلك من تخلف،

(١) كلمات العالم، ٢١٦ - ٢١٨.
(٢) المساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني بالمغرب.
(٣) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ٢٦٥.
(٤) لغتنا العربية جزء من هويتنا، ١٣ وما بعدها، وانظر: محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، ٢٤٦
(٥) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ٢٢ و ٢٤.

وتبعية، ولا ينظرون فيما يفعلون إلا إلى منافعهم وحدها. وتطلبهم ما يُنال باللغات الأجنبية من منافع في بلادهم كتطلب المال بالخيانة. ومن عرف مهمة جلبير وما يريد علم أنه إنما يسوي بين المخطئ والمصيب من أجل أن ينال من المصيب (أنصار التعريب)، وينزع الثقة به، ويهوِّن فعلة المخطئ (أنصار اللغات الأجنبية)، ويسوغها، وإلا فمن ذا الذي يسوي الوطني بمن يكيد وطنه ويخونه؟ وأي الفرنسيين يسوي بين شارل ديغول وفيليب بيتان؟.

ومن صور التوسل باللغات الأجنبية ومعارضة التعريب إلى احتجان المنافع ما يقال من أن سبب الإبقاء على تعليم الطب بالإنجليزية في مصر أن أسرا بعينها تتقاسم كراسي الأستاذية في كليات الطب بالجامعات المصرية، كآل مورو، وآل الكاتب، وآل البنداري، وهي تريد أن يستمر هذا التقاسم والاستئثار به دون المصريين؛ فتلقِّن أبناءها الإنجليزية منذ الصغر، فإذا دخلوا الكلية لم يستطع أبناء الأسر العادية أن ينافسوهم[1]. أما ما يقال في مزايا التعليم بالإنجليزية، ومضار التعليم بالعربية، فخدعة يُخدَع بها عن تلك الأثَرة. وهم كالعُصَب الهندية والرواندية المنتفعة من اصطناع الإنجليزية والفرنسية لغتين رسميتين، مع أن جمهور الشعبين يتطلع إلى لغته الوطنية، ولا يريد الفرنسية ولا الإنجليزية. وهذا يدل على أن السياسة اللغوية في المستعمرات السابقة إنما تُكيَّف مع منافع العُصَب المسيطرة، لا مع مصالح الشعوب، غير أن ذلك يُلبَس ما قد علمنا من مصطنع الحجج والتعلات.

(٨)

ومن أصناف الحكومات الخفية البطانة التي اصطنع بعضُ ساسة العرب، فإنها بطانة تتخذ آراءها عقيدة، وقد أنساها توجهها الفكري ومنافعُها ثوابتَ أمتها، وقطَع العلاقة بينها وبين هويتها، وجعَلَها أقرب إلى من كان يجب أن تكون أبعد منه، وبهذا ونحوه نالت من الحظوة عند الساسة ما نالت، فوضعت نفسها موضع العدو الذي يتربص بالعربية الدوائر، ويسعى أبدا في النيل منها، فهي تعرقل خطط التعريب، وتلزم العربية واقعها السيئ الذي أعانت على

(١) التعريب في الجزائر، ١١٣ وما بعدها.

صنعه، وتُحالِف عليها عدوَّها، وتواطئه على كيدها. وقد ازورَّ بعض الحكومات -بتزيين منها- عن العربية، فلم يولها من العناية ما هي أهله، فاختصر مناهجها، والحصص المخصصة لتدريسها، وبوأ العارفين باللغات الأجنبية المراتب العليا في الدولة؛ فانصرف الناس عن العربية إلى اللغات الأجنبية والعلوم التطبيقية، ونظروا إلى العربية نظرة استخفاف، إذ لم يكن فيها من النفع المادي ما في اللغات الأجنبية. هذا إلى ما بين بعض هذه البطانة والشعوب من قطيعة فكرية وثقافية، ترتب عليها اختلاف الاهتمام والأولويات، ولذلك كان الساسة المتأثرون بهم لا ينظرون بعين الاعتبار إلى مطامح الشعوب ورغباتها إلا بالقدر الذي يُبْقِي الأمور «مستقرة»؛ لأنهم من النوع الذي سماه كليمنت هنري «حكومات المتاعب»[1]؛ لأنها سبب ما تعاني الشعوب من تمزُّق ثقافي، وتَرْك الهوية نهبا للثقافات الغازية تمسخها، وتصرف عنها أهلها، وتستميلهم إلى غيرها، وهي لا تعير تلك المعاناة اهتماما؛ لأنها منفصلة عن الشعوب؛ فلا تجد ما تجد، ولا يَعنيها ما يَعنيها ويُعَنِّيها؛ لأن لها مراجع غير مراجعها. ومن وازن بينهم وبين ما يقال من أن شالمان شازار (رئيس إسرائيل الثالث من ١٩٦٣ - ١٩٧٣) وبن غوريون سارا في جنازة تشرشل ميلا ونصفا، ولم يركبا السيارات؛ لأنها كانت يوم سبت، وهو يوم يحرُم فيه استعمال وسائل النقل في دين اليهود[2]، تبيَّن بُعْدَ ما بين ساسة اليهود ومثقفيهم وساسة العرب ومثقفيهم، مع أن من غير المتوقع أن يكون بن غوريون وشالمان شديدي التدين، لكن لما كانت تلك عقيدة الشعب وثقافته كان عليهما -بسبب ما يتوليان من أمره- ألا يظهرا ما يخالفهما في مقام من المقامات المشهودة. ومثل هذا تغيير بعض قادة اليهود أسماءهم بعد ما دخلوا فلسطين، فصار ديفيد جرين ديفيد بن غوريون، وشمعون بيرسكي شمعون بيريس، وأوفري إيبان أبا إيبان[3]، كما غيروا أسماء الأرض العربية.

أما البطانة التي مُلِّكَت زمام الأمر في البلاد العربية، فمعروف رأيها في الهوية

---

(١) صدام الحضارات، ٢٢٢.

(٢) الله أو الدمار، ١٣٤.

(٣) اللغة العبرية في الكيان الصهيوني، ٣٧٥.

العربية، أما نظرتها إلى الشعوب، فنظرة احتقار، سببها ثقة مفرطة بتعليمها، و«حداثتها»، واعتقادها أنها على طرفي نقيض مع الشعوب في ذلك، على وجه يجعل لسان حال بعضها يقول: إن من الخير للعرب أن يَكِلُوا إلينا أمرهم، لنفكر عنهم، وأن يُخَلُّوا بيننا وبين أنفسهم؛ لنحملهم على ما نرى؛ فهم -بعكسنا- لم يبلغوا من الرشد ما يجعلهم أهلا لأنْ يوكل إليهم أمرهم، فنحن أولى بإدارتهم وقيادتهم؛ لأننا أبصر منهم بطريق العلم والتقدم، والحداثة. وهم -على ما يدَّعون من تلك الدعاوي- ضعاف الإيمان بالديموقراطية، والانتماء إلى الوطن، ويتسمون بظاهرية الفكر، والاختراق الثقافي، وأعني به تقلُّدَ الانفتاح على الغرب والاندماج فيه، وهي ثقافة، تنطلق من الفراغ، فلا «تستطيع أن تبني هوية ولا كيانا»، وتعتمد في ذلك على التمويه العقدي، وهو تسويغ العمل أو الفكرة بغير مسوِّغاتها الحقيقية للعجز عن تسويغها تسويغا مقنعا[1]. ولا يكون ذلك إلا من ضعف التكوين العلمي والفكري والأخلاقي؛ ومن أجل ذلك اصطنعها الاستعمار أزِمَّة، يقود بها الشعوب، ويدير البلدان، ومعاول يهدمها بها، إذا أراد، وأوضح مثال لذلك وأصرحه الحكومات الخفية في المغرب العربي، ولا سيما الجزائر، منذ انطلاق ثورة التحرير إلى اليوم، وما فعلت من إلغاء خيار الشعب السياسي والحضاري عام ١٩٩٢، ثم أنحت على الشعب، تسفك دمه عقدا من الزمن طاعةً لفرنسة، وحراسة لمنافعها، وإنفاذا لسياستها في الاحتفاظ بالجزائر جزءا لا يتجزأ منها، وطمسا لهويتها لانتزاع أسباب التأبي على ما تريد بها. ولا ريب أنها ما أرادت حداثة، لا تعرفها، ولا خيرَ شعب، آثرت عدوه عليه. ومن دأب الاستعمار أن يصنع العُصَب لهذا ونحوه، كما قال اللورد توماس ماكولي لحكومة بريطانية في الهند: «علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنربي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم، طبقة من أشخاصٍ هنود الدم والبشرة، ولكنهم إنجليزيو الذوق، والأفكار، والتوجه، والأخلاق، والعقل»[2]. وكانت ثمرة العمل بهذه النصيحة ما قال جون نيكول فاركهار، وهو بريطاني معاصر لماكولي: تمكَّنت سياسة التعليم الجديدة من صنع رجال يفكرون ويتكلمون

---

(١) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ١١٤ و ٢٢٥.

(٢) أمريكا والإبادات الثقافية، ١٠٢.

بروح إنجليزية[1]. ولن يحيد عما تريد إنجلترة مَنْ إذا فكَّر أو تكلم فكر وتكلم بروح إنجليزية. وكانت هذه بعينها سياسة فرنسة في مستعمراتها، ولا سيما المغرب العربي، وهذا سبب ذلك الهجوم الشديد على المغرب العربي لإرغامه على اصطناع الفرنسية، وإخراج العربية منه؛ إذ كانت الفرنسية هي الطريق إلى الإيمان بفرنسة، والإيمان بفرنسة -كالإيمان ببريطانية- يوجِّه المؤمنين حيث تريدان، وحيث تكون منفعتهما، ولا تكون إلا مباينة لمصالح الوطن.

وترى هذه البطانة أن حَمْل الشعوب على أن تلبس قشرة الحضارة الغربية هو الوسيلة إلى حملها على التقدم. والاعتقادُ بأن الشعوب غير الغربية يجب أن تتقلد القيم والمؤسسات والثقافة الغربية غير أخلاقي، ولا شيء يدعو إليه[2]، فضلا عما يدل عليه من بساطة؛ فلكل حضارة ثقافة وأخلاق، ومنتجات وقيم، وتقلُّد هذه من حضارة أخرى لا يصنع حضارة، وآية ذلك أن هذه البطانة تنتحل الليبرالية، وتوالي الغرب، من غير أن تتمثل روح الليبرالية الحق، كالإيمان بالحرية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، والتعدد، والتعايش، إلخ، لا في فكرها، ولا في سلوكها، وإنما هي ظل الحكام الذين رضيت أن تكون بطانة لهم، تزين لهم كثيرا مما يخالف الليبرالية، وتدعوهم إليه، وتسوِّغه لهم بعد أن يفعلوه. وقد حال هؤلاء بين العربية وما يريد لها أهلها بما قد رأينا، فحبسوها في زوايا الإهمال، وحالوا بينها وبين أن تكون لغة العلم، والتعليم، والبحث العلمي، والإعلام، والإدارة، وسائر شؤون الحياة، وجعلوها بِدْعا من لغات العالم، حتى أقلِّها شأنا، وأفقرها معجما، وأحدثها عهدا بالعلم والحضارة، وأشدها إيغالا في الجهل، وأقلها رصيدا من العلم، كالأرمنية، والسواحلية، والإيسلندية، والفنلندية، والسويدية، والدانمركية، والليتوانية، والألبانية، والعبرية، التركية، والملاوية، فقد كانت الملاوية -مثلا- لهجة شعبية مستعملة في الموانئ والأسواق والتجارة والسياحة وبين الرحالة والبحارة، ما يزيد على ألف عام، فالتقطها القوميون الأندونيسيون في العقد الثالث من القرن الماضي من الشارع، فاتخذوها لغة رسمية يوم إعلانهم استقلال إندونيسية عن هولندة

---

(١) أمريكا والإبادات الثقافية، ١٠٦ وما بعدها.

(٢) صدام الحضارات، ٥١٦.

عام ١٩٤٥، فصارت لغة العلم والتعليم، والحداثة، والأعمال، والسياسة، والإعلام، والمؤسسات الأكاديمية، ولغة الهوية والقومية الوطنية، مع أنها -على ما بلغت اليوم، وبلغت إندونيسية من تقدم- ما بلغت يوما مبلغ العربية والجاوية في إندونيسية، فما كانت لغة علم، ولا كان لها شأن أي شأن، وكانت ميزتها الوحيدة سعة الانتشار في جزائر الملايو، وارتباطها بالدعوة الإسلامية، وأنها لغة محايدة، واصطناعها لغة رسمية لا يستثير قومية من القوميات الإندونيسية[1]. وقد استُعمرت إندونيسية ثلاثمائة عام، وكانت لغتها الرسمية هي الهولندية، وكان استقلالها قريبا من استقلال بعض الدول العربية، كمصر، وسورية والعراق. ولكن إرادة شعبها، وإصراره على غسل آثار الاستعمار الهولندي، وإقرار لغة الشعب الإندوتيسي لغة رسمية، واصطناعها في التعليم، كانت من أسباب أن تكون إندونيسية بالمنزلة التي هي بها. وليس في الدول العربية -غير سورية- دولة صنعت مثل هذا، ولا عُصْبة من عُصَبها السياسية والثقافية انتهت ببلدها إلى نهاية كالتي انتهت إليها إندونيسية.

وإذا صح ذلك تبيَّن أن ما يُفعَل بالعربية إهانة حضارية للعرب، ينفِّذها الاستعمار بأيدي الحكومات الخفية والحكومات العلنية، والعُصَب المكينة، كما كان ينفذها بنفسه، يوم كان يحتل الأرض؛ ليشعر العرب بالذل، والهوان، وأنهم دونٌ، ولا يملكون لأنفسهم شيئا، وهي أمور لا يتأتى معها نهوض ولا تقدُّم، وإنما تتأتى التبعية والاستهلاك وحدهما؛ لأن النهوض والتقدم مشروطان بالشعور بالعزة الحضارية، والكرامة على النفس، وما يتبعهما من طموح إلى المنازل التي لا يقنع بما دونها كريم على نفسه؛ ولذلك أُبقِيَ العرب، دون أكثر الشعوب، ماردًا مكبَّلا بسلاسل من الأوهام، تصنعها الحكومات الخفية، فترددها الحكومات العلنية.

(٩)

ومن كيد الحكومات السرية للعربية الاحتيال على قرارات التعريب من أجل إبطالها، ومنع تنفيذها، وتُتَّخذ لذلك أساليب غامضة، بحيث لا يُعرَف لِمَ لَمْ تنفَّذ،

---

(١) السياسات اللغوية، ١٠٢، وكلمات العالم، ١٧٤، والسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ١٣٢ و ١٣٥.

ولا من حال بينها وبين التنفيذ، ولا أيةً سلكت، على وجه قريب من الوجه الذي تحدَّث عنه عبد الإله بن كيران. ومن دأب الدول التي تريد النيل من أعدائها في الصميم أن تصطنع من قادتها من يتولى ذلك، على وجه، لا يُفْطَن إليه، فيَظهر لغير العالم أنها تسير سيرا عاديا، وأن ما ينوبها من خلل عفويٌّ، وليس بتدبير ولا تخطيط، ويكون مثله في مؤسسات الدول كلها، ويُحالُ بينه وبين أن يُصلح ويقوَّم، ليبقى كما أراد له مَن أراد إفسادها. وما يقع في البلدان العربية من تعطيل قرارات التعريب، وما يترتب عليه من أضرار لا خفاء بها، ليس من السهل عده أمرا تلقائيا، أو غير مدبر، كما يبدو مما حدث في العراق، مع أن قيادة الثورة كانت عازمة عليه، وأصدرت به مراسيم، تابعت وزارة التعليم العالي إمضاءها، وألزمت الجامعات أن تعمل بها، ثم حيل بين بعضها والإمضاء، إلى أن انتهى العراق إلى ما انتهى إليه، مع ما أنجز من التعريب في مجالات كثيرة، على ما هو معروف من استبداد قيادته، وبأسها وسطوتها التي كانت محل رهبة من الشعب كله. وبعكس هذا بعض المشاريع التي كان يراد بها إفساد أمر من أمور العرب، فإنها قد تصدر من دوائر مجهولة، فتُمْضَى سريعا، كما قال إدريس الكتاني إن مشاريع إصلاح التعليم التي فُرِضت على المغرب منذ أربعين عاما لا تُعرَف أسماء أصحابها، وهل هم مغاربة أو أجانب[1]. وقد يكون المشروع مجهولا عند أكثر الشعب، ومع ذلك يكون هو الذي يُسيِّر شؤونه، أو بعضها، كما قال بعض التونسيين إن خطة جان دوبياس كان يجهلها «الشعب، ومجلس الأمة، والحزب، والنقابات»[2].

ومما يزيد المرء يقينا أن في القضية ما يخفى أن يُلقي نظرة على مؤتمرات التعريب في الوطن العربي، وكيف أخفقت كلها، ولم يُعمَل بشيء منها ذي بال، على كثرتها، وطول المدة التي استغرقتها، وأهمية من كان يحضرها، من الحكام في القمم، إلى وزراء التربية والتعليم، والتعليم العالي، والصحة، ووكلاء الدول، ومديري الجامعات، وعمداء الكليات، وأعضاء المجامع اللغوية. لقد نصَّت المادة التاسعة من اتفاق حكومات الدول العربية، عند تأسيس الجامعة

---

(١) ثمانون عاما، ٧.

(٢) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١٠٧، وتاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، ٤٢٩.

العربية عام ١٩٤٥ على الوصول بالعربية إلى تأدية أغراض التفكير والعلم الحديث كلها، وجعْلها لغة الدراسة في الوطن العربي، في المقررات كلها، وأطوار التعليم كافة. ومن الثالث إلى العاشر من مايو عام ١٩٦١ اجتمع وكلاء الدول العربية في حلقة لدراسة مشكلات التعليم الجامعي ببنغازي، وصدرت عنهم توصيات مهمة، منها أن التعريب وتدريس العلوم بالعربية ضرورة علمية، وقومية، وأن الفكر الأصيل لا يكون في الأمة إلا إذا كانت تعلِّم وتكتب وتؤلف بلغتها. وأجمعوا على وجوب تعريب التعليم الجامعي، وأوصوا بأن تعجِّل الجامعات بتعريب التعليم في كلياتها كلها، وتُعِدَّ أُمَّات المراجع والدوريات العلمية بالعربية. ثم توالت المؤتمرات والندوات العلمية لدراسة أمر التعليم العالي، وكان الإجماع على التعريب ينعقد في كل اجتماع. وعُقِد أول مؤتمر عربي للتعريب في الرباط عام ١٩٦١، وعنه انبثق مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، وأوصى المؤتمر بأن تكون العربية لغة التعليم كله، في كل قطر عربي، وأن توضع للإعلام خطة، تجعله وسيلة من وسائل نشر العربية الفصحى في الشعْب، وتقريب العامية منها. ولم تكن توصيات مؤتمرات التعريب اللاحقة أقل تأكيدا لذلك من هذه، بل كانت تزيد عليها إلحاحا في الطلب، وتنبيهًا على ضرر الاستهانة بما تسميه «المبدأ القومي، والهدف الحضاري»[1]. وأوصت مؤتمرات اتحادات الجامعات العربية بتعريب التعليم العالي، ولا سيما المؤتمر الرابع الذي عقد بدمشق عام ١٩٨٢، وكان شعاره «تعريب التعليم العالي»، واشتملت قرارات مؤتمري وزراء التعليم العالي المنعقدينِ بالجزائر عام ١٩٨١، وتونس عام ١٩٨٣ على توصيات بتعريب التعليم العالي. وتضمنت قرارات مجلسي وزراء الصحة والتعليم العالي المنعقدين بالخرطوم عام ١٩٨٧، وطرابلس عام ١٩٨٩ الدعوة إلى تعريب الطب. واتفق وزراء الصحة، وعمداء كليات الطب في الوطن العربي، ووزارات التعليم العالي في الوطن العربي أعوام ١٩٨٧ و ١٩٨٨ و ١٩٩٠ على الشروع في تعريب الطب في الوطن العربي كله، على ألا يتجاوز الفراغ من إنجازه عام ١٩٩٧ م[2]. وأوصت مؤتمرات

---

(١) التعريب بين المبدأ والتطبيق، ١٦.

(٢) تجربتي في تعليم الطب بالعربية، ٤٥ وما بعدها.

التعريب التي عقدها مكتب تنسيق التعريب الحكوماتِ العربيةَ بتعريب التعليم العالي كله. وعقدت هذه المؤتمرات في الرباط عام ١٩٦١، والجزائر، عام ١٩٧٣، وطرابلس الغرب عام ١٩٧٧، وطنجة عام ١٩٨١، وعمان عام ١٩٨٥، والرباط عام ١٩٨٨، والخرطوم عام ١٩٩٤، ومراكش عام ١٩٩٨، واشتركت فيها وفود، تنوب عن الحكومات العربية، والإدارات، والوزرات المعنية فيها بالتعليم (وزارة التربية والتعليم، ووزراة التعليم العالي)، والمجامع اللغوية، والجامعات، والاتحاد العلمي العربي، والمنظمات والجمعيات العلمية المعنية بالموضوعات المعروضة في المؤتمرات[١]. وانكبَّ مجلس وزراء الصحة العرب ثلاث سنين (من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨)، على قضية التعريب، فألَّف لجاناً متخصصة، تعاونت هي ولجانٌ، ألَّفها مجلس وزراء التعليم العالي، فانتهت إلى مشروع كاملٍ لتعريب الطب في الوطن العربي، ينفَّذ في عشر سنين، وهو مشروع مدروس سنة بعد سنة، يحافَظ فيه على الإنجليزية أو الفرنسية لغةً رديفة في الحاضر والمستقبل، ويبدأ العمل به من عام ١٩٩٠ وينتهي عام ٢٠٠٠، ووافق عليه مجلس وزراء الصحة العرب، والتعليم العالي العربي، ومجموعة من الأساتيذ، تنوب عن الجامعات الخاصة، وصدر هذا المشروع من مجلسي وزراء الصحة والتعليم؛ ليحمله الوزراء إلى حكوماتهم، فحمله زيد بن حمزة والدكتور ناصر الدين الأسد، وهما يومئذ وزيران في الحكومة الأردنية، فقدَّماه إلى مجلس الوزراء الأردني، فبقي في المجلس إلى اليوم[٢]. وأعلنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٤٣٠هـ أنها أطلقت مشروع تعريب التعليم في الوطن العربي إمضاءً لمشروع النهوض بالعربية لدخول مجتمع المعرفة، وقد أقرَّته قمة دمشق في مارس عام ٢٠٠٨ م، ووكلت إليها إمضاءه قمةُ الدوحة في مارس عام ٢٠٠٩ م[٣]. وصدرت عن قمتي دمشق والدوحة هاتين توصيةٌ بتعريب الطب[٤]، إلخ. فمؤتمرات التعريب وتوصياته وقراراته تتوالى منذ سبعين عاما، ولم يُمْضَ شيء منها، بل تراجع التعريب، وزحفت اللغات

---

(١) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٤٣٣.
(٢) تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي.
(٣) انظر: مشروع تعريب التعليم العربي، وبعد مرور خمس سنوات على تأسيس لجنة تمكين اللغة العربية.
(٤) قرارات قمة دمشق العربية ٢٠٠٨ م.

الأجنبية وزادت تمكنا، وزادت العربية عزلة وخروجا من الحياة، على حين وطَّنت عشرات الأقطار غير العربية العلم بلغاتها، وتم لها ما أرادت في أعوام يسيرة. وهذا يدل على أن السياسة العربية إما غير جادة في التعريب، وما تُصْدِر مؤتمراتها ضرب من دفع الحرج عنها عند الشعوب، وإيهام أنها تسعى، ولكن لها نيةً غير التي تظهر، وإما أن التعريب من الأمور التي ليست إليها، وأن من هو بيده، من الحكومات الخفية، أو غيرها، لم يَأذن به. على أن بعض الرؤساء ربما قالوا في العلن غير ما يرون في السر، فقد كانوا يظهرون حب العربية والغيرة عليها، ويبدون لمن لا يعرف ما يبطنون جدَّهم في التمكين لها، وهم يحتقرونها، ويرون أنها لا تصلح إلا للعبادة وعلوم الآخرة، ويحولون بينها وبين أن تُنزَل المنزلة التي تليق بها، وإذا تكلموا في المقامات الرسمية تكلموا بغيرها. وفيهم من تقتضيه الديبلوماسية أن يسير مع خيل القمم العربية، وألا يعارض قراراتها، مع أنه يرى خلافها؛ لأنه يعلم أن بعض القرارات يقرَّر لا ليُعمَل به، وإنما هو رسم من رسوم القمم العربية، كما أن بعضهم قد يحضر القمة وهو غير مقتنع بحضورها، ولا بالجامعة العربية.

ومما هو جدير بالتوقف أن كثيرا من هذه القرارات والتوصيات يصدره من يُفرَض أن أمر التعريب إليه، كوزراء التربية والتعليم، والصحة، والتعليم العالي، ومديري الجامعات، وعمداء كليات الطب. ومن بيده الأمر يقرِّر، فيُمْضَى قراره، ولا يوصِي، وإنما يوصي من هو دونه. وإذا كان أمر التعريب ليس إلى هؤلاء، فهو إذن بيد الرؤساء، غير أن ما أصدر الرؤساء لم يزد على توصياتٍ أيضا، ولم يكن فيه قرارات، فقد «أوصت» قمة دمشق -مثلا- بتعريب الطب، ولم تقرره، وما أدري إلى من يوصي الرؤساء، وبيدهم الأمر كله؟ وإذا كانوا لا يوصون في سائر شؤونهم، فما معنى أن يوصوا في التعريب؟ أيعني ذلك أنهم غير جادين في القضية، وإنما يعتمدون الإيهام فحسب؟. وأمر آخر ليس بدون هذا في الغرابة أن المتخصصين يوصون بالتعريب، فيرفضه الساسة -بدليل أنه لا يُعمَل به-، والتعريب قضية علمية تربوية خالصة، وليست شأنا سياسيا، وإذا قرر فيها العلماء والخبراء أمرا، وجب المصير إليه؛ لأنه هو الذي تُدرَك به المصلحة، ولا يتأخر عنه من يريد رشدا، فهو كالمناهج، والمقررات الدراسية، والكتب

التي تدرَّس في المدارس والجامعات، من شأن أهل الذكر دون أهل الحكم، وإذا تدخلت فيه السياسة، وجب أن يكون تدخلها صوريا، وألا يخالِف ما يشير به العلماء والخبراء. ومن زاد في ذلك أن كل ما يُتعلَّل به لتأجيل التعريب ليس فيه ما يقنع، استيقن أن في القضية غير ما يظهر، وأن التعريب قضية سياسية، لا علمية أو تربوية، وأن السياسة اللغوية في الوطن العربي بيد فئة، ليس حتما أن تكون هي التي تحضُر القمم، أو مؤتمرات التعريب، ولكنها هي التي تقرر، فيَمْضي قرارها، كائنا ما كان القرار الذي تُصدره القمم والمؤتمرات؛ إما لأنهم «خبراء»، يوكل إليهم أمر تخصصهم، وإما لأن بيدهم التنفيذ، فيُمْضون ما يرون، ويعطِّلون ما لا يرون.

٢- أعضاء مجامع اللغة العربية

استعمل الاستعمار بعض أعضاء مجامع اللغة العربية في كيد العربية وإفسادها إفسادا منظَّما، لكنه كان يُلبس ذلك الإفساد ثوبَ العلم والتيسير مخافة أن يُزْوَرَّ عنها لصعوبتها، ولتساير الحياة العصرية، وتكون صالحة للعلم. وإنما جعل الإفساد إلى أعضاء بعض المجامع اللغوية ليكون الذي يقره مؤسسةً عربية، لا يرقى الشك إلى علمها ونزاهتها، وحبها العربيةَ، وغيرتها عليها، واستماتتها في صونها، والذب عنها، والتمكين لها؛ لأنها من أجل ذلك أنشئت، ومن أجله يُنفق عليها ما ينفق من المال، وعليه تُخُيِّر أعضاؤها. وما أعني الأعضاء الذين يقولون آراءهم ويدعون إليها عن اقتناع بها، بالغةً ما بلغت من الغرابة والشذوذ، ومخالفةِ الأصول، ما أخلصوا، وحسنت مقاصدهم، وإنما أعني الذين يوعَز إليهم ما يقولون إيعازا، وثبت ذلك عنهم، أو قام من الأدلة ما يكفي للشك في دواعي بعض ما يذهبون إليه، مع أن به من الإضرار بالعربية ما لا يخفى على مثلهم. وهذه الشروط تقصُر عملنا على تسقُّط ما أُثر عن الأعضاء الذين ثبتت علاقتهم بالاستعمار، ودراستِه، وبيان وجه الكيد فيه، تجنبا لسوء الظن، وإنطاق النيات، فإنه باب واسع، يؤدي إلى ما يجافي الأخلاق، وما لا ينبغي أن يكون في بحث علمي. على أن من اطلع على ما يُكاد به العرب والعربية، وكثرةِ من اصطَنع الاستعمار لذلك، عذرَ في بعض الظن، وعدمِ الاطمئنان إلى بعض الآراء والمذاهب. فمما دعا إليه صنائع الغرب في مجامع العرب اللغوية إباحة طرائق في النحت، تخالف طرائق العرب، والتوسع فيه وفي التعريب، والتكثر من الدخيل، على قلة الحاجة إليه، حتى انتهى بعض المعجمات التي أصدرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة -مثلا- إلى معجمات أعجمية مكتوبة بحروف عربية، كأنَّ ذلك هو كل ما في وسع المجمع، وأقصى ما يمكنه فعله، وكأن العربية عاجزة عن غيره، مع أن مجامع عربية أخرى، كمجمعي دمشق وبغداد،

هُديت إلى مقابلات له أو لأكثره بالعربية، وهُدي إلى بعضها مجمع القاهرة لكنه رجع عنه أو عن بعضه بعد ذلك، إيثارا للدخيل على الأصيل، لعلل واهية، ووكلَ اصطناع الدخيل إلى متخصصين في العلوم الدقيقة، لا علم لهم بالعربية، فلم يكن في وسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوا. وهي سياسة، كان يعقوب صروف من أول من دعا إليها، فرُدَّ رأيه بأن كثيرا من المتخصصين في العلوم الدقيقة لا يعرفون العربية؛ فلا يمكن أن يضعوا الألفاظ الملائمة للمعاني دون عون من أهل اللغة، كما أن علماء اللغة لا يستقلون بوضع الألفاظ الجديدة دون أهل التخصص[1]. وهو من البديهيات، بيد أن الأمر آل إلى العمل بما اقترح يعقوب وغيره من أعضاء المجمع؛ فكان التعريب هو الغالب على بعض ما وَضع المجمع.

وكان بعض ما تقرُّ المجامع، وبعض ما يُعرَض عليها من أمور اللغة من اقتراح أعضاء، يُرْمَون بأن لهم علاقة بالاستعمار، كما لَمَّح إلى ذلك سعيد الأفغاني في حديثه عن زيارة لويس ماسنيون مجمعَ دمشق، وكان لويس عضوا فيه، فأوحى إلى أعضائه -فيما أوحى- أن إلغاء الإعراب ييسر تعلُّم العربية على الأجانب، وهو تجديد، «يليق بمؤسسة، كالمجمع»[2]. وكان له اتصال ببعضهم، أثمر مقالات، منها مقال لعبد القادر المغربي، نُشِرَ في مجلة المجمع عقب زيارة لويس، قال فيه: إن في مراعاة قواعد النحو وإلحاق علامات الإعراب بالجمل التي تتألف منها أحاديثُنا ومحاوراتنا تفريطا في الوقت، وإضاعة له: فالحديث الذي يُحْكَى في دقيقة يحكيه المُعْرِب في أكثر من ذلك، ونحن -وإن كنا نحب ابن جني، ونفطويه، ونمتثل وصاياهم- نحب أنفسنا أكثر مما نحبهم، ونحرص على أعمارنا أكثر مما نحرص على آرائهم. على أني ما أظن أن عرب الجاهلية كانوا يتكلمون في خيامهم، ومناهلهم، ومعاطن إبلهم باللغة المعربة التي كانوا يتكلمون بها في دار الندوة وسوق عكاظ. وقد يجوز لنا أن نستدل على ذلك بنهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التشدق والتقعر في الكلام؛ فما كان لينهى عنهما لو لم يكن للعرب أسلوبان في الخطاب: أسلوبُ

---

(١) التعريب، ٢٨٣.

(٢) من حاضر اللغة العربية، ١٩٢.

تكلُّفٍ وتعمُّقٍ، وأسلوبٌ عفْوٌ سهلٌ. ولا يكون أسلوب التكلف والتشدق إلا بِمطِّ المتكلم صوته، وتحريك شفتيه بحركات الإعراب. وخلَص إلى أن ما ينبغي أن يُعَلَّمه التلامذة من الفصحى هو الكَلِم، بأن يعلَّموا مكان كل كلمة عامية كلمة فصيحة، ويُعدَل عن تعليمهم الإعرابَ، والتكلمَ بالعربية المعربة؛ فليس ذلك في وسعهم، وأن تُقْصَر الفصحى المعْربة على المقامات الكبرى، كالخطب، والمحاضرات، والشعر، والأندية العلمية والأدبية، والرسائل، والتأليف، والصحف، والمجلات[1]. وما انتهى إلى هذا حتى قدَّم من القصص الشعبية ما ظن أنه يكفي للتنفير من الإعراب، والتكلم بالفصحى، في غير هذه المقامات، مما لا تَظهر للقارئ دواعي ذكره، ولا مسوِّغُ إيراده في مقاله هذا، وإنما أقحمه لحاجة غير التي يَظْهَرُ أنها كانت سببَ كتابته، وهو الإجابة عن سؤال، وردَ المجمعَ من «رياسة المعارف»، عن أقرب الطرق إلى نشر الفصحى بين الجمهور[2]. ولَمَّح سعيد إلى أنَّ هذا المقال مما أوعز به ماسنيون، وأن فرنسة كافأت كاتبه بوسام اللجيون دونور[3]، وأنه هو الذي مهَّد لمقالي مارون غصن في النحت والدخيل، وكان عبد القادر يومئذ رئيسَ تحرير مجلة المجمع، وسوَّغ نشر المقالين في المجلة -على مخالفته مذهبها- بحرية الرأي[4]. ولعل عبد القادر كان يعتقد غير ما قال في هذا المقال؛ فقد كان ذا «حظ من العلم والفهم»[5]، فما كان يخفى عليه وعلى مثله ركاكة ما قال، ولا أنْ لا وجه له، ولا أنه حرَّف حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن موضعه تحريفا، وحَملَه على غير ما أراد. وذلك دليل على أنه كتب ما كتب امتثالا لأمر أُمِرَه، أو توددا إلى من يحبُّ أن يَرْضَى عنه. وكان اسم عبد القادر أكثر ما يُرَى حيث يكون الخروج عن قواعد العربية، أو الدفاعُ عنه، أو الاحتجاج له بأوهى الحجج، حتى إنه «إذا وَجَدَ زلَّةً من كاتب معروف، يجعل زلته مذهبا في الصواب جديدا،

(١) أقرب الطرق إلى نشر الفصحى، ٢٣٧ وما بعدها.
(٢) السابق، ٢٣١.
(٣) من حاضر اللغة العربية، ١٩٣ وما بعدها.
(٤) السابق، ١٩٣ - ١٩٥.
(٥) السابق، ١٩٤.

يجب اعتماده في اللغة، كأن قائله امرؤ القيس، أو علي بن أبي طالب»[1].

وكان لويس ماسنيون من أعضاء المجامع العربية الذين يكيدون العربية، على ما كان يُظْهِر من حبها، والإعجاب بها، والثناء عليها، وما يتظاهر به من أنه «صديق المسلمين»[2]. وكان شديد الدهاء، واسع الاطلاع، ولم يكن له نظير في المستشرقين، في ذلك، وكان يُعَدُّ من طراز لورنس، وسايكس، وبل، الإنجليزيينَ، في دهائهم ومكرهم[3]، وقد سخَّر ذلك لخدمة الاستعمار في بلاد العرب. ونسج مع العرب في المشرق والمغرب علاقات كثيرة، حتى قال مالك بن نبي إن الخيوط التي تحرك عالمنا الصغير كانت كلها بين يديه[4]. ودرَّس في جامعة القاهرة، وكان عضوَ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وأمينَه زمنا، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق، من غير أن يوقَف على مقاصده، وما كان يكيد به العربية، وظل كذلك إلى أن مات. ومما كان يكيد به العربية الدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية، وألقى في ذلك محاضرة عام ١٩٢٩ بقاعة جمعية العلماء (Société Savante) بباريس، حضرها جمع من شباب العرب، حمل فيها على الحروف العربية، فقال إنها هي علة عللها، لِمَا يدخل عليها من تغير في الرسم والحركات، يجعل المتعلم يُضيع فيه شطرا كبيرا من عمره، ثم لا يصل إلى غاية، وإنما دواء هذا أن تكتب بالحروف اللاتينية؛ فلا تحتاج إلى شكل، وهو ما لا حياة لها إلا به، وبه تكون قادرة على أن تجاري الزمن[5]. ثم ألقى محاضرة مثلها ببيروت عام ١٩٣١[6]. ويبدو أنه ألقى محاضرة ثالثة في قاعة من قاعات لاميتيل بباريس أيضا، وقد دعته إلى إلقائها جمعية طلاب العرب بباريس، ولعل ذلك كان عامَ ١٩٣٢، ولكنَّ ما قال فيها كان عكس ما قال في تينك المحاضرتين، فقد دافع عن الحرف العربي دفاعا نال إعجاب بعض الحاضرين، ولا سيما مالك بن نبي، غير أن ذلك الدفاع ما كان أكثر من عملِ

---

(١) اللغة العربية في عصر العولمة، ١٥٠.

(٢) انظر مثلا: العفن، ١٥.

(٣) الاستشراق، ٣٥٠.

(٤) العفن، ٢٦.

(٥) آراء وأنكار، ٥٦٨، والفصحى لغة القرآن، ١٣٨.

(٦) الفصحى لغة القرآن، ٢٥٦.

مُخْبر، جاء ليسجِّل ردَّ فعل المثقفين المسلمين[1]. وإذا صحَّ ذلك، فلعلَّ هذا الغرض هو الذي حمله على أن يقول فيها غير ما كان قد قال في المحاضرتين السابقتين.

وكان لويس رجلَ مخابرات، وقف حياته على خدمة الاستعمار الأوربي، منذ أن تعلم العربية في حداثته[2]، وكان يتابع المسلمين المقيمين في باريس، ويصطنع منهم الصنائع، ويجنِّد الجنود للمخابرات الفرنسية، ويوجه شباب العرب الوجهة التي تريد فرنسة، سواء أكانوا في البلاد العربية أم كانوا في فرنسة. وكان يكيد الوطنيين الذين يناضلون الاستعمار، ويستعصون على ما يبغي من تجنيدهم، ويسعى في تحطيمهم، وإسقاطهم في الدراسة[3]؛ ليحول بينهم وبين الحصول على شهادات، يعملون بها، ويحاصرهم، ويحول بينهم وبين أن يحصلوا على عمل في طول فرنسة وعرضها، وفيما تحتلٌّ من البلاد، ويسعى في منعهم دخول بعض البلاد العربية؛ ليحول بينهم وبين أن يجدوا فيها عملا، يعيشون منه، أو من أجل أن يُفلتوا من مراقبته، ويَفْصل مَن حصل على عمل، إذا علم أنه اطلع على بعض ما يُخفي من عداوة المسلمين[4]. وله في ذلك أعمال، لو علمها عبد الهادي التازي ما قال إن قلبه امتلأ شفقة ورحمة، وانطبعت نفسه على العدل والحق والإنصاف، وملأت الأخوة قلبه، واستولت على روحه، حتى لقد أصبح يُعَدُّ أكبر مسلم بين النصارى، وأكبر نصراني بين المسلمين[5]. وما أُحب أن أقف عند مقال التازي هذا، وما فيه من ثناء على لويس بمناصرة القضية المغربية أيام الاحتلال الفرنسي، فإنه يَفصِل مواقفه عن سياقها الذي لا يجوز أن تُفصَل عنه، وعن وظيفته في الإدارة الفرنسية، وما تقتضي من أن يُظهِر خلاف ما يبطن، ويظهر بكل وجه، يبلِّغه ما يريد، وأن يكون أكبر همه خدمة السياسة الفرنسية في الوطن العربي. وكان -إلى ذلك- يجدُّ في تنصير أبناء العرب بباريس، ويرى أن الطلاب الشرقيين الذين يأتون فرنسة

---

(١) العفن، ٣٦ وما بعدها.

(٢) إنية وأصالة، ٣١٤ وما بعدها.

(٣) العفن، ١٢٨ (الهامش).

(٤) السابق، ١٣٦ (الهامش).

(٥) البروفيسور لويس ماسنيون ودوره في إغناء الدراسات العربية والإسلامية، ١٣٣.

يجب أن يُصبَغوا بالمدنية النصرانية، ويعدُّ نفسه من منفذي وصية دي فوكو بتنصير الجزائر، «ولم يُخْفِ ألبتة هذا الشرف، بل كان يعتز به»، وكان يسعى في تنصير الجزائر، وفرْنستها، والنفخ في القضية البربرية[1]. وكان -على ما يدَّعي من صداقة المسلمين- يلقي المحاضرات في «اتحاد الشبان المسيحيين» بباريس، يحمل فيها على الإسلام، ويرميه بالعُسْر[2]. ولما فعل مصطفى كمال ما فعل، من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، واشتدت الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، كان من الداعين إليها، كما كان يدعو إليها قبل ذلك[3]. واعترف بأنه ألقى عام ١٩٣٠ خطبة في طهران، في أنجمان إيراني جوان، في «إمكان» استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية لكتابة الفارسية[4]. ثم بان له أن ذلك يهدم أساس النحو العربي، وهو الإعراب، ويُذْهب سرَّ العربية، ويضعف الخط العربي، وهو أجمل فن إسلامي، وأن من الواجب أن يحافَظ على العربية كما هي؛ لأنها تربط بالحضارة العربية القديمة[5]. وقال مثل ذلك فيما كان منه في دمشق، من إلقاء خطبة في المجمع السوري في «إمكان» إدخال هذا الإصلاح في الكتابة العربية، فثار عليه كثير من أصدقائي الأدباء، فانتبه وفكر وتوقف، ثم فهم أن اختراع الإعراب ليس باطلا، كما يزعم أكثر المستشرقين، وإنما هو توحد صحيح، وربط بين الأسماء والأفعال المضارعة والجمل التي لها محل من الإعراب. وهذا للعربية فضل عظيم، لا يمكن إبقاؤه إلا بالاستمساك بالكتابة العربية[6]. وقال بعد هذا كلاما يبدو أن فيه نوعا من التعمية يوهم أنه يعتذر مما كان قد فعل، ويوهم أنه بدا له من أمر النحو ما لم يكن يعرف، لكن مقصده كان شيئا آخر غير الذي أراد الآن، وهو أسوأ بكثير مما يعلن الآن أنه كان قد أراد. غير أن الإنكسار والاهتزاز كان يسم ما قال. والمفسدة في اصطناع الحروف اللاتينية بدلا من الكتابة العربية من الوضوح

(١) انظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ٨٩، والعفن، ٢٦ و ٢٨.
(٢) العفن، ٢٥ و ٢٨ و ٣٥ و ٥٧ و ١٣٦ وما بعدها.
(٣) آراء وأفكار، ٤٣٣.
(٤) خطرات في الاحتفاظ بعبقرية النحو العربي، لويس ماسنيون، مجلة مجمع اللغة العربية، ج ١٠، ٥٧.
(٥) من أجل تفاعل لغوي، ٦٩، وفي التعريب، ٢١٠، واللغة العربية الحديثة، ٧٨.
(٦) خطرات في الاحتفاظ بعبقرية النحو العربي، لويس ماسنيون، مجلة مجمع اللغة العربية، ج ١٠، ٥٧.

بحيث لا تخفى على أحد، ولا سيما إذا كان من الذكاء وسعة العلم بما كان يوصَف به لويس، كما لا تخفى عليه علاقة مصطفى كمال بالدول الغربية، ولا سيما بريطانية وفرنسة، وأن ما فعل بالدولة العثمانية، وبالإسلام والعربية كان بتدبير منهما، كما لا يخفى عليه ولا على أمثاله ما أراد باستبداله الخط اللاتيني بالخط العربي، ولا ما سيترتب عليه من قطْع ما بين الترك وتاريخهم ودينهم وحضارتهم، وأن هذا كان أهمَّ ما أراد مَن أوحى إليه هذه الفعلة، وأهمَّ ما كان يريد من أراد حمل العرب عليه.

وذكر عبد الهادي التازي أنه سمع من رفاق له أعزَّاء في إيران، إذ كان سفيرا بها لبلاده، أن الشاه رضا خان استدعاه يوما إلى طهران، فعرض عليه أن يستجمَّ أياما على شاطئ بحر قزوين؛ ليريح ذهنه، ويستعدَّ للتفكير في أمر، أراد ليستشيره فيه، فألَحَّ عليه ليخبرنَّه به أولُ، فذكر له أنه يريد استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، فأراه أن الأمر أوضح مما يَظن، وأجلى من أن يستعان على تبيُّنه بالاستجمام، ونهاه عنه، وأبان له عن ندمه على ما كان من ميله إلى فعلة مصطفى كمال[1]. غير أن هذا يخالف ما قال عبد الحميد إيراني، صاحب صحيفة «جهر نماء» الفارسية، من أن بعض المستشرقين حاولوا إقناع «أولي الأمر» في طهران باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، فاعترض على ذلك رجال إيران[2]، ولم يذكر أن لويس هو الذي صرفه عنه. ثم إن الشاه -إن فرضت صحة الخبر- إنما خصه بالاستشارة لما يعلم من ميله إلى ما فعل مصطفى كمال[3]، وكانت فرنسة يومئذ تستعمر سورية ولبنان والمغرب العربي، وكان من سياستها إماتة العربية، واستبدال الفرنسية بها، وكان مما تتوسل به إلى ذلك كتابة العاميات العربية بالحروف اللاتينية، والجدُّ في حمل العرب على أن يكتبوها بها، وإنما كانت دعوة لويس في دمشق وبيروت إلى العامية، وكتابتها هي والفصحى بالحروف اللاتينية، وإلغاء الإعراب، والتوسع في النحت إنفاذا لتلك السياسة، وجزءا منها. وكانت محاضرته في باريس عام ١٩٢٩، وهو

---

(١) البروفيسور لويس ماسنيون، ١٣٢ وما بعدها.

(٢) الفصحى لغة القرآن، ١٠٩.

(٣) البروفيسور لويس ماسنيون، ١٣٢ وما بعدها.

العام الذي ألغى فيه مصطفى كمال الحروف العربية[1]، وزيارته سوريةَ التي اقترح فيها على المجمع وأعضائه ما اقترح عام ١٩٣١، أي بعد أقل من ثلاثة أعوام من فعلة مصطفى كمال. وفعلَ مرغليوث مثل ذلك بتكليف من الحكومة البريطانية، فقد أرسلته إلى دمشق، وفلسطين، والقدس، وطهران، ليقنع أهلها بأن يحذوا حذو مصطفى كمال[2]، وكان ذلك في صيف عام ١٩٣٩[3]. ولعله أحد المستشرقين الذين قال عبد الحميد إيراني إنهم حاولوا إقناع المسؤولين في إيران باستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وغير بعيد أن يكون لويس ماسنيون منهم أيضا، وإنما اختلق قصته هذه مع الشاه سترا لفعلته وإخفاقه فيما أراد، وهو أمر، يرجِّحه ما في القصة من تهويل وتصنُّع، كأمره بالاستجمام على بحر قزوين أياما؛ فإن الشاه لو أراد تبديل دين الإيرانيين، ما سأل أحدا من مستشاريه أن يستجم ساعة من نهار في متنزه من متنزهات طهران، قبل أن يستشيره، فضلا عن يسأله الاستجمام على بحر قزوين. وكان انقلاب مصطفى كمال على الدولة العثمانية قد لقي تأييدا من بعض مثقفي العرب الذين كانت تخفى عليهم حقيقته، وكان بعضهم يؤيد تغييره الكتابة العربية، ويدعو صراحةً إلى تقليده[4]. ولو أن إيران أقدمت على ما «نوى» الشاه، لكان ذلك عونا لفرنسة على ما كانت تريد من حمل أهل المغرب العربي ولبنان على العامية مكتوبةً بالحرف اللاتيني. على أن حكاية لويس هذه -إن فرضت صحتها- ينبغي أن تُحمَل على أنه علم أن الإيرانيين لا يرضون تغيير الحرف العربي، وأن الإشارة على الشاه بتغييره لن يغفرها له الإيرانيون ولا المسلمون، وهو الحريص على إيهامهم أنه صديقهم؛ فآثر أن يصطنع عند الإيرانيين يدا بإيهامهم أنه صرف الشاه عما كان يهمُّ به حبا للعربية وحفاظا عليها. وهو عمل، لا يختلف عن ثنائه على الحرف العربي في محاضرته بقاعة لامتيل، بعد حملته عليه في محاضرته بقاعة جمعية العلماء. ثم إن ما يقول التازي في ماسنيون ينبغي ألا ينسى فيه الجانب السياسي، فقد كانت لماسنيون علاقة بمحمد الخامس، ملك المغرب، سببها

---

(١) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٨٠.

(٢) من حاضر اللغة العربية، ١٨٤.

(٣) محنة إلى زوال، ١٠٥ (الهامش).

(٤) اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن.

ما أظهر له من مخالفته الحكومة الفرنسية في نفيها إياه إلى مدغشقر، وزيارته في منفاه، وزيارته بالمغرب بعد عودته من المنفى[1]، وبسبب ذلك أهدى إليه محمد الخامس صورته، وكتب عليها ما يدل على أن ما يقول فيه التازي هو رأي محمد الخامس فيه أيضا، وكان التازي ديبلوماسيا مغربيا.

أما ما يخالف ما هو معلوم من سياسة الاستعمار بالضرورة، ولا سيما الاستعمار الفرنسي، فأنْ يرغب شاه إيران إلى لويس في أن يشير عليه بما يرى فيما عزم عليه من اصطناع الحروف اللاتينية، فيحذِّره إياه، وينبهه على جمال الخط العربي، فيذكر له الشاه ما فيه من نقاط وأشكال، فيقول له إن ذلك من الجمال الذي لا تحظى به الحروف اللاتينية، وهو مما يتيح زخرفته، وإكسابه الأُنس والروعة![2] ففي هذا الخبر يكون الشاه هو الذي ينبهه على «مساوئ» الخط العربي، فيدافع عنه لويس، ويريه أن ما عده مساوئَ محاسنُ؛ ليثنيه عما كان يزمع، أي إن الشاه صار لويسَ القديمَ، وصار لويس القديم شخصا جديدا، يرى عكس ما كان يرى، ويهيِّب مما كان يدعو إليه، من غير تردد، ولا روية. وكأنه -بعدُ- ليس بموظف في وزارة الخارجية الفرنسية، وإنما هو مفكر حر، يبدي رأيه بمعزل عن السياسة، ويرى الرأي اليوم، ويرى غيره غدا، شأن الباحث الذي يُبَغِّي الحقيقة، وليس له أرب سواها، فهو يرى مرة أن يُستبدَل الحرف اللاتيني بالحرف العربي، ثم يعدِل عن ذلك إلى الإبقاء عليه؛ لأن استبداله يهدم أساس النحو العربي، وهو الإعراب، ويفيت العربية جمال خطها، ومن الواجب أن يحافظ على العربية كما هي؛ لأنها تربط بالحضارة العربية القديمة، كأنْ لم يقترح على أعضاء مجمع دمشق، منذ مدة ليست بالطويلة ما اقترح، ولم يوعز إلى بعض أعضائه أن يدعو إلى إسقاط الإعراب، وهو -إذ اقترح ما اقترح- عالم بما يترتب على إسقاطه، ولولا علمه به ما سألهم إياه، وليس العلم به مما جدَّ له، أو بان له بعد خفاء. ووجه المفسدة في استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي من الوضوح في مكان، وهي أعظم من التفريط في الإعراب، وإفاتة جمال الخط العربي، كقطع العرب عن دينهم وقرآنهم، وتاريخهم وحضارتهم،

---

(١) البروفيسور لويس ماسنيون، ١٣٤.

(٢) اللغة العربية: نزعة التعدد اللغوي والثقافي في السياق، ١٥٩.

كما قُطِعَ عنها الترك، وتهيئهم لاصطناع لهجاتهم لغات بدلا من الفصحى، وهو ما لم يعرِّج عليه لويس، وإنما اشتغل بغيره، مع أنه كان وما زال هو مراد فرنسة وبريطانية، وعليه مدار خطط أمريكة بعدهما إلى اليوم، وقد خصته ببند في مشروعها الذي سمته «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، وهو من أقدم ما تحدَّث عنه الإنجليز على لسان وليم جيفور بلجراف، الوزير البريطاني، في قولته الشهيرة: متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب أمكننا أن نرى العربي يترقى في «معارج الحضارة» التي ما أبعده عنها إلا محمد وكتابه، ولا يتوارى القرآن أو تتوارى لغته[1]، وقال جلادستون، رئيس وزراء بريطانية الأسبق: مادام هذا القرآن في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق[2]، والسيطرة عليه هي «الترقي في معارج الحضارة» في قول جيفور بلجراف، وهو التقدم الذي قال اللورد دوفرين في تقريره إلى الحكومة البريطانية عام ١٨٨٢: إن الأمَلَ فيه ضعيف ما دامت العامة في مصر تَتَعلَّم العربية الفصحى، لغة القرآن[3]! ولما فعل مصطفى كمال فعلته، قال المستشرق كامفاير، في شماتة: «إن قراءة القرآن العربي وكتُب الشريعة الإسلامية قد أصبحت مستحيلة، بعد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية»[4]. وبعد مائة عام على احتلال الجزائر قال أحد حكامها الفرنسيين: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من أفواههم؛ حتى تنتصر عليهم[5]. ولعل لويس ماسنيون إنما صدف عن ذكر تلك المفسدة ليشغل العرب عنها بما هو أقل منها خطرا.

هذا إلى أن ما يُنْسَب إليه من أقوال يدل على أنه ظل يشنأ الإعراب، ولم يغير رأيه فيه، كقوله: إن شعوبية إسرائيل الجديدة المتشددة لا تؤمن بشيء إيمانها بالعبرية، ومدارسُها الأولية تعلِّم العبرية على وفق الإعراب العبري المنقول عن العربية[6]. فلو كان رأيه في الإعراب تغير، ما قال هذا، ولا عدَّه من مساوئ

(١) الفصحى لغة القرآن، ١١٣ و ١٦٦.
(٢) مسخرة الحوار بين أنقاض تتهاوى.
(٣) السابق، ١١١.
(٤) اللغة العربية القرآنية ودورها في صد عدوان العلمانية.
(٥) العولمة وأزمة الوعي اللغوي، ١٢٤.
(٦) فلسفة اللغة العربية، ٩.

العبرية، ومعلوم أن إسرائيل قامت عام ١٩٤٨، أي بعد سبعة عشر عاما من زيارة لويس دمشقَ، وتسعة أعوام من زيارة مرغليوث ما زار من الأقطار الإسلامية. على أن في القضية جانبا آخر، يزيد الباحث شكا فيما زعم لويس، هو ما قال سعيد الأفغاني من أن مرغليوث لما ذكر لمحمد كرد علي ما يزمع من الذهاب إلى طهران لإقناع الشاه رضا خان بالحرف اللاتيني، كان يظهر في لهجته شكٌّ في النجاح، «وكان شكه في محله، فقد كان الشاه -رحمه الله- مسلما صحيح الوطنية، مخلصا لأمته، غيورا على مقوماتها، وآخذا بما يقويها، شديد الارتباط بالعالم الإسلامي، لم تخدعه أحابيل الاستعمار المزيفة، ولا عشق التفرنج»[1]. وإذا صح أن الشاه كان ذلك، كان من المستبعد أن يفكر في اصطناع الحرف اللاتيني مكان الحرف العربي، وأبعد من ذلك أن يجعل مستشاره مستشرقا فرنسيا، لا تخفى علاقته بالحكومة الفرنسية، ولا ما تريد فرنسة بالعرب والعربية. ولعل الذي أيأس مرغليوث من إقناعه أن غيره من المستشرقين سبقه إلى ما يريد، فأعجزه، وربما كان منهم لويس ماسنيون.

وكان يوهم العرب أنه يرى بعض ما يحبون، فيتوهمون[2]، ويحبُّ أن يظنوا به غير ما يضمر لهم، وكان -من أجل ذلك- إذا رأى «مسلمين بين الحضور في القاعه، عالج موضوع محاضرته بحذر»[3]. وفي هذا السياق ينبغي أن يفهم ما أُثِرَ عنه من ثناء على العربية، مما يتناقله العرب محتفين به، عادِّين إياه من قبيل «الحق ما شهدت به الأعداء»، كقوله: إن المنهاج العلمي انطلق أول ما انطلق بالعربية، ومن العربية إلى الحضارة الأوربية، و«إن العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفي سربال الفتوة على التفكير الغربي، كما أنعشت «ألفُ ليلة وليلة» في القرن السابع عشر الميلادي ذهنية أوربة التي أخملتها أساطير الإغريق والرومان»[4]. فإن الثناء على العربية بهذا ونحوه ليس بأكثر من خداع يخادِع به العربَ، تعميةً، وتألُّفًا، وإيهاما أن حاملَه على ما سيقول فيها بعد ذلك حبُّ العرب، والإخلاص لهم، والخوف على العربية، وليصرفهم

---

(١) محنة إلى زوال، ١٠٥.

(٢) انظر: مذكرات معروف الدواليبي، ١٧٨.

(٣) العفن، ٩٩.

(٤) اللغة العربية وتحديات العصر، ٩.

عما أراد، وينفي عن نفسه مظنة أن يريد بالعرب والعربية غير ما يحبون، ويهيئهم لقبول ما سيقول فيها. وكان ذلك يبلغ من بعضهم كل مبلغ، كما قال عبد القادر حمزة -وقد حضر محاضرته الأولى التي دعا فيها إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني- إنه وقف متكلما تارة بالفرنسية، وتارة بالعربية، فوازن بين العربية واللغات الآرية، فقال إن من خواص العربية أنها تذهب إلى الغرض المقصود رأسا، ولا تصل إليه اللغات الآرية إلا تدريجا، وتُبْرز المعنى المراد في أقل ما يكون من اللفظ، وتعجز اللغات الآرية وغيرها عن أن تجاريها في ذلك. ومضى يثني عليها من هاتين الناحيتين، ومن نواحٍ أُخرَ، ثم أتبع ذلك أنها توفي على الخطر، إذا لم تُسعَف بما يجبر ضعفها، وتُعالَجْ من علل، تؤود جسمها، فتمنعه أن يجاري الزمن، إلخ[1]. فلو أنه دعا إلى كتابتها بالحرف اللاتيني من غير تلك المقدمة، لكان من العسير تبرئته من سوء القصد، وإضمار الكيد، فلما قدَّم بها، بلغ من التأثير ما أراد، وأقنع به أغلب الحاضرين، فكانوا معه، لا عليه، وكانت اللهجة التي كان مؤيدوه يحملون بها على العربية عنيفة وثورية[2]. هذا إلى أمر آخر، كان يحمله على اصطناع هذا الأسلوب، هو أنه كان عضوا في مجمعي دمشق والقاهرة، وذلك داع آخر من دواعي الحذر والمجاملة، فضلا عن أن الحذر والمداراة لازم من لوازم التجسس؛ لأنهما أكبر عون على التخفي وستر المقاصد.

ولعل سبب ما نال لويس من ثقة العرب -فضلا عما كان يتسم به من الحذر- ما قال كرومر، من أن الفرنسيَّ فياض بالحياة، ميال إلى الاختلاط بالناس، كثير التبسم، حاضر البديهة والظرف، والأناقة، ولا يَعرِف «الخجل»، وتراه في عشر دقائق قد عقد صداقة حميمة مع شخص، لقيه عَرَضا. والشرقي من أنصاف المتعلمين لا يدرك أنه ممثِّل، وأن له أرَبًا غير الذي يُظهِر له؛ فيرمي بنفسه في أحضانه[3]. ويَصدُق هذا على لويس ماسنيون، كما يبدو من قول عبد الهادي التازي إن تواضعه الجم كان يحفزه إلى التطلع إلى معرفة الغير، والتعرف إلى

---

(١) آراء وأفكار (اللغة العربية والحروف اللاتينية)، ٥٦٨.

(٢) الموضع السابق.

(٣) الاستشراق، ٣٣١ وما بعدها.

الناس، وكان يختلط بالناس وهو يلبس الزي الأزهري، وينزل ضيفا على أعيان المغرب[١]. ومهمته الرسمية، ومهمة أمثاله تقتضي هذا ونحوه، وليس مما ظن به التازي، من طيب وتواضع، وهو لا يختلف عما كان يفعل لورنس، وجلوب باشا من تصنُّع للعرب، وإظهار خلاف ما يبطنان، وقد قدمنا أن لويس يشبَّه بلورنس، وسايكس، وبل، الإنجليزيينَ، في دهائهم ومكرهم، وربما كان لويس أدهى منهم جميعا وأمكر، بآية ما كان مكر هؤلاء ودهاؤهم موقوفين على مستعمرات بريطانية، وكان دهاء لويس ومكره يشملان مستعمرات فرنسة وبريطانية، كما يبدو من علاقاته بالإيرانيين والعراقيين والمصريين، إذ كانت إيران والعراق ومصر مستعمرات بريطانية، وهذا سبب أنه كان أحد المخططين للاستعمار الأوربي كله، لا فرنسة وحدها، كما سوف نرى قريبا. غير أن بعض ما كان يخفى على أهل المشرق الإسلامي من أمره ما كان يخفى على بعض أهل المغرب العربي، فقد قال مرة في مجمع القاهرة: إن العربية ليست غريبة عنا -نحن الفرنسيين-، فهي جزء من تراثنا القومي، فردَّ عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس بأنه لو أراد خدمة العربية حقا لنصح حكومته بالكف عما تفعل بها في الجزائر، ولَطَالَبها بجعلها لغة رسمية، ودعَا إلى حرية تعليمها، ولكنه قال ما قال مجاملة للمشارقة، وفيهم بعض تلامذته، كطه حسين، وزكي مبارك. واتهمه الشيخ أبو يعلى الزواوي باستعمال «الخزعبلات والسفسطات»[٢]. وألقى محاضرة في اتحاد الشبان النصارى بباريس، فعلَّق عليها أحد الجزائريين بأنه كذاب[٣]. فقد بلاه الجزائريون، وعرفوا من جده في التنصير، وعلاقته بالمنصرين، وسياسة فرنسة البربرية في المغرب العربي ما كان يجهل أهل المشرق.

وكان لويس معدودا عند بعض الغربيين في المستشرقين الذين يتسمون بعدم النزاهة فيما يعالجون من قضايا الإسلام، وبأنه كان واحدا ممن وضعوا سياسة الاستعمار في العالم الإسلامي، ولا سيما جانبها اللغوي، فقد قال جاك فاردنبرج إنه وَجد في عمل المستشرقين البارزين الذين درَسهم رؤية مغترضة

---

(١) البروفيسور لويس ماسنيون، ١٢٥ وما بعدها.
(٢) التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال، ١٦١.
(٣) انظر: العفن، ٩٩.

كثيرا، بل عداء للإسلام في أربع حالات من خمس، منها لويس ماسنيون، ودنكان بلاك ماكدونالد، كأنما كان كل منهم يرى في الإسلام صورة لضعفه، وإن كان كل منهم يتميز بعلم غزيز، وأسلوب فريد[1]. وكان حرص الاستعمار -من شمالي إفريقية إلى باكستان- على ماكدونالد وماسنيون كبيرا جدا؛ لأنهما خبيران في الشؤون الإسلامية. وقد اشترك الخمسة يوما في وضع رؤية محددة واضحة للإسلام، كان لها تأثير كبير في الدوائر الحكومية في أرجاء العالم الغربي. وكانوا يحاولون الوصول إلى الصيغة النهائية الدقيقة التي ينبغي أن يُعالَج بها أمر الشرق، منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، لا من حيث هو موضوع أدبي فحسب، وإنما من حيث هو «غاية مؤكدة للاستيعاب الكافي لقيمة اللغات، وقدرتها على النفاذ إلى الأخلاق والأفكار، استخلاصا لأسرار التاريخ»[2]. ولا يخفى أن حرب لويس على العربية مساوقة لما يرى من قدرة اللغة على النفاذ إلى الأفكار والأخلاق، وأن كيدها، والحرص على استبدال غيرها بها، أو الصد عنها بتغيير الهجاء مُعين على الحؤول بينها وبين البقاء، من أجل أن يحال بينها وبين التأثير في أخلاق المسلمين وأفكارهم، إذ كانت العربية هي الإسلام والقرآن، وما تزال تلك هي خطط أمريكة إلى اليوم.

وفيما يؤثَر عنه من أقوالٍ ما يؤكد ما نظن أنه كان رأيَه الحقيقي في العربية، وسياسته في كيدها، كقوله: لِنَحْضُض العربَ على احترام لغتهم الصافية الصالحة لنقْل ما انتهى إليه الفكر في العالم، ولنتجنب تحويلها مسخا مقلِّدا للغاتنا الآرية، من غير أن ندعها تتخثر في قومية ضيقة، كالعبرية الجديدة عند الصهيونية الغالية. إن بعْث العالم للعربية سبب من أسباب إشاعة السلام بين الأمم. وقد كانت هذه اللغة -وما تزال- في نظر كثير من النصارى الفرنسيين -وأنا منهم- لغة الحرية، ووحي الحب[3]. فهو يقرُّ بأن تأثُّر العربية باللغات الآرية مَسْخ لها، ينبغي أن يحال دونه، وهو خلاف ما يرى الذين يدعون إلى حذوها عليها من العرب والفرنجة، ويرون ذلك إغناء لها، وحتميةً تاريخية،

(١) الاستشراق، ٣٢٨.

(٢) السابق، ٣٢٩.

(٣) التعريب في الجزائر، ٢٦.

لا مندوحة عنها. وهو -بعْدُ- يوافق من يحرصون على صونها من ذلك المسخ، في كل وجهٍ ظهر، ويرى صونها منه صونا لهويتها، وأنها إذا تُرِكَت لِلُّغات الأوربية ذهب ما بها من صفاء، وصلاحية لنقل الفكر، ولم تبق لها مزية على غيرها من اللغات. غير أنه يدل -أيضا- على أن في الغربيين من يريد أن يمسخها، وأنه لا يوافقهم فيما يريدون، ولكنه يرى ألا تُتْرَكَ لمن يريد صونها مما يراد بها؛ لأنه تخثير لها، يشبه ما يصنع الصهاينة بعبريتهم. أما حدود التخثير، وماهيته، وكيف يحال بين العرب وبينه، فغير واضحة. وهذا -على أي معنى حُمِل- يدل على أنهم يسعون في تغييرها، كما يسعى فيه مشروع الشرق الأوسط الكبير، كما يدلُّ على أن القضية قديمة، وأن الذين قرروا ذلك القرار لهم خلفاء ما يزالون يسعون في إمضائه، وأن الذين وضعوا خطة هذا التغيير كانوا بعيدي الأثر في السياسة الغربية تجاه العرب والعربية والإسلام، وأن خططهم ما تزال حية، ويُنظَر إليها بعين الاعتبار، وما زال يفيد منها مَنْ حمل لواء كيد العربية بعدَهم. وإذا كان التخثر إضافيا، وليس له حد ينتهي إليه، أو يمكن أن يتفق عليه، فإن التخثر -كما يفهمه لويس ومَن وافقه- هو المعتدُّ به في خطط الغربيين، أو الفرنسيين، وهم الذين يعرفون -دون غيرهم- ما يريدون أن تصير إليه العربية، وكيف «يستنقذونها» من العرب. غير أن ما لا ينبغي أن يُحمَل عليه كلام لويس هذا أنه كان يريد خيرا بالعربية، لا تجنيا عليه، ولا سوءَ ظن به، وإنما لأن ذلك هو مقتضى قوله: لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا، لقد دمَّرنا كل ما هو خاصٌّ بهم، فدمَّرنا فلسفاتهم، ولغتهم، وأدبهم. والشرقيون ليسوا من السذَّج؛ حتى يعتقدوا كرم أخلاقنا، وقد استيقنوا بالأدلة أننا نرغب أن نبقيهم ضعفاء[1]. هذا إلى أنه ما ينبغي أن يخطر لأحد أن لويس ومن وافقه، من الغربيين والمستشرقين، أعلم من العرب بالعربية، وأدرى بما يصلحها، ولا أنهم أحرص منهم على إصلاحها، وأن ما يريد بها هو وأمثاله، مما يخالف ما يريد بها العرب، لا يكون إلا مضرًّا بها، وهذا من البديهيات، وهو -إلى ذلك- مقتضى قوله: «لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا». وإذا كانت تلك هي سياسة الاستعمار الغربي، وكان لويس من واضعيها في العالم الإسلامي، من باكستان

(١) مجلة الوعي الإسلامي، ع ١٢، ص ٧٥ (نقلا عن: من حاضر اللغة العربية، ١٧٤).

إلى شمالي إفريقية، فينبغي أن يحمل ثناؤه على العربية الذي قُرِن بكلامه السابق على وجه آخر، يساوق ما عرف به من دهاء، وهو إيهام من يقرأ كلامه من العرب أنه معجب بالعربية، ناصح لها، شفيق عليها من أن يصنع بها أهلها ما يصنع اليهود بعبريتهم، جادٌّ في استنقاذها منهم؛ لأنهم لا يحسنون سياستها. وهو مما يستميل فئة من العرب، ويحرِّضها على من يستمسكون بصون العربية، ويخالِف بين الفريقين، وينزع الشك من صدر من قد يَحْمِل قوله على ما ينبغي أن يُحمَل عليه. وإذا كان من الوضوح بمكان أن اليهود أحبُّ إلى الفرنسيين، وأقرب إلى قلوبهم من العرب، وأن مقتضى ذلك أن يكون صلاح العبرية أحبَّ إليهم من صلاح العربية، فإن إعراضهم عن إصلاح الذي هو إليهم أحب وأقرب، واشتغالهم عنه بإصلاح الذي هو أبعد، مما يشكك في صحة ما أبدى لويس من حب العربية والحرص على «استنقاذها»، وأن لما يقول وجها غير الذي يُظهر، هو استمالة العرب، وخداعهم عما يريد بلغتهم بإسماعهم ما يحبون من الثناء عليها، وإظهار مساواتهم في حبها، والحرص على ما يصلحها، وأنه أعلم به منهم، وإن كانت لغته دونهم، ونفْي ما قد يساور بعضهم من الشك في سلامة صدره، وصحة مقصده. وهو لا يختلف عما قال فيها في محاضرته باريس.

ومن دهائه ثناؤه على الإسلام، وقوله: إذا كانت النصرانية قد لقَّنت البشر أصول الإحسان، «فإن الإسلام قد نفخ في روح الإنسانية فيضا من الإيمان»، وما كان يحكي لمن يزوره من المعجبين به أنه أسلم مرة بالقاهرة، ثم انتابته أزمة فكرية، فمرض مرضا، أشفى منه على الموت، فكان أصدقاؤه من علماء الأزهر وأعضاء مجمع اللغة يقرؤون عليه القرآن حتى شُفِيَ، فكان يعترَف بأن القرآن شفاء للناس، ويقول إنه من أولئك الناس[1]. فبعيد أن تكون تلك عقيدتَه في القرآن، وأن يؤمن به، ثم يرتدَّ عنه من غير أن يبين سبب ردته. هذا إلى أن ثناءه على الإسلام يخالف ما يعتقد من أنه دين عسر، وأنه مقاومة لـ«الأب»، والمسيح، من حيث هو التجسيد البشري للإله الأب، وأن غاية الجهاد محاربة

---

(١) الأستاذ ماسنيون عضو مجمع اللغة العربية، ٧٩ وما بعدها.

النصرانية واليهودية[1]، وجِدُّه في إثبات تأثر حياة الحلاج وعقيدته بالنصرانية[2].
أما انتحال الإسلام، فليس بغريب على جواسيس الغرب عامة، وجواسيس فرنسة خاصة؛ فإن التلون من دأب الجواسيس؛ لأنه يصرف عن حقيقتهم، ويعين على بلوغ ما يريدون. وقد انتحل سينوك هنجرونيي الإسلام، وأقام في جاوة سبعة عشر عاما، ثم زار مكة، فأقام بسوق الليل (سوق قديم، كان قرب المسجد الحرام) خمسة أشهر متسميا بعبد الغفار، وتوسل بثقة المسلمين به في تخطيط الحرب الهولندية الوحشية على أبناء أتشه المقيمين في سومطرة[3]. واخترق عميل المخابرات الفرنسية، ليون روش دولة عبد القادر الجزائري، فتظاهر له بالإسلام، حتى وثق به، وقرَّبه، فكان مترجمَه الخاص، ومكث معه نحوا من اثنين وثلاثين عاما، عرف فيها كل صغير وكبير من أمره وأمر دولته، ثم انكشف أمره، ففرَّ إلى فرنسة[4]. وأظهر الجاسوس الفرنسي رونيه كاييه لأهل شنقيط أنه مسلم، فوثقوا به، وولوه إمامة جامعهم مدة، فلما بلغ ما أراد تركهم خفية، وكتب لهم عبارة الشيخ خليل في مختصره: «وبطلت بمن بان كافرا»[5]. وربما كان للفرنسيين من الجرأة على الكذب، وانتحال الإسلام خداعا للمسلمين ما لم يكن لشعب من الشعوب الغربية، فقد كتب جيش نابليون إلى أهل مصر، لما دخلها: «أيها المشايخ والقضاة والأئمة، والجربجية (رؤساء المشاة)، وأعيان البلد، قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية (الفرنسيين) هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى، وخرَّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية (فرسان القديس يوحنا) الذين كانوا يزعمون أن الله -تعالى- يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداءَ أعدائه، أدام الله ملكه، ومع

---

(١) الاستشراق، ٤١٢.
(٢) العفن، ٢٦، واستدعاء الشخصيات التراثية، ١١٠ و ١١٢.
(٣) تغطية الإسلام، ٤٠ وما بعدها، والمستشرقون، ٦٦٦.
(٤) انظر: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٤٣٤ - ٤٤٠.
(٥) انظر: التعريب في الجزائر، ٢٦٠. وقال عثمان سعدي إنه أمّهم عشر سنوات، ولذلك أعادوا صلاتهم عشر سنوات، بعد ما كتب لهم ما كتب. والمشهور أنهم أعادوها عاما واحدا فقط.

ذلك إن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوه أصلا إلا لطمع أنفسهم. طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم، وتعلو مراتبهم، طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر»[1]. وكانوا يتلقون المصريين بالبِشْر والسرور، ويُرُون شيوخهم التجلة والإعظام، ويَعِدُونهم الوعود، كالعمل بالشريعة، وإقامة دواوين لراحتهم، ويحتفلون بالمولد النبوي، ومولد الحسين، ويضربون الطبول، ويصنعون المآدب، ويُعِدُّون للمصريين طعام الإفطار في رمضان[2].

وإنما تسقَّطت ما أتيح لي من أقوال لويس ماسنيون وآرائه وتاريخه، وحللتها على هذا الوجه، لأتبين حقيقة رأيه في العربية، دفْعا لما قد يُعارَض به ما انتهيت إليه من أقوال له، يدل ظاهرها على أنه كان محبا لها، معجبا بها، مدافعا عنها، حريصا على صيانتها مما يراد بها؛ فإن ذلك يبعِّد صحة ما يُنسَب إليه من كيدها. وإن كان يمكن أن تصح تلك الأقوال، ويكون ظاهرها كباطنها، من غير أن يغير ذلك شيئا مما انتهيت إليه، من أنه كان من أعضاء المجامع العربية الذين يكيدون العربية، فهو -إن صحَّ- يمدحها، ويعجب بها، ولكنه يسعى في قتلها، والإقناع بالتبدل بها، وإخراجها من حياة أهلها، فليس لزاما أن يكون كيده إياها عن كره لها، ولا اعتقادٍ لعيب فيها، وإنما لأنها عصمة أمر قوم، من سياسة بلاده أن تحتل أرضهم وعقولهم، ولا يتأتى لها ذلك إلا بطمس هويتهم، ونقض لحمتهم، وقطع ما بينهم وبين تراثهم؛ فإنه إن قُطع، تقطَّع ما بينهم، ولم يكن لهم إلا أن يصطنعوا لغتها، واصطناعها وسيلة للاختراق الثقافي والسياسي والاقتصادي، كما أن الاستعمار لا يستحدث اللغات، ويخدمها، وينشر ميتها إعجابا بها وبأهلها، وأنها عنده خير من التي يريد أن يميت، وإنما ليضارَّ بها لغات أقوى منها، يخشى أن يَجتمع عليها الشعبُ المستعمَر، اجتماعا يتبعه

---

(١) تاريخ الجبرتي، ٣/ ٥.

(٢) السابق، ٣/ ١٥ و ٢٤ و ٦٧ وما بعدها.

استقلال ثقافي، فاستقلال سياسي واقتصادي.

ولقد كنت في غنى عن هذا التحليل والتحري كله، ففي تاريخ لويس ماسنيون حقائق، تحتِّم ألا يُرفَع فوق ما وَضع نفسه، وألا يُنالَ من الثقة فوق ما تقتضي مهنته، فقد كان ضابطا في الحرب الأوربية الأولى، ثم مترجما، فلما انتهت الحرب أُلْحِق بالمفوضية الفرنسية في سورية من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩١٩، ثم سُمِّي مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمالي إفريقية[١]. وكان واحدا من كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية، وقد جعلته معرفته بالعربية، وعنايته بالتراث العربي مؤثرا في سياسة فرنسة الخارجية. وهذا يَعذُر في عدم التحرج من تفسير ما يرشَح منه من أقوال، وما يظهر منه من أفعال، بما تقتضي مهمته الرسمية، وما عُرِف من تاريخه، ومذهبه، وإن بدا أن بعض ما كان يتولى من أعمال في الوطن العربي، كالتدريس في جامعة القاهرة، وعضوية مجمعي دمشق والقاهرة، يناقض ذلك. هذا إلى ما تقتضي طبيعة الاستشراق، وهو من أكبر رؤوسه، فقد كان المستشرق في أوربة، على مر الزمن، مرتبطا بالاستعمار وسياسته، وهذا يقتضي ردَّ كلِّ ما أُثر عنه إلى أصله، وتفسيره به، وبما عرف من غاياته التي عاش من أجلها، فهو عمل منطقي -فيما أرى-، أما غير المنطقي، فعكسه، بل هو من قلب المنطق الذي تحمل عليه أمور، منها «الاختراق الثقافي»، و«العمالة الحضارية»، وانتحال العلمية الزائفة. وما أبالي ما تفيض به الكتب والمقالات من ثناء على الصبغة غير السياسية للدراسة العلمية الغربية، وثمار العلم الذي أتى به المستشرقون، وقيمة الخبرة «الموضوعية»[٢]، فإن ذلك مما تعوزه المعرفة بحقيقة الاستشراق، وهو مبني إما على رد فعل، وإما على انخداع، سببه عدم الفقه بالموضوع، وإما التعامي عن الحقيقة، لحاجة في نفس المتعامي، لا تختلف عما في نفوس من يتعامون عن «المؤامرة».

ومما انتهى إليه إدوارد سعيد أنه يندر في المستشرقين من لم يكن مستشارا لحكومة غربية، أو موظفا فيها، أو في شركة من الشركات الغربية، أو جهاز من

---

(١) الاستشراق وجه الاستعمار، ١٤٤.

(٢) تغطية الإسلام، ٤٠ وما بعدها.

أجهزة الإعلام الغربية، وأن ليس من المبالغة أن يقال إن كل شيء كتبوه عن الإسلام كانت غايته بلوغ مبلغ من السلطة أو القوة. والاعتراف بذلك والاعتداد به أمر لا بد منه، لا لأسباب أخلاقية فحسب، وإنما لأسباب فكرية أيضا[1]، وأنه لا يكاد يكون في بحوث المستشرقين نشدان، أي نشدان للحقيقة، وإن كانوا ينكرون أنهم يتلاعبون بالحقيقة، يتبلَّغون به ما يريدون، غير أن إنكارهم لا يغير من الحقيقة شيئا، وأن تردِّيهم ثياب البحث الأكاديمي، والخبرة العلمية، لم يكن له من غرض سوى إخفاء ما أرادوا[2]. هذا إلى أن الاستشراق كان استجابة للثقافة التي وَجَدته أكثر منه استجابة لموضوعه المفروض، وأسلوبا «للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه»، وأن المستشرق إنما كان الأداة التي تتوسل بها الحكومة الغربية إلى رسم سياستها في الشرق[3]. وإذا كانت هذه حقيقة الاستشراق وغاياته، فإن ما يقول مَن هو جزء من تلك «السلطة والقوة» جدير بألا يُحمل إلا على ما تريد، وألا يخرَّج فرعه إلا على أصله. وهو عكس ما يقع فيه بعض من يحبون النزاهة، وتجريد البحث من غلو العقائد، وما يتبع الغلو من الحيدة بالأشياء عن أصولها، ووضعها في سياق من العداوة معدٍّ سلفا، يفسَّر به كل شيء، ويُنظَر منه إلى كل شيء. وهو أمر محمود؛ لأنه مقتضى الأمانة، وحرية الضمير، والإخلاص للحقيقة، وشرط البحث العلمي الذي يمكن أن ينتهي إلى نتيجة جديرة بأن يوثق بها. غير أن إغفال ما تصنع العقائد، والثقافات، والأهواء السياسية، والمنافع، وغيرها من الدوافع غير العلمية، على جلائه، وقيامِ ساطع الأدلة عليه، ليس من العلم؛ لما فيه من تجاهل الحقائق، أو العجزِ عن إدراكها، في أحسن الأحوال، وأولهما مخالف لمنطق العلم، وضرب من ضروب التعامي عن «الحقيقة»، يشبه التعامي عن «المؤامرة»، وثانيهما نقص في الباحث وعدة البحث، لا يعين على تبين الحقيقة. أما سبيل العلم، فأن يُقصَد إلى الحقيقة قصدا، وتُجعل إصابتها غرضا، وألا يُتوسَّل إليها إلا بما يبلِّغها.

---

(١) تغطية الإسلام، ٤٠ وما بعدها.

(٢) السابق، ٤٢.

(٣) الاستشراق، ٧٢ و ٤٥ و ٣٤٧.

وإفساد العربية مما كانت تعتمد فرنسة وبريطانية، وكان مجمع اللغة العربية بدمشق مما توسلت به فرنسة إلى ذلك، إبان استعمارها سورية، فقد قال سعيد الأفغاني إن رئيسه، محمد كرد علي، أسرَّ إليه مرة الشروطَ والنيات التي اشترطتها عليه فرنسة لإعادة فتحه، بعد أن أغلقته نحوا من سبعة أعوام[1]، غير أن سعيدا أعرض عن ذكرها؛ لأنه -فيما يبدو- ألَّف الكتاب الذي أشار فيه إليها بعد رحيل فرنسة من سورية بسبعة عشر عاما، وخلاياها الخبيثة الخفية ما تزال حية تسعى[2]، وبيدها الأمر. إلا أن من اليسير أن يُستنتج مُجْملُها مما باح به، على قلَّته، فقد جعل للمجمع مفهومين، أولهما يبدأ من يوم تأسيسه عام ١٩١٩، وتاريخه أبيض ناصع، في الجملة، وينتهي بيوم وَقْفه عن العمل عام ١٩٣٣، وتُلحَق به -مع تجوُّز- مدة قصيرة، من ١/ ٥/ ١٩٣٥ إلى آخر عام ١٩٣٧، وكان أكثر أعضائه أمناء على غاياته. ويبدأ المفهوم الثاني منذ قرر الاحتلال إعادته أيام حكومة المديرين في العهد العرفي، ونفذَّ قراره في ١/ ١/ ١٩٤١. غير أنه أمسك عن الخوض في هذا المفهوم وبيانه؛ لأنه لا يتعلق بموضوع كتابه، «ولأنه أدخل في تأريخ دسائس الاحتلال الفرنسي»[3]. وقال إن كثيرا من العامة يظن «أن هذا المجمع هو ذاك الأول، وأن بقاء الكرام من أعضائه القدامى، وإن انقطع أكثرهم عن الحضور، أو ضعفت مشاركتهم، دليل على أنه هو هو»[4]. ثم اقترب قليلا من بيان ما فعلت به فرنسة، فقال إنها أدخلت فيه أناسا، هَمُّهم انتزاعُ ما فيه من روح أصيل، وتغليب دخلاء، لم يكن لهم من العلم ما يؤهلهم لعضويته، وكان أقلَّ شروط عضويته «إتقانُ علوم العربية وآدابها، ثم إنتاجٌ وافر ذو قيمة»[5]. وإذا كان جل أعضاء المجمع ليسوا أهلا لعضويته لقلة علمهم، وكانوا صنائعَ لفرنسة، فما يتوقع منهم إلا الإفساد وحده، وهو ما لَمَّح إليه، إذ قال إنَّ ما فعلت به فرنسة كان من «دسائس الاحتلال الفرنسي»، ولم يبق على

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ١٠٠.

(٢) السابق، ٥٧.

(٣) السابق، ١٠٠.

(٤) السابق، ١٠٠ وما بعدها.

(٥) السابق، ٩٧ و ١٠٠ (الهامش).

خطته السليمة إلا بعض قدماء أعضائه[1]، وإنَّ «ما وقع عام ١٩٤٠ (السنة التي قرر فيها الاحتلال إعادة المجمع) لا يجيز بحال إبقاء اسم «المجمع العلمي»، بعد أن عبث به المستشار الفرنسي ما عبث[2]. فهو إذن مجمع، جل أعضائه دخلاء، لا علم عندهم، ويسمَّون على التبعية لفرنسة، لا على العلم والكفاية، وليس فيهم من يتوافر فيه الحد الأدنى من شروط عضوية المجمع، وإنما سُمُّوا فيه ليقضوا على روحه الأصيل، وليس فيهم ممن هو على خطته التي أنشئ عليها إلا بعض قدامى الأعضاء الذين لم يكن لهم حول ولا قوة، وهو تابع للمستشار الفرنسي في سورية، يتعبَّث به كيف شاء، ولم يُبْقِ منه إلا اسْمَه، وإن ظنَّ العامة غيرَ ذلك. وبسبب هذا الكيد والمكر انقطع أكثر أعضائه القدامى الأصلاء عن حضور جلساته، والمشاركة في أعماله، أو ضَعُفت مشاركتهم؛ لئلا يكونوا شركاء في كيد الهوية. فأعضاء المجمع الذين سَمَّتهم فرنسة فيه صنف من أصناف الحكومات الخفية التي كانت وما زالت تكيد بها العربية.

ومثل هذا ما قال سعيد أيضا، من أنه كان يوما مع محمد كرد علي في حديقة منزله بدمشق، فدخل عليهما مرغليوث شيخا فانيا، يمشي بخطا ثقيلة، وكلما رفع رجلا وحطَّها، تقلقل كل عظم في بدنه. وبعد دقيقتين قطع عشرين مترا بين الباب والمجلس، وكان قادما في مهمة، أوفدته فيها حكومة بريطانية إلى دمشق، والقدس، وطهران، فقال لمحمد كرد علي، وهو يومئذ رئيس المجمع: «ما الذي أبطأ بالبلاد العربية عن الاقتداء بتركية في اصطناع الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية؟ ولِمَ أضاعوا على أنفسهم هذا الرقي الباهر؟». فردَّ عليه محمد كرد بما في اصطناعها من ضرر، فماراه حينا، ثم قال إن أمله كبير في أن يحذو الشاه حذو مصطفى كمال، وإن العرب لا يحملهم على تغيير كتابتهم إلا حاكم مثلهما، وإنه مسافر إلى طهران لمعرفة لِمَ تأخر الشاه عن فرض الحروف اللاتينية على الإيرانيين. يقول: «انصرف مرغليوث، وقد ترك في نفسي إيمانا، لا يتزعزع بأن العربية حقا مصدر مخيف من مصادر قوتنا، وأن أعداءنا قَدَرُوها حق قدرها، حين جنَّدوا لغلَبها ما جنَّدوا، من علْم، وقوة، ودهاء، وأن علينا أن

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ١١٠.

(٢) السابق، ١١٠ (الهامش).

نتمسك بها تمسك الغريق بحبال النجاة؛ فلا عصام لأمتنا، ولا نظام لها إلا بها»، وأكبرتُ عزيمة الغرب وإصراره على تهديم هذه القوة، منذ عهد الصليبيين، إلى عهد ترومن، وتشرشل، وديغول، ما ملُّوا، ولا يئسوا، ولا تزحزحوا عن دينهم هذا قِيد شعرة[1]. وإذا كانت هذه سياسة فرنسة وبريطانية تجاه العربية، فينبغي أن تكون هي السياسة التي تفسَّر بها أقوال المستشرقين الذين ندبتهم للعمل في وزاراتها خبراء، ومستشارين، ومخبرين، ومنهم لويس ماسنيون، ومرغليوث. ومن المؤكد أن مهمة مرغليوث هذه ليست بعلمية، وكذلك محاضرات لويس في باريس، ولبنان، ومجمع دمشق، التي كان هذا موضوعها، وإن تقنَّعت بقناع العلم. ومن المعلوم أيضا أن مرغليوث كان عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق[2]، والحكومة البريطانية، إذ بعثته في المهمة التي بعثته فيها إلى سورية إنما تتوسل بعضويته فيه إلى كيد العربية، مع أن سورية يومئذ مستعمرة فرنسية، كما تتوسل فرنسة بعضوية لويس ماسنيون فيه إلى كيدها بما قد رأينا. وتاريخ بريطانية في كيد العربية في الأقطار التي كانت تستعمرها، كالدعوة إلى العامية، وتأليف الكتب بها مكتوبة بالحروف اللاتينية، وسعيها في اصطناعها لغةً رسمية بدلا من العربية، معروف، وقدَّمنا من كيد فرنسة ما يكفي.

(٢)

وحدثني سعيد الأفغاني -وقد لقيته يوم كان يدرِّس بجامعة الملك سعود بالرياض-، وكنت يومئذ طالبا بها، أن عبد الرزاق السنهوري، لما تولى وزارة المعارف بمصر، سَمَّى في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عشرة أعضاء ماسونيين، فكانوا هم ومن وافقهم أكثرية في المجمع، فكانوا يقترحون القرارات المضرة بالعربية، فيُمْضونها، ويَلزم مخالفوهم الصمت؛ إذ ليس في وسعهم غيره. ولمح محمد كرد علي إلى شيء كذلك، فقال إن مجمع القاهرة توقف عن اجتماعه السنوي بسبب الحرب الأوربية الثانية أربع سنين، فلما عاد إلى عمله آخرَ عام ١٩٤٤، وعاد إليه محمد كرد، رأى تغيرا عظيما في تركيبه، فقد كان يُنظَر في

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ١٨٣ وما بعدها.

(٢) المستشرقون، ٥١٨.

تسمية الأعضاء إلى الكفاية العلمية، فصار يُنتَخَب بعضهم بتأثير من الحزبية، ولَمَّا حكَم الدستوريون بدَّلوا أحواله، فاختاروا أناسا منهم، أو ممن كانوا يرضون عنهم، وكذلك فعل الوفديون لما حكموا، ولا يبعد أن يتولى السعديون أو غيرهم زمام الحكم غدا، فيضموا إلى أعضاء المجمع من يرون أن المصلحة في إرضائهم[1]. وإنما أمسك محمد كرد عن حضور جلسات المجمع منذ عام ١٩٤٩، أي بعد عودتها بخمس سنين؛ لأنه عاد لا يطيق العمل فيه، مما رأى من مخالفات، لم يسْطِع عليها صبرا، وقال: إني أفضِّل أن يشغل هذا المقعدَ مَن هو أصبر مني على معاناةٍ، اشتغلت بها زمنا طويلا، وعندي الآن ما يشغلني، ولا تطيب نفسي بعد اليوم بالتقيد بإرادة غيري. واجتهاد المرء يتغير، وفي هذه الحقبة من العمر يحتاج المرء إلى الهدوء، وألا تقع عينه على ما يكره[2]. وتدخُّل السياسة في العلم، وتسميةُ الأعضاء على غير الكفاية العلمية يجعل عملهم أدنى إلى الإفساد منه إلى الإصلاح، إذ ما كانوا ليتواصوا بما يصلح العربية وهم يجلهونها، ولا ليسرَّهم أن يكون معهم من يعرفها؛ فيحرجهم بعلمه؛ فيبغونها عوجا، ولا يتخيرون من الأعضاء الجدد إلا من كان مثلهم في قلة العلم دفعا للحرج عن أنفسهم. هذا إلى ما بينهم من عصبية سياسية، توجب التوافق على ما يرى بعضهم، ولو كان غير صحيح، أو غيره خير منه وأصح. وإذا صح ذلك، لم يبق للمخلص غير المنتمي إلى حزب سياسي ما يسوِّغ البقاء فيه. وقد ولي السنهوري وزارة المعارف المصرية غير مرة، من عام ١٩٤٥ م إلى ١٩٤٩ م، وهي المدة التي آنس فيها محمد كرد علي تبدُّل المجمع، ثم انقطع في آخرها عن جلساته، قبل أن يستقيل عام ١٩٥٠ م. وقال محمد كرد علي أيضا: «أريد أن أسجل هنا ألمي من تسرُّب العنجهية الحزبية إلى مجالس العلم، وتلويث وجهه الجميل بأصباغ السياسة. ورأيت هذه المرة أيضا كثرة غرام أرباب النباهة من المصريين بمصانعة بعضهم بعضا، على ما لا يدخل في المنطق السليم، والعلماءُ أولى الناس أن يصونوا أنفسهم عن المصانعة والتزلف. شهدت صديقا لي منهم قد أمسك -على ما فيه من فضل- عن القول، لمَّا أفضنا في مسألة الحروف

---

(١) المذكرات، ٢/ ٤٩٥.

(٢) السابق، ٤/ ١٢٦١.

اللاتينية؛ لأن مقترِحها من حزبه، وكان المفروض فيه أن يكون على خلاف هذا الرأي، فحاول بسكوته ألا يُغْضِب المقترِح، ولا يُنقَل عنه أنه يقول بالحروف اللاتينية؛ لأن ذلك مما يؤذي سمعته، ويودُّ أيضا أن يرضيَ «المجددين» الذين دأَبَ بعضهم على التأفُّف من كل قديم»؛ ليقال إنهم دعاة تجدُّد. وما أقول كما يقول خصومهم إنهم يحاولون نشر الإلحاد، وإن كبيرهم المتفلسف يوحي إليهم آراءه، فيتابعونه على العمياء؛ ليقال إنهم مصلحون[1]. ولعله يعني بالكبير المتفلسف أحمد لطفي السيد. وهذا دليل على أن في المجمع من كان يريد الميل به إلى حيث لا يرضى أعضاؤه المتدينون، وأن في أعضائه المتدينين من كان يشكُّ في دين «كبيرهم». وإن كان بعض الشك غير ورِع ولا نزيه. وقد كان بعض العلماء والباحثين غير راضين عن بعض آراء السنهوري[2]، وإن لم يكن لزاما أن يكون ماسونيا، فإن بعض المعاصرين ربما تساهلوا في نسبة مخالفيهم إلى ما يكرهون من المذاهب، إذا رأوا شَبهًا بين بعض أفكارهم وأفكار مَنْ لا يرضون عنهم. وما يهمنا تحقيق مذهب السنهوري، وإنما يهمنا أن المجمع في وزارته كان يسمي أعضاءه على غير ما تقتضي المعايير العلمية، وأن بعض هؤلاء كان يكيد العربية، وهو معروف بميله إلى بريطانية، وإعجابه بها، وأن ما كان يصدر عن المجمع من قرارات ليس حتما أن يكون صحيحا، ولا منظورا فيه إلى ما يقتضي العلم وحده، وإنما قد يكون متأثرا بالواقع السياسي.

ومما يصدق ما ذهب إليه سعيد الأفغاني ومحمد كرد علي ما قال أحمد تيمور من أن مجمع القاهرة كان فيه من ليس أهلا لأن يكون عضوا فيه، كما قال سعيد الأفغاني في مجمع دمشق بعد عام ١٩٤٠، وأنه انضمَّ إليه من هبَّ ودبَّ، وأنه -بسبب ذلك- أَمْيل إلى التشاؤم، «بعد أن سمع اقتراحات بعضهم بضمِّ أشخاص، اشتهروا بانتصارهم للعجمة، وفتْح الصدر لكل دخيل»[3]. ولعل الذين اقترحوا مناصري العجمة والدخيل أعضاءً للمجمع إنما اقترحوا من يوافقهم، وكان في أعضاء المجمع القدامى من عُرِف بمناصرة الدخيل، والدعوة

---

(١) المذكرات، ٢/ ٤٩٦.

(٢) الدكتور عبد الرزاق السنهوري، ١١١ - ١١٨.

(٣) المعاصرون، ٤٣.

إلى العامية، كأحمد لطفي السيد[1]، ويعقوب صروف[2]، وفارس نمر[3]، وكان بعض هؤلاء معروفا بولائه للإنجليز، كفارس، ويعقوب، مؤسِّسَيْ «المقطم»، و«المقتطف». فقد كانت صحيفة «المقطَّم» تناصر الاحتلال الإنجليزي[4]، وكانت صريحة في ولائها للإنجليز، لا تستخفي ولا تداري، وتمجدهم، وتكتب في ذلك المقالات الصريحة، التي لا تتكلَّف إخفاءها بثوب من الرياء أو النفاق، أو المجاملة للشعور الوطني[5]. وأشادت «المقتطف» بكتاب ولمور في العامية[6]، واقترحت كتابة العلوم باللغة التي يتكلم بها الناس في حياتهم العامة في آخر عام ١٨٨١، ودعت رجال الفكر إلى مناقشة مقترَحها[7]. وكان الإنجليز ينفقون على يعقوب وفارس بسخاء، حتى أثْرَيا، ونال فارس «الحظ الأكبر من مغانمهم، مما لم يوفَّق إلى مثله أحد من أرباب الأقلام»[8]، وكان ماسونيا، وكان يعارض أهل «المحافظة والركود»، وهم الذين سماهم سعيد الأفغاني أصحاب الروح الأصيل، وهم الذين يحرصون على صون العربية من الفساد، وأن تصبح أثرا بعد عين، بما يوردون عليها من الدخيل والأساليب التي تهجنها، ويدعو إلى «إصلاحات»، تجعل العربية توافق حاجات العصر[9]. وما كان يعقوب يحسن الظن بمدنية العرب لتشبُّعه بروح مَن لم يدرسها حق الدراسة، وساء حكمه عليها بما أبقت بيئته الأولى في نفسه من التبرم بحال مَنْ رأى من أهلها[10]. وقال مصطفى الشهابي تصديقا لذلك: «لقد كثر... المتصدون لوضع المصطلحات العلمية بلساننا: فهذا يعمل تلبيةً لهوى في نفسه، وتعشُّقًا لهذه اللغة، وثانٍ يعمل مدفوعا بالغرور وحب الظهور، وثالث للتجارة، وما فيها من كسب المال، ورابع

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية، ١٢٥.
(٢) آراء الأعضاء، ٢٥٠ وما بعدها.
(٣) أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٧٧.
(٤) المعاصرون، ٤٦٩.
(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ١/ ٩٣.
(٦) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ٦٧.
(٧) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ٢/ ٣٥٩.
(٨) المعاصرون، ٤٧٠.
(٩) أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٧٧.
(١٠) المعاصرون، ٤٧١ وما بعدها.

تلبيةً لرغبات دول أجنبية، تريد بثَّ نفوذها بطريق الثقافة»[1]. ففي أعضاء المجمع -إذن- من يعمل بأمر من دول أجنبية، تريد أن يكون لها تأثير في الوطن العربي بطريق اللغة، وليس في وسعنا أن نتخيل ذلك التأثير إلا أن يكون تشويه العربية، وأن يُنْحَى بها منحى لغات تلك الدول، بالنحت على طريقتها في النحت، والتكثر من الدخيل لغير حاجة، والتداخل اللغوي يمهد للتداخل الثقافي[2]، واللغة هي السيف الأمضى في الاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلل عقدي، أو اندساس حضاري[3]، وهي سبيل إلى الإدماج في حضارة أخرى، بما تقدم من نماذج التفكير والتمذهب والحياة اليومية والأخلاق والعادات والتفكير السياسي، والاختيار الاقتصادي، وما توحي من اندماج يبدأ بأنماط العيش، وينتهي بالتفكير[4]. والمسخ اللغوي سبيل إلى المسخ الثقافي والحضاري، والثقافة التي لا تعتمد على لغة أصيلة عرضة للانحراف بالمثقف من قومية إلى أخرى، ومن مفهوم فكري إلى آخر، وفساد اللغة -كما يقول فقهاء اللغة وعلماء الاجتماع- مدخلٌ لاستلاب الهوية، وإضعاف الشخصية، والإكراه على الذوبان في الثقافة الأجنبية التي تغزو اللسان قبل أن تستلب الجنان. ومن هنا يبدأ سريان الضعف في أوصال المجتمع؛ إذ بضياع اللغة، أو فسادها، تضعف مقومات الكيان الوطني والقومي، وتضعف بالتبعية الخصوصيات الثقافية والحضارية[5]. وإذا كان العالَم محمولا في جوف اللغة، فانتلقت مفرداتها وأساليبها إلى لغة أخرى، انتقل معها ما في جوفها من فكر وثقافة. وكذلك إذا أُعطِيت الكلمة دلالةَ مرادفتها الأجنبية وإيحاءها، واستعملت استعمالها، فإنها تنتمي -حينئذ- إلى عالم الكلمة الأجنبية التي حُمِّلتْ معناها، وإن لم تتغير حروفها. وهذا بيد المجمع، فهو الذي يجيز الدخيل، ويجيز ما تُعْطَى الكلمات من المعاني، كما يجيز الأساليب. وتقدَّم آنفا أن بعض الغربيين يتعمدون مسخ العربية لتكون كاللغات الآرية. وقد نبَّه الدكتور الشاذلي الفيتوري على أن الكتَّاب الذين يكتبون بالأساليب الجديدة وسطاءُ لنقل

---

(١) المصطلحات العلمية في اللغة العربية، ١٨٨.

(٢) التداخلات اللغوية وأثرها في المجال الثقافي العربي، ٣.

(٣) العرب والانتحار اللغوي، ٣٠.

(٤) أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، ٤٣ وما بعدها.

(٥) اللغة العربية والعولمة، ٩.

الثقافة الغربية إلى العربية، وأكثرهم من الناشئة المحدثين الذين درسوا في الغرب، وأعجبوا بحضارته وثقافته. ولا ريب أن المؤسسات الغربية تستريح إلى الأساليب الجديدة، على غرابتها، وربما تحضُّ عليها، وهذه الأساليب تشدُّ ثقافة العرب إلى الغرب، وتزيد تفككها وبلبلتها وإبعادها عن تراثها الأصيل[1]. ومما يسَّر التمادي في هذا أن استقلال العرب السياسي لم ترافقه سياسة ثقافية مخططة لتنمية الثقافة القومية، وإنما أعان على انتشار التعليم الحديث، وتعميم أنماط الحياة الغربية، واعتمد كثيرا على دعاة التجديد، وكثيرٌ منهم معجب بالغرب، مقلد له، وكتابتهم بالعربية تدل على إدراكهم أهميتها، غير أن بُعدهم من أساليبها الأصيلة يدل على أنهم لا يتقنونها، وهذا ما جعل كتابتهم تطوِّع العربية للتعبير عن الثقافات الأجنبية التي تفوق معرفتهم بها معرفتهم بالعربية، بإكثارهم من استعمال كلمات عربية في أصولها، غير أن دلالاتها على المعاني التي يريدون غير موفَّقة، وكذلك إكثارهم من الدخيل، والصيغ والاشتقاقات الغريبة[2]. هذا إلى حذوهم العربية على اللغة الأجنبية في بنائها النحوي، على وجه، نال من هويتها، وتشويه التركيب أشدُّ أنواع التغريب إضرارا بالعربية المعاصرة؛ لأنه يُخِلُّ بنظامها، ويزعزعه، ويحل غيره محله، ويفسد تركيب الجملة[3]. وسينتهي هذا بموت اللغة التي يَحُلُّ بها، لا محالة؛ لأنه يلحقها بنظام لغة أخرى، ويحشوها بثقافتها، وهو ما يسمى «الموت بالامتصاص»، وفيه تبقى اللغة بقاء شكليا، وتمتصها اللغة الغازية، بأن تغرقها في مفرداتها، وتتدخل في تركيبها، فتغير أصواتها ونحوها وصرفها؛ فتَفْقِد خصائصها الثقافية، ولا تُبين عن رؤية أهلها للعالم؛ لأن مفرداتها محمَّلة بمضمون مفردات لغة أخرى، وعباراتها ترجمة لعباراتها، وإنما تبين عن ثقافة اللغة الغازية ورؤية أهلها للعالم، أما هي، فتغدو مسخا شاحبا، ليس فيه روح أصيل، وإنما هي هيكل، لا يخدع إلا من لا يعرفها أو لا يعرف اللغة التي حذي عليها، أو من أَلِفَ هذا المسخ إلْفًا أنساه حقيقتها[4]. ولا يخفى أن هذه هي حال العربية اليوم، وهي حال كان قد لمزها بها بعض المستشرقين، وأظهر بعضهم الغبطة والسرور بما

---

(١) الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، ١٨١ وما بعدها.

(٢) السابق، ١٨١ وما بعدها.

(٣) لافتات الشارع التجاري في المشرق العربي بين العربية والتغريب.

(٤) انظر: مستقبل اللغة العربية، ١٩.

كان منها. ويصدِّق هذا ما يُسمَّى مشروع الشرق الأوسط الكبير[1]، وهو مشروع أمريكي، يتغيا تغيير الثقافة العربية تغييرا يجعل العرب سلَمًا لأمريكة، كما يتغيا

---

(١) لم أجده في نص «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الذي قدمته أمريكة إلى قمة الدول الثماني عام ٢٠٠٤ م، كما ورد في كتاب «مشروع الشرق الأوسط الكبير: الحقائق والأهداف والتداعيات»، لعبد القادر رزيق المخادمي، ولا وجدت فيه أثرا للحديث عن العربية، وإن وردت فيه بنود عن التعليم ومحو الأمية، والبناء المعرفي، والتعليم الأساسي، والكتب التعليمية، ومبادرة مدارس الاكتشاف في الأردن، وأن لمجموعة الثماني توسيعها ونقلها إلى دول في المنطقة وتمويلها، و«إصلاح التعليم»، وأن «المبادرة الأمريكية للشراكة في الشرق الأوسط»، برعاية قمة الشرق الأوسط لإصلاح التعليم، قبل انعقاد قمة الثماني في مارس أو إبريل، ستكون ملتقى لتيارات الرأي العام، المتطلعة إلى الإصلاح، والقطاع الخاص، وقادة الهيئات المدنية والاجتماعية ونظرائهم من أمريكة والاتحاد الأوربي، لتحديد المواضيع التي تحتاج إلى معالجة، والبحث في وسائل التغلب على النواقص في التعليم، ومبادرة التعليم في الإنترنت (مشروع الشرق الأوسط الكبير، ١٢١ وما بعدها). بيد أن هذا كله أسقط من خطة إصلاح الشرق الأوسط وشمالي إفريقية المقدمة إلى قمة الثماني في مؤتمرها الذي عقد في ولاية جورجية بأمريكة، بعد أن أدخل عليها الأوربيون ما يرون من تغيير (مشروع الشرق الأوسط الكبير، ١٢٩ وما بعدها)، كما سقط من نص مقترحات فرنسة وبريطانية لإصلاح الشرق الأوسط، وكان هذا المقترح أكثر دبلوماسية، واحتراما في (الظاهر) للهوية العربية والإسلام، وحرصا عليهما (مشروع الشرق الأوسط، ١٣٦). وإنما ورد في وثيقة مؤتمر «قضايا الإصلاح العربي: الرؤية والتنفيذ»، المنعقد في مكتبة الإسكندرية في ١٢ - ١٤ مارس ٢٠٠٤، وخلاصة ما جاء فيه عن العربية والتعليم: الاهتمام بالعربية «وتطوير مناهجها، والاتفاق على أسس التقويم المقارن بين الدول العربية في السنوات الدراسية الأولى» (الشرق الأوسط الكبير بين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية، ١٦٧)، والعمل على ترسيخ التفكير العقلاني والعلمي، بتشجيع مؤسسات البحث العلمي وتوفير التمويل اللازم لها، وإطلاق حريات المجتمع المدني في تنميتها، والقضاء على منابع التطرف الديني التي ما زالت رواسبها موجودة في المناهج الدراسية، وخطب المساجد، ووسائل الإعلام الرسمي وغير الرسمي، وتشجيع الاستمرار في تجديد الخطاب الديني سعيا إلى تجسيد الطابع الحضاري التنويري للدين بما يقتضيه ذلك من إطلاق الحريات الفكرية، وفتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها في قضايا المجتمع للعلماء والباحثين، ومواجهة كل صور التشدد والحرفية الجامدة في فهم النصوص الدينية، والابتعاد بها عن مقاصدها ومبادئها الكلية. ويستلزم ذلك أن يمضي إصلاح الخطاب الديني في اتجاه، يساوق روح العلم، وحكم العقل، والمتطلبات العصرية، وهو الاتجاه الذي يزيل التناقض الضار بين حرية الفكر والإبداع والوصاية التي يفرضها البعض باسم الدين الذي يدعو إلى المجادلة بالتي هي أحسن، ولا يفرض إرهابا فكريا على المختلفين، وتجديد الخطاب الثقافي وتخليصه من الرواسب التي تحول دو تقبل الاختلاف وحوار المخالف، وإصلاح المؤسسات الثقافية العربية وتفعيلها وعونها عونا ماديا ومعنويا بما يعينها على التفكير المستقل، وتوسيع دوائر خططها، والتنسيق بينها وبين غيرها من المؤسسات والهيئات الأخرى المؤثرة في العمل الثقافي، والعمل على إلغاء الرقابة على النشاط الفكري والثقافي بما يساعد على حرية الفكر، ويحرك الإبداع، بعيدا عن كل وصاية باسم الدين، أو التقاليد، أو الخصوصية، أو السياسة، ومساعدة العمل الثقافي القومي، وتجسيد مبدأ الاعتماد المتبادل في اقتصاديات الثقافة. والحفاظ على العربية وتحديث طرق تكيفها مع التقنيات الرقمية الجديدة، وتشجيع التفاعل الثقافي مع العالم كله بما يؤكد ثقافة التنوع البشري الخلاق، والمشاركة المؤثرة في المنظمات العالمية بما لا يخالف خصوصيتنا الحضارية التي تؤكدها إنسانية ميراثنا الثقافي الأصيل (مشروع الشرق الأوسط، ١٦٧ - ١٦٩). ولا يخفى ما بين هذه الوثيقة وما ورد في النص السري لمبادرة الدول الثماني من تطابق في المضمون والغايات واللغة والوسائل. وهو ما يدل على أن هذا المؤتمر كان بإيعاز من أمريكة ومبادرة الشرق الأوسط، فإن من بنود المشروع الأمريكي، بحسب النسخة المقدمة إلى قمة الثماني في جورجية أن عنايتهم بالإصلاح تعني إشراك الحكومات العربية ومنظمات المجتمع المدني، وجعلها شريكا كاملا فيها (مشروع الشرق الأوسط الكبير، ١٤٧). وورد في نص المسودة أن مكتبة الإسكندرية من منظمات المجتمع المدني التي تلتزم قمة الثماني إشراكها ومحاورتها في تنفيذ هذا المشروع (مشروع الشرق الأوسط، ١٥٥). وإذا علم أن مؤتمر مكتبة الإسكندرية عقد في السنة التي عقد فيها مؤتمر قمة الثماني، تأكد أنه كان بإيعاز منها، وأن ما اشتمل عليه مؤتمرها كان لقمة الثماني اليد الطولى فيه، ولكن من دأب الأعمال التي كهذه أن تُخفَى علاقتها بالدول التي تديرها، وتجعل كأنها صادرة ممن ينفذها، ولا علاقة لها بغيره. ومما يؤكد ذلك أن وثيقة مكتبة الإسكندرية ذكرتها مسودة المشروع مرتين (مشروع الشرق الأوسط الكبير، ١٥٧ وما بعدها). وهذا يجعلنا نطمئن إلى أن ما نشر مصطفى بكري صحيح، لأن أصوله موجودة في أعمال قمة مكتبة الإسكندرية، وصلة المكتبة بالدول الثماني ومشروعها مما لا ريب فيه. ويزيد ذلك توكيدا أن المشروع تضمن إشارات يمكن عدها متنا، وما ورد في قمة الإسكندرية طرة له، هذا إلى أن الاصطلاحات الواردة في عنوانات المشروع الجانبية مما يتفق فيه نص المشروع ونص الوثيقة المسربة، فضلا عن التوافق في النهج، والمضمون والروح العام، مما نحيل القارئ عليه، دون أن نتوقف عنده أكثر مما فعلنا؛ لأن الذي يهمنا منه هو توثيقه، وجانبه اللغوي والتعليمي، ليس إلا، ونرى أن ما قدمنا من الأدلة يكفي لذلك.

محوَ الذاكرة العربية، ليصرف عن التفكير في معاملتها بما تقتضي سياستها تجاه العرب والعالم أن تعامَل. ومن وسائل المشروع إلى ذلك تغيير العربية، والحرف العربي، وإهمال المفردات التي تدل على ما لا تحب أمريكة من المعاني، وتغيير الشعر العربي، وما يدرَّس منه، بإسقاط الشعر العمودي؛ فإن في الإبقاء على شكله، وتدريس مضمونه ما يشعر العرب بالتميز، ويعلِّقهم بالتراث والهوية. يقول مقدمو المشروع إن غايته إحداث تفاهم أفضلَ بين العربية وغيرها من اللغات، فالأمريكيون والأوربيون متعطشون إلى الوقوف على أسرار العربية، والكتاباتِ القديمة والحديثة التي صاغت العقل الثقافي الإسلامي؛ فقد تبين لأمريكة أن ما بغَّضها هي وإسرائيل إلى العرب، وحبب إليهم الانتقام من الذين يتكلمون بالإنجليزية والفرنسية هو صعوبة تلاقي العربية والإنجليزية، ومن آثار صعوبة تلاقيهما أن «الإرهابيين» الذين يتكلمون بالعربية، فيترجَم كلامهم إلى الإنجليزية أو الفرنسية لا تعرف أمريكة ولا غيرها من الدول المستعمرة شعورهم الحقيقي، ولا سبب إتيانهم ما «يفعلون»؛ لأن الترجمة من العربية من الصعوبة بمكان. وهذا لا نظير له في سائر اللغات والشعوب، فإن بينها لغة مشتركة، يمكن أن تجتمع عليها، واختلاف العرب والعربية عن سائر اللغات والشعوب مما يصعِّب ملاقاتهم على أصول فكرية، ومعرفةَ دوافعهم النفسية. من أجل ذلك ستغير أمريكة الكتابة العربية، وتُعِدُّ معجما لتبيان معاني الألفاظ والكلمات التي تريد استبدالها أو إماتتها، كأن تلغي «اليهود»، وتستبدل بها «الساميين»، لارتباط «اليهود» في ثقافة العرب بخيانتهم النبيَّ -صل الله عليه وسلم-، وارتكابهم كثيرا من الأخطاء في حق العرب؛ فهي تحول دون تعايش العرب واليهود. وسيترتب على هذا دخول كثير من الأفكار الغربية في الحضارة الإسلامية، وتخليص الحضارة الإسلامية مما يدعو إلى الأفكار «الإرهابية»، وضربِ المدن الغربية، فإن الحضارة الإسلامية متعصبة بطبعها، وتناقِضُ المادية الحديثة، و«اللغةَ الدولية» في بناء الاتصال الفكري، وقد آن أن يُقضَى على تعصبها، بعد أن أخفقت برامج الحوار، أو برامج تبادل الطلبة[1].

ومما لا ينقضي منه العجب، أن تجتهد أمريكة والدول الغربية عامة في محو

(١) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية.

ذاكرة العرب، وإماتة كل ما يعرِّفهم أعداءهم، وهي تختلق الأعداء اختلاقا، وكلما فرغت من عدو، التمست عدوا غيره؛ لما ترى من أن وجودها لا يمكن أن يستمر، وشعبها لا يمكن أن يجتمع إلا على عدو، وأنها خاضعة لمشاعر الحب والحقد، وتكره الأجانب، ولا تحب أبناء وطنها إلا أن تذكر الأجانب، فإن نسيتهم، ضعف حبهم[1]. وتجتهد حكوماتها في تلقين الشباب أن قتل الأجنبي عظيم، كما في النشيد الوطني البريطاني:

شوِّش أحابيلهم الدنيئة،

أحبط مؤامراتهم،

واجعلهم يتساقطون[2].

دعك من تخليدها العداوات التاريخية، وما تفعل من أجل أن تذكرها الأجيال أبدا! وأعجب من ذلك أن تجد في العرب من يطيعها فيما تريد بهم!

وكان إدوارد سعيد قال إن الاستشراق تطوير تفصيلي، ليس للتمييز الجغرافي الأساسي فقط، وإنما لسلسلة كاملة من «المصالح» التي يستعين على بلوغها والحفاظ عليها بوسائل شتى، كنتائج «البحوث العلمية، وإعادة البناء اللغوي القديم...»[3]. ولا يتضح المراد بإعادة البناء اللغوي القديم، غير أن ما عرفنا من أعمال بعض المستشرقين أنهم كانوا يحرصون على ما يعينهم على فهم العربية، وييسر لهم معرفة ما يعسر عليهم منها، بجعْلها أقرب إلى بناء لغاتهم، وجعْلُها كذلك «إعادةٌ لبنائها». وقال إدوارد سعيد -أيضا- بعد كلامه السابق إن الاستشراق إرادة معينة، أو نية معينة لفهم ما يبدو بوضوح عالَمًا مختلفا (أو عالما بديلا جديدا)، وللسيطرة عليه في بعض الأحيان، والتلاعب به وضمه إليه[4]. والتصرف في العربية على الوجه الذي يظهر في مشروع الشرق الأوسط، والوجه الذي رأينا من بعضهم، ككتابتها بالحروف اللاتينية، وإحلال العامية محلها، وإلغاء الإعراب، والتكثر من الدخيل، وإقرار الأساليب المترجمة ترجمة حرفية من اللغات الأجنبية، وسيلة من وسائل التلعب بالعرب، والسيطرة

---

(١) الفلسفة وقضايا الحياة، ٩٤.

(٢) السابق، ٩٢.

(٣) الاستشراق، ٥٨.

(٤) الموضع السابق.

عليهم، واستلحاقهم، كما أن إماتة اللغات الوطنية، وإحلال لغات المستعمر محلها وسيلة أخرى.

وللكلمة دلالتان: دلالة ذاتية، هي التي تُرى في المعجم، ودلالة إيحائية، هي التي تكتسبها من الاستعمال[1]، وليس من العادة أن تشتمل المعجمات على هذه الدلالة، وكثيرا ما تتوافق اللغات المختلفة في الدلالة الذاتية، إذا كان ما تدل عليه في بيئتي اللغتين، ولكنها كثيرا ما تختلف في دلالتها الإيحائية؛ إذ كانت الدلالة الذاتية المعجمية لا تزيد على الإبانة عن الشيء إبانة مجردة من الشعور والثقافة، بخلاف الدلالة الإيحائية، فإنها تبين عنه مقترنا بأمور تصاحبه في الذهن زائدةٍ عليه، كما تدل الحمامة -عند العرب- على الفقد والشجا، مع دلالتها الذاتية على الطائر المعروف. والمرء يستقبل ما تسمح به لغته، أو ما ربَّته عليه، وهيَّأته لاستقباله، فهي التي تحدد له كيف يستقبل الأفكار، وكيف يفكر فيها. وبسبب قوة الارتباط بين اللغة والفكر تنشأ حول الألفاظ قيم ثقافية، تجعلها شديدة التأثير في فكر الشعوب[2]. واللغة التي تمتصها لغة أخرى، فتستبدل ثقافتها بثقافتها، بأن تسكب في مفرداتها وأساليبها معاني مفرداتها وأساليبها، لتكون دلالات الألفاظ الإيحائية واحدة في اللغتين، كما أن دلالاتها الذاتية واحدة، ويُبْنى نظامُها النحوي على نظامها - لغة ماتت بانتزاع روحها (ثقافتها)، وإحلال روح لغة أخرى محله، واستبدال نظامها بنظامها، ولم يبق لأهلها هوية ثقافية مستقلة عن هوية أهل اللغة الممتصة، وإن كان ما بقي من ألفاظها يعطفهم عليها كما يعطف العَجولَ (الناقة الثكلى) على الثُّمام جِلْدُ ولدها، ويَخدَعُ عما فُعِل باللغة كما يخدع البوُّ العجولَ عن ولدها الذي لم يبق منه سوى جلده. وما زالت الدول المستعمرة تسعى في هذا، حتى بَلَغتْه، ويبدو أنه هو ما عنى مصطفى الشهابي في قوله السابق، أو مما عناه، وصرَّح مشروع الشرق الأوسط بأنه يريده بالعربية. ولعله هو ما لَمَّح إليه محمد عزة دروزة في قوله: «لا أدري لماذا نكون محكوما علينا بلبس هذا اللباس المرقع المضحك، إلا أن الموسيو فلان، والمستر علان لا يريدان أن يتعبا نفسيهما، فيتعلما اللغة

(١) انظر: اللغة العربية وتحديات العصر الحديث، ٣٠.

(٢) دور اللغة العربية المعاصرة في تشكيل الفكر العربي الحديث، ٣٣.

الفصحى، أو لا يريدان أن يزعجا خاطريهما الكريمين، فيبحثا عن استعمال عربي مقابل الاستعمال الإفرنجي الذي يريدان أن يتكرما بنقله إلى أمتهما؟»[1].
فمن المعلوم أن الغربيين كانوا وما زالوا يضيقون ذرعا بالعربية، ويريدونها على شاكلة لغاتهم حتى يتيسر لهم من المعرفة بها ما يتعسر عليهم، لاختلاف نظامها ونظام لغاتهم. وهذا ما يمكن أن يفهم من كلام مصطفى الشهابي. وما أدري هل يلمح محمد عزة دروزة إلى شيء كهذا، قد اطلع عليه من كلام هؤلاء، أو هو مجرد تحليل وتقدير منه. وقد توسلت هذه الدول إلى ذلك بقلة وعي العرب، وكسلهم، وجنوحهم إلى أقل الأمور جهدا وعناء، وهيام بعضهم بأن يوصف بالمرونة والتسامح والتفتح، والمعاصرة، والتيسير، إلخ، فقذفت بهم في طريق، انتهى بهم وبالعربية إلى ما انتهوا إليه، وهو ما بيَّنه قول جاروسلاف ستتكيفيتش إن العربية الأدبية المعاصرة عَبَرت الحدود الجنسية اللغوية، ودخلت في علاقة ثقافية لغوية مع اللغات الغربية الحديثة، فهي -من حيث الصرف- ما تزال كما كانت، لغةً سامية، وما تزال إلى -حد كبير- هي اللغة الفصحى، غير أن بناءها النحوي الآن يطابق اللغات غير السامية كثيرا، ويبتعد من الفصحى والعامية كلتيهما، ويقترب من اللغات التي تعبر عن الثقافة الغربية، وربما لا يمضي جيلان أو ثلاثة حتى تصبح عضوا كاملا في أسرة الثقافة اللغوية الغربية، ويكون لها أثر كامل في هذه الجماعة اللغوية الحديثة المشتركة. وسوف يخضع النحو -حينئذ- لتغير بعيد الأثر، أوجبته حركة الفكر الغربي. وغدا التفكير العربي الحديث فرعا من التفكير الغربي الحديث، والروح الثقافي اللغوي الحديث المشترك هو السمة الغالبة على العربية الحديثة، ولسوف يقل احتفاظها بالعادات الفكرية السامية الصارمة شيئا فشيئا، وبالصيغ المصطلح عليها في الفصحى القديمة، بل بالخصائص التركيبية المتميزة[2]. ويَنْبني على هذا أن المترجمين اليوم يمكنهم أن يترجموا من العربية الفصحى إلى اللغات الحديثة ويترجموا إليها من اللغات الحديثة من غير مشقة، بعد أن لم يكن بينها وبين هذه اللغات إلا التباعد، وصار العرب يجدون اللغات الغربية أسهل من

---

(١) معارك أدبية قديمة ومعاصرة، ٢٣٠.
(٢) العربية الفصحى الحديثة، ٢٨٢ و ٢٨٤.

ذي قبل، وكذلك يجد الغربيون العربية[1]، وصارت العربيةُ الحديثة لغةً جارية في الاستعمال، وذات وظيفة، وتخلصت من أشياء، ليست من «عالم أفكارنا وتجاربنا الحاضرة»، وما يتصل بها من بدائل، وصارت تفي بأقرب المطالب، فمن حيث قواعدها أصبحت أكثر منطقية في التعبير عن مطلب ما، وأكثر مرونة وليونة في التعبير عن مطلب آخر، وضاقت الفجوة بينها وبين العامية[2]. وتغييرُ اللغة -لما يترتب عليه من تغيير الفكر-، وتقريبها من اللغات الغربية - لما يترتب عليه من التبعية-، وسهولةُ تعلم اللغات الأجنبية على العرب، والبعد عن العربية الفصحى -لما يترتب عليه من البعد عن الفكر العربي الأصيل-، وسهولةُ فهمها، وسهولة الترجمة منها والترجمة إليها -لما يترتب عليهما من سهولة فهم العرب على الأمريكيين، وسهولة مراقبتهم-، هي غاية «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، وهي ما قال الشهابي إنه التأثير الثقافي الذي كانت الدول الأجنبية تحرص عليه فيما تُحدِث في العربية من تغيير، فتصطنع له من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة من يُقِرُّه، وما قال لويس ماسنيون إن بعض الغربيين يسعون فيه. وهذا يصدِّق ما قال إدوارد سعيد من أن «واقع الاستشراق معادٍ للإنسانية»[3]؛ لأنه يمسخها، ويستتبعها، ويميت التعدد والتنوع والخصوصيات، ويمكِّن لمثُل المستعمر الثقافية التي ليس حتما أن تكون خيرًا من مثل غيره.

وأيما يكن التأثير الثقافي الذي تريد تلك الدول، فكلام الشهابي صريح في تدخُّلها في عمل مجمع القاهرة، وفي أن لها فيه وكلاء يعملون بأمرها، وما كان عملُ من يأتمر بأمرها ليكون خيرا للعربية. وإذا فُرِضت صحة ما قال ستتكيفيتش، تبين أن ما يدخل العربيةَ من تغيير إنما كان يُتوَسَّل به إلى تغيير الفكر والثقافة، بما يجعل العرب يوافقون الغرب فيهما، وإن كانت موافَقةً غير متكافئة، وإنما هي موافقةُ تبعيةٍ وتقليد، كما توافق الصورة الأصل الذي تنسخ منه، ثم لا تكون إلا دونه أبدا. ولا يخفى أن جاروسلاف مغتبط بما يرى أنه كان

(١) العربية الفصحى الحديثة، ٢٧٧.
(٢) السابق، ٢٧٩.
(٣) الاستشراق، ١٠٢.

من ذلك، وأنه يجعل لغات الغرب هي المعيار الذي تقاس به اللغات، ولأن العربية انتقلت إلى فصيلة هذه اللغات وطابقتها «تخلَّصت من أشياء ليست من عالم أفكارنا وتجاربنا الحاضرة، وما يتصل بها من بدائل»، وأصبحت قواعدها أكثر منطقية، وأكثر مرونة وليونة، وسهل على الغرب فهمها، والترجمة منها وإليها، وسهل على العرب أن يتعلموا لغات الغرب، بعد أن كان ذلك عَسِرا عليهم. ولا يخفى أن هذا من أهم غايات مشروع الشرق الأوسط؛ لأنه يعين الأمريكيين على أن يفهموا العرب، ويراقبوهم، ويعرفوا ما يدور بخلدهم، كما يعين على «علاجهم» منه، «قبل أن يضربوا المدن الأمريكية»، كما لا يخفى أن ما حلَّ بالعربية ليس فيه نفع لها، وإنما هو مسخ، وطمس لهويتها، واستلحاق لها بلغات أخرى، ليس لها فضل عليها، بل هي دونها في كل شيء، وإنما المنتفِع به الغربيون وحدهم؛ لأنه عون لهم على فهم ما كان يصعب عليهم فهمه من العربية، وعلى ترجمة ما يريدون ترجمته منها، كما يعينهم على ما يريد ساستهم من مراقبة العرب من كثب، وتحليل نفسياتهم، وتدمير ثقافتهم وأفكارهم، وتوجيههم؛ ليأمنوا انتقامهم. أما العرب، فخسروا من لغتهم ما أماتوا من أساليبها ومفرداتها، وما بدَّلوا من دلالاتها، بالقدر الذي قرَّبوها من اللغات الأجنبية، ففقدت سعتها، ودقتها، وما تتيح من أساليب بليغة مبينة عن دقائق ما يختلِج في النفوس من المعاني. ومما يقرِّب ذلك شيئا أن الفعل في العربية لا يستقلُّ بالدلالة عن الفاعل أو نائبه، بخلاف الفعل في اللغات الأوربية الحديثة، فقد ينفصل عنهما، كما ينفصل الفعل المصدري Aller بالفرنسية، و To go بالإنجليزية. من أجل ذلك تثبت اللغات الغربية الفاعل بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب، أو بالاسم الصريح مع كل فعل، فتقول مثلا: he goes، I go، you go، they go، we go؛ لأن الفعل لا تفهم نسبته إلى أحدهما دون هذا التصريح، وعلى التصريح به يتوقف البيان، وليس له غرض وراء ذلك. وتستغني العربية عنه بالفعل؛ لأن الفاعل أو نائبه متصل به في تركيبه الأصلي، ولا يستقل عنه في الذهن العربي، نحو: اكتب، أو يكتب، أو تكتب، إلخ، فهذه الأفعال -وإن كان ظاهرها التجرد من الفاعل- ليست مجردة منه، بل هي متصلة به[1]،

---

(١) فلسفة اللغة العربية، ٣٤ وما بعدها.

والذي يدل على الفاعل فيها هو الضمير المستتر في كل فعل، لم يذكر بعده ضمير أو اسم صريح، على أنه فاعله أو نائب فاعله، كما تدل عليه الحروف التي يبدأ بها الفعل المضارع (يكتب وتكتب، وأكتب، ونكتب)، ولأنه كذلك لا يُذْكَر الضمير أو الاسم الصريح مع الفعل إلا لغرض بلاغي. ويظهر وجه البلاغة في العربية فيما يكون من إيجاز في حذف الضمير، في نحو: (أعلم أن الله على كل شيء قدير)، وما يكون من جمال في ذكره، لتقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع، أو التأكيد، أو رد الخطأ في الفاعل، أو التخصيص[1]، نحو: هو يعطي ويمنع، (وهم يخلقون)، أنا قلت ذلك، لمن قال إن غيرك قاله، (أنا أحيي وأميت). وليس لهذا نظير في اللغات الأوربية، فليس فيها إلا أسلوب واحد، كائنا ما كان المعنى المراد. ولا يخفى أن العربية الحديثة -لحذوها على اللغات الأوربية- صارت تَلْزَم ذكر الفاعل مع الفعل مقدما عليه، على كل حال؛ فلحقت بها في فوات المزية التي ذكرنا؛ فخسرت ما كانت تتسم به من الدقة في الذكر، والإيجاز في الحذف، فكانت إلى الفضول أدنى، إذ تذكر الاسم أو الضمير لغير حاجة، وحالت بين الأسلوب العربي والبيان عما كان يبين عنه من العناية بالمسند إليه، إذ تذكره؛ لأن ذكره غدا أمرا لازما، كما هو لازم في اللغات الأوربية، وليست له مزية بلاغية. وهي منقصة، أدركت العربية الحديثة من حذوها على اللغات الأوربية. وإذا كان ذلك يَسرُّ الأوربيين؛ لأنه حذاها على لغاتهم، وسهَّل عليهم ما كان يعسر من فهمها وتعلمها، فما ينبغي أن يسرَّ العرب، ولا أن يعينوا عليه؛ لأن فيه تعطيلا لطاقاتها البيانية، واستغناءً عما زاد من أساليبها عن أساليب اللغات الأوربية، وما زاد من عقولهم عن عقول الأوربيين، وهي أمور، طالما حرص عليها الأوربيون، وجدُّوا في بلوغها حتى كان لهم منها ما أرادوا.

والإضافة في العربية تكون بإقامة علاقة ذهنية بين المضاف والمضاف إليه، ولا تحتاج إلى لفظ يشير إليها، كقولنا: «كلية الآداب»، فهو كافٍ لإيقاع الإضافة بين «الكلية»، و«الآداب» خلافا للغات الغربية الحديثة، فإن ذكر اللفظ الدال على الإضافة بين المضاف والمضاف إليه هو الغالب فيها، كما يقال

(١) انظر: المطول: شرح تلخيص مفتاح العلوم، ٢٦٣ وما بعدها.

في الفرنسية: Faculté des Lettres، وفي الإنجليزية: Faculty of Arts[1]، ويقدَّر في العربية ما يقابل de و of، وهو اللام، و«مِنْ»، و«في»، لتفسَّر به تلك العلاقة، كما تقدر الضمائر في الأفعال. غير أن العربية الحديثة -لحذوها على اللغات الأجنبية- صار من الكثير أن تصرح باللام بين المضاف والمضاف إليه إذا وُصف أولهما، كما يقال الآن: الأمين العام للأمم المتحدة، كما يقال في الإنجليزية: Secretary-General of the United Nations وبالفرنسية: Le secrétaire général des Nations Unies، بدلا من: أمين الأمم المتحدة العام. ومما أعان العربية على ذلك الإعرابُ، فإن علاماته ربما قامت مقام الكلمات، كما يقوم إسقاط التنوين من المضاف، وجرُّ المضاف إليه مقام الكلمات التي تدل على الإضافة في غير العربية[2]. وقد ألحق بها حذوها على اللغات الأوربية من الفضول ما قال ابن خلدون إنه من سمات لغات العجم: «وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعيِّن الفاعل من المفعول من المجرور، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات، فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول مما نقدره بكلام العرب»[3].

ومما يرجِّح أن التأثير الثقافي الذي ذكر مصطفى الشهابي هو هذا التغيير ونحوه، أن عمل مجمع القاهرة كان مقصورا على اللغة، ولم يكن له عمل ثقافي آخر، ولا سيما في عهد مصطفى الشهابي، ولم يكن يُعنَى بتحقيق الكتب ونشرها، كما كان يُعنَى بهما مجمعا دمشق وبغداد. أما أن بريطانية من الدول التي «تريد بث نفوذها بطريق الثقافة»، فليس مما يحتاج إلى دليل. وإذا كان إفساد العربية هو سياسة فرنسة في سورية، بطريق المجمع العلمي العربي بدمشق، فإن إفسادها في مصر هو سياسة بريطانية بطريق مجمع القاهرة، إذ كانت سياسة

(١) فلسفة اللغة العربية، ٣٥.

(٢) السابق، ٥٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ٥/ ٢٩٦ (مع تصرف في النص يسير يقتضيه المعنى).

الدولتين تجاه العرب والعربية واحدة. ولعل بث النفوذ بطريق الثقافة كان من سياسة فرنسة في مصر أيضا، فإنها مستعمرة فرنسية قديمة، وقد ظلت فرنسة حريصة على بقاء تأثيرها الثقافي فيها، حتى بعد أن غلبها الإنجليز عليها، ولذلك ظلت محافظة على مدرسة الحقوق، وكانت تدرِّس بالفرنسية، وكانت تقيم فيها دروسا لتعليم الفرنسية[1]، على ما كان من حرص دنلوب على إنهاء ذلك، بفصل المدرسين الفرنسيين من الكلية، وتسمية من يتخرجون من شبان الإنجليز في كلية الحقوق ببريطانية مكانهم، على أنهم كانوا يجهلون العربية جهلا تاما[2]. والدليل على حرص فرنسة على بقاء تأثيرها بمصر ما أبقت فيها من المدارس منذ دخلها نابليون، إلى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، فقد كانت مدارسها منتشرة في القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية، وكان لها أثر كبير في إعداد المثقفين المصريين. وفي عام ١٨٧٨ كانت في مصر سبع وثلاثون مدرسة حكومية، و ١٣٠ مدرسة أجنبية، تعلِّم بالفرنسية. ولم ينل الاستعمار البريطاني من مكانة الفرنسية في مصر، على ما كان يحرص عليه من نشر الإنجليزية، واصطناعها لغة رسمية بدلا من العربية. ولا أدلَّ على بقاء تأثير الثقافة الفرنسية في مصر، بعد الاحتلال الإنجليزي، من أن الدوريات الأجنبية التي كانت تصدر في القاهرة عام ١٩٣٧، وكانت خمسا وستين، كان خمس وأربعون منها بالفرنسية. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين كانت فيها حركة ثقافية فرنسية نشيطة، وبلغ كتابها الفرنكفونيون في تلك المدة ٣٠٠ كاتب في الفكر والأدب والاقتصاد والسياسة. وبلغ العمل الأدبي الفرنكفوني أوجه بين عامي ١٩٢٠ و١٩٥٠[3]. وذكر عباس حلمي، ملك مصر ما يدل على أن الأساتيذ الفرنسيين كان كثيرا بمصر في زمانه، وكانوا حراصا على استرضاء المصريين والتأثير فيهم[4]. وكان عينها لويس ماسنيون أمين مجمع القاهرة، وغير بعيد أن يكون قد اصطنع من أعضائه مثل من اصطنع من أعضاء مجمع دمشق، وكان بعض من اصطنع في مجمع دمشق أعضاء في مجمع القاهرة أيضا، كعبد القادر

(١) عهدي، ٣٠٤.

(٢) السابق، ٣٠٢.

(٣) الفرنكفونية في لبنان والعالم العربي.

(٤) عهدي، ١٤٥.

المغربي. على أن كل تغير في العربية سيكون له تأثير في الوطن العربي كله، كائنا ما كان مصدره؛ لأن العربية واحدة في الأقطار العربية كلها. ومما يَعلم متابعو أعمال المجامع اللغوية الثلاثة: مجمع القاهرة، ومجمع دمشق، ومجمع بغداد، أن مجمع القاهرة -بعد ذهاب الرعيل الأول من علماء الأزهر ودار العلوم- كان أقل الثلاثة تمسكا بالأصالة، وأقلها ممانعة فيما يقترح غير الغُيُر على العربية من أعضائه، من كل ما يُدخِل في العربية ما لا ينبغي أن يَدخُل، على حين كان مجمعا بغداد ودمشق (قبل أن يفعل به الفرنسيون ما فعلوا) أشد منه أصالة، وتأبيا على ما ينال من العربية، كالدخيل، والنحت، والتركيب، إلخ.

٣- الأدب والأدباء

نبهت نازك الملائكة مرارا في كتابها «قضايا الشعر المعاصر» على أن العربية تكاد، ولَمَّحت إلى من كان يكيدها، مرة، وصرحت به أخرى، فقالت إن القول بأهمية المضمون وسبْقِه كلَّ قيمة في القصيدة قولٌ شائع اليوم، وتَشْهَره زمرة من النقاد سلاحا في وجه كل ناقد، يحرص على سلامة اللغة. وإنَّ غرض مذاهب أدبية بعينها الرسميَّ هدم قواعد العربية والقضاء عليها قضاء مبرما، سواء أكانت دعوتها تصدر عن نزوة فكرية بريئة، أم كانت تتعمد -لغرض مبيَّت- أن توهن العربية وتهدم أصالتها، ويسكت عنها أكثر النقاد ولا يعبؤون بها، على عظيم ضُرِّها. ومنذ سنين تشيع في شعر «المدرسة اللبنانية الحديثة»، ظاهرة العبث بقواعد النحو الراسخة، وإخضاع اللغة للسماع الشاذ الذي لا يُعتدُّ به[1]. وقالت إن في الأمة قوى متربصة، تنطوي على الشر، وسوء النية، ويهمها أن تهدم العروبة، على كل وجه، يتاح، وليست الحرب العلنية عليها بأقطع وسائل هذا العدو في محاربتها، بل له وسائل أخرى، أخفى وأمضى منها، ولا شيء أَضَرُّ بالعروبة من أن يَضعف إيمان الجيل الطالع بالعربية وحصانة قواعدها السليمة، وإذا أُضعف ذلك الإيمان كان العرب قد ساعدوا على صنع جيل ضعيف الثقة بالعروبة. ومن آثار هذا أن في العرب اليوم جيلا يشك في منطقية القواعد البديهية، ويستخف بها معتقدا أن الاستهانة بها دليل على تحرر الفكر، والتجديد الحق[2]. فمما يَفعَل هؤلاء بالعربية إدخال «أل» على الفعل، كقول نذير العظمة:

أقفاصه التَّرِنُّ في الهياكل
الأروقة المعاول

---

(١) قضايا الشعر المعاصر، ٣٢٦ وما بعدها.

(٢) السابق، ٣٣١ وما بعدها.

الترن في الشوارع الغوائل
والأكهف المنازل
التَّودُّ أن تحبس بي الحياة والتجددا
أدخل «أل» على «تَرِنٌّ»، و«تودُّ». ويدخلون «أل» على الأسماء المناداة، كقول نذير العظمة أيضا:
يا الفلك الدائر، يا اليوزَّع الحياة في فصولها
ألم أكن أنا من التراب يا اليبخبخ المطر[1].
أدخل «أل» على «الفلك»، وهو منادى، وعلى «يوزع»، و«يبخبخ». ومنه قول سعيد عقل:
باركتك اليد لأهلَّت على الجدب عطاء، فخلت العطل حاليَّ السخت أول الزمان على خصب بلادي بالغيث والمحراث، الدرج الرنا إلي عهدا والكاد لي يشهق من دلال»[2]. أدخل «أل» على «أهلَّ» و«سخا»، و«رنا»، و«كاد». وليست هذه أمثلة فردية في شعره، بل لها نظائر تتكرر في نتاجه على اختلاف أطواره، ومنه مسرحيته الشعرية «قدموس»، وألفها عام ١٩٤٤ م، وآخر دواوينه «أجمل منك؟ لا»، وأصدره عام ١٩٦٠ م. ولا ريب في أن كثرتها وامتدادها يخرجانها من الخطأ إلى الظاهرة المقصودة التي يراد لها أن تحدث في اللغة تغييرا، يُتعمَّد إحداثه، ويُتعمَّد قبل ذلك أن يُجرَّأ عليه وعلى أمثاله[3]. ومثل ذلك تقديم الصفة على الموصوف، حيث لا يجوز تقديمها عليه، كقول سعيد عقل أيضا:
الساهيات النجوم،
الأواتي العصور،
الخفايا الأحاجي
يعني: النجوم الساهيات، والعصور الأواتي، والأحاجي الخفايا[4]. وتقديم الضمير حيث يجب تأخيره، كقوله:
آن تظنُّ بكرت على التلال الشمس

(١) قضايا الشعر المعاصر، ٣٢٧.
(٢) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ٣٦٣.
(٣) السابق، ٣٦٤.
(٤) السابق، ٣٥٧.

أقول قد فتحته الشباك

أقول قد نزعته الرداء

عن قطعتي ضياء

عني أنا كتمته سري

أخبرتها، أخبرتها النجوم

أنك لي[1].

ولا يتبين الغرض من تقديم الصفة على الموصوف، ولا من تقديم الضمير حيث يجب تأخيره، ولا من إدخال «أل» على الفعل، فما دام ذلك يخالف قواعد العربية، فمن غير الممكن أن تكون له فائدة دلالية، ولا أن تكون له قيمة جمالية، إلا ما يُسبغ على الكلام من غموض، لا يتأتى من امتثال القواعد، وسلوك طريق اللغة المعهود، وما يتبع الغموض من توهم أن في الكلام من المعاني ما ليس فيه، وله من القيم الفنية ما ليس له، بيد أن ذلك الوهم سرعان ما يتبدد، إذا جُرِّدت الأفعال من «أل»، ورُدت العبارات إلى أصولها، فبان أن المراد منها: النجوم الساهيات، والعصور الأواتي، والأحاجي الخفية، «قد فتحت الشباك»، و«نزعت الرداء»، و«كتمت سري عني»، و«أخبرت النجوم»، وألا فضل لذلك الانتهاك على الاستقامة على القاعدة إلا التعمية وحدها. والكلام إنما يراد به البيان أو التأثير، أو هما معا، ولم يفد هذا العمل بيانا، ولا تأثيرا؛ لأن ما لا يُفهم، وما لا معنى له لا يؤثر. وأهون أنواع التجديد ما ينال من اللغة دون غاية فنية؛ لأنه يخون الحس اللغوي والشعري كليهما[2]. وليس استعمال الشعراء بعض هذه الوجوه من علمه بأنها جائزة في العربية، وإن كانت شاذة أو ضرورة، فأكبر الظن أنهم لا يعرفون من العربية ما يدلهم على ذلك، ولا سيما سعيد عقل، وإنما أتوها إغرابا، وتعمدا للعدول إلى العامية؛ فإن من العاميات ما ينادي المعرَّف بأل، ويدخل «أل» على الفعل. وكان بعض الذين ينتمون إلى المذهب الذي ينتمي إليه هؤلاء يرون العدول إلى العامية عن الفصحى، ومنهم من استعملها في كتاباته النقدية.

---

(١) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ٣٦٢ وما بعدها.

(٢) السابق، ٣٦٤.

ووجه الخطر في استعمال هذه الوجوه في الشعر وتسويغها والدفاع عنها أنها وَضعت أمام ناشئة الشعراء مثالا شائها للتجديد في لغة الشعر[1]، يحض على التمرد على اللغة، والتعبث بها، وتحدِّي سلطانها ومراجعها؛ ليسقطها من العيون، ويجرِّئ على الاستهانة بقواعدها، فقد أشاعت «المدرسة اللبنانية» في الذين يوافقونها في وجهتها الفكرية والسياسية ويقتربون منها، عداوة التراث العربي، والاستخفاف به، والجرأة عليه، وامتد ذلك إلى الناشئة، ولا سيما شباب لبنان، فقد وجدوا أنهم ليسوا في حاجة إلى البحث والتقصي في بطون الدواوين والكتب والمعجمات، وفشا فيهم هجاء «الكتب الصفراء»، والسخرية منها، والاستخفاف باللغة وقواعدها، والكتابة وأساليبها، والنظرة إلى التراث نظرة متعالية، بل غاشمة، والحط من قيمته، والافتئات عليه، لفرط جهالتهم، وهو مالا نظير له في أمة من الأمم. واتجه بعضهم إلى كتب السحر والتصوف، وظهر فيهم من يستمرئ الأخطاء اللغوية، ويعد الاستثناء قاعدة، وركاكة الأسلوب تجديدا، ومن يؤثر تقليد ترجمات الشعر الهزيلة على مطالعة عيون الشعر العربي، ويرى أن تعلم العروض من لزوم ما لا يلزم، ويعدُّ ذلك أمرا تقدميا في الأدب والحياة، وكان هذا مما يردد بعض رؤوسها[2]. وسلفهم في هذا أدباء المهجر وما كتبوا من شعر ونثر، كانت لغتهما موضع انتقاد كثير من اللغويين والنقاد والأدباء. وقد أحفظهم النقد؛ فكتبوا مقالات وأشعارا، يسخرون فيها من العربية، ويسوغون ما وقع في أدبهم من مخالفات لغوية، وكان جبران خليل جبران في مقالته «لكم لغتكم ولي لغتي»[3]، وميخائيل نعيمة، في كتابه «الغربال»، ولا سيما مقالتيه «نقيق الضفادع»، و«الزحافات والعلل»[4]، ومقالته «أوزار اللغة»، في كتابه «في مهب الريح»، من أشدهم انتقادا على ما انتقدوا به، وسخريةً من الناقدين، وشايعهما في ذلك محمد مندور. فقد خرج ميخائيل في «نقيق الضفادع» عن النقد إلى الشتيمة والهزء الصريحين بمن يؤاخذون الأدباء على الخطأ في اللغة، فقال إن اللغة ليست بأكثر من لباس للفكر، وأقصى ما

---

(١) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ٣٦٤.

(٢) أفق الحداثة، ٤٣ وما بعدها و٧١.

(٣) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ٩٣.

(٤) الغربال، ٩٠ - ١٢٥.

يؤمَّل منها أن تكون لباسا جليلا، فإن لم تكن إلا أسمالا على فكر جليل، فقد تحطّ من قدره شيئا، دون أن تَذهَب بقوته، فهو الجوهر وهي القشور[1]. وأبدى ضيقا وبرما من العربية الفصحى والإعراب في مقاله «أوزار اللغة»، وتمنى لو أنها أخذت بعض قواعد العامية، واستغنت بها عن بعض قواعد الفصحى التي يرى أنها صعبة، كترك الإعراب، فإنه قريب مما صارت إليه الإنجليزية، أكثر اللغات حيوية، وأوسعها انتشارا[2]. أما محمد مندور، فقال إن «مسألة الصحة والخطأ في اللغات أصبحت مسألة تافهة، لا يُحرص عليها في غير مجال التعليم المدرسي، وأما العلم، فقد تقدم وأصبحت المناهج تاريخية ... ومن الغريب أن نظل نحن مترديـن في طرق التفكير التي تخلَّص منها العالم المتحضر منذ أكثر من قرن»[3]. وما أريد أن أناقش هذه الآراء، ولا أن أبين ضعفها؛ فإن لذلك موضعا غير هذا[4]، وإنما أقتصر على التنبيه على ما يستكن في رأي محمد مندور من عقدة الخواجة التي مُنِيَ بها بعض المصريين، وما تدل عليه تسميته الغربيين «العالم المتحضر»، وعده فعلهم علما، وحضه على متابعتهم فيه، وتعجبه من مخالفتهم، من غير مناقشة للأمر في نفسه، والتدليل على صحته أو خطئه، وهو المنطق الذي يعرض به المصابون بهذه العقدة للقضايا. أما أدباء المهجر، فكانوا محدودي الثقافة، قليلي العلم بالعربية وآدابها؛ وإنما هاجروا للتكسب والتجارة، أو ما يشبه التجارة[5]، ونشؤوا نشأة نصرانية، فكان الكتاب المقدس هو الحقيقة الأولى في حياتهم، وكانت صلتهم بالتوراة والإنجيل أقوى من صلتهم بالتراث العربي؛ فكان تأثرهم بهما شكلا ومضمونا أقوى من تأثرهم بالتراث العربي؛ فاتسمت لغتهم بالضعف؛ لأن اللغة التي ترجمت بها التوراة والإنجيل ضعيفة، وكانت في أدبهم غرابة، استهوت مَن يستميله الجديد لذاته[6]، وإن كان رديئا. ومن الطريف أن ينبزوا العربية بما نبزوها به وهم إنما

---

(١) الغربال، ٩٩ وما بعدها.

(٢) في مهب الريح، ١٣٠ وما بعدها.

(٣) في الميزان الجديد، ٢٢٦.

(٤) ناقشت هذه القضية في بحثي: على الأطلال: دراسة في البناء واللغة، ١٩ وما بعدها.

(٥) هذا الشعر الحديث، ٢٣.

(٦) الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ١/ ٤٧٨ وما بعدها.

يحذون على نصوص عبرانية أو سريانية، ترجمت ترجمة حرفية، لا صحيحة ولا فصيحة. وبدلا من أن يتقبلوا انتقاد من ينتقد عليهم، ويتعلموا منه ما يفيدهم، أخذتهم العزة بالجهل؛ فصبُّوا جامَّ غضبهم على العربية، وجعلوا وكدهم أن ينبذوها، ويذبحوا منها ما ثقل عليهم؛ ليكتبوا ما استطاعوا، لا يخافون نقدا ولا تلحينا. وهي ظاهرة في هذا العصر: كل من انتُقد عليه خطأ، جعل العيب في العربية وعلمائها، ومن ينتقد عليه، لا فيه، ولا في قلة علمه، ولعلهم هم أئمة هذه الظاهرة في الأدب العربي الحديث.

وينتمي رؤوس «المدرسة اللبنانية» إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، والاتجاه القومي اللبناني، وهما اتجاهان يتفقان -على ما بينهما من خلاف فكري، وخصام سياسي- على معاداة العروبة، وما يمت إليها بصلة، ولا يعترفان بوجود أمة عربية، وينظران إلى تراثها نظرة موغلة في السلبية. وكان إحساسهم بالانتماء إلى العرب ضعيفا أو معدوما، وكانوا مستعدين للتخلي عن تراث العرب الفكري والأدبي، والتنكر له والنيل منه، ويذهب بعضهم إلى الدعوة إلى العامية والتخلي عن العربية الفصحى، والإقبال -دون تحفظ- على الفكر الغربي والنهل منه، بل تولِّيه، والاندماج فيه، بحجة أن الحضارة الإنسانية واحدة، لا تتجزأ[1]. ومن خرج منهم من الاتجاه السوري انضم إلى الاتجاه اللبناني، وهو أشد من الحزب السوري كراهية للعربية والعروبة، والدعوة إلى العامية، والكتابة بها، وفيه من كان يدعو إلى «اللغة اللبنانية» مكتوبةً بالحرف اللاتيني، كسعيد عقل. وكانت «مجلة شعر» التي نشرت هذا النوع من الشعر، أول مرة، مرتبطة به، وبدأ رئيس تحريرها، يوسف الخال سوريا قوميا، ثم انتقل إلى الاتجاه اللبناني، وكان دائم السخرية من العروبة[2]. وكان في بداية أمره يكتم توجهه العامي، ثم نزع عن الكتمان إلى الإعلان، ولكنه فعل ذلك بتدرج، فنشر في العدد الأول من «مجلة شعر» قصيدة بالعامية لميشيل طراد، عنوانها «كزبي» (كذبة)، ليمتحن رد فعل القراء، فلما كان ضعيفا، كتب يقول إن العامية هي المخرج الأوحد لشعر العرب من أزمته، ثم نشر في العدد الرابع من المجلة

(١) الأديب العربي في العالم الحديث، ٤٢ وما بعدها، وأفق الحداثة وحداثة النمط، ٢٢ وما بعدها.

(٢) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٩١ وما بعدها، وعن مجلة شعر وقبائلها.

مقالة بالعامية في نقد ديوان «دولاب» لميشيل طراد أيضا. ثم انفجر في مؤتمر روما للأدب العربي المعاصر عام ١٩٦١ -بعد طول تحفُّظ- بما كان يكتِّم، فدعا إلى الكتابة «بلغة الشعب، لغة الحياة»، بالحرف اللاتيني، على الوجه الذي كان يرى سعيد عقل[1]. وقال إن العرب استنفدوا محاولة تطويع لغتهم الفصحى للتعبير الحي النابض، وسيأتي يوم يدركون فيه أن اللغة الحديثة هي لغة الحاضر والمستقبل، وأن استعمالها في الكتابة -كاستعمالها في الحديث- حتم[2]. وكان يرى أن أزمة الشعر العربي أزمة لغة، إذ الفصحى لغة تكتب ولا تحكى، وهذا مما جعل الأدب، ولا سيما الشعر، أدبا أكاديميا، ضعيف الصلة بالحياة العربية، فإما أن تخترق حركة التجديد جدار اللغة الفصحى، باصطناع العامية، وإما أن تنتهي إلى الماضي، فلما لم يجد مؤيدا من الشعراء، ولا من فريق مجلة شعر، قرر وقفها[3]. والتراث الذي يؤمن به تجمع شعراء مجلة شعر هو تراث الوثنية النصرانية في الهلال الخصيب، ويرى أصحاب التوجه اللبناني منهم أن لبنان كيان متميز بحضارة، تنتمي إلى الفينيقيين، وامتدادها الطبيعي هو البحر المتوسط والغرب وتراثه، لا الشرق والصحراء، وهم يزدرون التراث العربي، وكلما ذُكر، ذكروه بالتخلف والنكوص، وأشاروا إلى الصحراء والرمل والبدوي وخيمته وناقته، وإذا ذكروا التقدم ذكروا البحر والبحَّار وسفينته. وهم يقعون في تناقض عظيم، يدل على عدم نضج فكري: يقولون ما يقولون من الشعر بالفصحى، وهي لغة أمة، يرفضون الانتماء إليها وإلى تراثها[4]، وليست لهم لغة سواها، مع ذلك. وإعراضهم عن التراث العربي الإسلامي، وهو أقرب إليهم من كل تراث وثقافة، يناقض دعوتهم إلى حوار الثقافات كلها من فرنسية، وإنجليزية، وأمريكية، وإسبانية، وألمانية، وإيطالية، وروسية، وفارسية، وتركية، وأرمنية، ولا يمكن حمله إلا على عداوة الإسلام والعروبة[5]. ولم يكن

---

(١) أفق الحداثة، ٤٤ وما بعدها.

(٢) قضايا النقد والحداثة، ١٨٦ وما بعدها و١٩٠، والحداثة في الشعر، ٦ وما بعدها و٨٤ (نقلا عن: أثر مجلة شعر اللبنانية في حداثة الكتابة الشعرية، ٢٢ وما بعدها و ٤٩)، وأثر مجلة شعر اللبنانية في حداثة الكتابة الشعرية،٢١.

(٣) أفق الحداثة، ٦٣ وما بعدها.

(٤) السابق، ٤١.

(٥) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٩٤ و ٩٨.

بعضهم يعرض عن التراث العربي الإسلامي فقط، بل كان يتجنى عليه، ويدعو إلى هدمه، وتناسيه، على وجه يثير سخط كل من رآه أو سمعه، كما أسخط أدونيس في محاضرته بمؤتمر روما «الشعر العربي ومشكلة التجديد» بعض من حضروها؛ فحملوا عليه حملة عنيفة، ووصفوه بالغلو، وتنكُّب ما عليه الأوربيون في علاقتهم بتراثهم، كما فعل الشاعر الإنجليزي ستيفن سبندر، فقد قال إن ثورته على التراث العربي تقترب في روحها من النزعة الحديثة في الشعر الفرنسي، وثورة رامبو على التقاليد الشعرية، والوزن الإسكندري، ولَمَّح إلى أن الشعر الإنجليزي والأمريكي كان بعيدا مما يحسب أدونيس وما يريد، فأكبر شعرائه في هذا العصر إليوت، وماثيو أرنولد، ناقدان أصيلان، ولم يهملا التراث الشعري القديم، بل هضماه هضما، وأبقيا على ما هو جدير منه بالإبقاء، ثم زادا عليه، فكان شعرهما مبنيا على أسس متينة وجذور عميقة. وظل الشعر الإنجليزي أبدا في تطور، ونمو حقيقي، ويرتكز على عناصر شعرية خالدة، وعناصر اتباعية (كلاسيكية)، جازت تجربة التاريخ، وصاغها الزمن. وقال إن إليوت يُعدُّ شاعرا حديثا وتقليديا معا، ويُعدُّ جيمس جويس أشهر اتباعي في هذا العصر، وقد ربط بين ما هو خالد، فلم يتخلَّ عنه، والحياةِ التي يحياها، ويعاني مأساتها. ووسم أدونيس بإهماله المطلق لتراث العرب الشعري، واتهمه بالضياع وعدم الواقعية، وقال إن محاضرته متطرفة في تحطيم التقاليد الشعرية العربية[1]. ورد رينه تافرنيه، وهو فرنسي، على ستيفن بأن القول إن شعراء فرنسة ثاروا على المعايير الاتباعية مبالغ فيه، ففيهم شعراء كبار -كفاليري بالأمس، وأراغون اليوم- ما زالوا يتقيدون بالأوزان والقوافي، ويكتب رسل السريالية -كأندره بريتون- بلغة القرن السابع عشر. وفي الشعراء الفرنسيين المحدثين -كفرنسيس يونج- من يتقيد بالتقاليد الشعرية، لا التقاليد الشكلية فقط، بل التقاليد الجمالية أيضا. وكثير من الشعراء الفرنسيين الشباب يتصلون بالحركة الشعرية في القرن السادس عشر، فالشعر الفرنسي -على تحرره من القيود الشكلية- ما زال متصلا بماضيه. واستشهد بقول أندره مالرو، وهو فرنسي: لا يُخلَق الشاعر إذا تأمل غياب الشمس، وإنما يكون شاعرا بعد أن يقرأ بودلير.

(١) الشعر العربي ومشكلة التجديد (المناقشات)، ١٩٢ وما بعدها.

وقال إن الشعر طريقة وجود، ولكنها طريقة متأصلة في المجتمع[1]. ولَمَّحت سلمى الخضراء الجيوشي إلى أن لرؤوس مجلة شعر ما يشبه المشكلة النفسية مع العربية (العداوة)، فقالت تعليقا على محاضرة أدونيس أيضا: كان يخيل إلي أننا استنفدنا الحديث عن العربية في هذا المؤتمر، لكن يبدو أن الموضوع متشعب، وأن زعْم أن العربية ليست لغةً حية متغلغل في الأذهان والنفوس والقلوب[2].

وتُتَّهَم «مجلة شعر» بأنها من المجلات التي كانت تمولها «المنظمة العالمية لحرية الثقافة»، وهي إحدى المؤسسات التي كانت تتوسل بها المخابرات الأمريكية، أيام الحرب الباردة، إلى إعادة بناء الثقافة في العالم بالفن والأدب، بما يبغِّض الشيوعية، ويحمل على تقلُّد الأنموذج الأمريكي وتقليده. وكانت المنظمة تشتري من المجلة ١٥٠٠ نسخة[3] عونا لها. ويذهب بعض الباحثين إلى أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تمولها عن طريق شارل مالك، وزير الخارجية والتربية الوطنية اللبناني، وكان أحد فلاسفة الحزب السوري القومي الاجتماعي، وراعيا من رعاة المجلة يوم كان وزيرا للتربية[4]. ويستدل الذين يثبتون علاقتها بالمخابرات الأمريكية بعلاقتها بمؤتمر «الأدب العربي المعاصر» برومة عام ١٩٦١، وهو مؤتمر موَّلته المنظمة المذكورة، وتولت إدارته مع معهد الشرق الإيطالي، كما جاء على الصفحة الأولى من الكتاب الذي جمع أعماله، وكان لأعضاء تحريرها أثر كبير في الاتصالات التي هيأت لعقده، وحضرته طائفة منهم، وممن له بهم علاقة. ويستدلون أيضا بأنَّ دخْل المجلة، وهو ريعها، والاشتراك، وبعض الهبات -أحيانا-، ما كانت تكفي لتمويل دار نشرها التي أَسَّست، ومجلتها الأخرى التي أنشأت (أدب)، وتأليف ما ألفت من الكتب، وترجمة ما ترجمت منها، ونشْرها، ولا سيما الكتب الأمريكية، واستضافة أدباء العرب في بيروت على نفقتها لحضور «خميس شعر»، وهي ندوة كانت تعقدها المجلة كل خميس ببيروت، وما كانت تعطي من جوائز سنوية على أفضل

---

(١) الشعر العربي ومشكلة التجديد، ٢٠٦ وما بعدها.

(٢) السابق، ١٩٥ وما بعدها.

(٣) من الذي دفع للزمار، ١٦، والحرب الباردة الثقافية.

(٤) الحرب الباردة الثقافية، ومجلة حوار والـC.I.A، والعلاقة بين الكاتب ومصادر التمويل، وأفق الحداثة، ٢٢.

مجموعة شعرية، وأفصل مسرحية، وأفضل ملحمة شعرية، وما كانت تَعِد به من تقديم منح دراسية، وما كانت تنفق على إقامة شعراء العرب في أوربة، وما كانت تنوي من تأسيس رابطة لهم في الوطن العربي. فمن المستبعد أن تكون الأموال المتدفقة عليها من ريعها أو ريع الكتب التي نشرت، فلم تبع منها إلا قليلا، لا يمكن أن يسد نفقاتها. هذا إلى توجهها الليبرالي الواضح، وترويجها الثقافة الغربية، وعدائها الشديد للقومية العربية[1]. وإذا صح هذا كانت المجلة مجلة أمريكية، وما ينشر فيها إنما ينشر لخدمة السياسة الأمريكية في الوطن العربي، على ما تقتضي الحقبة التي ظهرت فيها، وهو أمر قد يصدقه أن أول عدد لها بدأ بمقابلة مع ت. س. إليوت، وأنها اهتمت به منذ البداية، وجعلته أنموذجها الغربي التحديثي، وخصت تراثه الشعري والنقدي بالدراسة والترجمة. وإنما كان ذلك تسويقا للقيم والثقافة الأمريكية في الوطن العربي، وبسببه كان لشعريته ما كان من التأثير في الشعرية العربية الحديثة. ولعل اعتماده على التراث اليوناني والروماني والأوروبي، والإنجليزي منه خاصة، والتراث النصراني، سبب عودة شعراء مجلة شعر إلى تراث ما قبل الإسلام ومحاولة توظيفه على الوجه الذي فعل إليوت مع التراث اليوناني والروماني والأوربي، فهو أثر من آثار اقتدائهم به، كما أن صدوفهم عن التراث العربي والإسلامي، وتوليهم تراث ما قبل الإسلام، أثر من آثار التأثر بأمريكة، وثقافتها وسياستها في الوطن العربي، وإن ادَّعوا أنما صدوفهم عن ذلك هو ما تستدعيه حرية الإبداع؛ لئلا يجعلوا للتراث العربي سلطانا عليهم كما يفعل المقلدون، فإنهم يقدسون التراث العربي الإسلامي ويكتفون به، أما هم، فيتحررون من التراث العربي الإسلامي بجعله مساويا لتراث شعوب الشرق القديم، بل أقلَّ منه. وفي الحق أن عنايتهم بالتراث الفينيقي والأشوري والآرامي والحثي، وصدوفهم عن التراث العربي الإسلامي، ليست مسألة فنية بحتا، وإنما لها أسباب دينية وفكرية وسياسية أيضا، منها أن بعضهم نصارى، ولذلك كانوا يعادون التراث الإسلامي، كأنسي الحاج، ويوسف الخال[2]، وأن ما عنوا به تراث الشعوب غير

---

(١) أفق الحداثة، ٥٥ وما بعدها.

(٢) انظر: أثر مجلة اللبنانية في حداثة الكتابة الشعرية، ٥٧.

العربية محصور في الأساطير، والأسطورة وسيلة من وسائل أنسنة الدين؛ لأن الحداثة الغربية تعد الدين «إنسية لا واعية، ورمزية أسطورية، اختلقها الإنسان لتقديس ذاته ظنا منه أنه يتكلم عن إلهه، وبذلك حلت محل الدين»[1]. ومعنى أنسنة الدين جعْله أسطورة من الأساطير التي أنشأها الإنسان لتفسير ظاهرة من ظواهر الكون، وليس له معنى وراء ذلك. والعناية بالأسطورة، على الوجه الذي يفعل حداثيو العرب، ينزلها منزلة فوق منزلة الأساطير في الثقافة العربية، ويحل الشعوب التي تنسب إليها من قلوب العرب منزلة ما كانت تحلها، ويحقِّر إليهم تراثهم، لخلوه منها، ومما ترمز إليه من معان، تقِّصر عنها عقول العرب وثقافتهم، ويوحي عزوفهم عن التراث العربي إلى تراث تلك الأمم أنْ لو كان فيه ما يغني ما صاروا إلى غيره. ووجه التأثير الأمريكي في هذا التوجه أنه يسلخ العرب من تراثهم ويعلقهم بالتراث السابق للعرب والإسلام ليكون مرجعَهم الثقافي، وهويتهم، دون التراث العربي الإسلامي، ويربطهم بالبحر المتوسط وثقافته، ويجعل مثلهم الأعلى هو الأنموذج الأمريكي، وما يتصل به، كالثقافة النصرانية. وهذا مما يحرص عليه الاستعمار مذ دخل البلاد العربية، لما فيه من إحياء النزعات العرقية من أجل تفتيته، وتقطيع الأواصر التي تربط بين شعوبه وأعراقه، مذ دخله الإسلام، فليس إلا كالنزعات الكردية والبربرية والزنجية والنوبية. ويصدِّق ذلك أن «مجلة شعر» كانت تشجع أقلام الكتاب المنشقين عن شعوبهم وقضاياها الحقيقية، ككاتب ياسين، وكان يقول إنه ليس بعربي ولا مسلم، وظل طوال حياته يدعو إلى إحلال البربرية والعامية الجزائرية محل العربية[2]. وكانت تستنكر من سليمان العيسى أن يكون قوميا عروبيا، ولا تستنكر من محمد الفيتوري زنجيته، وترى العروبة قضية مفتعلة وجزئية، والزنجية قضية إنسانية شاملة[3]. فهو -إذن- عمل تفتيتي، يُرسَّخ بالفن، ويجعل أساسه عرقيا، كما جعلت عقيدة «مجلة شعر» منبثقة من عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي، ثم الاتجاه اللبناني. والتفتيت والتدمير والهدم والتحول

(١) نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث، ١٩.
(٢) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٩٢.
(٣) أفق الحداثة، ٣٩.

والتغيير، والانقطاع، والرفض، ألفاظ ومعان يدور عليها ما يكتب رؤوس «مجلة شعر»، مع أنهم يزعمون أن ليست لهم ولا لمجلتهم رسالة، ويعلنون بمعاداتهم شعر الالتزام والملتزمين، ويرفضون السياسة، والعقيدة (الإيديولوجية)، وهم مسيسون إلى الأذقان، ومجلتهم ومن ينتمي إليها، ولقاءاتها وعلاقتهم، شهيد على ذلك، لكنها كانت تدعو غيرها إلى أن يجعل شعره مجردا من الغاية، وأن يتنصل من التزامه، أما هي، فتحافظ على التزامها، ولا ترى بالحفاظ عليه بأسا[١].

ولم يتأثر شعراء «مجلة شعر» بإليوت في استلهام تراثه الإنجليزي، ولا في عصبيته للنصرانية وتراثها، بل كان بعضهم، كيوسف الخال وأدونيس، ربما وقع في تناقض: يذكر مرة التراث النصراني أو المتوسطي أو ما قبل التراث العربي الإسلامي، وموقفه «الأصيل» منه، ولا يذكر التراث العربي الإسلامي، بل يستبعدُه عمدا، ويذكر مرة عدم انفصاله عن التراث العربي، مع أن شعر يوسف الخال ليس فيه أثر للتراث العربي، وفي نقده ما يشبه العداء له. واتسم ما يُنشَر في المجلة من الشعر بأنه أقرب إلى الترجمة، أو إلى أن يكون نصا أجنبيا بحروف عربية، وهو أثر من الآثار الأمريكية فيها، وقد فَرَضت به على شعراء العرب «المجددين» أن يجدِّدوا على وفق قوالب الشعر الغربي الحديث، ولأن هذا كان ما تتغيا كانت ترجمة الشعر الغربي غرضَها الأول، وكان هذا من أسباب إخفاق مشروعها، فقد اختارت المشروع الغربي العتيد، وجعلت المطلوب من العرب النسج على منواله[٢]. ويبدو أن هذا كان هو معنى الحداثة والتجديد عند فريق تحريرها، وشرط التقدم، فقد كان يوسف الخال -مثلا- يرى أن الحداثة هي الدخول في حضارة القرن العشرين، أي أن يعتقد العرب حضارة الغرب بحذافيرها[٣]. وكانت بانفتاحها على الغرب انفتاحا كليا، وعدم انفتاحها على التراث العربي بذلك القدر كأنما تفرض على قرائها أن يتحللوا من تاريخهم وتراثهم؛ إن أرادوا أن يكونوا مجددين[٤].

---

(١) أفق الحداثة، ٣٩ وما بعدها.

(٢) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٣٥ و٦٥ و١١٢.

(٣) الحداثة في الشعر، ٥ (نقلا عن: عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٦٦).

(٤) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٦٨.

وإذا صح أن المخابرات الأمريكية كانت تمول مجلة شعر، فينبغي أن يُعرف لم كانت تمولها، وهل بلغت عليها ما أرادت؟ لقد كانت أمريكة تمولها كما كانت تمول غيرها من المجلات والأعمال الثقافية التي تريد أن تحتل بها عقول الناس، بإشاعة نمط سلبي من الثقافة في حياة العرب، وهي ظواهر واضحة في «مجلة شعر»، لكن لما كان عملنا هذا منصبا على اللغة وحدها، رأينا أن نقتصر عليها دون غيرها. وقارئ مجلة شعر تلقاه منها ثلاثة أمور، تستحق التوقف: الخروج على العروض والقوافي العربية، وإشاعة القصيدة النثرية، والعدول عن مراجع التراث العربي الإسلامي إلى الثقافة الأمريكية ومراجعها، وثقافة الشرق القديم، كما قد رأينا. وإذا كان قد يتبادر إلى الذهن أن خروج العرب عن نظامهم العروضي والموسيقي في الشعر ليست له فوائد تعود على أمريكة، والحفاظ عليهما ليس فيه ما يضرها، وأنَّ جعْلَ ذلك مما تُعنى به المخابرات الأمريكية من الاستنتاج البعيد الذي ينبغي ألا يُركن إليه، فإن الذي جرَّأنا عليه -على علمنا بما قد يُحمل عليه، وما قد يَلقى من المعارضة- ما وجدنا في «مشروع الشرق الأوسط» من نص أمريكة على أنها ستقضي على الشعر العربي ذي القافية الواحدة[1]، وما صرَّح به رؤوس جماعة المجلة، كأدونيس، من أن شعراءها كانوا متفقين، حين أُسست، على التمرد على الأشكال الشعرية التقليدية والتجديد في مفهوم الشعر، ولكنهم لم يكونوا على اتفاق تام على الأغراض التي ينبغي الوصول إليها بعد الطور الأول، أي الصورة التي يكون عليها الشعر، وأن المجلة لم تنتقل بتلك السهولة إلى الجانب الإيجابي من مهمتها التحويلية، بعد أن أنجزت بنجاح الجانب «السلبي»، وهو تحطيم القلعة الشعرية القديمة[2]. فتحطيم القلعة الشعرية كان المهمة الأولى، ولعله كان من أهم أغراض المجلة، ولذلك وقع الاتفاق عليه، فلما بلغته، وقع التنازع فيما يكون بعده؛ لأنه غير مهم، أو أقل أهمية، وكان تحطيم قلعة الشعر مما يتغيا مشروع الشرق الأوسط؛ لأنه جانب من الهوية العربية، فتحطيمه إضعاف للهوية في النفوس، وتحطيم للخصوصية التي يعتصم بها المعتصمون، وتهيئة

---

(١) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، ٢٩٢.

(٢) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر،٦١.

للانتقال عنها إلى غيرها. ودليل آخر، هو أن مما تدعي «مجلة شعر» التفرد باختراع قصيدة النثر، وكان غرض اختراع قصيدة النثر الأولُ القضاءَ على إيقاع الشعر العربي، وتعويضه بإيقاع داخلي، لا ينطلق من الوزن والقافية، وإنما من تجاور الكلمات، حركة وسكونا، واتفاقا واختلافا، وارتفاعا وانخفاضا، وهمسا وصخبا، وفي هذا نيل من التراث الشعري، وتهوين من شأنه، فكأن القصيدة النثرية بديل عن التراث الشعري كله، وتجاوز حتمي لقصيدة التفعيلة، وسير بالشعر العربي في طريق الشعر الغربي، وتراث العرب الشعري جانب من جوانب الهوية العربية[1]. والخروج بالشعر العربي عن مضمونه، وحشوه بأفكار تافهة، أو غير مستقيمة، قد تؤثر في قرائه تأثيرا سلبيا، وتحول بينهم وبين الشعر القديم وما يبتعث فيهم من نخوة واعتزاز بالعروبة وماضيها مما تعتمد المجلة، وهو غرض أمريكي، صرَّح به مشروع الشرق الأوسط. والشعر المنشور في «مجلة شعر»، ودواوين زعمائها ليس في أكثره ما ينتمي إلى العرب وتراثهم، ولا ما يشعرهم بالخصوصية والتميز، ولكن فيه عكس ذلك، وهو يزين حضارة بعينها وأفكارها، ويحرِّض على مماثلتها، والتحلل من تراث العرب الثقافي إلى تراث ثقافي آخر. وقد تكون هذه النقلة الثقافية من أسباب تنكُّب شعرائها التراث العربي، والإعراض عنه، وإظهار ما يشبه العداء له، والاستعاضة عنه بما قبله من تراث الأمم، والانفتاح على ما عند أمم الأرض غير العرب، على الوجه الذي قد رأينا، ولهذا قدَّمت المجلة للعرب ت. س. إليوت؛ ليكون إماما، يأتمون به. أما من جهة الشكل، فإن الحفاظ على شكل الشعر العربي، من حيث الوزن والقافية، يشعر العرب بالخصوصية والتميز، وأن عندهم ما ينبغي أن يحافظ عليه، والقضاء على الخصوصية، وما يشعر بالتميز، من مَهمات العولمة، من حيث هي حرب على الثقافات والخصوصيات، ونشرٌ لأنموذج واحد، وإلزام الناس إياه، فضلا عن أن أكثر ما يعين على تقبُّل ما عند الغير ألا يكون عند المرء ما يختص به، ولا معيار، يزن به ما عند الغير. أما ما قد رأينا من نتائج الجرأة على اللغة وانتهاك حرماتها، فلسنا نجزم بأنه كان مراد المخابرات الأمريكية، وإنما نظن أن بعضه مدفوع بحب الظهور، وما يستوجب من الإغراب، ومخالفة

---

(١) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٣٤ وما بعدها، وبين «الأداب» و«شعر».

المعهود، وإن كنا لا نشك في أن التجريء على انتهاك قواعد اللغة، وإفسادها، وما اشتملت عليه المجلة من انتقاد على العربية الفصحى، ودعوة إلى العامية، وكتابة بعض زعمائها بها، مما تعتمد المخابرات الأمريكية، كما يعتمده غيرها من الدول المستعمرة.

٤- استعداء غير العرب على العربية

أولا- في الوطن العربي

ومن كيد العربية اصطناع غير العرب في الوطن العربي أعداءً لها، وجعْلُ لغاتِهم ضراتٍ لها، كلَّما أريد إنزالها منزلتها من حياة العرب، جُعِلت وحدة البلد واستقراره على خطر، ليسلِّم بالواقع، على ما فيه من تبعية، واستلاب، وتمكين للاستعمار. وكانت العربية طوال التاريخ الإسلامي لغة من يقيمون في الوطن العربي كله، من كل جنس وملة، فلما جاء الاستعمار الغربي ابتعث النعرات، وأيقظ العصبيات، ونفَخ في الأقليات روحا من العداوة للأكثرية، ودينها، ولغتها، وحضارتها، وتاريخها، ونزوعا إلى المخالفة، والانفصال، وموالاة الاستعمار دون الإخوان في الدين، والشركاء في الأرض والتاريخ والمصير، وعمل على إضعاف الإسلام في نفوسها، ليَحُلَّ أقوى الروابط بين المسلمين، ويقطع الحبلَ الذي يعتصمون به، ولم يكن شيء قبل ذلك يعلو عليه في اعتقادهم، فصارت تعدُّ كل تمكين للعربية نذيرَ عداوة، لا يراد بها إلا محو تاريخها، والإجهاز على ما بقي من هويتها، والتمكينَ للعربية من حيث هي نزعة عنصرية، ودخيل يضارُّ به الأصيل، وتعدُّ التاريخَ الإسلامي تاريخ استعمار، وظلم، واستبداد، وإكراه، وتسلُّط، وطمسٍ لهويات المستضعفين، وإجبارٍ لأهل البلد الأصليين على تقلُّد الإسلام، وترك دينهم ودين آبائهم. ثم صار استعداء غير العرب على العربية جزءًا من سياسة العولمة في تجزئة المجزَّأ، وتفتيت المفتَّت، حتى تتمكن من الهيمنة الثقافية، وهو كالدعوة إلى اصطناع اللهجات المحلية، غايته المعلنة تمكين الأقليات من التعبير عن نفسها، وغايته المضمرة تحطيم الجماعات اللغوية الكبرى، التي يمكن أن تصدَّ تيار العولمة اللغوي والثقافي[١]، وجعْلُ لغة الدولة الغالبة بديلا من اللغة الوطنية التي كانت محل

(١) الهوية اللغوية في ظل العولمة الثقافية، ٥٩٦.

إجماع؛ لأن الدولة الغالبة ترتبط بالعولمة، وهي نوع من الاستعمار الاقتصادي، يسعى في تعميم لغة الغالب وثقافته، دون لغات العالم وثقافاته[1]. وهي سياسة، لا تختلف في روحها عن سياسة الاستعمار، إلا أن سياسة الاستعمار كانت سياسة دولة واحدة، تُلزم من تَغْلِب لغتها وثقافتها، وسياسة العولمة سياسة دولة واحدة، تلزم العالم أجمع لغتها وثقافتها، لا تستثني منه بلدا؛ لأنها ترى أن ليس في العالم بلد ليست لها مصلحة فيه، فضلا عما ترى لنفسها وقيمها وحضارتها من تميز، هي بها جديرة بأن تسود العالم وتقوده.

وليس اختلاف اللغات في نفسه بمسوغ للتخالف والتعادي، فما يكاد يخلو بلد في العالم من تعدد لغوي وعرقي وديني ومذهبي، ومع ذلك كانت الشعوب متوافقة، ويحترم بعضها لغات بعض، وربما يتكلم بعضها لغة بعض من غير حرج، وليس فيها من يُلْزِم غيرَه أن يتكلم بلغة، أو أن يتخلى عن أخرى، فلما دخل الاستعمار، أخذ يتوسل بكل تباين إلى إيقاد نار العداوة بين المتباينين، ويبسط حجج التعادي ومسوغاته، ليستعين به على تفكيك معارضيه، وإضعافهم، وضرب بعضهم ببعض، ليهيمن عليهم جميعا. وقد كان الملوك والنبلاء في أنحاء كثيرة من أوربة يتكلمون بالفرنسية والإيطالية والألمانية، ولا يعيبون اللغة التي يتكلم بها سواد الناس، ويتكلم العلماء ورجال الدين باللاتينية، ويخاطبون بها نظراءهم في أوربة كلها، واللغات الخاصة للخاصة، وللعامة لغاتهم التي يتكلمون بها في شؤونهم العامة، وكانت الفارسية هي المستعملة في بلاط الملوك الذين حكموا الهند، ويستعمل المتعلمون والمتدينون من الهنادكة السنسكريتية، ويتكلم عوامُّ الناس بلهجات ولغات محلية شتى، فما نجم عن ذلك يوما خلاف كبير[2]، وظلت الشعوب المقيمة في البلاد العربية، مذ فُتِحَت، تتكلم بلغاتها مع العربية، أو من غيرها، ولم يقع بينها خلاف ولا نزاع. فلما اختُرعت القومية في أوربة في بداية القرن التاسع عشر، وعُدَّت الإنسانية مقسمة إلى أمم تقسيما طبيعيا، لكل منها خصائصه المتميزة التي يمكن التحقق منها،

(١) اللغة هوية، ٢٣٦.
(٢) كلمات العالم، ١٣٢.

وعُدَّ الأنموذج «الشرعي الوحيد للحكومة هو الحكم الذاتي القومي»[1]، ووقع التنازع بين الأقاليم الأوربية، وتبعه التنازع بين اللغات، وجُعِلت اللغة وسيلة إلى الاستقلال، وجُعلت وجوه الاختلاف بين الطوائف والجماعات والأعراق هي عناصر الهوية التي يتميز بها بعضهم من بعض، ووجوه الوفاق هدرا، وأمرا، لا يُعتدُّ به، ولا يُبْنَى عليه شيء ذو بال. ثم نَقل الأوربيون الخلاف إلى مستعمراتهم؛ ليفسدوا به ذات بينها عمدا، كما نقلوا إليها كثيرا من أمراضهم، فأوقدوا بينها من نار العداوة ما أوقدوا في أرضهم، بل أشد مما أوقدوا، وكانوا إذا دخلوا أرضا، التمسوا ما فيها من خلاف، فنفَخوا فيه، وأقاموا العلاقة بين الشعوب عليه؛ ليضعفوها جميعا، ويشغلوها عنهم، وجعلوا أنفسهم ملاذ المختلفين، ولغاتهم اللغات التي يلتقي عليها المتنازعون، وأقاموا بينهم من الحدود المصطنعة ما يصعب هدمه، وصنعوا لهم من أسباب التخالف والتناقض ما يعسر تجاوزه.

وكان أشدُّ غير العرب في الوطن العربي عداوة للعربية أولئك الذين كان بينهم وبين العرب أشدُّ التوافق في الدين، والتمازج في الديار والأنساب واللغات والثقافات، حتى لم يكن بعضهم يتميز من بعض إلا أن يتكلم بلغته في الخاص من شؤونه، وكانت العربية لغتهم جميعا، لأنها لغة الإسلام، والعلم، في كل عصر ومصر[2]، ولغة القرآن العظيم، والنبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-؛ فكان لها عندهم من التجلة والإعظام ما للنبي والقرآن، وكانت لغةَ الدولة الرسمية التي تجمعهم، فهي اللغة التي يلتقون عليها جميعا كما يلتقون على الإسلام، ويشتركون فيها كما يشتركون فيه، وإن كان لبعضهم لغة وراءها، يتكلم بها في شؤون الحياة العادية، أو يجعلها لغة علم وأدب، ولكنه لا يضارُّ بها العربية، ولا يرى أنها بديل منها، أو منافس لها. وهم يتعلَّمون العربية جميعا، ويعلِّمونها كما يتعلمون أمور دينهم ويعلِّمونها، وليس فيهم من يرى أنها لبعضهم دون بعض، وربما كان غير العرب منهم، ولا سيما العلماء، أشد من العرب حبًّا لها، ونصَبًا في نشرها وتعليمها والتأليف بها. وكذلك كان حال المسلمين خارج البلاد العربية، كمسلمي الترك، والفرس، والهند، والملايو، وإفريقية، وشرقي أوربة،

---

(١) اللغة والهوية: قومية إثنية دينية، ١٢٣.

(٢) اللغة العربية كلغة رسمية قومية في باكستان، ٨٦.

فهم يتعلمون العربية ويعلمونها؛ لأنها لسان دينهم وتراثهم، ولسان قرآنهم الذين يصلُّون به، ويتعبدون بتلاوته، ويعتقدون أنَّ تعلمها من دينهم، وأن معرفة بعضها واجبة على من قدر عليها منهم. ولم يُرْوَ أن العرب أكرهوا أحدا على العربية، ولا على لغة غير لغته، أو زينوا له أن يتركها؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن اختلاف اللغات -كاختلاف الألوان، وخلْق السماوات والأرض- آية من آيات الله، يُعتبَر بها، ويُستدَلُّ على قدرة الله وحكمته؛ فلا تُمْحَى، ولا يُنال منها، ولا تُتَّخذ وسيلة إلى التمييز أو التنازع؛ فلم تكد تموت لغة من اللغات التي كان يتكلم بها بعض الشعوب في الوطن العربي قبل الإسلام، ومنها عربيات جنوبي الجزيرة، واللغات التي يُتكلَّم بها في سائر الأقطار العربية اليوم، كالأمازيغية، والسريانية، والآرامية، والنوبية، ولغات الزنج، واللغات التي هاجر أهلها إلى البلدان العربية، كالأذرية، والآشورية، والفارسية، والتركمانية، والأرمنية، والشركسية، وغيرها[1]. وما مات منها مات موتا طبيعيا، من غير صرْف عنه، ولا إكراه على غيره.

وكانت الأرض شركة بينهم جميعا، وهم فيها سواء، يتنقلون فيها كيف شاؤوا، ويستوطنون ما شاؤوا، ولم يشعروا يوما بأن إقليما منها لطائفة منهم أو عِرق دون طائفة أو عرق، وإن كان بعضهم ربما كان سكناه في بعض الأقاليم أكثر من سكناه في بعض، من غير أن يشعروا بأنها ملك لهم دون إخوانهم، أو مغلقة عليهم دون سائر المسلمين. ولا كان لما يُسمَّى اليوم «أقلية» معنى كمعناه الآن، إذ كانت الأخوة الإسلامية تحول دون كل تفكير، يمكن أن يترتب عليه وجود هذا المفهوم بين المسلمين[2]، فقد وصف الله المؤمنين بأنهم إخوة: (إنما المؤمنون إخوة)، وشبههم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. وكان يحكمهم حاكم واحد، ومَن حكم منهم لم ير غيرُه غضاضة في حكمه، ولا شعر بأنه من فئة غير فئته؛ لأنهم ما كانوا يشعرون بالتمايز، ولا

---

(١) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ١١٩

(٢) انظر: المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية، ٩٧ وما بعدها (نقلا عن: التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، ٢١٦)، ومجمل تاريخ المغرب، ١١٥ (نقلا عن: المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب، ١٥٢).

يجاوزون باختلاف الأعراق ما أراد الله به من التعارف. وكان هذا من أسباب الاندماج بين الأعراق في كثير من البلدان الإسلامية اندماجا مطلقا، انطمست فيه الهويات الفرعية، وزالت اللغات، وتمازجت الثقافات. ومن الأدلة على ذلك أن بعض بيوتات الكرد وزعمائهم الحاملين لواء القومية الكردية اليوم عرب الأصل، بل من آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، كآل البرزاني، وآل الطلباني، في العراق، فضلا عن أنهم شيوخ طرق صوفية معروفة، فآل الطالباني شيوخ الطريقة القادرية، وآل البرزاني شيوخ الطريقة النقشبندية[1]. واختلطت الدماء والأعراق في المغرب العربي، ، حتى غدا من المتعذر تمييز عرق من آخر، فتعربت قبائل بربرية، وتبربرت قبائل عربية، وكان كثير من الأشراف قادة قبائل أمازيغية، وكذلك وقع في بلاد إسلامية كثيرة[2]. وكان يتلمذ لسلف هؤلاء وأولئك المسلمون من كل عرق ولون، ويتابعونهم كما يتابعون غيرهم من العلماء والصالحين في أقطار العالم الإسلامي، ويجتمعون عليهم، ويتولونهم، وينتهون إليهم في كل شيء، ولا يشعر التلامذة والمريدون بأن لهم انتماء إلى غير الإسلام، أما الأعراق واللغات، فأمور ثانوية، والمعيار الأوحد عندهم هو الدين، وهو الذي يُبنى عليه الولاء، أما البلد الذي قدم منه، والعرق الذي ينتمي إليه، فلا تزيد علاقة المرء بهما على علاقة تاريخية، ومن دخل بلدا إسلاميا ذاب في أهله، وامحى ما يميزه منهم، كما ذاب يحيى حقي في المصريين، وامحت تركيته، وقال إن لمصر قدرة غريبة على الامتصاص والاستيعاب، وأكْلِ كلِّ أجنبي عنها أكلا لا يُبْقِي منه شيئا، ففيها سرٌّ من الله، لا نعرفه؛ فإني لو عُصِرت في معصرةِ قصَبٍ، ما خرجت مني قطرة تركية، فأنا مصري خالص، بل أكثر من المصريين مصرية؛ لأنني شديد الإحساس بكل ما يتعلق بمصر، من تاريخ وثقافة[3]. وكذلك كان سائر بلاد المسلمين: من استوطنها، واختلط بأهلها، وتمثل ثقافتهم، وحذق لغتهم، صار منهم في كل شيء، حقيقة لا مجازا. فلا غرو أن يكون كبار علماء العربية من الفرس،

---

(١) ملف اللغات الكردية.

(٢) قصة المواجهة بين المغرب والغرب، ٢٤٨.

(٣) اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية.

والكرد، والترك، والتركمان، والهنود، والبربر، وسائر الأعراق الإسلامية التي استوطنت بلاد العرب، فتعربت، وأن يكون لهم من حب العربية والغيرة عليها ما لم يكن لبعض العرب، وما زال الأمر كذلك إلى اليوم، فمن المعلوم أن بعض كبار أعضاء مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد، من الكرد، والترك، والتركمان، والأفغان، والأمازيغ، كآل تيمور، ومعروف الرصافي، ومصطفى جواد، ومحمد كرد علي، وأحمد أمين، وسعيد الأفغاني، وعبد القادر المغربي، وعبد الرحمن الحاج صالح، إلخ. ومعلوم أن جدي الشاعر أحمد شوقي، وأحمد تيمور كانا من كرد الموصل[1]، وكان محمود سامي البارودي شركسيا، وصلاح الدين الأيوبي كرديا، وآل زنكي تركمانيين، وهم الذين حكموا مصر والشام، وأقاموا فيهما الدولة الزنكية والدولة الأيوبية، وكانتا دولتين عربيتين إسلاميتين خالصتين[2]، لم تشبهما نزعة قومية. وما يزال أشد أهل المغرب العربي حبا للعربية، ودفاعا عنها، ونصبا في معارضة ما تريد بها فرنسة وصنائعها من علماء الأمازيغ، وكتّابهم وسياسييهم، كالدكتور عثمان سعدي، والدكتور أحمد بن نعمان، والدكتور صالح بلعيد، وهواري بو مدين، واليامين زروال، والدكتور فؤاد بو علي، إلخ. وقد أشار إلى ذلك الدكتور عثمان سعدي في الموازنة بينه وبين مصطفى الأشرف، وزير التربية الجزائري السابق: وسيتملكك الذهول، حين تعلم أن مصطفى الأشرف ينتمي إلى بني هلال، وعثمان سعدي ينتمي إلى قبيلة النمامشة البربرية الشاوية، هذا يدافع عن العروبة، والعربية والتعريب وبني هلال، وينصفهم، وذاك يعاديهم، ويشوه سمعتهم. إنها لمفارقات غريبة في هذه الجزائر العجيبة![3]. ولا مفارقة في الحقيقة، فقد نبت الدكتور عثمان سعدي في كنف أبيه الفلاح الجزائري المتدين، فصنعه على عينه كما يصنع المسلمون أبناءهم، ودرس في مدارس جمعية علماء الجزائر، وجامع الزيتونة[4]؛ فنشأ على ما ينشأ عليه أبناء المسلمين، متدينا منتميا إلى أمته، معتزا بدينه وحضارته، معاديا للاستعمار

---

(١) انظر: المعاصرون، ٣٧.

(٢) ملف اللغات الكردية.

(٣) التعريب في الجزائر، ٢٥٦.

(٤) السابق، ٢٤١.

الفرنسي، مجاهدا له، غيرَ معتدٍّ بالأعراق، ولا متأثر بما زرعت فرنسة في عقول صنائعها من أمراض فكرية وثقافية، وكان الدين عنده هو معيار العلاقة بين الجزائريين، ويحب العربية ويدافع عنها، ويعدها لغته؛ إذ كانت لغة دينه، وتراثه، وحضارته، والتاريخ الإسلامي تاريخه الذي لا يعتدُّ بتاريخٍ غيرِه، أما النزعات العرقية، فمنتنة، كالنزعات القبلية، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهي مباينة لعالمية الإسلام، وما أقام بين المسلمين من أخوة، تتعالى على الأعراق، وعلَّمهم أن أصل البشر كلهم واحد، ولا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، «كلكم لآدم وآدم من تراب». وهذا -بعدُ- ما ألفى عليه الصالحين من سلفه، من أهل الجزائر، عربا وأمازيغ، ومن المسلمين في كل مكان، وألفى سلفه من الأمازيغ -إلى ذلك- ينتمون إلى العرب العاربة، ولا يعرفون لهم نسبا في غيرها، كما قال هو أيضا: «أنا أمازيغي حرٌّ، علمني أمازيغ أحرار، من أمثال العربي التبسي النموشي، وعبد الرحمن شيبان وأحمد حسين القبائليين، وغرسوا في نفسي أن البربر عرب»[1]، وأحب العرب، ودافع عنهم من حيث هم ثقافة وحضارة، وإخوة في الدين، لا من حيث هم عرق من الأعراق. وصُنع مصطفى الأشرف على عين أبيه، وكان من طبقة القياد، والباشغوات، والدواير، والباشعدول، الذين يفكرون بتفكير الأقدام السوداء[2]؛ ودرس في جامعة السربون، فحُشي عقله بثقافة فرنسة، فانتمى إليها دون الجزائر المسلمة، وإلى لغتها وتاريخها وحضارتها، وتقلد الماركسية مذهبا فكريا وسياسيا؛ فلا غرو أن يشنأ العربية، والإسلام، والتاريخ الإسلامي. وكذلك كان فرحات عباس، وإن كان دون مصطفى الأشرف في ذلك، وهو الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب. وهذا بعينه هو الذي جعل قاضيا عربيا يحكم على الدكتور عثمان سعدي في قضية رفعها عليه غلاة النزعة البربرية، أن حال بينهم وبين إفساد ذات بين

---

(١) عثمان سعدي: اللوبي الفرنكفوني العميل يعيق استعادة الجزائر سيادتها اللغوية.

(٢) التعريب في الجزائر، ٢٤١. وهذه الأسماء كانت تطلق على فئات من صنائع فرنسة في الجزائر، يتجسسون لها على المجاهدين، ويكونون تراجمة بينها وبين السكان، وينفذون ما تأمرهم، كالقتل، والإحراق، والسجن، والتعذيب، والتهجير.

الشعب الجزائري، وجعل القاضي الذي برَّأه أمازيغيا[1].

وكان أشد المسلمين في هذا العصر تنكرًا لذلك التاريخ غلاة الترك، والكرد، والبربر، فقد اصطنع الاستعمار منهم صنائع، نال بها من وحدة البلدان العربية، وسلَّ على العربية سيفا. وإن كان بعضهم أشد عداوة من بعض، على حسب علاقتهم بالاستعمار، وغلوِّهم فيما يتقلدون من المذاهب التي نفخ فيهم. وإنما أعني من اصطنع الاستعمار من هذه الأعراق دون من لم يصطنع، فما غيَّر الذين لم يُصطنَعوا ولا بدَّلوا، فعلاقتهم بإخوانهم من المسلمين علاقة حب وولاء، لا تشوبها شائبة، فإن كانوا إلى ذلك واعين، كانوا أعداء للنزعات المستحدثة وأهلها؛ لما يعلمون من حقيقتها، وحقيقة ما يريد مَنْ صَنَعَها، من تمزيق شمل المسلمين، ليتيسر له بلوغ ما يريد منهم. وتنتحل هذه النزعات كلها العلمانية الليبرالية أو اليسارية، وفيها ما له علاقة بإسرائيل، يتوسل بها إلى دخول المحافل الدولية، وتصعيد ما يسميه قضيته، ومناصرتها، والضغط بها على الحكومات العربية لانتزاع ما يريدون منها، وهي علاقة تقتضي التنكر للقضايا الإسلامية، وادعاء أنها لا تعنيهم، وإنما يعنيهم إقامة مشروعهم التفتيتي. وتتوسل بها إسرائيل إلى تمزيق العرب وإضعافهم، وشغلهم بأنفسهم عن التنمية وتحرير ما تحتل من أرضهم. وللغربيين عبقرية عجيبة في تفتيت الشعوب، وضرب بعضها ببعض، وعلى تفتيت الشعوب بنى الإنجليزُ سياستهم في احتلال العراق، فقد جلبوا له طائفة من النصارى، سَمَّوها الآشوريين والكلدان، لا علاقة لها بالآشوريين والكلدان الذين كانوا يسكنون العراق منذ القدم، وخلعوا عليها هذه التسمية؛ ليوهموا أنها من أهل العراق الأصليين، فحاربوا بها تركية، وكانوا يهددون وحدة العراق، إذا طالب بالاستقلال عن بريطانية. وتمرَّدوا على الدولة العثمانية قبل الحرب الأوربية الأولى بتحريض من روسية، فأخرجتهم من بلادها، فلما نشبت الحرب تطوَّع عشرون ألفا منهم في الجيش البريطاني، ولما اندلعت ثورة العراق عام ١٩٢٠ قاتلوا مع الإنجليز، وطالبوا بالاستقلال عن العراق، وكانوا يتجسسون لبريطانية عليه. فلما خرج الإنجليز من العراق، بعثوا بعضهم إلى فرنسة في سورية ولبنان؛ لتبلغ عليهم ما كانوا يبلغون عليهم

---

(١) عروبة اللغة الأمازيغية، د.

في العراق[1]. وسنقف عند كل واحدة من هذه الطوائف، لنبين كيف اصطنعها الاستعمار في كيد العربية.

أ- الكرد

انتهت الدراسات إلى أن الكرد شعوب وليسوا بشعب، وقوميات، وليسوا بقومية، وأن ما يسمَّى اللهجات الكردية لغات، لا يتفاهم أهلها إلا كما يتفاهم العربي والآرامي والسرياني، والفرنسي والإسباني والإيطالي. ولم تكن لهم يوما لغة، يلتقون عليها[2]. ومما يصدِّق ذلك أن صلاح الدين ديمرطاش، رئيس حزب الشعوب الكردي التركي زار مسعودا البرزاني في إربيل عام ١٤٣٧ هـ، فكان يترجم بينهما ترجمان، فظن أحد صحفيي الترك أن سبب اختلاف لغتيهما أن صلاح الدين أرمني، يتظاهر بأنه كردي؛ لينتقم للأرمن من الترك. وقال أحد كرد العراق إنه حجز موعدا بمركز طبي تركي في أربيل، ثم جاء بكردي، يتكلم بالبهدينانية ليترجم بينه وبين المركز، فلم يفهم ما كان يقول، وحسب أنه يتكلم بالتركية! وقال آخر إن ابنته، وكانت تدرس في الصف الخامس الابتدائي، أُعطيت واجبا منزليا، هو نص من الإنشاء بالبهدينانية، فاستعان بأحد معارفه ليترجمه له[3]. وتبلغ اللغات الكردية من الكثرة أن مثلا كرديا يقول: للكرد لغات بعدد الجبال[4]. وهذا ما جعل أحد الباحثين من كرد العراق يقول: إنك حين تشاهد القنوات الكردية لا تطيق الجلوس أمامها طويلاً لكثرة لهجاتها، وتكاد تجزم بأن الكرد ليسوا بأكثر من شراذم من اللهجات والعشائر، وإن لغتهم لُعَب أطفال، ولا سيما القنوات التي هي خارج البلاد، وهي حقيقة، عجزت الإمارتان الكرديتان في شمالي العراق، برياسة جلال الطالباني ومسعود البرزاني، عن التغلب عليها، على اشتراكهما في الدعاوي القومية التوحيدية[5].

وليس للبحوث والدراسات الكردية واللغوية وعلماءِ السياسة إجابات ثابتة

---

(١) انظر: تاريخ الوزارات في العراق، ٣/ ١٣٥ (نقلا عن: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ١٥٩ وما بعدها).

(٢) الأكراد اللغة والسياسة، ٣٦ و ٧٥، وملف اللغات الكردية.

(٣) انحسار اللغة العربية في كردستان.

(٤) ملف اللغات الكردية.

(٥) الموضع السابق.

عن أصل اللغات الكردية، ولم يتأتَّ إلى اليوم إثبات الفرض القائل بنسبها أو نسب بعضها إلى اللغات الهندية الأوربية، وما يُدَّعى من ذلك لا دليل عليه، وهو متضارب، وليس فيه ما يمكن التعويل عليه[1]. وربما كان الصحيح أنها تنتمي إلى سلالات لغوية شتى، كما يبدو مما تشتمل عليه من مفردات سومرية، وسامية، وأكدية، وسريانية، وعربية[2]. ويمكن القول إن هذه اللغات ربما صارت كردية اتفاقا، وإن الكلام عن أصلها فرْض مبني على الحصيلة اللغوية وتأويلها[3]. ولا تختلف أصولهم عن لغاتهم، من حيث كثرة الأقوال فيها، لكن أقوالا كثيرة، تتفق على أن الأصليين منهم هم أهل جبال زاكاروس بين العراق وإيران، وأنهم مزيج من قبائل آرية وسامية، ولاختلافهم في الأعراق كان اختلافهم في اللغات[4]. وهذا الاختلاف من أسباب الصراع الدامي بين الحزب الديموقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، وهو خلاف بين الناطقين باللغة الشمالية (البهدينانية) والناطقين باللغة الجنوبية (السورانية)[5]. وما يزال التمازج قائما في العراق بين بعض القبائل الكردية والقبائل العربية، كربيعة، وقيس، والجبور، وتميم، والبيات، ويتكلمون العربية والكردية والتركمانية أحياناً، ويشتركون في الانتماء، ويتزاوجون. وفي الكرد قبائل معروفة، تعتقد أنها عربية، كقبائل الجاف، وبابان، والحفيد، والطالباني. ويذكر الرحالة هاي، وقد زار بلادهم في أول القرن العشرين، أن كل زعيم كردي تقريباً يفخر بأنه عربي، وينتسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أحد صحابته، ويظهر هذا أكثر شيء في الفيلية في خانقين، وديالى، والكوت، وهي ممتزجة باللور والعرب، وهم في ثقافتهم وتكوينهم العرقي أقرب الى العرب منهم الى الكرد، مع أنهم يحملون أسماء كردية، ويتكلمون بالفيلية، وهي قريبة من اللغات الكردية[6]. وفي بلاد الكرد خمس قوميات كبيرة، بينها من الاختلاف ما

---

(١) الأكراد واللغة والسياسة، ٣٨.
(٢) الموضع السابق.
(٣) السابق، ٣٩.
(٤) السابق، ٧٥.
(٥) سؤال الهوية الكردية، ١٢٦.
(٦) ملف اللغات الكردية.

لا يقل عما بينها وبين سائر جيرانها من غير الكرد، هي القومية السورانية، في العراق وإيران، والقوميتان البهدينانية والكرمانجية، في العراق وتركية، والقومية الظاظائية (الزازائية)، في تركية، والقومية الفيلية، في العراق وإيران[1]. وكل الذي يجمعها أنها في أرض متصلة من إيران إلى تركية والعراق. والدعوى التي أقام الاستعمار في عقول بعضهم هي التي أشعرتهم بالتميز، وجعلتهم يفكرون في أن يقيموا كردستان الكبرى، كما يفكر صنائع الاستعمار في كل قطر عربي فيما يبنون عليه الدولة التي يريدهم على إقامتها. فانفصال الكرد عن إخوانهم في العراق، أو تركية، أو إيران، أو سورية لا يزيل إشكالا؛ لأن الكرد ليس بينهم من القواسم المشتركة -غير الإسلام- ما يمكن أن يقيموا عليه دولةظ متجانسة متماسكة؛ وما بينهم هو ما بينهم وبين إخوانهم من الترك والفرس والعرب والتركمان. وهذا دليل على أن القضية الكردية مفتعلة، وإنما افتعلتها بريطانية فيما افتعلت؛ لتمزق بها شمل المسلمين، وتستحدث لبعضهم أيقونات من العداوة يعكفون عليها، وقد عاشوا قبل ذلك مع العرب في العراق والشام في غاية من الألفة والتمازج، وكان بينهم من التصاهر والاختلاط ما جعل كثيرا من العرب يستكرد، وكثيرا من الكرد يستعرب. فما أَنْ دخل الإنجليز العراق، واستتبَّ لهم الأمر حتى أصدروا عام ١٩٢٥ قانونا، ينص على أنه يحق للطوائف المختلفة في العراق تأسيس مدارس تعلِّم أبناءها بلغاتها[2]. وأخذوا يعلِّمون الكردية ويعلِّمون بها في مدارس كردستان، وجعلوها لغة الإدارة، والمحاكم، والمراسلات، وأيدوا بناء المدارس والتعليم والنشر بالكردية، وكان ذلك مبنيا على توافق بينهم وبين طائفة من كرد العراق على أن يؤسسوا حكما قبليا وعشائريا عرقيا يدين للحكم البريطاني. وألَّفَ الميجرسون -وكان حاكم السليمانية- كتبا في الكردية وقواعدها، ونشر عنها دراسات ومقالات، ودعا إلى استعمالها في السليمانية، ونشر هو ونويل الكتابات الكردية الأولى في العراق. وفعلت فرنسة في سورية مثلما فعلت بريطانية في العراق، فحرَّضت الكرد على الاشتراك في

---

(١) ملف اللغات الكردية.

(٢) تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩ ١٩٣٢)، ٩٥ (نقلا عن اللغة العربية في الفكر العربي، ٣٣١).

السياسة، لكن ذلك كان في حدود الهوية الوطنية السورية[1]. وكان كرد سورية يختلفون عن كرد العراق، فقد عارض معظمُ قادتهم في الجزيرة، بالتوافق بينهم وبين قادة الحركة الوطنية في دمشق، حركةَ انفصال الجزيرة، وحملوا عليها السلاح حتى قضوا على مشروعها الانفصالي في آخر العقد الرابع، من القرن العشرين[2]. وبعد استقلال سورية اندمجت صفوة الكرد، ولا سيما أهل الجزيرة منهم، في أجهزة الدولة العليا والمتوسطة، كُرْدًا عربا، وسلَّموا بهوية سورية العربية، وحكَم في مدة الانقلابات ضباطٌ كبار من الكرد المستعربين، كحسني الزعيم، وأديب الشيشكلي، وفوزي سلو، وتولى بعضهم مناصب كبيرة في الجيش، ولم يكن لواحد منهم سياسة، تخالف سياسة الوطنيين السوريين العرب، من حيث هوية الدولة[3]. وكانت هذه حالهم قبل الاستعمار الفرنسي، فقد كان المجتمع السوري مجتمعا واحدا، والكرد يتبوؤون فيه من أرفع المناصب ما يتبوأ غيرهم، وظل الأمر على ما كان عليه بعد الاحتلال الفرنسي، فقد كان السوريون مجمعين على إبراهيم هنانو -وهو كردي- قائدا للمقاومة السورية، حتى توفي. غير أن الأمر تغير بعد الثورة السورية عام ٢٠١١، فقبل بعضهم أن تصطنعه أمريكة لمشروعها التفتيتي، ورضي أن يكون سوطا، تَجْلِد به مَن تعادي من إخوانهم في الدين والوطن، واستعملتهم في التطهير العرقي في بعض المدن والأقاليم، على ما تقتضي سياستها، وجعلتهم دروعا، تصون بها جنودها من القتل، مقابل الوعد بدويلة أو دويلات غير قابلة للحياة، ولا نفع فيها إلا لمن يريد تفتيت الوطن العربي، وطمس هويته تيسيرا لإحكام القبضة عليه، وتقويةً لليهود، وعونا للاستعمار الجديد على إرساخ أقدامه في العالم الإسلامي، والهيمنة على منابع الطاقة، للهيمنة على العالم.

ولعل تاريخ الكرد في البلاد العربية وعلاقتهم بإخوانهم من العرب والتركمان هما اللذان جعلا فكرة الأمة عند الكرد أمرا غير مسلَّم به، بسبب ما بينهم من التنوع اللغوي، وتباين المدارك والتصورات في شأن السياسة، والدولة، والعمل

---

(١) انظر: الأكراد واللغة والسياسة، ٤٢ (الهامش)، و١٢٩، والمجتمع الكردي في المنظور الاستشراقي، ٤٢٥ (نقلا عن: الأكراد واللغة والسياسة، ٤٢).

(٢) مسألة أكراد سورية، ٥٤.

(٣) السابق، ٥٥.

السياسي، والأمة، والقومية، والصراع على معنى الكردية، فضلا عن وجود تيارات، تعتقد أن الإسلام من الأمور غير القابلة للتحييد أو العزل[1]، وهو ما يدل على أن الاستعمار انتزعهم من بيئتهم وهويتهم انتزاعا، وهم غير قابلين للانتزاع منها، من أجل أن يضارَّ بهم، ولم يكن ما فعل بهم شيئا هم أرادوه؛ لأن الأصل في شعوب، تجاورت، وامتزجت قرونا كثيرا، وكانت الرابطة بينها أقوى من رابطة النسب، ألا يكون الفصل بينها أمرا يسيرا، ومن غير اليسير أن يسلوَ بعضهم عن بعض، كأن لم تكن بينهم مودة، وكأن العلاقة المصطنعة التي يعرفون تاريخها، ويعي الأقدمون منهم كيف اصطُنعت، وما أراد مصطنعها، هي الأصل.

واصطنع الاستعمار فئة من الكرد، كان بعضها يعادي العربية، ويرى أن تكتب الكردية بالحرف اللاتيني، ويسوغون ذلك بقصور الهجاء العربي، وأن الهجاء اللاتيني خير منه، فضلا عما يدَّعي بعضهم من الأصل المشترك بينهم وبين الأوربيين، وأن استعمال الحرف اللاتيني عودة إلى الأصل[2]. وكان الذي بدأ ذلك اثنين من آل بدر خان في سورية، فقد اصطنعا الحروف اللاتينية التركية للكرمانجية مقتدين بمصطفى كمال، على حين قام توفيق وهبي في العراق بتطويع الأبجدية العربية لكتابة السورانية والبهدينانية[3]. وكان عبد الرازق بدرخان من أقدم من أيقظ النعرة الكردية بدعوته إلى كتابةٍ كردية، تؤخذ من الحروف الروسية، وساعده على ذلك المستشرق الروسي «آوريل»، عام ١٩٢٠، ثم أصدر الأمير جلادت بدرخان عام ١٩٣٢ م مجلة «هوار»، وكانت موادها تنشر بالرسمين العربي واللاتيني، ثم كانت تنشر بعد ذلك بالرسم اللاتيني وحده من العدد الرابع والعشرين. ثم صار أنصار استبدال الرسم اللاتيني بالرسم العربي يرون أنه صار مطلبا ملحًّا؛ لأن الأبجدية العربية ناقصة، وتشلُّ لسانهم وقواعد لغتهم الجميلة، وليس بوسعها أن تستوعب أحلامهم، والتغيير سيساعدهم على الاتحاد بالغرب، ويقضي على مشكلة الخط العربي، وهو -في نظرهم- أصعب من الخط اللاتيني، هذا إلى أن المؤسسات الأوربية تؤيد أن تستبدل الحروف

---

(١) الأكراد واللغة والسياسة، ٢٩.

(٢) السابق، ٩١ وما بعدها.

(٣) ملف اللغات الكردية.

اللاتينية بالحروف العربية، وقد درَّبت من أجل ذلك أكثر من ثمانمائة معلم كردي ليطبقوا التجربة في خمسين مدرسة ابتدائية[1]. ويفعل الكرد اليوم ما فعل الترك في بدايات القرن العشرين، من التخلي عن كثير من الكلمات والأساليب اللغوية الفارسية والتركية والعربية، وتتميم الكردية من الإنجليزية والفرنسية، بعد التخلي على الكتابة العربية[2].

وفي الكرد أحزاب سياسية غالية، كما في كثير من القوميات الإسلامية، ترى العودة بالتاريخ الكردي إلى ما قبل الإسلام، كما تعتقد الإلحاد والعَلمانية الغربية باسم القومية، وتحارب الإسلام والثقافة العربية بحجة أنها ثقافة أجنبية محتلة[3]. ولا يختلفون في هذا ونحوه عن غلاة القوميين من الترك والبربر، فقد نبشوا تاريخهم، فاستخرجوا منه ديانتي الترك والبربر القديمتين، وأرادوا إحياءهما لتكونا أصلا ثقافيا، يعوضون به الإسلام والثقافة العربية «الدخيلين». ولا يختلف هذا عما فعل دعاة الفرعونية والفينيقية، ممن كانوا يفتشون عن أصل -غير العروبة والإسلام- يبنون عليه توجههم وثقافتهم. وكان لسياسة غلاة الكرد اللغوية أثر كبير في إخراج العربية من إقليم كردستان العراق، حتى صار الطفل الكردي لا يكاد يسمع العربية، ولا يعرف ما يساعده على فهم درس من دروسها. ويتسم الجو العام في كردستان بعدم المبالاة بتدريس العربية، وإشاعة ثقافتها، فمكتبات الإقليم، ولا سيما مكتبات الأرصفة، تخلو خلوا تاما من الكتب العربية. وفي مجلس النواب العراقي نواب من الكرد، لا يعرفون العربية، ويتوقع بعضهم أنه بعد عشرين عاما سينشأ جيل لا يفهم العربية إلا بمترجم، بسبب سياسة التكريد، وإطلاق العنان للمشاعر القومية، والاعتزاز بالهوية الكردية[4].

ب- الأمازيغ

ويشبه الأمازيغُ الكردَ شبها شديدا، فلا يجمعهم أصل، فيما يرى بعض

---

(١) الأبجدية اللاتينية لكتابة العربية والفارسية، ٤٣ وما بعدها.

(٢) الأكراد واللغة والسياسة، ١٩٧ وما بعدها.

(٣) ملف اللغات الكردية.

(٤) انحسار اللغة العربية في كردستان.

الباحثين، وإنما هم قبائل مختلفة، ولا يتكلمون لغة واحدة، وإنما يتكلمون لغات شتى، ولا يفهم بعضهم بعضا في البلد الواحد إلا بترجمان، أو لغة أخرى، كالعربية والفرنسية، وهذا يخالف ما هو شائع من أن للأمازيغ لهجات، ذات أصل واحد، مع أنها لا تشترك إلا في نحو ٢٠٪ من المفردات، وبعض المفردات المشتركة ذات معان مختلفة؛ من أجل ذلك كان من الأدق أن تسمى اللغات الأمازيغية ذات الأصل الواحد، وهو أصل غير موجود كما يوجد في العربية، مثلا[١]. وهذا الاختلاف هو سبب استعمال ثلاث لغات أمازيغية في وسائل الإعلام المغربية، واستحداث كرسي جامعي لدراسة كل منها. وتُقدَّر اللهجات الأمازيغية بخمسة آلاف لهجة، يتفرع كل منها إلى عشرات اللهجات[٢].

وما تريد الحركة البربرية من جمع الأمازيغ تحت لواء واحد لم يجتمعوا تحته يوما إنما هو تخطيط وتدبير من فرنسة، كالذي كانت تصنع بريطانية ثم أمريكة بعدها بالكرد. ولم يُعرَف من تاريخ الأمازيغ، مذ أسلموا، أنهم رأوا أن شيئا يفضُل الدعوة إلى الإسلام ونشرَه، ونشْرَ لغة القرآن، في بلادهم وخارجها، وما نهضوا لتأسيس دولة إلا من أجل توسيع رقعة بلاد الإسلام والعربية، وما عُرِف عن ذي سلطان منهم أو علْم أنه أسَّس مِلَّةً، تنادُّ الإسلام، أو تدافع عن عقيدة وثنية محلية[٣]. ولذلك كانوا هم الذين تولوا تعريب المغرب العربي، ولم يعرِّبه العرب، وكان مأتى التعريب من جهتين: الإدارة، وكانت بيد حكام أمازيغ، والعلم، وكانت ترعاه أسر علمية في أعماق المغرب الأمازيغي[٤]. وكذلك كان الكرد، مع خلاف يسير، هو أن الكرد فيهم أقلية غير مسلمة، وأسْلم الأمازيغ كلهم، وأن انتشار العربية في الأمازيغ أشد منه في الكرد، فإن الذين لا يتكلمون إلا الأمازيغية وحدها في المغرب الأقصى -مثلا- بين ٥ و١٠٪، وهم إما مسنُّون، وإما نساء، يقيمون في الأقاليم النائية[٥]، ويتكلم سائرهم بالعربية، أما

---

(١) ترسيم اللغة الأمازيغية.

(٢) انظر: إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ١٠٠، والتعدد اللغوي، ٨٣ و١٠١، وهل تشتعل حرب الحروف؟، ٢١، وفرنسا والأطروحة البربرية، ١٢، والتعريب في الجزائر، ١٩٥ وما بعدها.

(٣) التعدد اللغوي، ١٠٢.

(٤) التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، ٢٢٢.

(٥) طروحات حول الثقافة واللغة والتعليم، ٦٧.

الجزائر فـ ٩٩٪ من أمازيغها يعرفون العربية[١]، وكثير من الكرد لا يعرف العربية، ولا سيما كرد تركية وإيران؛ لأنهم يقيمون في دولتين غير عربيتين. ووجه شبه آخر، هو تمازج العرب والأمازيغ تمازجا أزال كل تباين، وجعل من العسير تمييز بعضهم من بعض، حتى كان يقال في المغرب: سبحان من عرَّب دُكَّالة، وشلَّح مَسِّيوَه[٢]. وإنما يعوِّل مَنْ يفرِّق بينهم على اللغة وحدها، على ما ثبت من أن بعض من يتكلمون بالعربية وحدها أمازيغ الأصل، وبعض من يتكلمون بالأمازيغية عرب. ولم يكن في المغرب العربي قبل الاستعمار الفرنسي من النزعات الشعوبية ما كان في المشرق الإسلامي[٣]. ولعل من أسباب ذلك ما كان الأمازيغ يعتقدون من أنهم عرب عاربة، هاجروا من اليمن؛ فكانوا يشعرون بالوحدة التاريخية والعرقية بينهم وبين العرب، وهو ما علل به بعض الغربيين دخولهم في الإسلام قاطبة، وما كان بينهم وبين العرب من تمازج وتوافق، يعِزُّ نظيره بين الأجناس. وإنما صُنِعت النزعة البربرية في العقد الخامس من القرن التاسع عشر، إذ تبين الفرنسيون أن في الجزائر جنسا، يسمَّى البربر، فبنوا عليه نظريات، وبحوثا، أنهوها إلى أنهم جنس آري، أو هندي أوربي، لا علاقة له بالجنس السامي، ولا الحامي، وراحوا يبحثون عن الفروق بينهم وبين العرب في المقابر، والمتاحف، والحوادث التاريخية، واللونِ، واللهجات، والأعراف، والحياة اليومية، وسخَّروا ما يملكون من وسائل مادية وبشرية، وطاقات العلماء، والمستشرقين، وخبراء التاريخ، واللغات، والديانات، والإناسة، والحفريات، من أجل عزل المغرب عن المشرق، ونفْي كل صلة عرقية بينهما، وزُيِّف في سبيل ذلك كثير من الأفكار، وقدِّمَ على أنه حقائق علمية ومسلَّمات، وليس سوى مزاعم، سرعان ما انكشف زيفها، وتبين ما وراءها من مكر وخداع[٤].

فكانوا يُدْخلون الأمازيغي والعربي في المختبر الفرنسي، فيأخذون عينات من دمهما، وجلدهما، فيحللونها تحليلا إناسيا، ولسانيا، ونسَبيًّا، وسلاليا، ثم يعلنون أن في الجزائر شعوبا، وأن بين شعوبها اختلافا في تدينها، فبعضها متدين شديد

---

(١) فرنسة والأطروحة البربرية، ظ ٢٩٨.

(٢) العربية والأمازيغية: بديهيات لا بد منها، ٢٦.

(٣) السابق، ٢٧.

(٤) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٣٤.

التدين (العرب)، وبعضها ليس بذاك التمكن والرسوخ في الإسلام (البربر)، كما لا يستوون في المعرفة بالعربية، بل هي غير مستعملة ولا معروفة في بعض أقاليمهم. وبنوا على اختلاف العرب والبربر أن البربر أقرب إلى الغرب، وأنهم حلفاء فرنسة الطبيعيون. وأخذوا يتظاهرون بأنهم يعاملونهم معاملة تختلف عن معاملة العرب، بعد أن كانوا يسوون بينهم في سوء المعاملة، إذ كانوا يظنون أنهم كلهم عرب مسلمون، وأخذوا يقربون بينهم وبين الفرنسيين والنصرانية. وإنما كان ذلك شيئا يستميلونهم به، ليفصلوهم عن العرب، وإلا فقد كانوا يضمرون لهم مثل ما يضمرون للعرب من العداوة، حتى الفرنسيون الذين كانوا يثنون عليهم بالهدوء، والقرب من الحضارة الفرنسية لاتصالهم القديم بالروم، كوارنييه، فقد أقام لهم المحاكم، ونصب المشانق بعد ثورة عام ١٨٧١، واغتصب أرضهم، وألزمهم دفع الغرامات الباهظة[١].

وأبانت كتب الضباط الفرنسيين الذين كانوا يحكمون المغرب ومذكراتهم عن جانب من خططهم في اصطناع الأمازيغ، واستلحاقهم، وإخراجهم من دينهم، واستعدائهم على العربية، والحؤول بينهم وبين تعلمها، وتعليمهم الفرنسية بدلا منها، ومضارة العربية بالأمازيغية. وكانت خلاصة ما قالوا: يجب أن تكون القبائل المساعدَ الأكثر ذكاء لمشاريعنا والشريك الأنفع لأعمالنا، وأن نعمل ما في وسعنا لنزيل الإسلام والعربية من مدارس البربر، وأن نكتب لهجاتهم بحروف لاتينية، وأن نوجِّه عملنا كله إلى تعليم البربر الفرنسية، وأهم من ذلك أن نمنع نشر الإسلام فيهم، ونحول بينهم وبين تعلُّم العربية؛ لأن تعلمها من أسباب نشر الإسلام، لأنها تُعَلَّم بالقرآن. إن الفرنسية -لا البربرية- هي التي يجب أن تحل محل العربية لغةَ حضارةٍ مشتركةً. وينبغي أن تُبنَى السياسة البربرية على تمييز البربر من العرب، والجد في تقريبهم من فرنسة، وأن يُبْنَى ذلك التمييز على العادات. إنه لمن المضرِّ بنا ألا نقاوم تلاحم شعب ذي لغة واحدة، ومؤسسات واحدة. يجب أن نتقلدَّ القاعدة التي كان يتقلدُّها الحكم في المغرب: «فرِّق تسُدْ»، إن البربر مفيدون لنا في محاربة العرب، ويمكن أن

(١) تاريخ الجزائر الثقافي، ٦/ ٣٠٤ - ٣١٦.

نضرب بهم الحكم[1]. وكان بعض المنظرين للاستعمار الفرنسي في الجزائر -كالمارشال بيجو، والمنصر شارل دوفوكو- يرون أن خطة فَرنسة في فرْنسة الجزائر لن يكتب لها النجاح ما لم تسندها خطةٌ، تردُّ الجزائريين عن دينهم، فلن يطيعوا فرنسة أو يكونوا فرنسيين، ولا يكونون فرنسيين أو يتنصَّروا، والنتيجة الحتمية للغفلة عن هذا وعدم العمل عليه نشوءُ روح قومي، يطرد الفرنسيين من مستعمراتهم في شمالي إفريقية، وسينمو هذا الروح في الطبقة المثقفة؛ فتتوسل بالإسلام إلى إثارة الجماهير الجاهلة، وهو خطأ، سيعلم الفرنسيون أنه كان سبب تفريطهم في كثير من الأرواح، كان يجب عليهم إنقاذه[2]. ولهذا قضى شارل دوفوكو حياته كلها في دراسة المغرب، ونشْر النصرانية فيه، والتخطيط للثأر من الإسلام الذي زعم أنه أخرج منه النصرانية[3]. واستَعملت الكنيسةُ كلَّ وسيلة في مساعدة الاحتلال وعونه على بلوغ ما أراد[4]. وقال الأميرال كيدون، والي فرنسة على الجزائر، يخاطب الآباء البيض الذين كانوا يجدُّون في التنصير: إذا سعيتم في استمالة الأهالي بالتعليم، وبما تُسْدُون إليهم من إحسان، خدمتم فرنسة خدمة جليلة، فليس في وسعها أن تَلِدَ من يعمُر الجزائر؛ فلْنُفَرْنِس مليونين من البربر؛ ليتولوا ذلك عنا[5]؛ فكان تنصير البربر في الجزائر ركنا من أركان السياسة الفرنسية منذ احتلتها إلى الحرب الثانية[6]، والركن الآخر فرْنَستَهم. فلما عجزوا عن تنصيرهم، جدُّوا في إخراجهم من الإسلام؛ إذ كان أقلُّ فوائد ذلك للفرنسيين ما يترتب عليه من فراغ فكري وثقافي، يجرِّد من أسباب الممانعة الحضارية، ودواعي المقاومة المادية والمعنوية، ويهيئ لتقبُّل ما يريد المستعمر، وهي خطة من خطط الاستعمار في العالم الإسلامي كله، كما قال صموئيل زويمر، رئيس جمعيات التنصير في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥ م،

(١) انظر: النهضة اللغوية ومخاطر سياسات التلهيج الفرنكفونية، ٣، والفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ٨٦ و ١١٦ و ١٤٤ و ١٦٧، والقضية الأمازيغية في الجزائر: الخلفية التاريخية والتطور السياسي، ٩٤.

(٢) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣٢٩، واطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، ٦٦، واللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٤١، والمغرب العربي في خطر، ٣٠ (نقلا عن: حزب البعث الفرنسي، ٨٠).

(٣) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٤٠.

(٤) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٨١ وما بعدها.

(٥) التعليم في المغرب العربي، ١٠٩.

(٦) السابق، ١٠٩.

وهو يهنئ الجمعيات التنصيرية في العالم الإسلامي ببلوغ ما أراد الاستعمار: إِنَّ ما نَدَبَتْكُمْ له دول النصرانية فِي البلاد المحمدية ليس تنصير المسلمين، فإن فِي تنصيرهم هداية لهم وتكريما، وإنَّما ندبتكم لتُخْرِجُوهم مِنَ الإسلام ليكونوا مخلوقات، لاَ صلة لها بِاللهِ، ولا بالأخلاق التِي تعتمد عليها الأمم فِي حياتها، وبذلك تكونون طلائع الفتح الاستعماري فِي الممالك الإسلامية. لقد هيأتم العقول فِي الممالك الإسلامية لقبول السير فِي الطريق الذِي سعيتم في تعبيده: أَلاَّ تعرف الصلة بالله، وأَلاَّ تريد أن تعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه فِي النصرانية، فجاء النَّشءُ الإسلاميُّ مطابقا لِمَا أراد له الاستعمار، لاَ يهتم بجلائل الأمور، ويحبُّ الراحة، والكسل، ويسعى في درَك الشهوات بكل وسيلة، وهي غايته فِي الحياة، فهو -إن تعلَّم- فَلِلحصولِ على الشهوات، وإن جمعَ المال، فللشهوات، وَإِن تبوَّأ أسمى المناصب، فمن أجل الشهوات، ويجود بِكُلِّ شيء لِلوصُولِ إلى الشهوات[1]. وكذلك قال ل. شاتليه مرارا[2]. وكان التنصير عند الدول المستعمرة عملا سياسيا، كما قال روبرت فليبسون: إن أوائل المنصرين الذين توجهوا إلى إفريقية في القرن التاسع عشر، كانوا وطنيين بالقدر الذي كانوا يرغبون في تنصير الأفارقة[3]. وهي كناية عن التزامهم العمل بما رسمت به سياسة بلادهم. ووضَعَ الفرنسيون خطة ثقافية، يتبلَّغون بها ما أرادوا، تنتحل صورة العمل الأكاديمي، فحْواها أن شمالي إفريقية كان قبل الإسلام رومانيَّ الروح، لاتينيَّ الثقافة، فلتعملْ فرَنْسَة على بعث إفريقية اللاتينية؛ فظهرت في الجزائر -من أجل ذلك- مجلة عنوانها «إفريقية اللاتينية»، تُعنَى بهوية البربر «الغربية، اللاتينية، النصرانية»، وظهرت هذه الفكرة أول مرة في مقر النائب الرسولي بالرباط، وقد استخلصت حاشيته من تمسُّك بربر جبال المغرب بعاداتهم أن إسلامهم ضعيف؛ فيمكن تنصيرهم بسهولة، ومما يعين على ذلك «سذاجة أخلاقهم»، فإنها تقرِّبهم من النصرانية. وقال الكاردينال لافيجري في مؤتمر التنصير الذي عقد سنة ١٨٦٧ في بلاد القبائل: «إن رسالتنا

(١) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ٥٢.

(٢) الغارة على الإسلام، ١٦ - ١٩.

(٣) الهيمنة اللغوية، ٤٨.

تتمثل في أن ندمج البربر في حضارتنا التي كانت حضارة آبائهم، ينبغي وضع حد لإقامة هؤلاء البربر في قرآنهم، لا بد أن تعطيهم فرنسا الإنجيل، أو ترسلهم إلى الصحراء القاحلة، بعيدا عن العالم المتمدن»[١]. وقال لوغلاي، المشرف على التعليم في الجزائر، في خطبة خطبها في المعلمين الفرنسيين ببلاد القبائل، في القرن التاسع عشر: علِّموا البربر كل شيء ما عدا العربية والإسلام[٢]. وقد أذنت باريس في تنصيرهم، مع أن حكومة الجمهورية الفرنسية الثالثة كانت حكومة علمانية متشددة؛ لكن تنصير البربر كان يبلِّغها غايتين: الفرْنسةَ، وجعْلَ البربر أشد معارضة للعرب[٣].

أما ما تبع الأقوالَ والخططَ، فحرْبٌ على العربية لا هوادة فيها، استُعمِلتْ فيها كل وسيلة، تحول دون نشرها وتعلُّمها، وإنشاءُ مدارس للبربر، تديرها حكومة الاحتلال، من ضباط، وكتَّاب، في قيادة الجيش الفرنسي العامة، ويشرف عليها المكلفون أمرَ الحرب النفسية. وافتتحت أول مدرسة بإيموزار، ثم توالى افتتاح المدارس في سائر الأقاليم الأمازيغية[٤]. وأُقصيَ إقصاء تاما كلُّ ذي صلة بالإسلام والعربية، ودُرِّست المقررات كلها بالفرنسية، ودُرِّست الأمازيغية بالحرف اللاتيني، وكان الضابط الذي يشرف على هذه المدارس معزَّزًا بلويس ماسنيون، وهو يومئذ أستاذ في الكوليج دي فرانس[٥]. وفي عام ١٩٣٤ أُسِّست مدرسة أزرو (Collè d' Azrou)؛ ليَستكمِل فيها أبناء البربر المتخرجون في مدارس الاستعمار دراستهم، بدلا من المدارس الإسلامية[٦]. وكان غرض المدارس البربرية أن تكون خلايا للسياسة الفرنسية، وأدواتٍ للدعاية، بدلا من أن تكون مراكز تربوية، وفَصْل أطفال الأمازيغ عن غيرهم من المغاربة، وإنشاء جيل مقطوع الصلة بالتراث العربي الإسلامي، متشبع بما يمكن من التراث الفرنسي والقيم الغربية النصرانية؛ لأن ذلك يعين على استتباع الشعب المغربي،

(١) عروبة اللغة الأمازيغية وإيديولوجية النزعة البربرية الاستعمارية، ١ وما بعدها.
(٢) السابق، ١ وما بعدها.
(٣) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٧٤ وما بعدها.
(٤) الأطروحة الأمازيغية في المغرب بين الكولونيالي والرهان الوطني.
(٥) أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، ٣٠ وما بعدها.
(٦) اللغة والهوية في الوطن العربي، ٩٥ وما بعدها.

وجعله ذيلا من ذيول حضارة الغرب النصرانية[1]. ولذلك دعا بول مارتي إلى أن يكون المعلمون فيها وكلاءَ لضباط القيادة، ومعاونين لهم، وأن تكون المدرسة البربرية فرنسية بتعليمها وحياتها، أمازيغية بتلامذتها وبيئتها[2]. واتُّبِعَت هذه السياسة بعينها في إقليم القبائل بالجزائر لهذا الغرض أيضا. إلا أن إقليم القبائل زاد على التعليم الفرنسي التعليمَ التنصيري، وكان يشرف عليه المنصر لافجيري[3]، وإرسالَ التلامذة الجزائريين إلى فرنسة للتعلم فيها لسلخهم من هويتهم[4]. وفَتحت فيه من المدارس ما لم تفتح في غيره من أقاليم الجزائر، كما يبدو من إحصاء عام ١٨٩٢، فقد بلغت المدارس الفرنسية فيه ٣٤٪ من المدارس التي فتحت في الجزائر كلها، مع أنه لا يزيد على ولايتين من ٤٨ ولاية، وجعلوا به معظم الاستيطان الفرنسي، وراحوا ينشرون فيه الفرنسية والتنصير[5].

وكان من أغراض فرنسة أيضا أن تصطنع من تحكم بهم مستعمراتها، ولا سيما الجزائر؛ إذ لم يكن لها من يكفي من الرجال لإدارتها، وأقرب المغاربة إليها مَن زعمت أنهم أقلهم رسوخا في الإسلام، ومعرفةً بالعربية، ومن لا تزال بهم بقية من الثقافة النصرانية التي دان بها أجدادهم يوما، دون العرب الذين عدَّتهم أعدى أعدائها، وأبعد أهل المغرب منها[6]. وفي السابع عشر من ذي الحجة عام ١٣٤٠هـ أصدرت ما يُسمَّى «الظهير البربري»، وكان غرضه جعْلَ عادات الأمازيغ شرعا لهم دون الإسلام، وإحلال قانون العقوبات الفرنسي محل قانون العقوبات المغربي المستمد من الشريعة الإسلامية، وإنشاء محاكم، تحكم بأعراف الأمازيغ، وجعلت إدارة أقاليمهم بيد الفرنسيين، والأقاليم العربية بيد سلطان المغرب، وألزمت محاكمَ العرف الأمازيغي أن تستعمل الفرنسية بدلا من العربية في الوثائق والمستندات، حتى كانت عقود الزواج تكتب بها، وكذلك فعلت في الجزائر، وكانت هذه السياسة تسمى السياسة البربرية في

---

(١) أضواء على مشكل التعليم في المغرب، ٢٩، والأطروحة الأمازيغية في المغرب بين الكولونيالي والرهان الوطني.

(٢) فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى.

(٣) انظر: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ٢/ ١٥٢ - ١٥٦.

(٤) السابق، ١/ ١٧٠.

(٥) عروبة اللغة الأمازيغية وإيديولوجية النزعة البربرية الاستعمارية، ١ وما بعدها.

(٦) التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر، ٢٦٩ - ٢٧١.

المغرب[1]. وكان من المتبع في محاربة العربية في بلاد البربر عدم استعمالها في الاتصال بهم، ومقاومة العطارين (البدالين) الجائلين لئلا ينقلوا العربية إلى الجبال، ومراقبة الناس في الشوارع، وفي كل مكان؛ حتى لا يتكلموا بالعربية، مع أخذهم بالعقاب، إذا فعلوا، وتدوين النحو ومعجمات اللهجات المحلية، وكتابتها بالحروف اللاتينية، إلخ. وهو شبيه بما فعل الإنجليز في جنوبي السودان، بل مطابق له، حتى كأن الإنجليز إنما اهتدوا بما فعل الفرنسيون. وكانت فرنسة تَهُمُّ بأن تعمم هذه السياسة على المغرب كله، فلا تفرغ من إقليم إلا أتبعته إقليما آخر[2]. والسياسة البربرية -في نظر الاستعمار الفرنسي- خير سلاح، تحارب به الأخطار المقبلة؛ لأنها تحيي الأعراف البربرية قبل الإسلام، وتدخلها في القانون الفرنسي، وتكوِّن منهما خليطا، يحمل المغاربة على التحاكم إليه، بدلا من التحاكم إلى الشريعة الإسلامية.

وزعمت هذه السياسة أن الإسلام لم يخلُص إلى قلوب البربر، وإنما أسلموا على مضض إسلاما ظاهريا، ولم يسلموا عن يقين، ولم يكن القرآن عندهم قانونا ولا دستورا أساسا، وإنما هو كتاب دين، ليس إلا، ولم يؤثر الدين في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية كما لم يؤثر في حياة الأوربيين، وإنما كانوا مسلمين بالاسم، وهم وثنيون، في الحقيقة، ويزاولون «الإسلام الوثني»، ويسهل تخليهم عن الإسلام الصوري[3]. وزعموا أن الإسلام ظل يعمل عمله فيهم اثني عشر قرنا، فلم يستول على روحهم، وعجَزَ القرآن عن أن يؤثر فيهم، وما كانوا ليعرفوه لو لم تعلِّمهم إياه فرنسة. وحافظوا على ديانتهم قبل الإسلام، وكانوا يحتكمون إلى العرف في القضايا الدينية والسياسية[4]. وكانوا يقولون: امسحوا قشرة الإسلام عن البربر، تظهرْ نصرانيتهم. وبنوا على هذا زعمهم أن إقليم القبائل سيتغير في أقل من جيلين، ويغدو فرنسيا، وكان بعضهم يقول:

(١) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٧٣، وفرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى.
(٢) من أجل تفاعل لغوي، ٥٥ و ٥٧.
(٣) قصة المواجهة بين المغرب والغرب، ٢٢٦.
(٤) انظر: الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ٨٦، والسياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٦ و ٢٧١ و ٢٦٧ وما بعدها و٢٧٠ و ٢٧٣ و ٢٨٧، والنشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ١٩٥ و ٢٣٧، وتاريخ الجزائر الثقافي، ٦/ ٣٢٢، والجزائر: المفكرة والتاريخية، ١٩٤ وما بعدها، والتعدد اللغوي، ١١٤ ومابعدها.

هؤلاء السكان يمكنهم، بل يجب عليهم في وقت قصير، أن يصبحوا فرنسيين لغة وروحا، ومن زار الفلاحين في حاحا (قبيلة أمازيغية)، أو رأى سكان الجبال -مع عزلتهم في الأطلس الكبير- لم يساوره شك في أن بلاد الشلوح كلها ستكون بعد أعوام قليلة إقليما فرنسيا[1]، «نحن لا نستبعد أن يأتي يوم نرى فيه رعاة آيت أُمجليد (قبيلة أمازيغية) وقد صارت ألسنتُهم تلهج بالقول: إن أسلافنَا كانوا من بلاد الغال»[2]. واختلقوا من أوجه الشَّبَه بينهم وبين البربر ما يسوغون به ما يريدون من استلحاقهم، فقالوا إنهم لاتينيون قدامى، ونصارى، وإن مؤسساتهم المستمدة من القانون الروماني على غرار المؤسسات الفرنسية أقرب إلى مبادئ الجمهورية من المؤسسات العربية الاستبدادية، وإن دستورهم جمهوري، وحكمهم ديمقراطي، وقراهم تشبه قرى فرنسة بسقوفها القرميدية الحمراء[3]؛ فتصييرهم فرنسيين -من أجل ذلك- سهل؛ لأنهم أسلس من العرب قيادا، وأقل أنفة من أن يحكمهم نصارى[4]. وزعم بعضهم أنهم ما عرفوا الإسلام ولا آمنوا به يوما، وأنهم كانوا وما زالوا نصارى، وأن منصِّري فرنسة الذين بثت فيهم إنما هم وعَّاظ، يذكِّرون «إخوانهم» بدينهم القديم، وليسوا بدعاة إلى دين جديد، أو معتقدات غريبة، وأن فرنسة، إذ احتلت شمالي إفريقية، ما فعلت إلا أن استعادت ولاية، فقدتها منذ عهد الرومان، وهي اليوم تطالب بحقها فيها؛ لأنها وارثة الرومان[5].

واحتلال الرومان أرض الغير لا يجعلها ملكا لهم، ولا ملكا لمن يرثهم، ولا يسقط حق أهلها فيها، وإذا كان احتلال الأرض وحده هو ما تسوِّغ به فرنسة ملكيتها، فإن من احتلها قبلها أولى بها منها. وقد طرد الأمازيغ الأولون الرومان، ولم يقبلوا باستعمارهم، وأسلم الأمازيغ المستأخرون بمحض إرادتهم، وفتحوا قلوبهم للإسلام قبل أن يفتحوا له أرضهم، ورضوا بالعرب الداعين إليه إخوة لهم، وخلطوهم بأنفسهم، وما زالوا يؤمنون بالإسلام كما آمن به سلفهم،

---

(١) الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ١٤٧ وما بعدها.

(٢) مستويات لغوية، ٢٥.

(٣) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٧٧.

(٤) المشكلة الثقافية في الجزائر، ٥٠.

(٥) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٤١.

ويرغبون عن النصرانية كما رغب عنها سلفهم، ويأبون الاستعمار الفرنسي كما أبى سلفهم الاستعمار الروماني. وإذا كان بعض الأمازيغ دانوا بالنصرانية يوما، فقد دانوا قبلها بديانات أخرى، ثم رغبوا عنها، وليست النصرانية بأَوْلى بهم مما دانوا به قبلها، ولا ما دانوا به بعدها. وإذا كان الغاليون رضوا بالنصرانية التي جاءهم بها الرومان دينا، وباللاتينية لغة، فما رضي بهما الأمازيغ إلا مدة، ثم رغبوا عنهما، وهم أحرار فيما يدينون به، وما يتكلمون به من اللغات، إن فُرِض فرضا أن الفرنسيين ورثة اللاتين، وأن البشر يورَثون كما يورث المال. ولا يتبين لِمَ كانت فرنسة وارثة الرومان من دون الشعوب التي تتكلم باللاتينية، وتدين بالنصرانية، كالإيطاليين، والرومان، والإسبان، والبرتغاليين. ولو علم العرب الأولون أن هذا ونحوه مما يحتجُّ به الاستعمار الفرنسي لمِلْك البلاد والعباد، لضربوا فرنسة مثلا لضعف الحجة، واعتذروا للنحويين. غير أن هذه الحجج -على ضعفها- مهمة؛ لأنها تبين عن جانب من سياسة فرنسة في المغرب العربي، وما تنوي من استلحاقه، والسيطرة عليه بطريق الفرنسية والتنصير، كما استلحق بهما الرومان الغاليين. وعلى هذه السياسة أجمع ساسة فرنسة ومنصروها، وعلماؤها الاستعماريون، وأجمعوا على أنه لا يمكن الاطمئنان إلى المغرب العربي إلا بعد إخراجه من الإسلام؛ لأنه يحض على الجهاد، ويحول دون اندماج المسلمين في غيرهم من أهل الملل، ويربطهم برباط روحي، ويوحد فكرهم وشعورهم واتجاههم، وإذا كانت العاطفة الوطنية الاستقلالية وحدها هي التي أثارت سلفهم على الرومان، حتى أخرجوهم، فماذا سيصنع الخلَف بفرنسة، وقد زيد الإسلام إلى تلك العاطفة، وهو يحضُّ على جهاد الأجانب، وتهديم سلطان الدخلاء؟[1].

وبحثوا للأمازيغ عن أصل، يصلهم بالأوربيين، ويباعد بينهم وبين العرب، فقال بعضهم إنهم آريون، وقال بعض إنهم سلتيون، وقال آخرون إنهم ونداليون، ولغاتهم تنتمي إلى اللغات الهندية الأوربية[2]. وزعم بعض مؤرخي الاستعمار أنهم هم والسلتيين، والأنجليين السكسونيين، والغال، والباسك، والقفقاسيين

---

(١) فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى.

(٢) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٨٥.

من أرومة[1]. ومنهم من زعم أنهم جرمان، هاجروا من أوربة[2]. وما كانت عناية فرنسة بالأمازيغ عن حب لهم، وإنما هي خطة، تستعين بها على ابتلاع أهل المغرب كلهم، وتأليب بعضهم على بعض، وضرب بعضهم ببعض؛ لأن العرب هم الذين أعادوا ربط البربر بالمشرق بعد الفينيقيين، وأثَّروا في المغرب فجعلوه جزءا من الوطن العربي وأمة الإسلام، ولم تعط فرنسة الأمازيغ مزايا سياسية أو اقتصادية، ولا أعطتهم حق المواطنة، وإنما أبقتهم فئة من «الأهالي»، كالعرب[3]، ومعلوم أن الجمهورية الفرنسية كانت قد ألغت استعمال الأمازيغية عام ١٨٨١، قبل أن يبدو لها أن تستعملها ضرة للعربية، ووسيلة لتمزيق المغرب العربي، وتدَّعي أنها تريد تخليص الأمازيغ من ظلم العرب[4].

ولم يذكر التاريخ مرة واحدة قبل الاستعمار الفرنسي حركة بالمغرب العربي تعادي العروبة أو تتنكر للإسلام، أو تدعو إلى التمايز العرقي، وإنما كانت حوادث التاريخ تدخل في سياق واحد، هو العمل على نشر العربية، وتقوية منزلتها، وجهاد الدول الإسلامية بالمغرب -مِنْ رستمية، وحمادية، ومرابطية، وموحدية، وزيانية، وحفصية، وغيرها، وهي دول أمازيغية- في ذلك معروف. وما عدَّ الأمازيغ -قبل الاستعمار الفرنسي- أنفسهم إلا عربا، وكان الجزائريون منهم يقولون إنهم عرب عاربة، ويعتصمون بالإسلام كل الاعتصام، ويتمسكون بالعروبة، وأبغض شيء إليهم أن يُنْسَبوا إلى البربر[5]. وما زال الشاويون منهم على ذلك إلى اليوم، وهم ٦٠٪ من أمازيغ الجزائر، ولهم في نصرة الإسلام والعربية، والدفاع عنها والاعتزاز بها ما ليس لأحد من أهل المغرب العربي. وكان سكان إقليم القبائل بالجزائر قبل الاستعمار الفرنسي لا يُعرَفون إلا بالعرب، وما يزالون إلى اليوم يقولون «نحن العرب»، وكذلك كان يدعوهم الترك والإسبان، وما عُرِفوا قبل الاستعمار الفرنسي بالقبائل[6]، وإنما كانوا

---

(١) الأمازيغ (البربر)، ٤٣ نقلا عن: هل تشتعل حرب الحروف، ٢٢).

(٢) فرنسا والأطروحة البربرية، ٧٦ وما بعدها.

(٣) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٣٩٢.

(٤) هل تشتعل حرب الحروف، ٦٦.

(٥) السابق، ٢٧، والسياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ٢٩٨.

(٦) انظر مثلا: هل تشتعل حرب الحروف، ٣٠.

يسمون زَواوة. ولما احتلت فرنسة بلادهم عام ١٨٥٧ جمع المترجم الفرنسي الفونس مايير عام ١٨٥٨ جانبا من تاريخهم، أخذه من أفواه شيوخهم ومسنيهم، ثم نشرَه عام ١٨٥٩ في «المجلة الإفريقية»، وكانت خلاصة ما جمع أن شيوخهم يعتقدون أنهم عرب، ما عدا ثلاث قبائل، هي فراوسن، وإيجر، وغوبري، فإنها فارسية، وكان ذلك قبل أن تفكِّر فرنسة في صنع أسطورة القبائل لتفتت بها الجزائر[1]. ولما أرادت الدول الكبرى في المغرب، كالمرابطين، والموحدين، والمرينيين -وهي أمازيغية كلها- أن توحد المغرب بقبائله، بل لَمَّا أرادته دول أمازيغية صغيرة، كالزيريين، لم تجد منازعة ولا خلافا، ولا وجدت قبيلة من تلك القبائل، العربية والأمازيغية، حرجا أو غضاضة، في فعلها، ولا كان سببَ نزاع بينها، ولا وجدته واحدة من الدول العربية التي اجتمع عليها أهل المغرب أو بعضهم، كالأدارسة، والسعديين، والعلويين[2]؛ فما كانت القبائل كلها تميز العرب من الأمازيغ، ولا كانت للدول المغربية دعوى غير الإسلام، ولا عرفت رابطة، تبنى عليها العلاقة بين المسلمين غير الأخوة في الإسلام.

وما أرادت فرنسة أن توقع بين العرب والأمازيغ حاولت أن توقعه بين الأمازيغ أيضا، فقد فصلت الميزابيين عن التوارق، وقالت إن التوارق نصارى أصليون، وإن الصليب يَحُلُّ في كل مكان من حياتهم: في حروفهم، وسلاحهم، ودروعهم، وزخرفة لباسهم، والوشم الأوحد الذي يطبعونه على أيديهم وجباههم صليب بأربعة أفرع متساوية، وهو على مقابض سيوفهم، وخناجرهم[3]. وإنما راغت إلى ذلك لَمَّا بلت صلابة الميزابيين في دينهم، وشدة تمسكهم به وبالعربية، بسبب طبيعة مذهبهم الإباضي، وعجزت عن أن تستميلهم إلى ما استمالت إليه بعض أهل المغرب العربي، ولم تجد مجالا لمساومتهم فيما تريد من عزلهم عن إخوانهم في الجزائر، واصطناعهم أعداء للعربية؛ فعدَّت التوارق أقرب إليها منهم، لأنهم -في زعمها- دونهم في التدين، وخداعهم أيسر من خداع الميزابيين، لقلة تعلمهم، مع أنها لم تر من التوارق أيضا إلا ما رأت من إخوانهم

(١) فرنسة والأطروحة البربرية، ٥١.
(٢) قصة المواجهة بين المغرب والغرب، ٢٤٩.
(٣) النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ٣٢٣.

الميزابيين من صلابة في الدين، ومما أبان عن ذلك ما أقدم عليه بعضهم من قتل المنصرين.

غير أن الفرنسيين -على كل ما فعلوا- أخفقوا إخفاقا ذريعا، كما أخفق الإنجليز بعدهم في السودان، فقد قاوم الأمازيغ «السياسة البربرية» مقاومة مجيدة، وأثبتوا أنهم أشدُّ تمسكا بالإسلام والعربية من كل شعب آخر، فكانت المدارس التي أرادتها فرنسة صروحا للاستعمار قلاعا للإسلام والعربية، ومنها مدرسة أزرو، فقد جعلها الأمازيغ رمزا لوحدة المغرب، وتعلُّقِهم بالعربية والإسلام، بعد أن أرادتها فرنسة رمزا لنجاح خطتها في تفريق المسلمين[1]، وسقط الظهير البربري، وتراجعت عنه فرنسة عام ١٩٣٤[2]، بعد أن عدَّ أهل المغرب يوم صدوره يوم حزن في المغرب كله، يُضرِبون فيه عن العمل، ويعتصمون بالمساجد، بعد صلاة العصر، ويقرؤون «اللطيف»، وهو دعاء معروف عندهم، صورته: «اللهم يا لطيف، نسألك اللطف فيما جرت به المقادر، فلا تفرِّق بيننا وبين إخواننا البرابر»، وتُكرَّر «يا لطيف» آلاف المرات»[3]. وهذا ينفي ما زعم الفرنسيون من عدم تديُّن الأمازيغ، كما ينفيه تاريخهم المجيد، وما كان لهم من ثورات على الاستعمار، كثورة أبي بغلة، والمقراني، والحداد، وأبي معزة، وفاطمة نسومر، وأزرقي، وعبدون، فضلا ثورات أخرى كثيرة، كان يشرف عليها بعض العلماء وشيوخ الطرق الصوفية[4]. كما ينفيه المنصِّرون الذين لم يستنكفوا من كل ما قد رأينا من التكاذيب، فقد أقرُّوا -بعد ما رأوا من صدق بلاء الأمازيغ في جهاد فرنسة، والاستمساك بدينهم- أنهم من أصدق المسلمين تدينا، وأصلبهم عودا، وأنهم من الشعوب الإسلامية التي لا يكاد يرتدُّ منها أحد عن دينه، كما قال شاتليه: من النادر المستغرَب أن تقع حوادث التنصير في بيوت السادة العلوية، والباتان (الأفغانيين) الخلَّص الموجودين في الهند، أو مشايخ الهند، وجيرانهم الأفغانيين، والترك، والتركمان، والعرب

---

(١) من أجل تفاعل لغوي، ٥٦ وما بعدها.

(٢) وضع العربية خلال العهد الاستعماري، ٧٧.

(٣) فرنسا والأطروحة البربرية، ٩٤.

(٤) انظر: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ١١٣ - ١٨٤.

الحقيقيين، والبربر[1]. وقال: إن سكان إقليم القبائل لم يكونوا يغيِّرون عقيدتهم إلا بمشقة كبيرة. وقال فيليب: إن تنصير القبائل مسألة صعبة الحل، إنها ثورة، من الواجب أن نخوضها، مع هؤلاء البربر[2]. وقال لافجيري بعد ثورة المقراني، وكان من أهم أسبابها سكوت بعض ضباط فرنسة عن التنصير في بلاد القبائل: إن الذين ثاروا علينا ليسوا عربا، وإنما هم سكان قبائل جرجرة وغيرها، «ذوو الأصول النصرانية»، ووصفَهم بالتعصب الديني[3]. وكتب شارميتان، مسؤول الآباء البيض في إقليم القبائل: إن القبائل بعيدون كل البعد عن «مملكة السماء» (النصرانية)، وليسوا مستعدين للتنصر، ولا يمكن التأثير فيهم، إن القبائلي مسلم مثل العربي، ولا يتقبَّل الإنجيل بسهولة، كما يتقبله الوثني[4].

ومن صور الإخفاق التي مني بها المنصرون الفرنسيون في بلاد القبائل أن كثيرا من اليتامى الذين نصَّرهم لافيجري، لما كبروا وعرفوا ما فعل بهم هربوا منه إلى أهليهم، ورجعوا إلى دين آبائهم[5]. وبنى الأب كروزا كنيسة بحصن نابوليون، ودرَّس العربية، وكان يتكلم القبائلية بطلاقة، وعرف عادات السكان، وعمل على استمالتهم بالملابس والأغذية، وفتح لهم مدرسة، تضم عشرين طفلا، فضْلا عن أعماله الطبية التي كانت منتشرة في القرى، واعتنى كثيرا بقرية بني فرَّاح، وبعد أن رأى أنه نجح في استمالتها، جاءها يوما؛ ليلقي فيها موعظة، فجعلوه أضحوكة، ووضعوا العذرة على مقعده، وغطَّوها بأوراق الشجر، فلما قام، ظهر ما لصق بثيابه منها، فأراد العقيد مارتن ليعاقب مَنْ فَعلَ ذلك، فمنعه، وقال: لعله عمل سفيه، وتمادى في دعوته، ثم جمع القريةَ أمينُها ليردَّ على ادعاءات كروزا بحضور مارتن، وسألهم هل يرغبون في السماح لكروزا بالإقامة فيهم، وهل يريدون الانتقال إلى النصرانية، فسكتوا، وذرفت عيونهم، حتى إن أحدهم لم يستطع الإجابة من شدة البكاء، وقالوا له: لن نترك ديننا ألبتة، وإن أرادت الحكومة أن تجبرنا على ذلك، فلعلها تدلُّنا على طريق

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي. ١٨.

(٢) النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ٢٣٥.

(٣) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ٦٨٩

(٤) السابق، ٦٩٥

(٥) السابق، ٦٩٦

لمغادرة البلاد، فإن لم نجد سبيلا، آثرنا الموت على التنصر، أما إقامة الراهب كروزا فينا، فمعاذ الله أن نقبلها[1]. ويرى بعض الباحثين أن سبب تعلُّم ضباط فرنسة الأمازيغية ما لقوا من عنف المقاومة، إذ احتلوا بلاد الأمازيغ، فتعلموا لغتهم ليستميلوهم[2]. غير أنه خلف من بعد ذلك السلف العظيم خلْف، كانت له آراء أخرى في مسلماته، كالإسلام، والعروبة، والعربية، بنى عليها سياسة غير سياسته، سوف نعرض لها في كتاب غير هذا.

ج- الأفارقة

١- السودان: لم تكن العربية في جنوبي السودان قبل الاستعمار البريطاني موضع خلاف أو اهتمام، على تعاقب الدول ونُظُم الحكم، ولم تكن مجتمعات السودان تتعامل فيما بينها بغير العربية، ولا سيما إداراتها، وتعليمها، واقتصادها، فلما احتلت بريطانية البلاد تركت العربية متداولة في الإدارات الدنيا، ولم تستطع أن تحول دون استعمالها في الشمال، وإن اصطنعت الإنجليزية لغة رسمية في دوائر الحكومة العليا[3]، وأنشأت كلية غوردون، وجعلت التعليم فيها بالإنجليزية؛ لتحمل السودانيين على تعلُّمها في الابتدائية والثانوية، إن أرادوا متابعة دراستهم[4]. وكانت اللغات قبل الاستعمار متداخلة، ولم تكن بينها حدود فاصلة، فكان الاستعمار هو الذي اخترع لها الحدود والفواصل اللغوية والجغرافية والعرقية، ليبني عليها تنظيما جديدا لأهل الجنوب، فجعل لكل لغة من اللغات الجنوبية التي اصطفى حدودا، وعدَّ العربية لغة دخيلة، يجب اجتثاثها، وصنَع لغاتٍ محلية، تقوم مقامها، وتوسَّل إلى ذلك بتأليف معجمات لِلُغات الجنوب، وأنظمةً لكتابتها، صنعها المنصِّرون، وكانوا يريدون نشر النصرانية باللغات المحلية؛ لأن الإنجليزية مرتبطة في أذهان الجنوبيين بالحداثة الأوربية العلمانية؛ فخشوا أن يكون ذلك سبب نفورٍ منها، وكانوا يخافون على

---

(١) السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل، ١/ ١٩٣، والنشاط التنصيري للكاردينال لافيجري، ١٩٨ وما بعدها و ٤١٢.

(٢) المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب، ١٦٠.

(٣) لغتنا العربية والسياسة، ٨٩.

(٤) العدوان على العربية عدوان على الإسلام، ١٨.

أهل الجنوب تعلُّم العربية لارتباطها بالإسلام[1]. أما الإداريون من الإنجليز، فما كانوا يمانعون في البداية في استعمال العربية؛ إذ كانت لغةً مشتركة بين الجنوبيين كلهم، فسمحوا بها لغةَ تخاطُب وتعليم، ريثما تُدرَّس اللغات المحلية، ويُختار بعضها لغةً لتعليم الأطفال، وريثما يتعلَّمون الإنجليزية. فلما بدا لبريطانية أن تفصل الجنوب عن الشمال، نزعت إلى رأي المنصِّرين، فحرَّمت العربية، وزعم حكامها في السودان للجنوبيين أن الحضارة الإنجليزية أقرب إليهم من الحضارة الإسلامية[2]، كما كان الفرنسيون يقولون للأمازيغ، وربطوا العربية في أذهانهم بتجارة الرقيق، وزعموا لهم أن العرب هم الذين اضطهدوا آباءهم، وباعوهم في أسواق النخاسة؛ لكي يبغِّضوهم إليهم، ويبغِّضوا إليهم دينهم ولغتهم[3]. وتابعتهم في ذلك الحركةُ الشعبية لتحرير جنوبي السودان، فكانت تروِّج أن الإنجليزية لغة «التحرير»، والعربية لغة «الطغيان»، والقطارُ الذي نقل الشريعةَ الإسلامية وحكْمَ الخرطوم إلى الجنوب، ومنعت الأطفال أن يتكلموا بها في المدارس، منذ انفصل الجنوب عن الشمال[4]. مع أن العربية العامية التي تُعرَف بعربية جوبة هي اللغة الأولى في جنوبي السودان، من حيث عدد المتحدثين بها، ومن حيث مجالات استعمالها، واللغة المشتركة بين القبائل التي تتباين لغاتها، ولغة التخاطب السياسي. وكان ذلك بتأثير من التجار والجنود الشماليين الذين كانوا يعملون في الجنوب قبل قانون الأقاليم المغلقة، وبعد استقلال السودان. هذا إلى المدارس العربية التي أنشئت بعد الاستقلال في الجنوب، وإلى أسباب، تتعلق بعربية جوبة، هي سهولتها في لهجات الجنوب المعقدة. ولولا قانون الأقاليم المغلقة وسياسة الاستعمار التي كانت تتعمد إبعاد التأثير

---

(١) الأيديولوجية السردية للغة، ١٩٩ وما بعدها، وثنائية اللغة: عربي جوبا نموذج التمايز والتواصل، ١٧٥ و ١٧٧. ويذهب بعض الباحثين إلى أن المنصرين في جنوبي السودان كانوا يرون أن تكون العربية هي لغة التعليم؛ لأنهم وجدوها لغة تفاهم، يمكن استعمالها في التعليم دون تجشم صنع لغة عامة جديدة، وظنوا أن التعليم بها سيكون سبب إقبال الجنوبيين على مدارسهم ظنا منهم أن تعلم العربية سيتيح لهم الالتحاق بالوظائف الحكومية، وكانت العربية حينئذ أكثر اللغات استعمالا في الإدارات الحكومية. (التحديات التي تواجه اللغة العربية في أفريقيا، ٣٦٥). ولعل ذلك كان في البدايات، ثم عدلوا عنه خوفا على من يتعلمها أن يسلم لارتباط العربية بالإسلام.

(٢) الأيديولوجية السردية، ١٩٩ وما بعدها، وثنائية اللغة، ١٧٩.

(٣) ثنائية اللغة، ١٧٦.

(٤) المعضلة اللغوية في النزاعات السودانية.

العربي عن الجنوب، ما كان بين الشمال والجنوب خلاف على العربية[1].

ودخلت العربية جنوبي السودان في العهد التركي، أيام حكم أمين باشا (١٨٧٨ - ١٨٨٨)، فقد أدخلت الإدارة التركية كثيرا من أبناء الجنوب في الجيش، وكانت العربية المتداولة في ذلك العهد تسمَّى عربية البمباشي، أي عربية الضابط مع جنوده، وهي أصل عربية جوبة، وهي لهجة مهجنة من العربية واللغات المحلية. وبعد نجاح الثورة المهدية انتهى حكم أمين باشا في السودان، فخرج إلى كينية، ويوغندة، وتنزانية، فاختلط جنوده بأهلها، فأثَّرُوا في لغتهم[2]، ونشأت من ذلك لغة مهجنة من العربية والسواحلية، تسمى اللكنوبي، صارت هي لغة التخاطب في تلك الدول، ولغة التخاطب بينها وبين جنوبي السودان، إلى أن جاء الاستعمار البريطاني، فقرَّر كرومر حاكم مصر والسودان العام، وجيمس كري، مدير المعارف، محاصرة العربية، وتولَّى تنفيذ الحصار مديرو المديريات الجنوبية، ورؤساء البعوث التنصيرية في الجنوب[3]؛ فعُزِل جنوبي السودان عن شماليه، وعُقِد لذلك مؤتمر الرجاف اللغوي عام ١٩٢٨، بإشراف المعهد الدولي للغات والثقافات الإفريقية في لندن، فحضره أربعون من علماء الدراسات اللغوية في إفريقية وإنجلترة، ونوابُ بعوثِ التنصير، في إفريقية والسودان. فانتهى إلى اختيار ست من لغات الجنوب للتعليم، هي: لغات الدينكا، والشلك، والنوير، والزاني، والباريا، واللاتوكا، ثم زيدت فيها المورو، واللاندوقو، والمادي، والتابوسا، والمورلي، بدلا من العربية، على أن تكتب بالحرف اللاتيني، وتكون الإنجليزية لغة التعليم من الصف الثالث الابتدائي إلى الثانوية، ولغةَ التعليم في المدارس الصناعية. وكان مؤتمر الرجاف إعلانَ حرب على العربية لإخراجها من الجنوب، وتعوير مصادرها، فقد قرَّر أن تُبْعَد من التخاطب، والتعليم، والمعاملات الرسمية، ويُمنَع التجار الشماليون والفلاَّتيون من الاتِّجار في الجنوب، ومن دخولِ المدن ومسارات التجارة المعروفة في الجنوب، لتقليل التجار المصريين والسودانيين الشماليين،

---

(١) الهوية السودانية من الثنائية المتوهمة إلى التعددية، ١٨ وما بعدها.

(٢) انظر: العربية في شرق إفريقيا، ١٣٣ وما بعدها.

(٣) لغتنا العربية والسياسة، ٨٧.

وأُخْرِج التجار الذين كانوا يزاولون التجارة عام ١٩٣٢، واستُبدِل بهم تجار يونانيون وسوريون نصارى، ونُقِل الموظفون الذين يتكلمون بالعربية، وأُحلَّ أبناء الجنوب الذين يتكلمون بالإنجليزية محلهم، ووُكِل العمل في الإدارة والكتابة والأعمال الفنية إلى الذين لا يعرفون العربية[١]. وحرَّمت الحكومة على أهل كردفان ودار فور دخول مديرية بحر الغزال، وعلى أهل بحر الغزال دخول كردفان ودار فور، وحدَّت من هجرة الرعاة الموسمية، وهجَّرت بعضَ قبائل الجنوب المتاخمة للمسلمين، كالبندا، والكريج، والبنقا، إلى أقاليمَ جديدةٍ بعيدة عنهم خوفا عليهم من التأثير العربي الإسلامي[٢]. واستبدلت بالجيش المصري في الجنوب جيشا من أهل الجنوب بقيادة بريطانية، وضمت الجنوب إلى مستعمراتها في شرقي إفريقة. وصدر أمر صارم إلى مفتشي بعض المراكز في السودان أن يمنعوا استعمال الكلمات والألقاب العربية في الأقاليم التابعة لإدارتهم، ويمنعوا زعماء القبائل وأهل الجنوب أن يتسمَّوْا بالأسماء العربية، أو يسمُّوا بها أبناءهم، وأن يجبروا التجار على ترك استعمال العربية مع حرفائهم، وألا يتكلموا إلا بالإنجليزية أو اللهجة المحلية. وحُرِّم على التجار بيع الملابس الإسلامية، وأُلْزِموا أن يَعْدِلوا عن لبس الأزياء الشمالية إلى الملابس الغربية. وكتب بعض الحكام إلى التجار كيف يجب أن تفصَّل الملابس التي تباع في الجنوب، وحرَّموا ختان الإناث، والتزاوج بين الشماليين والجنوبيين، ووكلوا التعليم إلى الجمعيات التنصيرية لتتولى تبديل هوية الجنوبيين بتنصيرهم، وحَمْلهم على التكلم بالإنجليزية. وأقاموا وحدات عنصرية قائمة بذاتها، أو وحدات قبلية، وشجَّعوا الأعراف والعادات والمعتقدات القبلية[٣]، كما فعل الفرنسيون في المغرب والجزائر، وكان غرض ذلك عند البريطانيين هو غرضه عند الفرنسيين: تفتيت المجتمعات بالمخالفة بين مراجعها الثقافية، واستعداء غير المسلمين على الإسلام والعربية، وإلقاء بغضهما في القلوب تيسيرا لإحلال اللغة الأجنبية محل العربية، وإخراج غير العرب من الإسلام، وصدًّا لغير المسلمين عن الإسلام.

---

(١) ما وراء دار فور، ٣٨ وما بعدها.

(٢) الموضع السابق، والسياسة اللغوية: التخطيط تحت ضغط السلاح، ولغتنا العربية والسياسة، ٨٨ وما بعده.

(٣) انظر: اللغة والدين والهوية، ٨٢ وما بعدها (الهامش)، وما وراء دار فور، ٤١ وما بعدها، وثنائية اللغة، ١٧٥

غير أنه بحلول العقد الخامس تبين لبريطانية أن سياستها اللغوية في الجنوب أخفقت، فرفعت عنه الحصار، وخلّت بينه وبين الشمال[1]. ولعل هذا سبب أن دستور السودان المؤقت لمّا نصّ عام ١٩٥٦ على أن العربية هي لغة السودان الرسمية، لم يعترض عليه أحد، إذ ذاك، على ما قد كان من حوادث الجنوب الدامية التي بدأت عام ١٩٥٥[2]. ولعل الذي جعل هذه السياسة تخفق أن من غير الممكن الفصل بين شعوب ممتزجة، وديارها متصاقبة، وكل منها يحتاج إلى الآخر، والفواصل بينها مصطنعة، وأصعب من ذلك أن يُفرَض على الناس ما يتكلمون به من اللغات، وما يستعملون من المفردات وما لا يستعملون، أما الخطط في جانبها الرسمي، فلم تخفق، لارتباط الحركة الشعبية بالدول الأجنبية، وتعويلها عليها في التمويل والتسليح، والدعم السياسي والإعلامي، ولذلك بقيت سياستها تجاه الإنجليزية واصطناعها لغة رسمية بدلا من العربية، على حالها، وهي سياسة، ما كان للحركة أن تنال من الغرب ما نالت إلا بها.

وعُدَّت الإنجليزية لغة الجنوب الرسمية في اتفاق أديس أبابا عام ١٩٧٢ بين الحركة والحكومة السودانية، مع أن أكثر الجنوبيين لا يعرفونها[3]، وإنما يعرفون العربية، فهي منتشرة في الولايات الاستوائية، ويتكلم بها أهل الولايات الجنوبية الأخرى، كولايات أعالي النيل الكبرى، وولايات بحر الغزال الكبرى، وتتواصل بها القبائل كلها، ولا يتكلم بالإنجليزية إلا العُصْبة التي هاجرت إلى أمريكة، وأوربة، وأوسترالية، أو لجأت إلى الدول التي تتكلم بالإنجليزية، ككينية، وأوغندة. ويُقِرُّ مثقفو الجنوب بأن الإنجليزية ما تزال بعيدة من أن تكون لغة الجنوب الرسمية، وأن العربية أولى منها بذلك؛ لأنها هي وحدها لغة التواصل اليومي بين أهل الجنوب كلهم، وهي المؤهلة للمعاملات الرسمية؛ لأن أكثر الموظفين الرسميين درسوا بها في الخرطوم، ولأن الذين تعلموا بالعربية في مدارس الشمال ثم التحقوا بعد الانفصال بجامعات الجنوب

---

(١) لغتنا العربية والسياسة، ٨٨ وما بعدها.

(٢) السابق، ٨٩.

(٣) تداخل اللغات في السودان، واللغة العربية أين هي في الخارطة اللغوية في جنوب السودان؟.

يجدون صعوبة في التعلم بالإنجليزية، ويرسبون في الامتحانات؛ لأنهم لا يفهمون الأسئلة[1]. غير أن الأمر ليس بيد أهل الجنوب، وإنما بيد فئة منهم مرتبطة بأمريكة وبريطانية، فهي تلتزم سياستهما في التمكين للإنجليزية، بغض النظر عما تقتضي مصلحة الشعب، كما هي سياسة الحكومات العربية في شعوبها، وإنما هي عصبة من عصب العالم الثالث التي هذا دأبها: تؤثر علاقتها بالغرب على مصالح الشعب، مع ما لا يخفى عليها من حقيقة الغرب وما يريد، كما يبدو من بيان الحركة الأول عام ١٩٨٣م، فقد حمَّل الاستعمارَ وحده وزرَ «التفريق» بين أبناء الوطن الواحد؛ «ليسود»[2]. فهي تعْلم أن الإنجليز -خاصةً- والدول المستعمرة -عامة- ما حرروا أحدا، ولا نال منهم شعب من الشعوب التي كانوا يستعمرونها خيرا، وإنما ذاقوا منهم العبودية، والسخرة، والسرقة، والسلب، والنهب، والغصب، والاستتباع، وطمس الهويات. كما لا يخفى عليها ما عاناه الجنوبيون من فرض بريطانية عليهم أن يتعلموا باللغات الجنوبية، فإن الأطفال الذين لهم لغة غير تلك اللغات المفروضة كانوا يُحْمَلون على تعلم واحدة منها، ليتعلموا بها عامين، ثم يُحملون على تعلم الإنجليزية ليتعلموا بها ما بعد ذلك. أي إن الطفل يحمل على تعلم لغتين أجنبيتين في وقت[3]، ولو عُلِّم بالعربية لكُفِيَ هذا العناء، إذ كان يعرفها هو وأهل بيته وسائر قبيلته، وإن فُرِض أنه لا يعرفها، فهي لغة واحدة، وتعلُّمها أيسر عليه من تعلم لغتين، وهي قريبة من لغته، ولغته حافلة بالمفردات والعبارات العربية، بخلاف الإنجليزية.

والإنجليزية التي يزعمون أنها لغة التحرير فرضتها بريطانية على أهل الجنوب فرضا، كما فرضت عليهم يوم الأحد عطلة أسبوعية، وأن يتَسمَّوا بأسماء أوربية، وحرَّمت عليهم ارتداء الأزياء الشمالية، وبعثت طلابهم للدراسة في أوغندة؛ ليتعلموا فيها الإنجليزية[4]، مع أن الأحد لا يعني لهم شيئا، وليس له معنى في ثقافتهم، يسوِّغ أن يتخذوه عطلة، وكذلك الأسماء الأوربية، فليست من لغتهم، ولا يعرفون ما تعني، ولم يسمع بها منهم إلا مَن درس خارج السودان، وليست

(١) المعضلة اللغوية في النزاعات السودانية.
(٢) الموضع السابق.
(٣) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٩١.
(٤) المعضلة اللغوية في النزاعات السودانية.

لهم علاقة ببريطانية أو أمريكة، تسوِّغ اصطناع الإنجليزية، ولم تُفْرَض العربية على أحد، وإنما تعلَّمها من تعلمها رغبة منه، وهي -بعد- لغة جيران، بينهم وبين أهل الجنوب من الدين، والرحم، والأرض، والثقافة، والتاريخ، والمنافع ما يسوِّغ أن يصطنعوها، وقد صيرها الاستعمال لغة مشتركة بينهم، وتعليمهم إياها وتعليمهم بها لا يكلف شيئا، بل يكفي ما يُنفَق في تعليم لغة أجنبية، ثبت أن التعليم بها يحول بينهم وبين التعلم.

٢- موريتانية: وبدأ الخلاف بين العرب والزنج في موريتانية على التعريب منذ العام الأول لاستقلال البلاد (١٩٦٠)، ففي مؤتمر الحزب الحاكم الذي سماه مؤتمر الوحدة عام ١٩٦١، نوقش استبدال العربية بالفرنسية لغةً رسمية للبلاد، وكانت فرنسة قد أثبتت في دستور البلاد أن الفرنسية هي لغتها الرسمية. وكان الذي سعى في جعل العربية لغة رسمية هو الغالبية العظمى من العرب، وعارضه المتفرنسون، ولا سيما الزنج، فلم يقبلوا بمناقشته[1]. وفي عام ١٩٦٥ أصدرت الحكومة قانونين ينظمان التعليم، ويجعلان تعلم العربية مع الفرنسية ملزما، فأوعزت السنغال وسفارة فرنسة في نواكشوط إلى كبار الموظفين من الزنج في الدولة أن يحرِّضوا الزنج على المطالبة بالاستقلال، ويحرِّضوا طلابهم على الإضراب عن الدراسة اعتراضا على جعل العربية مادة إلزامية في التعليم الثانوي متذرعين بأن تعليمها اضطهاد ثقافي لهم، ومقدمة لتغيير هويتهم، وأقصائهم من إدارات الدولة. فلما بدأت الدراسة عام ١٩٦٦ فعل الطلاب ما كانوا يحرَّضون عليه طوال العطلة، وناصرهم كبار موظفي الزنج، وأصدروا بيانات تؤيدهم، واستقال وزراؤهم من الحكومة، واستقال رئيس الجمعية الوطنية أيضا، وكان زنجيا. ثم وقعت مشاجرات وحوادث دامية بين العرب والزنج، قُتِل فيها بعض المواطنين وجُرِح بعض[2]. وذهب بعض الباحثين إلى أن فرنسة أرادت لتسقط الرئيس الموريتاني حينئذ، المختار بن داداه، بسبب القانون الذي يوجب دراسة العربية، وقالت هي ورئيس السنغال، سنغور، إنه يريد تعريب الزنج، وإدخال «عروبة جمال عبد الناصر» في موريتانية، فلا بد أن

---

(١) موريتانيا على درب التحديات، ٢٩٢

(٢) السابق، ٣٣٥ - ٣٣٨.

يعاقب بإزاحته من الحكم[1]. وفسّر الرئيس السابق، المختار بن داداه عداء الذين اعترضوا على التعريب بأمور، منها أنهم كانوا يخافون تعرُّب الزنج، واندماجهم في سائر المجتمع، ومنها تأثير الجامعة الفرنسية التي درس فيها غُلاَتهم، في العقد السادس من القرن العشرين، وهي جامعة يستحوذ عليها أناس شديدو العداء للمسلمين، لم ينسوا الحروب الصليبية، وهم ينقلون أفكارهم المعادية المصرَّح بها إلى أتباعهم دون أن يشعروا بذلك، ليصنعوا منهم أعداء للحضارة العربية الإسلامية[2]. أما ما سكت عنه الرئيس، فأن المتفرنسين من الزنج كانوا شديدي التأثر بفرنسة والتبعية لها، وكانت سياسة فرنسة في موريتانية كسياستها في سائر المغرب العربي، ومستعمراتها في إفريقية. وكانت تتعمد تعليم الزنج الفرنسية لتصطنعهم بها، وتخوفهم التعريب كما تخوفه المتعلمين تعلما فرنسيا في المغرب والجزائر، وتوهمهم أن سيكون سبب قطع أرزاقهم، وإخراجهم من أعمالهم. وما زال هذا الهاجس يلح عليهم إلى اليوم، ففي عام ١٤٣٥ هـ سأل صحفي زنجي رئيس الوزراء أن يترجم إلى الفرنسية توطئة، كان قدَّم بها لمؤتمر صحفي، كان يعقده في العاصمة، فقال له رئيس الوزراء: «أنت في بلد عربي، وعليك أن تفهم اللُّغة العربية، وإلا فتدبَّر أمرك». وقال رئيس الوزراء في مناسبة أخرى إن العربية يجب أن تكون لغة التخاطب والعمل الإداري في البلاد، فثارت ثائرة طلاب الزنج المتفرنسين، في جامعة نواكشوط، وقالوا إنهم يخافون أن يهمَّش الزنج المتعلمون بالفرنسية. وأصدرت حركة «أفلام» الزَّنجية بيانا، عدَّت فيه كلام رئيس الوزراء عُنصريا وإقصائيا، وحذَّرت من ضرر التعريب على متفرنسي الزنج، وطالبته بالاعتذار مما قال، أو الاستقالة.

ثانيا- خارج الوطن العربي

ويكيد الاستعمار الغربي العربية أينما حلت من العالم، ولا يقتصر على كيدها في الوطن العربي وحده، وإن كانت دواعي الكيد تختلف شيئا، فكيدها في الوطن العربي من حيث هي هوية، يريد طمسها، وكسر لحام أهلها، وتقطيع

---

(١) موريتانيا المعاصرة: شهادات ووثائق، ١٢٥ وما بعدها.

(٢) موريتانيا على درب التحديات، ٢٩٤ و ٢٩٦.

ما بينهم، والحؤول بينهم وبين دينهم وتراثهم، وحملهم على اصطناع لغة المستعمر، لتيسير استتباعهم، والحؤول بينهم وبين التقدم، واستيعاب العلم، وكيدها خارج الوطن العربي من أجل قطع ما بين المسلمين غير العرب ودينهم، وتجهيلهم به، وقطع ما بينهم وبين إخوانهم من العرب، والحؤول بينهم وبين الاتصال بهم، والإفادة منهم، والتأثر بهم، ومنع التعاون بينهم، تيسيرا للتفرد بهم، وتوجيههم، إذ كان الحؤول بينهم وبين الإسلام أكبر عون له على كسر الإرادة، وقتْل العزة، وانتزاع أهم أسباب الممانعة، والتجهيل الذي ييسر تنصيرهم، وحملهم على الإذعان لما يريد، لا يخشى مقاومة ولا انتقاما، هذا إلى ارتباط العربية بانتشار الدعوة الإسلامية وارتباط المسلمين (خارج الوطن العربي) بالعربية، من حيث هي لغة عقيدة وفكر وثقافة، يجب أن تكون تالية للغة البلاد الأصلية[٣]. وكان هذا سبب محاربة الأوربيين كلهم للإسلام والعربية منذ القرن السادس عشر (عصر الاستعمار الإسباني والبرتغالي). وقد أجمعت الدول المستعمرة على محاربة العربية، وإخراجها من حياة المسلمين، ومحاربة الهجاء العربي أينما حل، وإحلال غيره محله، واستوت في تلك الحرب دول أوربة الغربية، وروسية، وأمريكة التي هي أحدثها عهدا باستعمار العالم الإسلامي، كما قد رأينا في «مشروع الشرق الأوسط الكبير». وسوف نتناول بإيجاز شديد كيف حاربت هذه الدول العربيةَ وكادتها، وسعت في إخراجها من حياة المسلمين غير العرب؛ إذ كان اعتمادنا في هذا الكتاب بيانُ كيد العربية من حيث هي هوية، لا من حيث هي لغة فقط، غير أن مما يعين على بيان ذلك أن نلمَّ بما تلقى من كيد خارج الوطن العربي أيضا.

أ- إفريقية

كانت إفريقية قبل الإسلام قارة أمية، ولغاتها لغات شفهية، وليس لها تراث مكتوب، وإنما دخلتها القراءة والكتابة بطريق تجار المسلمين، ولأنهم كانوا متعلمين تبؤوا مكانة عظيمة عند ملوكها، حتى غير المسلمين منهم، فولَّوهم الوزارات، والمناصب الرفيعة، فضبطوا لهم الحسابات المالية، وشؤون الدولة.

(٣) اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية، ٥ وما بعدها.

وكانت لغتهم ودينهم ينتشران معهم حيث حلُّوا، وأسلم على يدهم بعض أكابر ملوك إفريقية، فكان لإسلامهم أثر كبير في انتشار الإسلام في القارة، وكان من أسلم منهم غدت العربية جزءا من دينه: يتعلمها، ويعلمها شعبه كما يتعلم شعائر الإسلام وأحكامه ويعلِّمها، وربما رحل بعضهم في طلب العلم إلى كبريات حواضر العلم، في المغرب العربي، ومصر، والحجاز، والعراق، والشام. وما حلَّ القرن السادس عشر حتى كان نصف قبائل إفريقية يتخاطب بالعربية[1]. ويقول الذين زاروا الفلاَّن في نهر الجمبيا في غرب إفريقية عام ١٧٣١ إن معظمهم كانوا يتكلمون بالعربية، ويتعلمونها في مدارسهم[2]. وقال سنغور إنها كانت أداة وحدة في غرب إفريقية المسلم كله[3]. وكان كثير من أهل إفريقية غير المسلمين يتكلمون بها أيضا، كأهل مدغشقر، وتأثرت بها لغتهم تأثرا شديدا، حتى ظنَّ بعض الفرنسيين -لما دخلوها أول مرة- أنها لغتهم، وظن بعضٌ أنها مشتقة منها، لكثرة ما فيها من كلمات عربية، وظلت لغتهم قرونا تكتب بالحرف العربي[4]. وتأثرت بها السواحلية، وهي من أكثر اللغات انتشارا في إفريقية، وتقدر المفردات العربية فيها بـ ٢٠٪ من لغة التخاطب، و٣٠٪ من اللغة المكتوبة ولغة الشعر، ويرى بعض الباحثين أن العربي منها نحو من ٩٠ر٢٢٪ فقط، ويرى بعض أنها ٤٢٪[5]. كما تأثرت بها اللغات التي دان أهلها بالإسلام، كالهوساوية، والفلاتية. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر عمَّت الحركات الإصلاحية غرب إفريقية، وكان تعليم العربية مما عُنِيَت به عناية كبيرة[6]، فكانت هي لغة العلم والتعليم، والتأليف، والدين، والثقافة، والإدارة في كل قطر إفريقي، دخله الإسلام، حتى قال توماس أرنولد: إنها «بلغت حدا يفوق كل وصف»، وكُتب بها التراث الإفريقي السابق للاستعمار كله. وكان المستعمرون قبل أن تنتشر لغاتُهم في إفريقية يعاملون أهلها وحكَّامها

(١) اللغة العربية في إفريقيا، ١١.
(٢) الدعوة إلى الإسلام، ٣٦١.
(٣) المنارة والرباط، ٣٦٦.
(٤) اللغة العربية في إفريقيا، ١١ وما بعدها.
(٥) السابق، ١٣، والعربية في شرق إفريقيا، ٤٥.
(٦) كلمات العالم، ٢٠١.

بالعربية، في المقامات التي تستدعي الكتابة. فلما أيقنوا أن الإسلام وثقافته المتوغلة في قلوب الناس، يعوقان الاحتلال، رأوا أن لا سبيل إلى محاربته إلا بمحاربتها، فعمدوا إلى إغلاق المدارس الإسلامية، وكتاتيب القرآن، ومزاحمتها بمدارس التنصير والتعليم الفرنسي والإنجليزي[1]، ومنعوا استعمال العربية، والكتابة بالحرف العربي. وحال الإنجليز في نيجيرية بين المسلمين والتعليم، وكانوا يلزمون المسلم أن يغير اسمه باسم لاتيني، ويحضرَ الصلوات في الكنيسة، ويدْرُس تاريخَ الإنجليز[2]، واستبدلوا الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وأحرقوا كتب التراث الإسلامي في المكتبات والمدارس، وقضوا على كل أثر علمي[3].

وانتشرت العربية في شرقي إفريقية بطريق التجارة، ورحلات العرب الكثيرة وهجرتهم، ودخول الناس في الإسلام. ونشأت دول وممالك إسلامية تمتد من خليج عدن إلى وسط إفريقية، كانت العربية فيها هي لغة الإدارة والقضاء والمعاملات التجارية، ولغة الأدب والفنون. وبلغ انتشار الثقافة العربية الإسلامية أوجَه في عهد الشيخ سعيد بن سلطان، وقد امتدت دولته من مقديشيو في الشمال إلى رأس دلقادو في الجنوب، ومن مملكة يوغندة في الشمال الغربي إلى زائير في الغرب، ونالت العربية مكانة مميزة فيها في القرون: السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر[4]. ولما دخل الإسبان والبرتغاليون إفريقية في القرن السادس عشر حاربوا العربية، وحاصروها، وجدُّوا في منع انتشارها؛ لِمَا رأوا من التلازم بينها وبين الإسلام. وبعد الحرب الأوربية الثانية، ودخول هذه الأقاليم في وصاية الإنجليز، أُلغِيَت السواحلية، وأُلغي معها الحرف العربي، وكانت تكتب به، وكتبت بالحرف اللاتيني، وأغلقت المدارس الإسلامية كلها، ووُكل الإشراف على التعليم إلى المنصِّرين.

وكان من وسائل حصار العربية والحرب عليها فصلُ داخل القارة عن الساحل الشرقي، مركزِ الثقافة العربية الإسلامية، وفي بداية القرن العشرين

---

(١) دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن في الغرب الإفريقي.
(٢) الفصحى لغة القرآن، ١٢١.
(٣) الموضع السابق.
(٤) لغتنا العربية والسياسة، ٨٣.

ذُوِّبَ الساحل الشرقي في القارة تذويبا تاما، للقضاء عليها. وكان دأب الاستعمار الأوربي كله محاربة العربية، في إفريقية منذ الاستعمار البرتغالي والإسباني إلى الاستعمار الألماني والفرنسي والبلجيكي والإنجليزي، وإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي، وكان غرض ذلك قطعَ الصلة الحضارية بين أهلها والحضارة العربية الإسلامية، وربطهم بالحضارة الغربية، إذ كان من يتعلم كتابة لغته بالحرف العربي يرتبط ارتباطا نفسيا بمصدره، وهو القرآن الكريم وثقافته، ومن يستعمل الحرف اللاتيني يرتبط بمصدره، وهو الغرب النصراني. وهذا ما قصد إليه المنصرون إذ تنادوا في أنحاء العالم الإسلامي بكتابة لغات المسلمين بالحرف اللاتيني بدلا من الحرف العربي[1]. وكان الألمان أول من ألغى الحروف العربية من المستعمرين الأوربيين، منذ احتلوا شرقي إفريقية عام ١٩٠٧، فحرَّموا الكتابة العربية في الوثائق الرسمية في دواوين الدولة، واستبدلوا بها الكتابة اللاتينية[2]. وعللت مجلة «العالم الإسلامي» التي تصدر من كندة ذلك بأن البعث الألماني أراد ليقاوم الإسلام في شرقي إفريقية، وقالت إن ذلك كان ضربة للإسلام، ليس في إفريقية وحدها، ولكن في ألبانية أيضا، فقد أخذت تُناقَش فيها كتابة الألبانية بالحرف اللاتيني والحرف العربي[3].

ولا تختلف سياسة فرنسة تجاه العربية في مستعمراتها المسلمة غير العربية عن سياستها في مستعمراتها العربية، فهي مبنية على العداء، والحصار، والاستئصال، والحؤول بينها وبين أن يكون لها مكان في حياة من تستعمر من الشعوب المسلمة، ليقطعوا ما بينهم وبين العرب، كما قال حاكم السنغال الفرنسي: ينبغي ألا يطَّلع الأفارقة المسلمون على ما يجري في شمالي إفريقية والشرق الأوسط؛ لئلا تصل إليهم عدوى الأفكار «الهدَّامة»، من الصحوة الإسلامية، ونريد أيضا أن نبعد الدعوة إلى استعمال العربية[4]. وكتب فيدريب، حاكم السنغال العسكري إلى وزير المستعمرات الفرنسية عام ١٨٦٥ تقريرا، يقول فيه: إن الرغبة التي يبديها الزنج في تعلُّم العربية -عندنا- لمصيبة، ويجب

(١) رحلة الحرف العربي بين لغات الشعوب الإسلامية، ٢٣.
(٢) السابق، ٨٤، وموقع الحرف العربي على خريطة اللغات العالمية، ٦٥.
(٣) رحلة الحرف العربي بين لغات الشعوب الإسلامية، ٢٤.
(٤) المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، ٩٠.

ألا نعين على زيادتها بحال، وإنما يجب أن نعلمهم الفرنسية وحدها؛ فإن ذلك هو ما فيه منفعتنا[1]. وألزم عام ١٨٥٧ كلَّ مَن أراد فتح مدرسة عربية أن ينجح في امتحان يُمْتَحَنُه في العربية، وكان يسوِّغ ذلك بأنه يريد تحسين التعليم الإسلامي، واختيار معلمين أكفياء. وكان الفرنسيون يمنعون السنغاليين استعمال العربية، والتكلم بها، وهمُّوا باستبدال اللغات المحلية بها في المجالس والمدارس. ولهذا الغرض توجه أحد كبار موظفي إدارة الشؤون الإسلامية أيام الاستعمار إلى مدرسة عربية في مالي، فعرض على مؤسسها الشيخ ديمبا واغي أن يجعل اللغات المحلية هي لغة التدريس بدلا من العربية، فلم يكلمه الشيخ استصغارا له[2].

ومن سياسة فرنسة والدول المستعمِرة أن توهم المسلمين غير العرب أن الإسلام ليس بدينهم ولا دين آبائهم، وإنما فُرِض على سلفهم بالقوة، وأن العربية فُرِضت عليهم كما فرض الإسلام، وأن في طباعهم وثقافاتهم مادية وتحررا وحبا لمباهج الحياة، تدْنيهم من طباع الأوربيين وثقافتهم، وتُباعِد بينهم وبين الإسلام، وتجعل من غير الممكن أن يدخلوه، أو يبقوا فيه، إذا عرفوه. ويرون أن هذا يمكن أن يُجعَل أصلا لاجتيال المسلمين عن الإسلام، واستبدال العلمانية به، إن لم يتنصَّروا، لما في الإسلام من أحكام، تناقض طباعهم، والمتأصِّلَ في حياتهم من الثقافة؛ ليسقطوه من قلوبهم، ويجعلوا علاقتهم به علاقة عداوة، لا علاقة حياد، كما هي علاقة العلمانية الغربية بالدين، فإن ارتدُّوا، أو تقلَّدوا العلمانية، تولوا عن فرنسة ما كانت تتولى من حربه. فقد ادَّعى بريفي -مثلا- أن الإسلام فُرِض على أهل إفريقية بالقوة، ولم يختاروه طواعية، وكان فرضه على يد الفاتحين من مسلمي البربر في الصحراء، وملوك إفريقية[3]. وقال أبدون أوجين ماج: إن أكثر مساوئ إفريقية أتت من الإسلام؛ فما ينبغي تأييده بحال، لا في البلدان التي نستعمر، ولا في البلدان التي سنستعمر، ولو بدا أكثرَ جاذبية، كما يكون -أحيانا- في السنغال، غير أن عاقبة مبارزته علانية ربما

(١) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٣١١.

(٢) المسلمون في السنغال، ٨٩ وما بعدها.

(٣) السابق، ٨٦، والاستعمار وانتشار الإسلام في السنغال.

كانت وخيمة، أما تأييده، فأشد ضررا، بل هو جريمة تواطؤ[1]. ولتثبيت هذه الأفكار في عقولهم جدُّوا في تشويه العرب والإسلام، واختراع كل ما يبغِّضهما إلى أهل إفريقية، فقال بول مارتي: إنَّ ثوب الإسلام، بالغة ما بلغت بساطته وحسنه لم يفصَّل للسود. وقال آخر: إن من الواجب علينا أن نجتهد في الحؤول دون أن تكون العقيدة التي تدعو إليها الجماعات الإسلامية خطراً على الحضارة الكبيرة التي نتابع نشرها. ويفهم من هذا أن حربهم للإسلام حرب من أجل حضارةٍ، هم رسلها، ومن أجل البلدان المستعمَرة، وليست من أجل مطامع مادية معروفة، هي التي جاءت بهم. وكلٌّ ما قال بول مارتي وغيره من الفرنسيين للأفارقة في ماديتهم وحبهم للحياة وملذاتها، وقرْبهم من مادية الغرب، وبُعْدهم من الإسلام، وأن آباءهم قد أُكرِهوا على الإسلام إكراها، من أجل تبغيض العرب والعربية إليهم، قد قالوا مثله لأمازيغ المغرب والجزائر، وقال الإنجليز مثله لأهل جنوبي السودان، وشرقي إفريقية، وقالوا لهم إن العرب هم تجار الرقيق، وهم الذين باعوا أسلافهم في سوق النخاسة، وقال مثله البلجيكيون لأهل الكونغو، لَمَّا احتلوه؛ لأن المسلمين كانوا هم القوة المنظَّمة التي يمكن أن تقاومهم[2]. وكذلك قال المستعمرون الأوربيون للأحباش للحؤول بينهم وبين العربية؛ وأحيوا التعصب الديني بين المسلمين منهم والنصارى، وتوسَّلوا إلى ذلك بكتابة الأمهرية والصومالية ولغة الأورومو بالحرف اللاتيني، وفرْض اللغات الأوروبية في التعليم الحكومي، ومنْع العربية فيه وفي محاكم المسلمين الشرعية. وفعلوا مثل ذلك في زنجبار، واتهموا العرب والمسلمين بأسوأ تهم في تاريخ أوروبة وإفريقية، وهي بيع النصارى الأوربيين الأفارقةَ، وعونهم على المتاجرة بهم. وكانوا يحضُّونهم على عداوة العربية، والتخلي عنها، وتوسلوا إلى ذلك بإذكاء الحمية، والنعرات العنصرية، في قلوبهم، وكانوا يزينون لهم بعث لغاتهم، إن كانت خاملة، واصطناعها في شؤون الحياة الحديثة، وتعليمها في المدارس، وكتابتها بالحرف اللاتيني، ليكون الغرب هو قبلتهم التي يولون وجوههم شطرها، مع تعليمهم الفرنسية والإنجليزية بدلا من العربية،

---

(١) المسلمون في السنغال، ٨٥.

(٢) موقع الحرف العربي على خريطة اللغات العالمية، ٤٧.

ووصفهما بأنهما لغتا العلم، والحداثة، والتقدم، والعمل، والطريق إلى المال، والجاه، والمناصب الرفيعة، والدراسة في الغرب وصداقته. فهي -إذن- أقاويل مكرورة، وحيل مستنسخة، يتوافى عليها المستعمرون لتشابه قلوبهم وغاياتهم، ويستغفلون بها الشعوب التي لا تعرف الغرب وأَثَرَته، وأحابيله وخدعه. وكتبت فرنسة العامية التشادية بحروف لاتينية، وأنشأ مركز الدراسات من أجل التطوير والتنمية (cefod)، وهو أكبر مركز بحوث في التشاد، قسما كاملا من أجل تعليم العامية التشادية وكتابتها بالحرف اللاتيني، ووضع لها منهجا سماه dahyyin (هذا سهل)، ووضع لها قواعد إملائية وصرفية، وكان التشادي يدرس فيه ٢٠٠ ساعة، يجيد بعدها العامية قراءة وكتابة[١].

ولما كانت العربية في ثقافة الأوربيين ترادف الإسلام، وهي إنما تعلَّم بالقرآن، وحيثما حلّت، حلَّ الإسلام، والإسلام يوجب محاربة المستعمرين، شملتها الإدارة الفرنسية بالحرب، واتخذت إجراءات صارمة، من أجل القضاء عليها وعلى الإسلام، إذ لا سبيل إلى تمكن الحضارة النصرانية في إفريقية إلا بزوالهما. وهي السياسة التي ما تزال عليها فرنسة وصنائعها في المغرب العربي، والسياسة التي بمقتضاها ظل الغرب يتتبع الحرف العربي في الأقطار الإسلامية، حتى أخرجه من جلها، بعد أن كان إلى العقد الرابع من القرن العشرين هو الغالب على كتابة اللغات كلها في العالم، وكانت اللغات التي تكتب به تزيد على المائة[٢]. وبمقتضاها صرفت أمريكة حكومة البوسنة والهرسك عن تعليم العربية، وكانت تدرَّس في الابتدائية والثانوية، وكان بعض من يتعلمونها يتمون دراستهم في الأزهر، فما انتصف عام ٢٠٠٢ م حتى أجبرت أمريكة الحكومة على إلغاء تدريسها، بدعوى محاربة الإرهاب[٣]. وبعد استقلال الدول الإفريقية حاول بعض حكامها أن يعيدوا العربية إلى مكانتها في المجتمع الإسلامي الإفريقي، فحال المتفرنسون بينهم وبين ذلك، فقد تبوؤوا المناصب العليا بعد رحيل جيوش الاستعمار، وكانت عقولهم وأفكارهم فرنسية، بل كان بعضهم

(١) التحديات التي تواجه اللغة العربية في إفريقية، ٣٦٣.
(٢) رحلة الحرف العربي بين لغات الشعوب الإسلامية، ٢٦.
(٣) العرب والانتحار اللغوي، ٩٩.

أشد عداوة للعربية من الفرنسيين، وقد اصطنعت فرنسة بعضهم في محاربتها، وكافأتهم على ذلك بالمناصب العليا في بلادهم، والأوسمة الرفيعة، إذا تركوا مناصبهم، كما فعلت بأحد وزراء التربية والتعليم في مالي، كان يقود الحرب على العربية، وترشح مرة في الانتخابات النيابية، فسقط سقوطا ذريعا؛ لأن الناس كانوا يعرفونه، فدُعي إلى باريس، وأقيم له حفل تكريم كبير، أعطي فيه وساما من أرفع الأوسمة الفرنسية[1]. وما أدري هل كان رفض الشركات الأوربية التي تصنع الآلات الكاتبة في بريطانية وألمانية وإيطالية أن تصنع آلة كاتبة، تشتمل على الحروف العربية والحروف المعدلة التي تكتب بها لغات إفريقية مع رموز خاصة بحركاتها، كان معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بجامعة محمد الخامس قد وضع مخططها[2]، هل كان رفضها بمقتضى هذه السياسة، أو كان أثرا من آثار الثقافة الأوربية المتعصبة على العرب والعربية.

وإجماع دول الغرب على صدِّ الصومال عن أن يصطنع العربية لغة رسمية، على إجماع الصوماليين عليها، وما توسلت بذلك من مكايد، انتهت باغتيال سفير مصر في الصومال، كمال الدين صلاح في ١٦ أبريل عام ١٩٥٧، بسبب معارضته خططها لبعث الصومالية وجعلها لغته الرسمية بدلا من العربية، وكتابتها بالحرف التلاتيني – صورةٌ من عداوتها للعربية، وإمعانها في كيدها، وعدم السماح لها بالتمكن في مكان من العالم. وكان كمال الدين سفير مصر، ونائبها في مجلس الوصاية على الصومال، وكان المجلس مؤلفا من مصر، والفلبين، وكولومبية. وقد فطن إلى ما تريد الدول الغربية من فرض الصومالية لإبعاد الصوماليين عن مصادر الثقافة العربية، وفصلهم عن العرب، وإخضاعهم لسياسة الاستعمار[3]. وفي عام ١٩٥٤ م كانت لغة الصومال الرسمية من أهم ما شغل أعضاءَ اللجنة التي أرسلتها الأمم المتحدة لدراسة أحوال البلاد، وكانت مؤلفة من: نيوزلاندي، هو الرئيس، وعضوين: هندي، وأمريكي، فعارض النيوزلاندي والأمريكي العربية، وكان الهندي يعجب من معارضتهما ما يطالب

(١) المقالات المحظورة، ١٣٨.

(٢) رحلة الحرف العربي بين لغات الشعوب الإسلامية، ٣١.

(٣) مؤامرة في إفريقية، ١٠٨.

به الصوماليون، وكان يعلم أنهما يتعصبان عليها لأنها لغة شرقية، وإنما يخافان من انتشار العربية في إفريقية. وقال مندوب نيوزلاندة، لمندوب مصر في مجلس الوصاية-: إن الدول الأوربية ذات المصالح الاستعمارية في القارة الإفريقية ستضع في سبيل العربية من العقبات ما لا يخطر ببال، دفاعًا عن نفسها، وحرصًا على بقائها في مستعمراتها[1]. وفي يونيو عام ١٩٥٥ انتقلت معركة العربية في الصومال إلى مقر الأمم المتحدة، بنيويورك. فانتقل إليها أمر عجيب: شعب لا يريد لغته، ودول أجنبية تريد إرغامه عليها![2]. وانعقد مجلس الوصاية، فحضره الوزير إسبنيللي، نائبا عن الإدارة الإيطالية في الصومال، والوزير كوستيللو، مندوب بريطانية، وكمال الدين صلاح عن لجنة الأمم المتحدة الاستشارية، ونائبا أكبرِ حزبين سياسيين في الصومال، عبد الرزاق حاج حسين، وعبد القادر آدم سُوبي، فلما احتدم النقاش قال عبد القادر: إن الدول الاستعمارية وإنجلترة وفرنسة تتمسك باللغات المحلية في إفريقية، أما نحن، فتتمسك بالعربية، وهم أحرار فيما يفعلون بلغات البلاد التي يحكمون. إن الشعب الصومالي يتمسك بالعربية لغةً رسمية؛ لأنها لغة دينه، واللغة التي تتكلم بها وتكتب أغنيته. ووافقه عبد الرزاق، وقال إن الإصرار على جعل الصومالية لغة الصومال الرسمية يعود إلى أسباب سياسية. وانقسم أعضاء المجلس فريقين: فريق أيّد ما يريد الشعب الصومالي، وهو من الدول التي ليست لها أطماع استعمارية: سلفدور، والهند، وسورية، ومصر، وفريق يتمسك بالصومالية، هو: أسترالية، وأمريكة، وبلجيكة، ونيوزلاندة، وإنجلترة، وفرنسة، وروسية، وهي دول غربية، استعمارية، ولم تشذَّ واحدة منها عن معارضة العربية، والإصرار على اصطناع الصومالية التي يرفضها الصوماليون بالإجماع. وقال مندوب الهند: إن الصومالية ما تزال لهجات متعددة، لا تصلح لغةً للتعليم والإدارة، وهذا ما جعل الصوماليين يرغبون عنها، وما يكون لنا أن ننازعهم في ذلك، ولا أن نلزمهم آراء أكاديمية صرفًا. إن الحقائق الجغرافية والتاريخية والدينية تدل على أن العربية أفضل لغة للتعليم، وأهمُّ من هذا أن الصوماليين اختاروها؛ فيجب أن تُحتَرَم رغبتهم. وهي حقيقة، ما كان

---

(١) مؤامرة في إفريقية، ٨٩.

(٢) السابق، ٩٠.

لمن يحترم أهل الصومال، ويريد مصلحتهم، أن يرغب عنها؛ لأن الأمر يعنيهم وحدهم، فإذا قرروا، فليس لأحد أن يتكلم بعدهم، كما أنه ليس لأحد أن يتكلم قبلهم، وما كان ينبغي أن تخوض الأمم المتحدة في هذا الشأن أصلا، فالبلد بلد الصوماليين، واللغة هم الذين سيصطنعونها، ولو كانت شرًّا لهم، وليس لأحد، لم يكلوا إليه النظر لهم أن ينظر لهم، ولا أن يُكرههم على ما يريد بهم دون ما يريدون لأنفسهم. غير أن مجلس الوصاية لم يصل إلى قرار حاسم في الأمر، فترك الأمر معلقا[1]. وذكر كمال الدين صلاح أن رئيس البعث، وهو مندوب نيوزلاندة، كان أشدَّ الأعضاء اهتماما بأمر اللغة، وكان أكبر همه منع العربية، وهو إنما يرعى منافع بريطانية في إفريقية، فإن التمكين للعربية في الصومال يعني فتح الباب لانتشارها وتحرر مستعمرات بريطانية المتاخمة للصومال[2].

ولما ناقشَ كمالُ الدين رئيسَ البعث سأله: وماذا بعد اختراع أبجدية للغة الصومالية؟ وما ذا يمكن أن يدرس الصوماليون في المدارس؟ إن الصومالية لغة لا تاريخ لها، وليس في الصوماليين من يمكنه أن يترجم إليها المؤلفات الأجنبية، قال له: يجب أن يتعلم الصوماليون لغة أوربية، كالإنجليزية[3]. أي: يجب أن يتعلموا ما يريد الغرب، وألا يفكروا فيما لا يريد؛ لأن المعتدَّ به منافع الغرب، لا حقوق الشعوب، ولا مصالحها!.

ومما هو جدير بالتوقف أن الدول الغربية التي تدَّعي من الديمقراطية وحقوق الإنسان ما لم يدَّع بلد في التاريخ، ولا شعب من الشعوب، ولا نِحْلة من النحل، هي التي عارضت خيار الصوماليين الذي أجمعوا عليه، وسمعوا وسمع العالم منهم بأذنيه ما يريدون، وما لا يريدون، وسمع مسوغات إيثارهم العربية على الصومالية، وأبانوا عن وعيهم بمسوغات ما يريد الاستعمار، إذ يصرُّ على إرغامهم على ما لا يريدون، كما أبانوا عن رفضهم ما يريد إبانة لا لبس فيها، لكن الدول الغربية «الديموقراطية» أصرت على أن تجبرهم على لغة لا يريدونها، وإن كانت لغتَهم، أما الذي احترم خيارهم، ودعا إلى النزول عند رغبتهم، فدول

---

(١) مؤامرة في إفريقية، ٩٠ وما بعدها.

(٢) السابق، ٨٩.

(٣) الموضع السابق.

شرقية، والسلفادور وحدها من الدول الغربية، لأنها ليس لها ماض استعماري، أو تاريخ في عداوة المسلمين. ثم إن الدول التي أصرت على معارضة الخيار الصومالي دول نصرانية كلها، وهي على تباعد أهوائها السياسية والفكرية، وتخالف منافعها الاقتصادية، وشدة ما بينها من العداوة، كما بين روسية وأمريكة وأوربة الغربية، كانت متواطئة على أن تحول بين الصوماليين والعربية، لغة دينهم وتاريخهم وحضارتهم، وأن تجبرهم على لغة، لا ماضي لها، ويظن العارفون بها من أهلها أن لا مستقبل لها. وهو عمل، يبين عن جانب من حقيقة الغرب، وما تعني عنده حقوق الإنسان، وأن المتعدَّ به عنده في هذا الوجود هو منفعته، وكل قيمة أخرى، يلهج بتردادها إنما هي خدعة، يستر بها بعض ما يضمر، وأن ليس لشعب من الشعوب حقوق، إذا خالفت منافعَه أو هواه، وإن لم يكن فيها ما يضره. وما تزال هذه سياسته التي لا يزداد إلا تماديا فيها. وقد بين المنصِّر زويمر ما أرادت تلك الدول بما فعلت، فقال إن في العالم لسانين، لهما النصيب الأوفر في الاستعمار والدعوة إلى الله، هما العربية والإنجليزية، وهما الآن في سباق وعناد، لا نهاية لهما، لفتح القارة السوداء، مستودعِ المال والنفوذ، يريد كل منهما أن يلتهم الآخر، وهما المعضِّدان للقوتين المتنافستين على سيادة العالم، أعني النصرانية والإسلام[١]. وقد وضعت الدول الغربية القضية في هذا السياق؛ فجمعها على عداوة العربية، على تباين مصالحها، وعقائدها السياسية. على أن من الحق أن ما فعلت هذه الدول بالعربية في الصومال، هو فعلت بها في الوطن العربي كله، لكن بأساليب أخرى، قدَّمنا بعضها.

وكان الذي أقرَّ الصومالية لغةً رسمية للصومال مكتوبة بالحرف اللاتيني هو محمد سياد بري، في الذكرى الثالثة للثورة، وأنظر موظفي الحكومة والجيش ثلاثة أشهر يتعلمون فيها الحروف اللاتينية، فعارضه الشعب، وكان يقول: اللاتين هو اللادين[٢]. وأخذت الصومالية تتغذى بالمصطلحات الأجنبية في العلم والفكر والأدب والاقتصاد والتجارة، على وجه سيفقدها -لا محالة- خصائصها ونظامها، ويغير ثقافة أهلها؛ لأن اللغة وسيلة من وسائل تكوين الفكر

---

(١) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٣.

(٢) السياسات الثقافية في الصومال، ١٧٥، وطرائف الذكريات، ٩٩.

والحضارة، وبعد مائة عام قد تصبح من فصيلة اللغات الأوربية، بسبب تدفق المصطلحات الأجنبية عليها، وهي لغة محدودة المعجم، أسيرة بنية محدودة، وهذا مما تحرص عليه الدول الاستعمارية؛ لأنه يصوغ عقول أهلها على الوجه الذي تريد. هذا إلى الحؤول بين الصوماليين ودينهم، فلن يستطيعوا قراءة القرآن، ولا الاطلاع على تراثهم المكتوب بالحرف العربي، كما أنهم سيعزلون عن التراث العربي الإسلامي[1]. وكان ما أنهى إليه محمد سياد بري الصومال هو ما كانت دول الغرب تصرُّ على أن تنهيه إليه.

ب- آسية

والطريقة التي حوربت بها العربية في إفريقية تحارَب بها في أنحاء العالم كله، ومنها آسية، وكانت روسية أشد دول آسية محاربة لها؛ لأنها أكبر دولة مستعمرة فيها، وهي تستعمر دولا إسلامية كثيرة، ولها مطامع في أخر، والعربية عون على معرفة الإسلام وأحكامه، ومعرفة الإسلام وأحكامه تربي على العزة، وإباء الضيم، والجهاد، ورد العدوان، ومحاربة الظلم، وعدم الخضوع للاحتلال. وقد قامت السياسة الروسية على تحريم الحروف العربية في كتابة اللغة التركية وتجريمها، وقد استعملها سلف الترك في روسية الاتحادية منذ دخلوا في الإسلام، وكانت لغتهم بحروفها العربية جامعة لهم وموحدة، وحبلا بينهم وبين الثقافة الإسلامية. وقد جرَّ عليها ذلك عداوة الروس؛ فألغوا العربية وحرموا استعمالها في داغستان، بعد أن ظلت لغتها الثقافية إلى عام ١٩١٤[2]، وأجبروا المسلمين على ترك الحرف العربي. وقسموا تركستان شعوبا، وجعلوا كل لهجة من لهجاتها لغة، تكتب بحروف مختلفة عن حروف الأخرى، ولها نحوها وصرفها، وقد أنهوها إلى سبع عشرة لغة، وإنما هي في الأصل لهجات[3]. وفي عام ١٩٢٤ صدر أمر بتقسيم تركستان الغربية خمس جمهوريات، لكل جمهورية لغة، وفي عام ١٩٢٨ صدر أمر بإلغاء الحروف العربية، واستبدال الحروف

---

(١) السياسات الثقافية في الصومال، ١٧٥.

(٢) من أجل تفاعل لغوي، ٧٩.

(٣) المسلمون في آسيا والبلقان، ١٠ (نقلا عن: ثقافتنا في عصر العولمة، ٦٢)، ومن أجل تفاعل لغوي، ٧٩.

اللاتينية بها، وإبادة الكتب المكتوبة بالحروف العربية. ثم أُلغِيَت الحروف اللاتينية عام ١٩٤٠، وأُبيد ما أُلِّف بها، واستبدلت بها الحروف الكيليرية، وهي الحروف الروسية، وجُعلت لكل لهجة حروف مشتقة من الكيريلية، إمعانا في التفتيت، وقطْعا للطريق إلى التوحد، وحُذِفت منها جميعا المفردات العربية. وهي سياسة الدول الاستعمارية فيما قد رأينا من الدول والأقليات الإسلامية، كإيران، وتركية، والكرد، والأمازيغ، وجنوبي السودان. وقد قال العالم الروسي باسكاكوف عام ١٩٥٢ مغتبطا بما فعلت روسية إن ذلك من أهم إنجازات شعوب الاتحاد السوفييتي، وإن الحروف الروسية ستعمل على تطوير اللغات التركستانية، وتساعد على سرعة تعلم الروسية، وسيعمل الحرف الروسي عمله في سرعة تذويب الشعوب غير الروسية وخضوعها للثقافة الروسية وتأثيرها[١]. وربما كان التذويب هو كل ما سيجني الترك من اصطناع الكتابة الروسية، وهو أهم ما تريد روسية. وظلت القوميات كلها في روسية تستعمل لغاتها بغير تعديل، ما عدا المسلمين، فقد ألزمهم ستالين استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية[٢].

وكانت الحروف العربية هي المستعملة وحدها في كتابة اللغة الملاوية والجاوية والسونداوية وغيرها من اللغات الإندونيسية، واستعملت في كتابة كثير من الآداب المحلية التي لغتها الجاوية القديمة، والسونداوية، والسنسكريتية وغيرها. وكان للعربية فضل كبير في تكوين الحضارة الإندونيسية، وجعْل اللغة الإندونيسية لغة رسمية للدولة، ولغةَ اتصال بين الشعب الإندونيسي المتعدد اللغات والقبائل. غير أن الحكومة الاستعمارية الهولندية غيرت كل شيء، فألزمتهم منذ آخر القرن التاسع عشر الميلادي استعمال الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية، في كتابة اللغة الإندونيسية، وأجبرت على تعلُّم الهولندية في المدارس الإندونيسية؛ فقلَّ شأن الحروف العربية، وأصبحت العربية ثانوية، فلا تدرَّس إلا في المعاهد الإسلامية ولأغراض دينية، فحسب[٣]. وإذا كان

(١) المسلمون في آسيا والبلقان، ١٢ (نقلا عن: ثقافتنا في عصر العولمة، ٦٢).
(٢) عالمية اللغة العربية، ٢٦٢.
(٣) آفاق تاريخية للغة العربية في إندونيسية، ١٢.

مصطفى كمال ألغى العربية، واستبدل الحرف اللاتيني بالحرف العربي، ومنع الأذان بالعربية، فإن أحمد سوهارتو سار في أثر السياسة الهولندية في استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وحارب العربية، وبلغ من بغضه إياها أنه كان يمنع إلقاء السلام بها. وقد صنعت كتابة الأندونيسية بالخط الروماني ما صنعت كتابة التركية به: فرضت لغة جديدة بخط جديد، فصارت العربية لغة أجنبية لا يقرؤها الإندونيسيون، وصار أكثرهم يقرؤون اللغات الغربية ولا سيما الانجليزية، وصبغت الإندونيسية الجديدة بصبغة غربية[١].

وعَمِلَ صنائع الغرب في العالم الإسلامي كله على محاربة العربية، والجد في إخراجها من حياة المسلمين، ما استطاعوا، أو التقليل من استعمالها، كما فعل المثقفون المتغربون بباكستان وبنغلاديش، فهم الذين أحدثوا النزاع اللغوي بين باكستان وبنغلاديش، وفرَّقوا أهل باكستان شيعا، منهم من يريد البنغالية، ومنهم من يريد الأردية، ومنهم من يريد العربية، لإقناع الحكومة الباكستانية بأن تصطنع الإنجليزية لغة رسمية خروجا من الخلاف، ففعلت[٢]، وكان اصطناع العربية لغة رسمية نصب أعين زعماء باكستان، ولكن الأيدي الأجنبية حالت دون ذلك[٣].

(١) اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية، ١٤.

(٢) تعليم اللغة العربية في السياسات التعليمية الباكستانية، ٥٢.

(٣) مجلة العربي، ع، ٣١٥ (نقلا عن: مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ١٨٨).

٥- التعليم

اجتهد الإنجليز والفرنسيون في كيد العربية في التعليم الرسمي، وجدُّوا في تبغيضها إلى العرب، وصرْفهم عنها، فما تركوا من حيلة يعلمونها إلا احتالوها، فكانت فرنسة تَكِل تعليمها في سورية إلى أهل ثقتها من غير المتخصصين فيها، ومَن استيقنت أنهم يجهلونها جهلا مبينا، من العائدين من الدراسة فيها، ممن بلغ الجهل ببعضهم أنْ لم يكن يعرف معجمات العربية، ولا يستقيم لسانه بنطق صحيح، ولا يقرأ شعرا دون لحن أو كسر، فإن أصلح له الطلاب ما أخطأ فيه، لم يفهم ما أرادوا، وهم -إلى ذلك- يخبطون خبط عشواء في إعطاء العلامات، حتى كان بعض الدمشقيين يقول: تدريس العربية اختصاص من لا اختصاص له[1]، وقال بعضهم: إن «الفرنسيين ما زالوا يُضْحِكون الجهل من العلم، والخيانة من الوطنية، والدناءة من الكرامة»[2]. وترتب على ذلك أن كان الطلاب لا يفهمونها، ويكثر رسوبهم فيها؛ فيَنْسِب إعلامُ فرنسة ذلك إلى إخفاق التعريب، وعدم صلاحية العربية للعلم[3]. وبعد رحيل فرنسة من سورية بقيت خططها تنفَّذ؛ لأنها جعلت المناصب بأيدي من ينوبون عنها في مواصلة ما كانت تفعل[4]. وكانت تضع من العربية، وتجعل الوظائف لخريجي المدارس الفرنسية، وتقصي خريجي المدارس العربية، وجعلت النجاح في العربية يُنال بما زاد على الصفر من الدرجات، ولو درجة واحدة. وكان المستشار الفرنسي يرأس المجلس الذي يقر نتائج الامتحانات، فكان يعقد لجانا للنظر في نجاح الحاصلين على صفر في العربية، علَّهم يحصلون على درجة واحدة، يستحقون بها النجاح، ويُجعل فيها مع المدرسين الأصليين مدرسو المدارس الأجنبية

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ٩٣.

(٢) السابق، ٩٥ وما بعدها.

(٣) ثمانون عاما، ٦.

(٤) من حاضر اللغة العربية، ٩٥ وما بعدها.

والطائفية، وأكثرهم لا يرقى إلى درجة الشهادة الابتدائية في العربية، فإذا اشتدَّ الخلاف، أُخذ الأمر بالتصويت، وكثيرا ما يكون هؤلاء هم الأغلبية في اللجنة. هذا إلى تسريب أسئلة الامتحان عمدا، وتكليف المستشار الفرنسي من يضع الأسئلة المتعددة، ويجعل لنفسه حق الاختيار، وتنظيم الامتحانات، وطبع الأسئلة وإرسالها، وكل ما يتعلق بسرية الامتحانات[1].

ولما اعترفت فرنسة بالعربية في الجزائر عام ١٩٤٧ كانت تكل تدريسها إلى مندوبين إداريين، يسمَّون مدرسين مساعدين، وهم مدرسون يستعان بهم عند الحاجة، وليسوا بموظفين رسميين، وكان بقاؤهم في التعليم والاستغناء عنهم إلى مدير المدرسة والمفتش، فيمكن أن يستغنيا عنهم متى شاءا، وكانت أجورهم زهيدة. وجعلت المعلمين الذين يتخرجون في المدارس التي تعلم العربية لا يحصلون على توجيه تربوي، ولا ترعاهم الإدارات التي يعملون فيها؛ لأنها لا تبالي ما يكون تدريسهم العربية، ولا تُعنَى من متابعتهم إلا بتسجيل حضور المعلم وغيابه. وجعلت تعليم العربية مقصورا على القواعد العامة الأولية، وحصص تعليمها خارج أوقات الدراسة العادية، وفي المواعيد التي يكون التلامذة فيها غير مستعدين لتلقي الدروس، وذلك إما من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة والنصف، وإما من الخامسة أو السادسة مساء. ولا تزيد حصصها على ساعتين في الأسبوع، في الفصول التحضيرية، أما الفصول التكميلية بالمدارس والكليات، فكانت العربية تُعَدُّ فيها لغة أجنبية، لا داعي لتعليمها. وكانت تجعل بعض الساعتين لتعليم العامية الجزائرية التي لا يحتاج الجزائريون إلى تعلمها؛ لأنهم يعرفونها بالسليقة. وإنما كان الغرض من تعليمها إحلالها محل الفصحى. ويُجرَّد معلمو العربية من كل امتياز مادي وأدبي يناله غيرهم من الموظفين، ويُجعلون تحت إمرة مدير المدرسة، ولا يعرفون الجهة التي يتبعونها من الناحية الإدارية، ويندر أن يسمح لهم بالانتقال إلى التفتيش[2]. وكذلك كان يفعل المفتشون التربويون، في تونس، في عهد الاستعمار

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ٨٨ وما بعدها.

(٢) سياسة التسلط الاستعماري، ٨٢ وما بعدها، والسياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ١٨٦ وما بعدها و ١٨٨.

الفرنسي: يحضُّون على تدريس الفرنسية في الحصص الصباحية، وأن يترك ما بعد الظهر للعربية والمواد التي تدرَّس بها[1]. وتعمَّد مدير المدرسة الصادقية، بعد أن أُلحقت بإدارة المعارف، بإشراف حكومة الاستعمار الفرنسي، أن يَجعل حصص العربية في آخر الحصة الصباحية، بين الحادية عشرة والثانية عشرة، إذ يملُّ، الطلاب ويكونون في حال من الإعياء، يجتوي صاحبها الدراسة، ولا يمكن أن يستوعب ما يُلقَى إليه؛ فيغيب، وهو ما تريد الإدارة[2]. وكذلك كان يفعل دوغلاس دنلوب في مصر[3].

وكان حزبا فرنسة في تونس والجزائر يَكِلان تعليم العربية إلى من ليس أهلا لتعليمها، لقلة علمه وتكوينه، ثم يَنسِبان ضعف الطلاب، وكثرة رسوبهم إلى صعوبة العربية، لتبغيضها إليهم، وصرفهم عن تعلمها. وفي العقد الثامن من القرن الماضي أثار الكُتَّاب والصحفيون الجزائريون ضعف التعليم في الجزائر وما تبعه من كثرة الانقطاع عن الدراسة، وكان بعضهم يعزو ذلك إلى الازدواج اللغوي، وضعف المعلمين، فردَّ عليهم وزير التربية والتعليم حينئذ، مصطفى الأشرف، بأن التعريب هو سبب ذلك، فردَّ عليه العارفون بالتربية والتعليم بأن ما قال كان عن غير علم منه بحال التعليم، فقد كان ما كان من ضعف وتسرب وإدارةُ التعليم، من المدرسة، إلى المديرية، فالوزارة، مفرنسة فرنسة تامة، والمعرَّبون في أدنى درجات السلم، في الوزارة والإدارات، ولا حول لهم ولا قوة[4]. وقالوا إن ما نزل بالتعليم كان مبيتا، ومخططا له بإحكام، فقد تعمد حزب فرنسة محاصرة العربية، بجعلها لغة محفوظات، وأناشيدَ، ومحوِ أمية، ليس إلا، وأبعدوها عن الإدارة، وسائر المصالح التي لها علاقة بالجمهور، كالبلديات، والبريد، وأولوا الفرنسية وحدها عنايتهم الكبرى[5]. وكان المفتشون الفرنسيون يشيرون بأن يوجِّه المدرسون الممتازون الذين يعرفون العربية والفرنسية إلى تدريس الدرجات الأولى بالفرنسية، لإنجاح

---

(١) مشكلات التعريب، ٨٣ وما بعدها.

(٢) بو رقيبة بلسان بو رقيبة، ٤٧، والبورقيبية والهوية، ٥٩.

(٣) مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ١١.

(٤) التعريب والتعليم في الجزائر، ١١٩ وما بعدها.

(٥) السابق، ١٢٠ وما بعدها.

تعليم الفرنسية وتحبيبها إلى الطلاب، وأن يوكل تدريس العربية والمواد التي تدرَّس بها إلى ضعاف المدرسين، وهم الذين يوكل إليهم إعداد مواد العربية ومراجعها، ووسائل إيضاحها، وكانت المراجع التربوية، ووسائل الإيضاح، وكل ما يحتاج إليه تعليم الفرنسية والمواد التي تدرَّس بها موفورة لمدرسيها[1]، والكتب المؤلفة بالعربية تفتقر إلى الرسوم والخرائط، والأسئلة، والتمارين التقويمية[2]. وكانت فرنسة تَتَّبِع هذه الخطة أيضا في جيبوتي، منذ احتلتها عام ١٨٦٢، فقد حصرت العربية في الأحوال الشخصية، وأخرجتها مما سوى ذلك من شؤون الحياة، فلما اضطرت إلى إدخالها في التعليم عام ١٩٦٤، جعلتها لغة اختيارية، ووكلت تعليمها إلى من ليس أهلا له[3]، وجعلت حصتها خارج الدوام الرسمي[4].

ومن صور كيد العربية في التعليم ما يسمى في المغرب العربي نظام المعامل، وهو نظامٌ يَجْعَل معامل كل مقرر بحسب أهميته العلمية، ولما كانت فرنسة لا تقيم وزنا إلا للغتها وفلسفتها، جعلت لهما أكبر المعاملات، وهو أربع، وجعلت لكل من العربية والثقافة الإسلامية أدنى معامل، وهو واحد، فكان الطلاب يُقبِلون على المقررات الفرنسية أكثر من غيرها، ولا يحضرون امتحان العربية والتربية الإسلامية، وكثيرا ما يغيبون عن دروسهما، ولا يقيمون لها وزنا، وربما جُعِل امتحانهما شفهيا، ويوكل مع ذلك إلى أستاذهما[5]. وما تزال هذه السياسة متبعة في المغرب كما كانت متبعة في أيام الاستعمار الفرنسي، فمعامل علوم الحياة والأرض سبعة، ومعامل الرياضيات تسعة، ومعامل الفرنسية في الشعبة العلمية مثل معامل المواد العلمية الأساسية، ومعامل العربية ثلث معامل الفرنسية، حتى بعد أن عرِّبت العلوم في التعليم العام، وهو لا يزيد على معامل الإنجليزية والإسبانية. ومعامل العربية في السنة الثانية الثانوية في العلوم

---

(١) مشكلات التعريب، ٨٣ وما بعدها.

(٢) كتاب التاريخ المدرسي، ٣٤.

(٣) واقع اللغة العربية في إفريقيا.

(٤) الموضع السابق.

(٥) ثمانون عاما، ٧.

الإنسانية ثلاثة، و معامل الأدب أربعة، ومعامل الفرنسية مثل معامل العربية[1]، وفي الشعب العلمية من التعليم الثانوي تزاد ساعات الفرنسية ١٠٠٪، وزِيدَ معامل الفرنسية في امتحان شهادة الثانوية العامة من واحد إلى أربعة، أي بنسبة ٤٠٠٪[2]. وكان الإنجليز يهملون تعليم العربية في مصر، ويُعنَوْن أكثر شيء بتعليم الإنجليزية، وقد فرضوا تعليمها من الصف الأول الابتدائي، وكانت تدرَّس بها المقررات كلها، واستقدموا الأساتيذ من بريطانية ليتولوا تعليمها[3]، وكذلك كانت تفعل فرنسة بالفرنسية في المغرب العربي.

وأمعن الإنجليز في تحقير مدرِّس العربية، وعدم إسناد الوظائف الرئيسة إليه، وعدم الاعتراف بعمله، ولو أتى بالمعجزات[4]. وكان ذلك بتخطيط من دوغلاس دنلوب، مدير المعارف بمصر، من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩١٣، فقد اجتهد في محاربة العربية، فنقص حصصها، والمدة المخصصة لها، وأحلَّ الإنجليزية محلها، وكان يحتقر معلمي العربية، ويُحْضِر كل عام من الإنجليز مَن مهمَّته بثُّ كراهية العربية في نفوس المصريين[5]، وجعلَ رواتب معلميها ثلث رواتب سائر المعلمين، فقد كان راتب مدرسي المقررات كلها في مصر اثني عشر جنيها، وراتب مدرسي العربية أربعة جنيهات، فقط، وهو أقلُّ من رواتب بعض قدامى الفراشين. وكان يضطهد مدرسي العربية، ويسخر منهم، كما يضطهد طلاب الحقوق ويعاملهم بقسوة متناهية، ويستعمل معهم وخز الإبر[6]. وأحاط معلمَ الإنجليزية بعناية خاصة، ووضعه في منزلة رفيعة؛ فتغيرت نظرة الناس إلى معلم العربية؛ فصار محل سخرية، وأخذت الإنجليزية تشيع، والناس يشكون صعوبة العربية، وما زال ذلك دأبهم إلى اليوم، وهو غرض هذه السياسة؛ لأن الناس يقيسون المقررات بما تجلب من النفع، وما تتيح للمُخِصِّ فيها من العمل، ويقيسون المرء بأهمية تخصصه[7]. وكانت خطة دنلوب هي

(١) المصادر الحقيقية لضعف لغتنا العربية في مدارسنا الثانوية.

(٢) تدريس اللغات الأجنبية بالمغرب.

(٣) أثر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية في مصر، ١٢١، والعدوان على العربية عدوان على الإسلام، ١٦.

(٤) لغة العرب وكيف ننهض بها، ١٠ وما بعدها.

(٥) مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ١١.

(٦) عهدي، ٣٠٢ وما بعدها.

(٧) واقعنا المعاصر، ٢٠٦ وما بعدها، والفصحى لغة القرآن، ١٦٦، ومجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ١١، وانظر: أباطيل وأسمار، ١٦٦

الخطة المتبعة في السياسة الفرنسية أيضا، لكن بأسلوب آخر، هو جعل أجور خريجي المدارس الفرنسية في المغرب أكثر من أجور خريجي المدارس غير الفرنسية، ولو كانوا متساوين في الكفاية، حتى قيل إن أجور خريجي المدارس الفرنسية «علاوات وإكراميات أكثر منها أجورا مقابل عمل»[1]. وهذا يُحْدث من الأثر مثلَ الذي كان يحدث فعْل دنلوب. وكان المدرسون الفرنسيون بالمدرسة الصادقية يسخرون من العربية والثقافة العربية -كما كانت تدرس بجامع الزيتونة-؛ فأعان ذلك على تشويه «الشخصية التونسية»، فمالت إلى تمجيد لغة المستعمر[2]. ولا ينال مدرسو العربية في بعض دول الخليج العربي من الحوافز ما ينال مدرسو التخصصات العلمية في الجامعة، بل يُجْعَل بعضهم في مراتب أدنى من مراتبهم، ورواتبهم أقل من رواتبهم، ومن رواتب مدرسي الإنجليزية، ويفضَّل عليهم غيرهم في كل شيء، وهذا من أسباب كراهية العربية واحتقارها[3]، وبه علل بعض طلاب جامعة الكويت رغبتهم عن التخصص في العربية؛ لأن غيرها أفضل منها دخلا، فضلا عن المكانة الاجتماعية، وعدم وجود فرص عمل مناسبة لخريجي العربية، وعزوف الوزارات عن توظيفهم، وقلة فرص الترقي[4].

ومن كيد دنلوب والحكومة البريطانية للعربية تدريس التاريخ والجغرافية والعلوم بالفرنسية والإنجليزية، فلما كثر الاعتراض عليه، بأن استعمال الإنجليزية والفرنسية في التعليم يسيء إلى اللغة الأم، ويعوق ذكاء الطفل، قال إن المصريين -في الجملة- يرغبون رغبة شديدة في تعليم أبنائهم بلغة أوربية، وقد هيأت لهم الحكومة المصرية ما أرادوا، وإن وزارة المعارف لا تستطيع أن تفرِّط في طلابها من أجل نظريات متحيزة، ولا تفي بمطالب الناس، وحاجات البلاد[5]. وكان الذي اعترض على التعليم باللغة الأجنبية بعض الإنجليز، وهم

(١) مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ١١.

(٢) بورقيبة وإشكالية الهوية في تونس.

(٣) واقع اللغة العربية في الوطن العربي، ٣١.

(٤) مناهج اللغة العربية في المرحلة الجامعية، ٢٢ وما بعدها.

(٥) أثر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية في مصر، ١٢٩ وما بعدها.

الذين انتقدوه على حكومة الاحتلال، ولكن دنلوب اكتفى بزعم أنه انتقاد مبني على نظريات متحيزة. وكانت الإساءة إلى اللغة الأم، وإلى الإسلام، وطمس الهوية المصرية، من أهم ما جاء بدنلوب مستشارا لوزارة المعارف بمصر، فقد كان شابًّا، تخرج في كلية اللاهوت بلندن، فوكل إليه كرومر وضْع سياسة التعليم بمصر، وكان يرجو أن يبلغ بتلك السياسة ما كان يريد منصِّرُو بريطانية بمصر، لو خُلِّيَ بينهم وبين التنصير[1].

ومن كيد العربية في التعليم دعاية الفرنسيين المنهجية المنفِّرة من العربية، الساعية في تبغيضها إلى أهل المغرب العربي، واستعدائهم على تعريب التعليم، وتحبيب الفرنسية إليهم، وإقناعهم بأنها لغة العلم، ولا يمكن الاستغناء عنها، وأن العربية لا تتسع للعلوم والتعبير عن الأفكار، وليس لها ما للفرنسية من مرونة وقدرة على الأداء، وأن التعريب قد أخفق، فلا يرجى منه خير لأهل المغرب، ونسبة كل ما يدَّعون أنه خير في حياتهم إلى التعليم بالفرنسية، وكلِّ خلل إلى التعريب. ولكثرة ما كُرِّر هذا الكلام، وحيل بين المثقفين ولغتهم، وفُسِّر لهم جهلهم بها بعيب فيها، أصبحت فئة منهم من ذوي الشهادات العليا تعتقد هذه الأكذوبة، حتى قال أحدهم إن العربية لا يمكن أن تكون لغةَ تخاطبٍ للمغاربة؛ لأنهم لا يفهمون العامية، فأنى يفهمون الفصحى التي تضيق عن الأفكار والمقاصد؟ وبعد الاستقلال زادوا دعاية جديدة، هي تخويف معلمي الفرنسية ضياعَ مستقبلهم، إذا صارت العربية لغةَ التعليم كله[2]. ويتولى هذه الدعاية المنهجية كتاب ومستشرقون فرنسيون، يقيم بعضهم بالمغرب، ومنهم مبعوثو الفرانكفونية الدولية. وهم يتجاوزون الدعاية الإعلامية إلى الضغط على الحكومات، والجد في توجيه سياستها اللغوية حيث تريد فرنسة، وقد رأينا جانبا من ذلك فيما سلف، وسوف نرى جانبا منه فيما نقول في كيد الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر. ونقتصر هاهنا على أنموذج واحد مما يفعل هؤلاء، هو ما يفعل جلبير غرنغيوم، وهو أنموذج من الأنموذجات الفرنسية التي تأثر بها كتَّاب المغرب، فهم يرددون ما يقول، ويساعدونه على بلوغ ما يريد. وإن كنا لا

---

(١) واقعنا المعاصر، ٢٠٢.

(٢) من أجل تفاعل لغوي، ٥٣.

نشك في أن أمثاله من الإنجليز والأمريكيين ينتشرون في الوطن العربي، لكنهم يصطنعون من الأساليب ما يلائم البلد الذي يحصلون فيه، وإن كنا لا نعرفهم، وإنما نعرف جلبير وأمثاله من الفرنسيين؛ لأن عملهم أصرح، وهم أقل كتمانا لما يأتون، وما يريدون، بسبب السياسة اللغوية في المغرب العربي، وتبعيتها الظاهرة للسياسة الفرنسية، وتحكم حكوماتها الخفية في المغرب العربي، ولذلك انكشف لمناهضي الفرانكفونية في المغرب من أمرهم ما لم ينكشف من أمر نظرائهم لأهل المشرق. على أن ما بعد الحادي عشر من سبتمبر أظهر بعض ما كان يُكتَم، فقد وكل بعض دول الخليج العربي إلى مؤسسات أمريكية أمر التخطيط لتعليمها من الروضة إلى الجامعة، فجعلته بالإنجليزية كله، واحتل فيها الخبراء الأمريكيون مناصب كبيرة في مؤسسات التعليم كلها، ولا سيما الجامعات، ووُكل إليهم تخطيط التعليم، وتنفيذ ما يخططون، كما وُكل التعليم إلى كثير من الأمريكيين والبريطانيين في الجامعات والمدارس.

وقد فتح جلبير غرانغيوم لدعايته المعادية للعربية نافذة من الصحافة المغربية، والمواقع الإلكترونية، تُعْنَى بترجمتها ونشرها، منها «موقع محمد اسليم». وهو يقول إن التعريب أحرز عام ١٩٨٨ تقدما واضحا في بلدان المغرب العربي الثلاثة (تونس، والجزائر، والمغرب)، ولا سيما الجزائر، وكان الرأي العام قبل ذلك في ضيق بما نال اللغة والثقافة العربيتين من حيف وانتقاص، فاستعاد أهل المغرب العربي هويتهم ولغتهم وثقافتهم، واعتزَّ كثير من الآباء بأن أبناءهم يتعلمون اللغة التي لم يُتح لهم أن يتعلموها. غير أن التعليم بالعربية -مع ذلك- كان يخيفهم؛ لأن جودته ليست كجودته بالفرنسية؛ فكانوا يطالبون بالازدواج اللغوي، وكان كثير منهم، ومازالوا -ولا سيما الأعيان- يرسلون أبناءهم إلى شُعب التعليم المزدوج، وهو تعليم فرنسي أو إنجليزي، أو إلى الثانويات الفرنسية التي كانت تستقبل كثيرا من أبناء النخبة، ومنهم أبناء واضعي سياسة التعريب، وأبناء الذين اتضح فيما بعد أنهم زعماء إسلاميون، واستمر ذلك إلى عام ١٩٨٨، إذ منع الشاذلي بن جديد الجزائريين دخول مؤسسات التعليم الفرنسي. وكذلك كان الشأن في المغرب العربي كله: درَّس أشد أنصار التعريب تحمسا له أبناءهم في مدارس فرنسية، وهذا دليل على إخفاق التعريب، وأنهم يرون أن

النجاح الاجتماعي ما زال مرهونا باللغة الأجنبية[1]. وقالت صحيفة «لوبوان» الفرنسية تعليقا على افتتاح الثانوية الفرنسية عام ٢٠١٣ إن سياسة التعريب في المغرب أخفقت، بعد انتهاجها في العقد الثامن بتأثير من حزب الاستقلال، أيّام كان التيار القومِي العربي في أزهَى أيامه بالمغرب، كسائر العالم العربِي. وقد قرر بومدين تعريب التعليم منذُ سني التعليم الأولى، وجعل الفرنسية هي اللغة الأجنبية الأولى، لكن الجزائر عادت بعد مدة قصيرة إلى تدريس الفرنسية من السنة الثانية الابتدائية. وكانت نتائج سياسة التعريب التي عُمِل بها في المغرب منذُ العقد الثامن من القرن الماضي، دون تحضير سابق، بمنزلة الكارثة؛ فلم يكن للمغرب مَنْ يكفي مِنْ مدرسي العربية؛ فاستقدم أساتيذ من بلدان عربية، كمصر وفلسطِين، كان بعضهم من الإخوان المسلمِين، فزرعوا بذُور الإسلام السياسي. وحجزت الطبقة المغربية الوسطى مكانًا لأبنائها في مدارس البعوث الفرنسية والأمريكية والإسبانية برسوم جد باهظة، ولمْ يتردد الأثرياء في إرسال أبنائهم إلى أوربة. وقالت إن التلميذ الذي يدرسُ المواد العلمية بالعربية في الثانوية يدرس في الجامعة بالفرنسية، وهذا مما عاق دراسته. أمَّا الأقلية المغربية التي تعرف الفرنسية وتتكلم بها في منازلها، فما كانت تخشى على أبنائها شيئا لمعرفتهم بالفرنسية[2].

وهي دعاية للفرنسية بلقاءُ، وحملة متعمدة على العربية، ومغالطة، تذكِّر بمغالطة سعد زغلول، وما قال في التعليم باللغات الأجنبية، وبما قد رأينا من قول أحد الفرنسيين إن عز الدين العراقي لم يكن مقتنعا بالتعريب، بآية ما كان يعلم أبناءه في المدارس الفرنسية. فإرسال الناس أبناءهم إلى الخارج، وحرْصهم على تعليمهم بالفرنسية والإنجليزية ليس لأنهم يعتقدون أن التعريب قد أخفق، ولا أن الإنجليزية والفرنسية خير من العربية، وإنما هو من تطلُّبِ المزايا التي قَصَرَها الاستعمار وخلفاؤه على الفرنسية والإنجليزية؛ ليصرفوا عن اللغات الوطنية. وهو أمر يدَّعي نظراء جلبير في المشرق العربي مثله، فيقولون -مثلا- إن بين صورة الإدارة الأمريكية والتعليم الأمريكي تباينا كبيرا في الشارع

(١) المواجهة باللغات، واللغة والسلطة والمجتمع، ٩٣، والتعريب واللغة الأم في السياق الوطني.
(٢) مجلة فرنسية: سياسة التعريب جرت على المغرب نتائج كارثية.

العربي، فمع المعارضة القوية التي تلقاها سياسات أمريكة الخارجية من عرب المشرق، يزداد تأييد التعليم الأمريكي باستمرار؛ فمعظم الأسر العربية تعدُّ الجامعات الأمريكية خير وسيلة إلى حصول أبنائها على أعمال ذات دخل جيد، على حين تتزايد البطالة في كثير من الدول العربية لضعف التعليم الحكومي[1]. يفسرون إقبال العرب على التعليم الأمريكي بجودته ورداءة التعليم العربي، على وجه أشبه ما يكون بالدعاية للجامعات الأمريكية في المشرق العربي. ويعلم العارفون بالعرب أن إقبال العرب على التعليم الأجنبي ليس من حرص على التعلم، ولا من تطلُّب للتميز العلمي لأبنائهم، وإنما هو من أن أمريكة وفرنسة عزلتا العربية عن الحياة في مستعمراتهما في المشرق والمغرب، وأخرجتاها من المنافسة، وأناطتا الرزق بلغتيهما؛ فأقبل الناس على التعليم الفرنسي والأمريكي طلبا لما لا ينال في بلاد العرب إلا بالإنجليزية والفرنسية، لا لشيء مما يدعي الفرنسيون والأمريكيون من دعاوٍ، يستعينون بها على تحقير العربية، والصرف عنها، وما يقتضي ذلك من احتقار النفس، والشعور بالنقص، والتمكين للفرنسية والإنجليزية، وما يتبع التمكين لهما من التمكين للفرنسيين والأمريكيين في النفوس. والتعريب في المغرب العربي لم يضرَّ بالتعليم، وإنما أضر به التوقف به عند الثانوية وعدم تعريب التعليم الجامعي والحياة العامة[2]. مع أن جل البلدان العربية في المشرق العربي تدرس التعليم العام كله بالعربية، وتجعل تعليم التخصصات العلمية بالإنجليزية، ومع ذلك يستوعب طلاب الجامعات العلم بالإنجليزية أفضل مما يستوعبه طلاب المغرب بالفرنسية؛ لأن أهل المشرق عرفوا بعض أصول العلم بلغتهم؛ فكان استيعابه بالإنجليزية في التعليم الجامعي أسهل عليهم، على حين أضعفتهم مضارة العربية بالفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية، في المغرب، في التعليم العام، في اللغات كلها، ومنها العربية والفرنسية، وحالت بينهم وبين استيعاب العلم في الطورين: العام والجامعي.

وقد أتبع جلبير كلامه السالف كثيرا من تنقُّص أهل المغرب العربي، واتهامهم

---

(١) ملف تخصصي: الجامعات الأمريكية مهمات في الشرق الأوسط، ٢٥.

(٢) لكونوميست تتهم اللغة العربية بالانغلاق.

بالنفاق، كما يَظهَر في اختلاف نطقهم بالفرنسية، إذ يتكلمون بها مع الفرنسيين، عنه حين يتكلمون بها فيما بينهم، فهم يَدَعُون نطق الراء غينا أنفةً من محاكاة الفرنسيين؛ لأن محاكاتها خيانة للعربية، ولكنهم ينسون العربية، إذا سافروا إلى فرنسة، وينسون الفرنسية إذا رجعوا منها[1]. ولعل الذي حمله على ذلك ما يجد من نقمة على اتجاه أهل المغرب العربي إلى التعريب، وإخراج الفرنسية من بعض ما كانت تستحوذ عليه، كالتعليم في بعض الأقطار، ولا سيما الجزائر، وأن يشعروا بهويتهم، ويحرصوا على التميز من الفرنسيين. وآية ذلك أنه يعدُّ سياسة التعريب في المغرب العربي مما يُخْفي به الحكامُ تبعيتهم لفرنسة، ويوهمون الشعوب أنهم مستقلون عنها، ويجدُّون في محو آثار الاستعمار، لينالوا به الشرعية عند الشعوب، وإن كانت العربية التي يريدون فرنسيةً في مضمونها، وإن حاولوا ستر آثارها فيها، أو أبوا أن يعترفوا بها. وسينتهي التعريب بالإخفاق، لا محالة؛ لأن العربية التي يريدون لغة ملفقة، لا قيام لها بنفسها، ولا تصلح للعلوم[2]. وزعم أن العرب يشكك بعضهم في عروبة بعض ولغته ودينه، وأن العربية كانت غير معروفة في المغرب، وما كان معروفا منها كان دون أن يصلح عليه أمر مجتمع عصري[3]. وهو يخالف قوله إنها كانت عام ١٨٨٠ منتشرة في الجزائر انتشارا عظيما، «كما تدل على ذلك شهادة إسماعيل أوربان...»[4]، ويعترف في موضع آخر من كتابه بأن بلدان المغرب العربي «ذات تعليم تاريخي عربي إسلامي، كانت فيه العربية دائما لغة للثقافة والإدارة»[5]. ومن أجل ما زعم من قلة معرفة أهل المغرب العربي بالعربية أعرضوا عن التعريب؛ لأنه يحول بينهم وبين التعليم الناجح؛ إذ التعليم الناجح لا يكون إلا بالفرنسية، فكان إعراضهم عنه سبب فوقِ تعليمهم تعليمَ أهل المشرق، حتى لقد كان، وهو في أسوأ أحواله، مثلَ التعليم المشرقي، وهو في أحسن أحواله. وإنما نزع بالمغرب إلى المشرق ما جدَّ لأهله في عهد الاستعمار الفرنسي من نظرة أسطورية،

---

(١) التعريب واللغات الأم في السياق الوطني بالمغرب العربي.

(٢) سياسة التعريب والفرنكفونية: تعارضات وجدانية.

(٣) اللغة والسلطة والمجتمع، ٢٣٠.

(٤) السابق، ٢٠١.

(٥) السابق، ١٨.

تعدُّ المشرق موطن العروبة الأول، ومركز الهوية[1]، وزادها ما لقيت حركاتُ التحرر في المغرب العربي من مساعدة جمال عبد الناصر. بيد أن التعريب في المغرب العربي قد أخفق، وأدلُّ شيء على إخفاقه تجربة المصريين في تعليم الجزائريين؛ فقد كان المصريون غير مؤهلين تأهيلا تربويا للتعليم، وكانوا عاجزين عن التعليم بغير اللهجة المصرية التي ما كان الجزائريون يعرفونها[2].

وفي هذا الكلام مكر ودهاء، وتبغيض للعربية إلى أهل المغرب، وتحريش بينهم وبين أهل المشرق، إذ يزعم لأهل المغرب أن أهل المشرق يشككون في عروبتهم ولغتهم ودينهم، تارة، ويزعم لهم أخرى أن تعليمهم -وهو في أسوأ أحواله- خير من التعليم المشرقي، وهو في أحسن أحواله، وإنما مردُّ ذلك إلى أن تعليم المغرب بالفرنسية، وتعليم المشرق بالعربية، على ما في ذلك من مخالفة للواقع، وتجافٍ عن الحق، وأن أهل المشرق لا يمكن أن يعلِّموا أهل المغرب؛ لأنهم لا يعرفون العربية، ولذلك كانوا يدرِّسون بعامياتهم التي لا يفهمها أهل المغرب، وليس في وسعهم أن يدرِّسوا بغيرها، أي إن ما يريد أهل المغرب عند أهل المشرق من العربية لا يعرفونه. وهي دعاية رددها الفرنسيون كثيرا، وكانوا يلحُّون عليها كلما أرادت الجزائر أن تُمضي بندا من بنود الدستور، يتعلق بالتعريب، وكانوا يزيدون على هذا أن الذين تولوا تعليم العربية من أهل المشرق كانوا إسلاميين مغضوبا عليهم في بلادهم، وكانت بلادهم مغتبطة بخروجهم منها إلى الجزائر، وهم الذين تولوا نشر «الأصولية» فيها، ومن قِبَلِهم جاء «الفكرُ الظلامي» (الإسلامي). وتعمَّد جلبير إنكار القطعي من حقائق التاريخ، إذ أنكر عروبة أهل المغرب العربي، وزعم أنها أسطورة، نشأت في عهد الاستعمار الفرنسي؛ ليصرفهم عن التعريب والتعلق بالعربية. وهي «شجاعة» على إنكار الضروريات، يَغبِطه عليها من لا يَحرَج من التوسل بالعلم إلى غايات غير علمية. وهي «شجاعة» تتسم بها السياسة والصحافة الفرنسيتان، كما تتسمان بكثير من الجرأة على تقليب الحقائق، كلما عرضت لقضية التعريب في الجزائر، وسائر المغرب العربي.

---

(١) اللغة والسلطة والمجتمع، ٢٣١.

(٢) التعريب في المشرق والمغرب العربيين.

ومما يدل على عدم موضوعية جلبير فيما يكتب عن التعليم والتعريب في المغرب العربي ما قال في إخفاق التعليم العربي في الجزائر بعد الاستقلال؛ لأن الذين تولوه كانوا من عرب المشرق، وما ادَّعى من أنهم كانوا غير مؤهلين تأهيلا تربويا. فقد تجاهل أن ما أصاب التعريب في الجزائر كان بتدبير من حكومتها الخفية، فقد كانت تتعمد أن يخفق التعريب؛ ليُعْدَل عنه إلى الفرْنسة؛ ففتحت الباب منذ عام ١٩٦٢ (عام الاستقلال) لكل من يعرف القراءة والكتابة ليكون معلِّما للعربية، بعد تدريب، لا يزيد على شهر واحد، فدخل في التعليم آلاف من معلمي العربية، ليس فيهم الحد الأدنى من شروط المعلم. ففي عام ١٩٦٤/ ١٩٦٥ -مثلا- كان معلمو العربية ٩٢٦٧، ٤٦٨ منهم يمكن القول -تجاوزا- إنهم مؤهلون للتعليم؛ لأنهم حاصلون على الثانوية، و١٥٩٠ متوسطون؛ لأنهم حاصلون على الإعدادية، والباقون (٧٢٠٩) حاصلون على الابتدائية فقط، ولكن تحصيلهم المعرفي كان دون الابتدائية بكثير[١]. وإنما أرادت الحكومة الخفية في الجزائر بذلك أن تبغِّض العربية إلى النشء الجزائري، وتحمل الناس على التمادي في العمل بخطة شارل ديغول في توسيع الخرق على الراقع، وفتح مئات المدارس الفرنسية[٢]. ولم يكن مفتشو العربية في هذه الخطة أحسن حالا من المعلمين، فقد درَس معظمُهم العربيةَ بالفرنسية؛ فكانوا يجهلونها جهلا تاما. وتجاهلت الحكومة السرية خريجي الجامعات العربية، ومعاهد المعلمين العالية بالمشرق العربي، وهم مئات من الجزائريين، اجتازوا دورات الإدارة والتفتيش بنجاح، وكانوا من الأساتيذ المتميزين، ولكنهم تُرِكوا يدرِّسون في المدارس، وهم أولى بالتفتيش ممن وُكل إليهم[٣]. أما ما ذهب إليه جلبير من عدم كفاية المعلم المندوب من المشرق العربي، فإن الذي يدل عليه الإحصاء أن المعلمين الكاملين من المندوبين من المشرق العربي كانوا أكثر بكثير من المعلمين الكاملين المندوبين من فرنسة[٤]، وأن من استُقدموا من أقطار المشرق العربي كانوا كلهم، بلا استثناء، من المدرسين الرسميين

(١) قضية التعريب في الجزائر، ٥٥.

(٢) السابق، ٥٧.

(٣) السابق، ٥٧ وما بعدها.

(٤) السابق، ٩٣ وما بعدها.

في بلدانهم، على حين كان أكثر المعلمين الفرنسيين من (VSNA)، وهم الذين يسمون «المتطوعين لأداء الخدمة الوطنية النشيطة»، وقد أغراهم شارل ديغول بالإعفاء من الخدمة العسكرية الإلزامية، والمكافآت المالية المغرية لقاء أن يفرنسوا الجزائريين والمغاربة، كما قد علمنا، وليس لهم ما يؤهلهم للتربية والتعليم، فليس فيهم خريجُ دارٍ من دُور المعلمين، ولا كلية من كليات التربية. ومع ذلك لم يقل جلبير ولا أحد من الفرنسيين إنهم أعانوا على «تدهور التعليم» وإنما ألصقوا ذلك بالمعلمين العرب(١). هذا إلى أن المعلمين العرب كانوا -في الجملة- أقل من المعلمين الفرنسيين عددا، وأن مواد البرنامج كلها كانت تدرَّس بالفرنسية، وإنما كان التعريب يأتي على دفعات متباعدة في الزمان(٢). وقد لقي الأساتيذ العرب القادمون من الشرق كثيرا من العراقيل التي كانت تضعها لهم الحكومة الخفية عمدا، فاختار كثير منهم العودة إلى بلادهم، على حين كانت تستقبل مبعوثي شارل ديغول بالترحاب والتكريم(٣).

وتأثرت جلبيرَ طائفةٌ من أهل المغرب، كانت تردد ما يقول ترديدا شبه أعمى، أكتفي منها بمثال واحد، يبين ما بلغ تأثيره هو وأمثاله من الفرنسيين الذين سخَّروا أقلامهم لإقناع أهل المغرب العربي بالبقاء في حظيرة فرنسة الثقافية تابعين مجهولي الهوية، مهمتهم حفظ الفرنسية مما يُخشَى عليها من الانخزال في حدود فرنسة السياسية لغةً محليةً، لا يعرفها غير الفرنسيين، بعد أن صرعتها الإنجليزية في بلادها، وغلبتها على العالم. وهذا المثال مقال طويل، لمحمد بو دهمان، لا يختلف مضمونه وغاياته، وما احتجَّ به من حجج عما يكتب جلبير، خلاصته أن معرفة تلامذة المغرب بالعربية قبل منتصف العقد التاسع من القرن العشرين (بداية تعريب التعليم الثانوي بالمغرب) كانت أفضل بكثير من معرفتهم بها بعد ذلك؛ لأن الفرنسية كانت هي التي تدرَّس بها المواد كلها: العلمية والأدبية، منذ الاستقلال إلى آخر العقد الثامن، أما العربية، فإنما كانت كاللغة الأجنبية، تدرَّس، ولا يدرَّس بها. ثم تغيرت الحال بالتعريب، فغدت لغةَ

---

(١) وزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا.

(٢) الموضع السابق.

(٣) الجزائر من أحمد بن بلة إلى عبد العزيز بو تفليقة، ١٢، وحوار مع الذات، ٤٢ وما بعدها.

التدريس في التعليم العامِّ كله، وهي لا تصلح لذلك؛ لأنها لغة نصف حية فقط، ومن أجل ذلك كانت صعوبة تعلمها. ولَمَّا عُلِّمها الطلاب لم يتقنوها كما أتقنوا الفرنسية، فكانت عاقبة التعريب عكسَ ما أراد المعرِّبون، وعُلِّموا الفرنسية قبل التعريب، فأجادوها؛ لأنها لغة حية؛ فسهُل عليهم أن يستوعبوا ما دُرِّسوا بها، ومنه العربية. وإتقان لغة جديدة مشروط بإتقان المتعلم لغتَه، فإن لم يتقنها، لم يتقن غيرها، وهو -إلى ذلك- يُضْعِف التحصيل العلمي، لضعف أداته. وكل تخطيط لتنمية العربية، يتناسى هذه الحقيقة مصيره الإخفاق، وهو ما أثبته أكثرُ من أربعة عقود من تعريب التعليم بالمغرب. وتشخيص هذا الواقع والاعتراف به يستوجب أن تُجْعَل الفرنسية لغة التدريس إلى أن تؤهل الأمازيغية والعامية المغربية للتعليم. أما ما يَدَّعي المعرِّبون من أن ليس في العالم دولة تقدَّمت بغير لغتها الوطنية، وأن سورية أنموذج لنجاح التعريب، فإن سورية لم تنجح إلا في التخلف والاستبداد، والنظام الجمهوري الملكي، وقمْع الحريات، والمهانة، تتلقاها كل يوم من إسرائيل التي يجوس جنودها خلال أرضها بالجولان، وتزمجر طائراتها فوق قصر الحكم بدمشق[1].

ولا يختلف هذا الكلام عما قال الفرنسيان ليوتي، وبول مارتي، كأنما قالاه اليوم أو أمس، وكأنه مسلَّمة من المسلمات، لا مراء فيها، ومحمد بو دهمان وأمثاله من المغاربة لا يَملُّون ترداده تذكيرا للناسي، وتنبيها للغافل، وليس بمقولة مستعمر، غايتها تمزيق المغرب، واصطناع العداوات بين أبنائه، ليتيسر ما تريد فرنسة من السيطرة عليهم جميعا، وهم إذ يرددون هذا القول، إنما يعينون خلفاء المستعمر على الحفاظ على مكتسبات سلفهم[2]. وقد نبه سعيد بنسعيد العلوي على أن جيلا من المغاربة نشأ بعد الاستقلال، فيهم باحثون وجامعيون، يبدو للباحث أنهم يجهلون كل شيء عن دراسات الاستشراق الفرنسي للمغرب، أو يكادون، وأنهم لم يقفوا على شيء من تحليلاته وأحكامه في الدولة، والمجتمع، والثقافة، إلا اتفاقا، غير أن من يُنْعِم النظر فيما يروِّجون من آراء وأفكار، ويعتقدون من عقائد ونظريات في الثقافة، والتراث الشعبي،

---

(١) رفقاً باللغة العربية أيها التعريبيون.
(٢) انظر: حوار اللغة، ١٧٩

واللغـة، واللهجـات المحليـة، والنُّظُـم الاجتماعيـة والسياسية والإدارية، يَعجبْ من شـدة تأثـر بحوثهـم وتحليلاتهـم بهـا، واستعادتهم إياهـا استعادة تـدل على أنهـم لا يعرفـون شيئا عـن دوافعهـا، مـع أنهـا لـم تكن خفيـة ولا دقيقة في كل حال، ويجهلـون السياق التاريخـي الـذي قيلت فيـه، وهذا يعنـي أن مقولات الاستشراق الفرنسـي المعاصـر صـارت جـزءا مـن الوعـي الثقافـي المغربـي، علـى تصـدي المقاومـة الثقافيـة لهـا، وردِّهـا إياها، وبـلاءِ ثلة مـن الباحثين الفرنسـيين النابهين في الكشـف عـن آثـار الاسـتعمار الظاهـرة والخفيـة فيهـا، والاجتهـاد فـي تقديـم بديـل لهـا، أحيانـا[1].

وإنمـا كانـت مقالـة محمـد بـو دهمـان جـزءا مـن الحملـة التـي تشـنها فرنسـة والمتفرنسـون فـي المغـرب علـى تعريـب التعليم العام، بعـد أن ثبت أن آثـاره كانت خيرا مـن آثـار التعليـم بالفرنسية، ولذلـك اتسـمت بغيـر قليـل مـن عـدم النزاهـة. والقـول إن العربيـة لغـة نصـف حية زعْـم مـن مزاعـم الاستشـراق الفرنسـي التـي يرددهـا الكاتـب. ومـن المفارقـات أنـه هـو وأمثالـه يعكفـون علـى صنـع أمازيغيـة معياريـة فـي مختبـر المعهـد الملكـي للثقافـة الأمازيغيـة بالربـاط، ليعمموهـا فـي التعليـم المغربـي، والحيـاة العامـة، وليسـت لغـة أمًّـا لأحـد، ولا يتقنهـا أحـد، حتـى الذيـن يشـتغلون بخلقهـا، فكيـف تُعَـدُّ لغـة لَمَّـا يُفـرَغ مـن خلقهـا حيـة حيـاة كاملـة، وصالحـة للتعليـم والحيـاة، وتعـد العربيـة لغـة نصْـف حيـة، ولا تصلـح للتعليـم، وهـي التـي تُسـتعمَل فـي الفضائيـات العربيـة، وتصـدر بهـا آلاف الكتـب، ومئـات الصحـف اليوميـة والمجـلات التـي يقرؤهـا مئـات آلاف النـاس مـن العـرب وغيـر العـرب؟[2]. غيـر أن هـذا هو نهـج الاسـتعمار الغربـي بعينه، كما قال أحـد الباحثين: مـن الطريـف الـذي يكشـف مقاصـد الاسـتعمار أن بريطانيـة وفرنسـة حيـن كانتـا تكيـلان التهـم للعربيـة، وتلصقـان بها كل مـا يبغِّضهـا، كانتا تعلِّمان لغـات الأقليات غيـر العربيـة فـي الوطـن العربـي، كالكرديـة، والأمازيغيـة، وتسـتخرجان قواعدهـا، وتؤلفـان لهـا المعجمـات، وتعلِّمـان بهـا وتدعـوان إلـى تعلمهـا[3]. أي إن اللغـات

(١) الوطنية والتحديثية في المغرب، ٣٤ وما بعدها.

(٢) ماذا دسترنا لغويا؟، ١٨٩.

(٣) العدوان على العربية عدوان على الإسلام، ١٩.

التي تريدان بعثها دون العربية في كل شيء، ومع ذلك تذمان العربية، وتسعيان في إماتتها وإخراجها من الحياة، وتجدّان في نفخ الروح في الأموات، أو صنع اللغات من العدم. ولم يتنبه الكاتب -إذ ينبِّه على تقدُّم إسرائيل- إلى أن لغتها إنما نُشِرت بعد أن أرِمَت، وهو يريد أن يميت لغة حية، وأنه لا يقول كلمة فيمن أحيا العظام وهي رميم، ويعارض معالجة «أنصاف الأحياء»؛ ليردَّ عليها الحياة كاملة!.

والتعريب في سورية ليس شيئا صنعه حزب البعث، وإنما تم قبله بعقود، فقد بدأ تعليم الطب في سورية عام ١٩٠٣ بالتركية حتى عام ١٩١٤، ثم أغلقت مدرسة الطب بدمشق عام ١٩١٤، بسبب الحرب الأوربية الثانية، فلما أعيد فتحها عام ١٩١٩ أصرَّ الأساتيذ المؤسسون على أن تكون العربية لغة التعليم فيها[1]. وأنشئ مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩١٩ م، وتمادى في عمله، والاستعمار الفرنسي على أشده، ولم يستطع أن يقفه إلا نحوا من سبع سنين، فلما علمت فرنسة أن لا قبل لها بمنعه، ولا بزحزحة السوريين عن التعريب، عدلت عن محاربته إلى تأييده، وأقرَّت بفضله على التعليم على لسان مندوبها بورنو، مدير المعارف العام[2]. وكل ما لحزب البعث من فضل على التعريب أنْ أبقاه كما ألفاه. وليس الاستبداد في سورية أثرا من آثار العربية، ولا الديموقراطية في أوربة أثرا من آثار الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وغيرها من اللغات، وقد بلغت الصين والاتحاد السوفييتي في عهد ماو تسي تونغ، ولينين، وستالين، وبريجينف، ما بلغتا من تقدُّم مادي، وحكامهما من أشد خلق الله استبدادا وجورا وعسفا. وليست الدول التي تَصطنع لغاتٍ أجنبية، كالفرنسية، بأكثر ديموقراطية من الدول التي لا تصطنعها، ولا أقل منها استبدادا.

وغفل عن حقيقة أخرى، هي أن الطفل المغربي يواجه الازدواج بين العامية والفصحى، والثنائية بين الفصحى والفرنسية، في السنوات الأولى من تعلمه، من غير أن يكتمل عنده واحد من نظامي اللغتين، أو ينضج، وهذا يؤثر في نموه

---

(١) التجربة العربية في تعريب العلوم، ٥٧.

(٢) اللغة العربية وتحديات العصر، ٩٢، وتجربة سورية في تعريب التعليم العالي.

اللغوي والمعرفي والفكري، ويسبب له اضطرابا نفسيا[1]. وقد أثبتت عشرات الدراسات أن تنازع العربية واللغات الأجنبية في التعليم هو سبب إخفاق كل نظام تعليمي في المغرب[2]، وهو ما أقرَّ به الباحثون من أهل المغرب، وردُّوا إليه كلَّ خلل في تعليمهم، أما التعريب، فإنما أثمر الفهمَ، والتحصيل، وكان له من حسن الآثار والنتائج ما لا ينكره إلا الجاحدون[3]، أما التدريس بالفرنسية، فترتب عليه من المآسي ما قد علمنا، وهو عكس ما زعم الكاتب من أن نتائج التعليم بالفرنسية كانت أفضل من نتائج التعليم بالعربية، وهو دليل آخر على عدم الموضوعية. على أن تدني التعليم، وضعف التحصيل عن ذي قبل ظاهرة في الوطن العربي كله، سواء أكان التعليم بالعربية أم كان بلغة أجنبية، كما قال أحد الباحثين: إن التعليم في بلدنا، يشكو الوهن: ما يُدرَّس منه بالعربية، وما يدرس بالفرنسية، وذلك لتجرده من الجد الذي كان من تقدَّمونا قريبا يتَّسِمُون به، وهو موطن الداء الذي ينبغي أن يعالج دون تأخر[4]. ولهذه الظاهرة أسباب غير التي ذكر الكاتب، يبدو أنه لم يشأ أن يلمَّ بها، وإنما اقتصر على أدلة، وجدها عند الفرنسيين، ومن ينقلون عنهم؛ لأنها تساوق ما أراد. وتعليم اللغة بلغة أجنبية لا يمكن أن يكون سبب استيعابها أكثر من تعليمها بنفسها، وهو لا يزيد على التعريف بتاريخها، وتعليم قواعدها تعليما نظريا، وتعليم اللغة بنفسها هو الذي يعين على مزاولتها مزاولة، تعين على التمكن منها تمكنا نظريا وعمليا، وهو أقرب إلى الطريقة التي تكتسب بها اللغة الأم. وقد رأينا أن معظم مفتشي العربيةِ في الجزائر درَسوها بالفرنسية؛ فكانوا -من أجل ذلك- يجهلونها جهلا مبينا، ولا يكاد أحدهم يكتب تقريرا عن معلم إلا وبه عشرات الأخطاء النحوية والصرفية والأسلوبية[5]. وذكر الحبيب بور قيبة أن موريان، وهو فرنسي، كان يدرسهم النحو العربي على الطريقة الفرنسية، وباصطلاحات فرنسية، كقولهم

(١) اللغة والبيئة، ٢٠ وما بعدها.

(٢) التبعية اللغوية، ٨.

(٣) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٦.

(٤) قضايا استعمال اللغة العربية، ٢٥٨.

(٥) قضية التعريب في الجزائر، ٥٧ وما بعدها.

«الينونسياتيف»، يعني المبتدأ والخبر، قال فكنا نهمل دروسه[1]؛ لأنهم لا يفهمونها. وضعْف الطلاب، بل ضعف الأساتيذ أيضا في الوطن العربي كله ليس ضعفا في العربية وحدها، بل ضعف في اللغات كلها، ومنه الفرنسية والإنجليزية، فإن الدراسات والبحوث تكاد تجمع على أنهم لا يتقنون العربية، ولا الفرنسية، ولا الإنجليزية، حتى الذين قضوا أعمارهم في تعلمهما[2]. وقد رأينا من ذلك ما فيه مَقنع. فإن كان سبب ضعفهم في العربية هو أن العربية نصف حية، فما سبب ضعفهم في الفرنسية والإنجليزية «الحيتين حياة كاملة»؟.

أما كون سورية أنموذجا لإخفاق التعريب، فقد ردَّ عليه الكاتب، إذ قال إن الاستدلال بأن كثيرا من الدول الإفريقية التي تستعمل اللغات الأجنبية ما زالت تتخبط في الجهل والتخلف والأمية، ولم تنفعها في بلوغ ما تريد من النهوض والتنمية، استدلال عامِّي، يعتمد على تصور آلي للعلاقة بين لغة التعليم والتنمية؛ فلا يكفي أن تكون لغة التدريس متقدمة ومنتجة للعلم والمعرفة، لتكون الدولة التي تصطنعها متقدمة، بل لا بدَّ من توافر الشروط السياسية للإفادة من المكاسب المرتبطة باستعمال اللغة في التدريس[3]. وكذلك التعريب في سورية: نظر إليه الكاتب «نظرة آلية»، وردَّ إليه ما لا صلة له به، من تأخر سورية، وهزيمتها، واستبداد الحكم فيها. وليست العربية وحدها بالتي تقدِّم أو تؤخِّر، ولا بالتي تتقدم أو تتأخر، وإنما يتقدم العرب أو يتأخرون[4]، وبتقدمهم أو تأخرهم تتقدم اللغة، أو تتأخر، ولكنَّ تعلُّمَ الشعوب بلغاتها يعينها على استيعاب العلوم أكثر مما تعينها عليه اللغات الأجنبية، واستيعابها شرط الإبداع والتقدم.

---

(١) بورقيبة بلسان بورقيبة، ٤٨.

(٢) التعددية اللغوية في الجزائر، ١، وتدبير تدريس اللغات: الواقع والمأمول، ١٤٨، وانقراض اللغة العربية.

(٣) رفقاً باللغة العربية أيها التعريبيون.

(٤) لغتنا جزء من هويتنا، ١٦، وإنية واصالة، ٥٢٧.

٦- إخراج العربية من سوق العمل

من سياسة الاستعمار أن يجعل لغاته الباب الأوحد إلى المال، والجاه، والمنصب، وبسبب هذه السياسة صار الطامعون فيها يستميتون في الإبقاء على اللغة الأجنبية والتمكين لها في المستعمرات السابقة، ويجدُّون في القضاء على اللغات الوطنية رجاءَ أن يستبدُّوا بالمنافع دون الشعوب، ثم صار إهمال الشعوب لغاتها، والتحول عنها إلى لغات المال والأعمال أثرا من آثار العولمة، فقد ربطت الاقتصاد، والعلم، والثقافة باللغات الكبرى، فكانت الهجرة إليها طوعية، كما هاجر سكان سكوتوز إلى الإسبانية، وصاروا ينتحلون الهوية الإسبانية، طلبا للعمل، وصارت العزلة، والحفاظ على المهن الموروثة، والعادات، والاقتصار على اللغة المحلية خسارة؛ لأن هذه ليس فيها ما يكفي من المال، وكانوا قبل ذلك يتكلمون بلغة مايان، وينتسبون إلى هويتها. كما تغيرت بيلزية أيضا، وصار كثير من أهلها يتكلمون بالإسبانية، وإن كانت الكريولية ما تزال هي اللغة التي تحدد هوية البلزيين وأصلهم[1]. ومع أن الإيرلندية هي لغة إيرلندة الرسمية، كما ينص على ذلك القانون، وتنفق الحكومة على ترقيتها، ويعظِّمها الإيرلنديون، ويعدونها أساس وحدتهم الوطنية والعرقية، قلَّ استعمالها، وصار فعل الإيرلنديين يناقض قولهم، في بعض الأمور، كالتربية والتعليم، فإن الإنجليزية هي المستعملة فيهما[2]. وتجاوز الأمر الأقاليم والدول الصغيرة إلى الدول الكبرى، واللغات التي كان لها شأن في العالم، كالفرنسية، فقد أخذت تنخزل في فرنسة، وتحلُّ محلها الإنجليزية في البحث العلمي، أكثر شيء، وفي بعض المجالات الأخرى، كالتعليم، حتى غدت مهددة بأن تصير لغة محلية. ونال العربيةَ في الوطن العربي مثلُ الذي نال اللغات الوطنية

---

(١) الموسوعة اللغوية، ٢/ ٤٧٧.

(٢) السابق، ٢/ ٤٧٦.

في أكثر مستعمرات بريطانية وفرنسة؛ لأن الذين خَلَفوا الاستعمار في الوطن العربي لا يختلفون عن الذين خلفوه في سائر المستعمرات. إلا أن حظ العربية من الحكومات التي خلفت الاستعمار كان أسوأ، بسبب العداوة التي يخص بها الغربيون العربيةَ دون أكثر اللغات. وقد سارت السياسة اللغوية العربية في أثر ما سنَّ الإنجليز والفرنسيون من إخراج العربية من الحياة، ولا سيما التعليم، وسوق العمل: فهي تشترط للعمل المعرفة بالإنجليزية أو الفرنسية، والتخرج في المدارس والجامعات الأجنبية، ولا سيما الجامعات الأمريكية، وترفض توظيف خريجي المدارس العربية[1]، وأكثر الأعمال التي تُعلَن في الصحافة يُعلَن أن مالكيها يشترطون على من يرغب في توليها إتقان الإنجليزية إتقانا تاما، بمهاراتها كلها، وإن لم تكن الأعمال التي يرادون لها، أو بعضها، مما يَحتاج إلى معرفة الإنجليزية[2]. من أجل ذلك غدا الذين يدْرُسون من أجل العمل فقط -وهم جل الطلاب أو كلهم- يرون أن العربية ليست لها قيمة اقتصادية، تغري بمعرفتها ودراستها. وصار أهل الطلاب يسألون المدارس عن اللغة التي تدرِّس بها، فإن علموا أنها العربية، انصرفوا عنها[3]. وعملت العولمة على تغيير السياسة التعليمية في الوطن العربي، بزيادة المؤسسات التعليمية الأجنبية وما يصاحبها من هيمنة الإنجليزية، حتى لقد صارت تدرَّس بها العلوم الإنسانية[4]. وهو مما عمل عليه الاستعمار عمدا، منذ أيامه الأولى في البلاد العربية في مصر والجزائر، وبسببه شاعت في بعض بلدان المغرب العربي عبارات من قبيل: «الفرنسية لغة الخبز، والعربية لغة الكلام»[5]، «العربية للصلاة والشعر، والفرنسية للعمل، والتنمية، والحداثة»، و«العربية الفصحى لغة الرب (الماضي)، والفرنسية لغة الحداثة (الحاضر)»[6]. ثم صار ما كان يقوله بعض أهل المغرب العربي في العربية والفرنسية هو ما يقوله العرب كلهم في العربية والفرنسية

---

(١) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ١٧٥.

(٢) اللغة العربية وأسئلة العصر، ٨٢ وما بعدها.

(٣) موقع العربية في السياسات اللغوية في لبنان، ١١٠ و ١١٥.

(٤) الفرانكفونية والسياسية اللغوية والتعليمية الفرنسية في المغرب، ٤٢.

(٥) التعليم في المغرب العربي، ١٢٩.

(٦) اللغة العربية في إسرائيل، ٣٤.

والإنجليزية، وغدت اللغات موزعة توزيعا تلقائيا، ولكل منها عمله ومكانته، فالإنجليزية والفرنسية للمال، والجاه، والمناصب، والعربية لـ«الكلام»، والعبادة، والشعر، والأدب، والخيال. وصار كثير منهم ينظرون إلى العربية نظرهم إلى الشيء، لا يهمهم، وفي أحسن الأحوال يعدونها لغة يحتاجون إليها في دينهم، أما الفرنسية، فلغة يحتاجون إليها في دنياهم. وهي «علمانية لغوية»، ترتب عليها أن تَقَلَّدَوا النفعيةَ في اللغة؛ فصاروا يَقْسِمون أعمارهم قسمين: ما قبل التقاعد، ويكون للفرنسية؛ لأنها لغة الدنيا، وما بعد التقاعد، ويجعلونه للعربية؛ لأنها لغة الدين[1]، كما ترتب عليها إقبال أهل المغرب العربي على دراسة الفرنسية بعد الاستقلال إقبالا عظيما، فقد كان الذين يدرسونها بالمدارس الجزائرية عام ١٩٦٢ خمسمائة ألف، فبلغوا عام ١٩٧٩ ثلاثة ملايين ونصف المليون[2]، أي إنهم تضاعفوا سبع مرات في سبعة عشر عاما. وقال الصحفي الفرنسي بول بالتا عام ١٩٨٢ إن الأطفال الذين يتعلمون الفرنسية في الجزائر تضاعفوا عشرين مرة عما كانوا عليه في العهد الفرنسي، وإن الجزائر ترفض الاعتراف بالازدواج اللغوي والفرنكفونية، مع أنها البلد الفرنكفوني الثاني في العالم، بعد فرنسة[3]. وفي العقد السادس من القرن العشرين كان أقل من ١٠٪ من المغاربة يدرسون بالمدارس الفرنسية، واليوم يدرس فيها ٩٠٪ منهم[4].

وبدأت هذه النظرة إلى العربية في مصر مع خطة دنلوب في تعليم العربية، فقد كان هو الذي فتح باب الرزق للمُخصِّين في الإنجليزية، وأغلقه دون المخصين في العربية، وفتح عليهم من السخرية والاحتقار ما زهَّد غيرهم فيها وصرفه عنها. وبدأت في المغرب العربي منذ اقترحت المؤرخة الفرنسية، إيفون تيران، على الحكومة الفرنسية أن تعمل على ما يرغِّب الجزائريين في تعلم الفرنسية، فقالت إن العربية، إذا كانت وسيلة العرب إلى بلوغ كل شيء، فسيقتصرون عليها وحدها، ويعزفون عن الفرنسية، ومما يحثُّهم على تعلم الفرنسية أن تكون

(١) خمسون سنة من التعدد اللغوي، ٧٤.

(٢) التعريب في الجزائر، ٥.

(٣) السابق، ٢٦.

(٤) إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٨٧.

وسيلة الغنى، والرقي، غيرَ منازعة[1]؛ فكان من سياسة الدول المستعمرة كلها قصر الوظائف على من يتقن لغتها[2]. فقد كانت فرنسة -مثلا- منذ ٧ فبراير عام ١٩٣٦ تشترط لترسيم الموظفين التونسيين أن يكونوا عارفين بالفرنسية[3]، وأصدرت قرارا في ٢٢ يوليو ١٩٤٥ يشترط على معلمي العربية معرفة الفرنسية من أجل توظيفهم في المدارس[4]. ولم تغير الحكومات التي خلفت الاستعمار هذه السياسة، وإنما جهدت في إقرارها، والدفاع عنها، والتمكين للفرنسية وثقافتها، بأن وزعت الوظائف بين الفرنسية والعربية، فجعلت الفرنسية لغة الإدارة والاقتصاد والعلم والثقافة الحديثة، والدراسات العليا، وهي وحدها الباب إلى المهن المربحة، كالهندسة، والطب، والصيدلة، والهندسة المعمارية، والمالية، وتدبير الشركات، والعربية لغة الدين والتراث[5]. وكانت هذه السياسة مما أخذ شارل أندريه جوليان، عميد كلية الآداب بالرباط، على الحكومة المغربية، في رسالة، بعث بها إلى مدير التشريفات بديوان محمد الخامس، قال فيها: كنتُ دوما من المدافعين عن التعريب الذي يبدأ من الأعلى، غير أني أخشى أن يجعل التعريب المعمول به الآن المغرب بلدا متخلِّفا من الناحية الثقافية، وإن كان المسؤولون لا يدركون ذلك، إذ ليس في البلد موظف صغير، بله الموظفين السامين والعلماء، يعلِّم أبناءه في المدارس المغربية. نبجِّل الثقافة العربية ونتسابق إلى أبواب مدارس البعث الفرنسي لتسجيل أبنائنا فيه، ولن يمر وقت طويل حتى تكون في المغرب طبقتان اجتماعيتان، طبقة المحظوظين الذين أفادوا من الثقافة الغربية، فنالوا بها مناصب القيادة، والطبقة الدنيا من الموظفين، وهي الجمهور الذي درس بالعربية، ولو توسلنا بقليل من الصبر والمنهجية، لكان من الممكن أن نصل إلى نتيجة أخرى، من شأنها أن تساوي بين الناس في فرص المستقبل[6].

---

(١) حزب البعث الفرنسي، ٧٢.

(٢) من أجل تفاعل لغوي، ٨٩.

(٣) البورقيبية والهوية، ٣٩.

(٤) سياسة التسلط الاستعماري، ٧٩.

(٥) انظر: جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ٩٧، ومسار اللغة الأمازيغية، ٤١، وخمسون سنة من التعدد اللغوي، ٧٦ وما بعدها.

(٦) مسألة تعريب التعليم الجامعي، ١٦٦ وما بعدها.

٧- التعليم باللغات الأجنبية

يكثر في جامعات المشرق العربي الحكومية أن تقسِّم العلوم بين العربية والإنجليزية، فتدرس التخصصات العلمية، ولا سيما الطب والهندسة، بالإنجليزية، ويدرَّس سائر التخصصات، ولا سيما العلوم الشرعية والعربية بالعربية. وإن كانت البلدان العربية تتفاوت في ذلك، فمنها ما يكون أميل إلى الإنجليزية، ومنها ما يكون أميل إلى العربية، على حسب انتشار الوعي، والشعور القومي، ففي جامعات مصر الحكومية، كجامعة القاهرة، وجامعة الإسكندرية، وجامعة عين شمس، وجامعة أسيوط، يستحوذ التعليم بالإنجليزية على أكثر التخصصات العلمية، ويستعملها بعضها في الاقتصاد، والعلوم الإدارية، والمحاسبة. وقد اتجه بعض الجامعات المصرية إلى إنشاء أقسام للتعليم بالإنجليزية[1]، وفيها جامعات، تقدِّم موادَّها في برامج موازيةٍ باللغات الأجنبية، ولا سيما الإنجليزية، وكذلك يفعل بعض الكليات في الجامعات الحكومية، ككليات التجارة والحقوق[2]. واستحدث بعضُها برامج، تسمَّى البرامج الدراسية باللغات الأجنبية، وبدأ العمل فيها بالتخصصات النظرية في السنين الأولى من العقد الأخير من القرن العشرين، ثم انتشرت في معظمها، ومنها جامعة الأزهر. وفي عام ٢٠٠٦ بدأ ما يسمى البرامج الخاصة أو المتميزة في التخصصات العلمية، وتدرَّس هذه البرامج باللغة الأجنبية[3]. وأُدخلت الإنجليزية في مدارسَ ومعاهدَ لم تكن تدرِّس إلا العربيةَ والعلوم الإسلامية، وأنشئت أقسام إنجليزية جديدة في معاهد وكليات عريقة، تُعنى منذ كانت بتعليم العربية وحدها[4]، وأوجبت هذه المعاهد، وهي آخر معاقل العربية في

(١) الهوية العربية في ظل العولمة، ١١.
(٢) التخطيط اللغوي في مصر، ١٥٤.
(٣) التقرير العربي الرابع للتنمية، ٢٠١.
(٤) اللغة الباسلة، ٤٨.

وطنها، على المترشح للدراسات العليا أن يجتاز امتحانا كبيرا في الإنجليزية[1]، وبدأ تعليم اللغة الأجنبية في سنٍّ، ما كانت تعلَّم فيها، في المشرق العربي، كما لم تكن مصر تعلم اللغة الأجنبية في مدارسها الابتدائية، ثم قررت تعليمها من السنة الأولى[2]. ويدرُس ٣٠٪ من طلاب الجامعات المصرية بالإنجليزية[3]. ويدرَّس في جامعة الإمارات العربية المتحدة بالإنجليزية في الكليات كلها ما عدا كلية الشريعة والقانون، وقسمي الدراسات الإسلامية، واللغة العربية[4]، ويُدرِّس أكثر الكليات العلمية في الجامعات السعودية بالإنجليزية[5]. والكثير في الجامعات العربية التي أنشئت في العشرين عاماً الأخيرة في الوطن العربي أن تدرِّس بالإنجليزية أو الفرنسية، أما فروع الجامعات الأجنبية والجامعات الأجنبية التي تشارك الجامعات العربية في تقديم برامج علمية، فلا تدرِّس إلا بهما[6]. وفي بعض البلدان العربية جامعات حكومية تدرس باللغات الأجنبية وحدها، كجامعة الملك فهد بالظهران، وجامعة الملك عبد الله بثُوَل، وجامعة الأخوين، بإفران بالمغرب، وجامعة الخرطوم، والجامعة الأمريكية ببيروت والقاهرة، والجامعة الأميركية اللبنانية، وتدرِّس هذه الجامعات كلها بالإنجليزية. وتدرس جامعة بالاماند، والجامعة اليسوعية، والجامعة الفرنسية، وجامعة نوتردام، وجامعة القديس يوسف (سانت جوزيف) بالفرنسية. وتدرِّس الجامعة اللبنانية بالإنجليزية والفرنسية، على حسب الكلية واختيار الطالب، ففي كلية العلوم، وكلية الهندسة، وكلية الصحة العامة برنامج للتدريس بالفرنسية، وآخر بالإنجليزية. أما التدريس بالعربية، فخيار من خيارات ثلاثة (عربي، وإنجليزي، وفرنسي) في كلية التربية، وكلية الإعلام والتوثيق، وكلية الحقوق، وكلية إدارة الأعمال[7]. وفي لبنان إحدى وأربعون جامعة، أنشئ ٧٠٪ منها في العقد العاشر من القرن الماضي، وتشمل عشرين جامعة خاصة، وواحدا وعشرين معهدا

---

(١) اللغة الباسلة، ١٠.

(٢) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ٢٥٩.

(٣) التخطيط اللغوي في مصر، ١٥٣.

(٤) اللغة العربية وهوية الأمة.

(٥) التعريب ونظرية التخطيط اللغوي، ٦٦، و ٨٠.

(٦) الموضع السابق.

(٧) اللغة العربية وهوية الأمة.

وكلية صناعية، ولكثير من الجامعات والكليات علاقة تآخٍ مع جامعات أجنبية شتى[1]. وتخلّت جامعة بيروت العربية عن التدريس بالعربية إلى التدريس بالإنجليزية، مع أنها إنما أنشئت لتكون بديلا من الجامعات الغربية والتغريبية في لبنان، كالجامعة الأمريكية ببيروت[2]. وتنال الفرنسية من الجامعات اللبنانية ما لا تنال من سائر جامعات المشرق العربي، وليس ذلك من أن لبنان كان يوما مستعمرة فرنسية، وإنما لارتباط بعض طوائفه بفرنسة، وأن الذين بيدهم السياسة التربوية والتعليم درسوا في المعاهد الأجنبية، ولا سيما الفرنسية، أو في المعاهد الخاصة بلبنان، وأكثرها فرنسي[3]. ومع الجامعات الحكومية جامعات خاصة، تدرِّس العلوم كلها باللغات الأجنبية، واللغات المستعملة فيها هي الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، كجامعة الأميرة سمية، وهي جامعة خاصة، تدرس بالإنجليزية وحدها، والجامعة الألمانية الأردنية (جامعة حكومية)، وتدرِّس بالإنجليزية في السنوات الثلاث الأولى، وبالألمانية في السنتين الرابعة والخامسة، وجامعة نيويورك للتكنولوجيا، وتدرس بالإنجليزية وحدها. وهذه الثلاث في الأردن. وتدرس الجامعات المصرية الخاصة بالإنجليزية، كجامعة المستقبل، والأكاديمية الدولية للهندسة وعلوم الإعلام وغيرها. وتدرس مؤسسات التعليم الخاص في السعودية بالإنجليزية، ككلية الرياض للصيدلة وطب الأسنان، وكلية البترجي الطبية والتقنية، وكلية عفت، وكلية الحكمة، بجدة. وتدرس الجامعات الخاصة في الإمارات العربية المتحدة بالإنجليزية، كالجامعة الأميركية في الشارقة، وجامعة الحصن، وجامعة العين، وجامعة ولقونق، وتدرس جامعة باريس بالفرنسية. وكذلك الجامعات الخاصة في البحرين، تدرس كلها بالإنجليزية، كجامعة نيويورك، وجامعة البحرين الطبية، والجامعة الملكية للبنات، وجامعة دلمون للعلوم والتكنولوجيا، وجامعة بنتلي[4]. وسُمِح بافتتاح الجامعات الخاصة في سورية عام ٢٠٠١، وبلغت عام ٢٠١٠ سبع عشرة جامعة، يدْرُس بها ٧٪ من الطلاب، ويدرس سائرهم بالجامعات

---

(١) التجارة والتعليم، ٢٢١.

(٢) الهوية العربية في ظل العولمة، ١٢.

(٣) موقع العربية في السياسات اللغوية في لبنان، ١٠٤.

(٤) تعريب التعليم الجامعي في الوطن العربي: الأردن نموذجا، ٦٢٧.

الحكومية. وليس في هذه الجامعات جامعة أجنبية، وإن كان بينها وبين بعض الجامعات الأجنبية تعاون، وهي في ذلك مثل الجامعات الحكومية[1]. غير أن الجامعات الخاصة في سورية عدلت عن التعليم بالإنجليزية بمساع من اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، ما عدا مقررين اثنين يدرَّسان باللغة الأجنبية[2]. ولعل من تأثير الحادي عشر من سبتمبر في سورية أنها قررت منذ عام ٢٠٠١ تعليم لغتين أجنبيتين في الابتدائية والثانوية، بعد أن كانت تدرِّس لغة أجنبية واحدة. ويبدأ تعليم الإنجليزية من الصف الأول الابتدائي، وتعليم الفرنسية من الصف السابع، ليتخرج الطالب في الثانوية وهو يعرفهما. وتدرَّس اللغة الأجنبية في الطور الجامعي، والدراسات العليا، فلا يسجل الطالب رسالة الماجستير إلا بعد التحاقه بدورات في معهد اللغات الأجنبية ونجاحه فيها، ولا يسجل رسالة الدكتوراه إلا بعد نجاحه في امتحان اللغة الأجنبية[3]. وكان من المتوقع إنشاء فرع للجامعة الأمريكية بدمشق، فقد عزمت سورية على أن تفاوض إدارة الجامعة الأمريكية بواشنطن من أجل ذلك، ولم يكن افتتاحه فيها لغاية علمية، وإنما أرادت سورية لتتوسل به إلى خفض الضغط الأمريكي عليها.

وتُدَرَّس الإنجليزية في المغرب في الإعدادية، وأقسام الإنجليزية بكليات الآداب، وتدرَّس لغةً تكميلية في أغلب المعاهد والمدارس والكليات، وتدرَّس في التعليم الخاص فيما قبل المدرسة، في بعض المؤسسات، ومن الابتدائية في مؤسسات أخرى، وتدرَّس في الثانوية في أغلب السنوات. وفي الرباط والدار البيضاء معاهد عالية خاصة، تدرس بالإنجليزية أيضا[4]. ويقدِّم المركز البريطاني والمركز الأمريكي، وأميدست (Amideast) دروسا في الإنجليزية للشباب والراشدين الباحثين عن تجويد ملكاتهم. وتوزِّع مكتبات المركز البريطاني والمكتبات الأمريكية، وبعض المكتبات المتخصصة الكتابَ الإنجليزي في المدن الجامعية بالمغرب[5]، وينص الميثاق الوطني للتربية على تعليمها من

(١) التقرير العربي الرابع للتنمية، ٢٩١ وما بعدها.
(٢) أهمية تدريس العلوم الطبية باللغة العربية، ٢٨ ما بعدها.
(٣) التجربة السورية في التعليم باللغة الأم، ٣٩٥ وما بعدها.
(٤) التعريب للأطفال منذ بداية القرن الماضي إلى الآن، ٧٧٩ و ما بعدها.
(٥) مسار اللغة الأمازيغية، ٤٤ وما بعدها.

السنة الخامسة الابتدائية[1]. ولعل سبب أن مكانة الإنجليزية في المغرب فوق مكانتها في الجزائر أن علاقة المغرب بأمريكة أوثق وأقدم من علاقتها بالجزائر، هذا إلى عدِّ فرنسة الجزائر جزءا لا يتجزأ منها، وذلك يقتضي أن يكون للفرنسية فيها ما ليس لها في بلد آخر، وأن تكون حكومتها الخفية في الجزائر أقوى وأشد تعصبا للفرنسية منها في كل بلد آخر، وأن تراعي السياسة الأمريكية تلك العلاقة، وما تعني لفرنسة، فتتجنب منافستها فيها كما تنافسها في المغرب[2].

وتنتشر في الوطن العربي مدارس كثيرة، تعلِّم باللغات الأجنبية، وهي نوعان: مدارس خاصة، يملكها عرب، لكن برامجها أجنبية، أو عربية، ولكنها تدرس بلغة أجنبية، ومدارس أجنبية، أي تابعة لدول أجنبية، وبرامجها في البلد العربي هي برامجها في بلدانها، في كل شيء، وأكثرها أمريكي، وبريطاني، وكندي، وإسباني، وألماني. وربما كان من المستحسن أن يُضرَب لهذه المدارس مَثَل من مدارس البحرين الخاصة، لتتبين كثرتها وتأثيرها الثقافي، وبرامجها، واللغات التي تدرس بها. فقد بلغت المدارس الخاصة التي تدرس بلغة أجنبية في البحرين إلى يوم ١١/ ١٢/ ٢٠٠٤، ٢٤ مدرسة خاصة، تسمَّى المدارس الوطنية، وهي التي ينشئها أو يمولها بحرينيون، أو يشاركهم فيها أناس غير بحرينيين[3]، وتدرِّس المناهج الأجنبية ما عدا ثلاثا منها، تستعمل العربية والإنجليزية في التعليم. وليست هذه المدارس ملزمة أن تدرس المناهج الوطنية، وإنما يمكن أن تدرس المنهج الذي تريد، إذا وافقت عليه وزارة التربية والتعليم؛ فتسميتها وطنية -وهي تدرس منهجًا أجنبيًّا، وتديرها أحيانًا هيئة أجنبية- فيها نظر؛ وإنما هي مدارس أجنبية؛ لأنها لا تختلف عن المدارس الأجنبية في شيء. وهي تدرس المنهج الأمريكي، وما يدرس منها المنهج البحريني يدرسه بالإنجليزية. وتعطي الثانويةَ العامة البريطانية، والثانوية الدولية، والثانوية الفرنسية، والدبلوما الأمريكية[4]. وبلغت المدارس الأجنبية -وهي التي يملكها أناس غير بحرينيين (إلى يوم ١١/ ١٢/ ٢٠٠٤)، ٢١ مدرسة، وهي التي ينشئها ويمولها أجانب أو

---

(١) ميثاق التربية والتكوين، المادة ١١٧.

(٢) المقالات المحظورة، ١٣٥.

(٣) المدارس الأجنبية في الخليج: البحرين أنموذجا، ٩٩.

(٤) السابق، ١٠٠ وما بعدها.

مؤسسة أجنبية في البحرين، أو يشارك فيها بحرينيون. وتدرَّس مناهج أجنبية، ويشرف عليها أجانب، وتعطي شهادات البلد الذي تنتمي إليه، وهي للطلبة الأجانب، في المقام الأول، بخلاف المدارس الوطنية[١]. ومناهجها كلها أجنبية (بريطانية، وأمريكية، وهندية، وباكستانية، وفرنسية)، وتدرَّس بالإنجليزية، ما عدا واحدة، فتدرس بالفرنسية[٢]. فمجموع المدارس التي تدرس مناهج أجنبية بلغات أجنبية في البحرين اثنتان وأربعون مدرسة. ويتْبَع بعضَ المدارس دُورٌ للحضانة، تتولى رعاية الأطفال وتربيتهم، من السنة الثانية إلى الرابعة، ويشرف عليها مدرسون أجانب، يعلِّمون الإنجليزية. ومناهجها أجنبية، وبعضها تابع لكنائس في البحرين. ولا تختلف رياض الأطفال كثيرا عن دور الحضانة، في الجانب التربوي، وفي أن الذي يشرف على أكثرها أجانب، وأن لغتها أجنبية (فرنسية أو إنجليزية)، ويتولى التعليمَ فيها معلمون أجانب[٣].

وأقبل الطلاب على المدارس الأجنبية في السنين الأخيرة إقبالاً كبيرًا، ففي عام ١٩٩٠ م -مثلا- بلغ الطلاب ٢٢٤٠٦ طالبًا، وبلغوا عام ٢٠٠٤ م ٥٠٤٢٠ طالبًا. أي إنهم تضاعفوا مرة ونصفا في خمسة عشر عامًا[٤]. وقد أُسِّس بعض هذه المدارس بعد الحادي عشر من سبتمبر، وأُسِّس بعضها في أول العقد العاشر من القرن العشرين، أي بعد الغزو الأمريكي الأول للعراق عام ١٩٩١، وما تبعه من تخطيط لاحتلال الإنسان باللغة بعد احتلال الأرض. وشرع معظم وزارات التربية والتعليم في دول الخليج في إعادة النظر في تعليم الإنجليزية، منذ مطلع العقد العاشر من القرن العشرين، ليبدأ تعليمها من الصف الأول الابتدائي بدلاً من الصف الرابع، وبدأ ظهور المدارس الخاصة التي تدرِّس المقررات كلها بالإنجليزية[٥]، فأقبل الناس عليها إقبالا شديدا، حتى بلغ طلابها عام ١٩٩٠، ٢٢٤٠٦ طالبا، وبلغوا عام ٢٠٠٤ م، ٥٠٤٢٠[٦]. وبلغت مدارس اللغات في

---

(١) المدارس الأجنبية في الخليج: البحرين أنموذجا، ١٠١.
(٢) السابق، ١٣٧ وما بعدها و ١٣٩ و ١٤١ و ١٤٣ وما بعدها.
(٣) السابق، ١٤٨ وما بعدها و ١٥٧.
(٤) السابق، ١١٢.
(٥) إشكاليات التعليم باللغة الإنجليزية في دول مجلس التعاون.
(٦) المدارس الأجنبية في الخليج العربي، ٢٢٨.

مصر ٥٥٧ مدرسة، وكانت عام ١٩٩٤، ١٩٥ مدرسة[١]. وهي قديمة في مصر وكثيرة، إذ يقول بعض الباحثين إنها تبلغ عشرة آلاف، ويقول بعض إنها تبلغ ١٦٠٠، في الأقل[٢]، وقال مصطفى الشهابي عام ١٩٣٥ م: إنها «لا يحصيها العد»[٣]. ويقول بعض الدراسات إنها تبلغ عشرات الآلاف[٤]. وكثرت جدا بعد الحادي عشر من سبتمبر[٥].

والتعليم باللغات الأجنبية، وفتح الباب على مصراعيه للمدارس الخاصة، وما يسمى المدارس العالمية، وللجامعات الأجنبية أن تفتح فروعا لها في البلدان العربية، تدرِّس فيها مناهج أجنبيةً بلغات أجنبية، لا علاقة لها بمناهج البلد، وحضارته، وحاجاته، ويكون ذلك في أطوار التعليم كلها -مخالف للسيادة الوطنية، ولا يُسْمَح به في دولة مستقلة، ولا في بلد تحكمه سياسة وطنية، تعي خطر التعليم[٦]؛ لأنه يعني السماح لبلد أن يتولى صياغة عقول ناشئة بلد آخر، على خلاف ما تقتضي هويته، وحضارته، ومصالحه، وخططه، وإنما يكون في البلدان المغلوبة على أمرها. وهو لا ينتج إلا شعبا من شعوب المستعمرات، في نفسيته وثقافته. فإذا تعددت جنسيات المدارس والجامعات ولغاتها، واختلفت مناهجها اختلفت مشاربها الثقافية، وفلسفاتها، وانتماءاتها الحضارية، وكان لزاما أن تتعدد انتماءات خريجيها، وأن يتوزع ولاؤهم بين أمم شتى، وألا تكون لهم هوية جامعة، ولا عصام يعصمهم، كالدين، والفكر، والثقافة، واللغة؛ لأنهم لا يعرفون إلا ما درسوا، وما درسوا مختلف، وليس له أصل يئل إليه، وإنما هو ثقافات شعوب شتى وأفكارها، كما قال جبران خليل جبران في التعليم الأجنبي بسورية قديما: إن التعليم يأتي السوريين من الغرب في صورة صدقة، فيقبلونها لجوعهم، وقد أحياهم خبز تلك الصدقة، ثم لما أحياهم أماتهم. أحياهم بما أيقظ من مداركهم، ونبَّه من عقولهم، وأماتهم بما فرَّق من كلمتهم، وقطَّع

(١) اتجاهات الشباب نحو استعمال اللغتين.

(٢) عشرات المؤتمرات وآلاف العلماء والمتخصصين يؤكدون أنه طريق النهضة.

(٣) الشذرات، ١٩٧.

(٤) المدارس الأجنبية في الخليج: البحرين أنموذجا، ١١٣.

(٥) اللغة العربية وخطر ضياع الهوية.

(٦) مستقبل الثقافة في مصر، ٥٩.

من روابطهم، وباعد بين طوائفهم؛ فغدت البلاد مستعمراتٍ، تُشَدُّ كل منها في حبل أمة غربية، ترفع لواءها، وتتغنى بمجدها. فالذين درسوا بالإنجليزية يريدون أمريكة أو إنجلترة وصيَّة عليهم، والذين درسوا بالفرنسية يريدون فرنسة ولية أمرهم[1]. من أجل ذلك حذر منه أحمد أمين، فقال إن «واجب الشرق ألا يُشجع هذه المدارس؛ لأنها مأوى التبشير والاستعمار معاً، وهي تجعل من نفسها داعية لدين غير دين البلاد، كما تجعل من نفسها حكومة داخل حكومة البلاد، وفي ذلك إهدار للاستقلال، ومدعاة للفساد. إن الأمم الحريصة على توحيد كلمتها وتوحيد آمالها، تصبُّ أبناءها في قالب واحد، حتى يكونوا متفقين متساندين، أما هذه المدارس، فتجعل أبناء البلاد شيعاً، كل طائفة تصطبغ بصبغة خاصة، وإذ ذاك تتضارب الميول، وتتنازع الآمال، ويكون أبناء البلد الواحد، بعضهم أعداء بعض، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى»[2]، وقال طه حسين إن التعليم الأجنبي قام في مصر مستظلا بالامتيازات الأجنبية، غير حافل بالدولة، ولا خاضع لسلطانها، ولا ملتفت إلى حاجات الشعب، ولا معنيٍّ إلا بالدعوة للبلاد التي جاء منها، ونشْرِ ثقافتها، وتكوين الطلاب تكوينا أجنبيا خالصا، وهو خليق بأن يبغِّض إليهم بيئتهم، ويهوِّن في نفوسهم قدر وطنهم، وإن كان -في الجملة- خيرا من التعليم المصري[3]. لكن أخيريته لا تسوِّغه، ولا تسوغ الترخيص له، فتعليمٌ ضعيف، يجمع الناس ويوحد انتماءهم إلى وطن وحضارة خير من تعليم جيد، يشتت شملهم، ويخالف بين قلوبهم، ويجعل انتماءهم إلى غير أمتهم، ووطنهم، وحضارتهم، ويجعلهم عيونا على بلادهم؛ فلا تنتفع بهم ولا بما تعلموا. والتعليم الغربي -كما قال محمد إقبال- هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكون كما شاء، وهذا الحامض أشد قوة وتأثيراً من كل مادة كيميائية. ولا يقلل من هذه المضار أن من الدول ما يُلْزِم المدارس أن تدرِّس بعض المقررات الإسلامية والعربية، فإن هذه لا تسمن ولا تغني في تكوين ثقافة الطالب، وتصوُّره للوجود؛ لقلة ما يقدَّم فيها، ولأنها

---

(١) البدائع والطرائف، ٨٧.

(٢) فيض الخاطر، ١٠/ ١٥٤.

(٣) مستقبل الثقافة في مصر، ٥٥.

تَغرَق في نظام تربوي عريض، ذي فلسفة، تباين فلسفتها، وربما كانت الطريقة التي تقدَّم بها معينة على ازدرائها. وهذه المقررات ليس لها كبير أثر في أبناء العرب الذين يدرسونها في مدارس عربية، وهي جزء من نظام، يُفرَض أنه تام، فكيف يكون لها أثر في نظام، هي فيه شاذَّة؟ هذا إلى أن من الكثير ألا تدرَّس في بعض الدول.

وقد خرَّجت المدارس الأجنبية في الوطن العربي أجيالا، لا تنتمي إلى أمتها، ولا إلى أوطانها، ولا تدين بدينها، ولا تعرف لغتها؛ لأنها لم تَدْرس منها شيئا ذا بال؛ فهي تستثقلها، وتعد نفسها مجبرة على دراستها[1]، ويحقد بعضها عليها كما يحقد عليها كثير ممن يُخِصُّون في اللغات الأجنبية، في المدارس والجامعات الحكومية، ويرون أن لا داعي لدراستها؛ فإنما هي نكَد، تُنغَّص به حياتهم؛ لأنهم لا يحتاجون إليها، فأعمالهم لا تتطلبها، ولا يحتاجون إليها في حياتهم العامة؛ فلا معنى للإثقال عليهم بدراسة ما لا يفيدهم، وما تعلموا منها سينسونه إذا أجازوه. ويقول من يسارعون في تعليم أبنائهم بالإنجليزية: ما دامت الجامعات العربية تدرِّس بالإنجليزية، فلا داعي لأن نتعب أنفسنا وأبناءنا بدراسة العربية، إن الطالب يدرس العلوم والرياضيات بالعربية اثني عشر عاما، فإذا دخل الجامعة درس بالإنجليزية، ومعرفته بها قليلة، فيلقى من ذلك عنتا، ولو كان تعليمه كله بالإنجليزية لكُفي ذلك العنت. وهي حجج، تسوِّغ خوف من قال إنه يخشى أن يأتي يوم تصبح فيه العربية غريبة على العرب، ويطالبون بإلغاء التدريس بها[2]، ما دامت لا مكان لها في الحياة، وإنما الحياة للإنجليزية والفرنسية. كما يسوِّغه ما قال بعض الأساتيذ من أن بعض خريجي مدارس اللغات الأجنبية -ولا سيما المدارس الانجليزية- يلحُّون على أن تُلْقَى عليهم المحاضرات بالإنجليزية، وأن تكون اختياراتهم بها؛ لأنهم غير متمكنين من العربية، ولا يستطيعون متابعة دروسهم بها، ولا يفهمون بعض الموضوعات إلا أن توضح لهم بالإنجليزية، وأن متطلبات الإنجليزية في بعض الجامعات العربية غدت أكثر من متطلبات العربية، وأن بعض الجامعات صار يشترط للقبول في

---

(١) التعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي، والمدارس الأجنبية في الخليج العربي، ٣٣٣ وما بعدها.

(٢) اتجاهات الشباب نحو استعمال اللغتين.

الدراسات العربية والإسلامية النجاح في اختبار الكفاية في الإنجليزية (التوفل)، دون العربية[1].

هذا إلى ما تزرع هذه المدارس من شك في الدين والتراث والأعراف الحميدة، واستخفافٍ بالشعائر، وإقبال على العلاقات غير المباحة، وتقلُّد بعض الأفكار المباينة لقيم المجتمع. فقد بلغت المدارس الخاصة التي تعمل بنظام الاختلاط في الإمارات العربية -مثلا- ٣٨٣ من أربعمائة مدرسة خاصة. وكذلك يفعل بعض الجامعات والكليات الأجنبية، وبعض الجامعات والكليات التي يُدرَّس فيها باللغات الأجنبية وحدها، وإن لم تكن أجنبية. وأشار بعض الدراسات إلى أنه ينتشر بين الطلاب والطالبات في بعض مدارس البحرين الأجنبية تعاطي الحشيش والحبوب المخدرة[2]. دعك مما يَجزم به الخبراء من أن الجامعات الأجنبية في العالم الإسلامي ما هي إلا مؤسسات تابعة للمخابرات الغربية، ولا سيما المخابرات الأمريكية، وهي تريد اختراق ثقافات الشعوب، وتغيير هوياتها، وأسلوب تعليمها، وحَمْلها على قبول طرق التفكير الغربية، ونتائجها، واصطناع طلابها في كتابة بحوث، غايتها علمية في الظاهر، وأمنية في الحقيقة، لمعرفة أدق شؤون الشعوب، والاستعانة بها على طمس هويتها، وثقافتها الوطنية والدينية، وفرض الحضارة الغربية على أهلها، وأن للجامعات الأجنبية علاقة بالحملة السرية لتمريك البلاد العربية، وهي تعمل على صناعة عُصَب سياسية وثقافية مرتبطة بالغرب ومنافعه، مؤمنة بفوقه الحضاري، منفصلة عن مجتمعاتها وثقافتها[3].

والتعليم الأجنبي الغربي الذي يخيَّل إلى بعض العرب أنه سبيل إلى الرقي والنهوض ليس كما يُظَنُّ به، أعني تعليم البلدان الغربية التي يختارون دون غيرها، كالتعليم الأمريكي والفرنسي والبريطاني، بخلاف التعليم في ألمانية، وسويسرة، وبعض الدول الآسوية، كاليابان، وكورية، وسنغافورة. فافتتاح فروع جامعات أجنبية في الوطن العربي لن يكون له من حميد الآثار ما يظن

(١) مظاهر التعريب في جامعة الكويت، ٢٦.
(٢) المدارس الأجنبية في الخليج، ١٠٨.
(٣) اللغة العربية وهوية الأمة.

من لا يعرفه، ولن يصنع للعرب ما عجز عن صنعه للأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين، فإن التعليم في هذه الدول، كما قال المفكر جاي دبورد: يعمل على تعليم العامة العجزَ عن التفريق بين ما هو مهم، وما هو تافه، وغير ذي قيمة[1]. وقال آخر: في مجتمع المشهد والصورة، والمعارف المتآكلة المعدَّة للغالبية أصبح الأستاذ منشِّطا، وفقدَ عمله التربوي. لقد صارت المعاهد مراكز لتعليم الجهل، وتضاءلت قدرة التلميذ النقدية، بقدر ضخَم بنوك المعلومات[2]. ويصدق هذا على التعليم العربي؛ لأن مناهجه والبرامج المقررة في الجامعات العربية مستنسخة من برامج البلدان المستعمرة[3]. وربما كنا في حاجة إلى أن نلقي نظرة عجلى على التعليم في فرنسة وأمريكة، بمنأى عما يَتوهَّم من ينظر إليه بعين الرضا، فإنَّ تحت الشعارات التي ترفعها الدولتان حقائق فاجعة، من أهمها تدنِّي التعليم والثقافة. ففي دراسة، نشرتها «واشنطن بوست» أن غالبية الطلاب الأمريكيين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين لا يعرفون أين العراق، وهو البلد الذي تحتله بلادهم، وأن نصفهم لا يعرف موقع نيويورك من خريطة أمريكية، وأجاب ٣٠٪ منهم، وقد سئلوا عن عدد سكان أمريكة، أنه مليار وعشرون مليون نسمة[4]. ويقول الأمريكيون: إن نظام تعليمهم كالجسد المريض، يرفض العلاج الذي يمكن أن ينقذه من الموت المحقق[5]. و٧٠٪ من تلامذة الصف الرابع الابتدائي في المدن الأمريكية لا يحسنون القراءة، بل لا يحسنها كثير من طلاب الجامعات، ويأتي طلاب المدارس الثانوية في أمريكة بعد قبرص وجنوب أفريقية في امتحانات الرياضيات الدولية، ونحوٌ من ثلث طلاب السنة الجامعية الأولى يحتاجون إلى دروس تقوية قبل أن يبدؤوا دراسة المقررات الجامعية[6]. ولا يقْدر ما بين ١٥٪ و٢٠٪ من التلامذة الفرنسيين الحاصلين على الشهادة الابتدائية على القراءة[7].

---

(١) التعليم والتشغيل في زمن العولمة.
(٢) الموضع السابق.
(٣) الموضع السابق.
(٤) الموضع السابق.
(٥) دراسة حول نظم التعليم العام في دول مجلس التعاون الخليجي.
(٦) الموضع السابق.
(٧) التعليم والتشغيل في زمن العولمة.

ويشير بعض الدراسات إلى أن ما بين ٢٠ و ٢٥٪ من الشباب الفرنسي يرتدُّون إلى الأمية بعد ست سنين أو تسع من التعليم الإلزامي[١]. وليست فرنسة من الدول العشرين التي هي أفضل تعليما، والطبقة الثرية من شعبها ترسل أبناءها للدراسة في أميركة[٢]. وفي الرابع من فبراير عام ٢٠١٣ نشرت «لوموند» تحقيقا، عنوانه: «التعليم: لماذا النموذج الفرنسي في عطب؟»، قالت فيه إن فرنسة تخصص خمسة وستين مليار يورو كل عام للتعليم، لكن التعليم ليس هو وسيلة الرقي الاجتماعي كما كان، وإنما صار يحض على التفاوت الطبقي، وحذَّرت من قلة جدواه في تعميم المعرفة والمهنية والإبداع. وبعد هذا بنحو عام سلَّم وزير التربية المغربي، رشيد بلمختار نظام التعليم المغربي إلى فرنسة، بعد اتفاق سري بينه وبين وزير التربية الفرنسية، سماه المغاربة «معاهدة التسليم»، لتتولى فرنسة تحويله إلى ما يسمى الثانوية الفرنسية الدولية، أي لتتولى فرْنسته، وحذوه على تعليمها، متعللا بأنه يريد الإفادة من الخبرة الفرنسية في الهندسة التربوية، وتكوين الأساتيذ والتقويم والإشهاد، ولو كلف نفسه متابعة ما تنشره الصحافة الفرنسية كل يوم عن التعليم الفرنسي لتبين أن كارثة تحل به[٣]. وفي ملف أعدته مجلة L'opinion الفرنسية أن مهمة المعاهد صارت مقصورة على صناعة العلوج، أو الحرفاء الذين لا يعرفون سوى خمسين أسلوبا، تمكنهم من إرسال رسائل إلكترونية بالجهاز المحمول (SMS)، أو الترشُّح لبرنامج ستار أكاديمي. وسببُ هذا الانهيار المخيف إرادةٌ جامحة لصنع تلامذة، تتلخَّص مهمتهم في تنشيط سوق التعليم، وهي أكبر سوق في القرن الحادي والعشرين، إذ تبلغ معاملاتها الدولية تسعين مليار دولار (بحسب إحصاء عام ٢٠٠٢) وتقدِّم لهؤلاء التلامذة «بضاعة تعليمية»، ومعلومات متآكلة. ولهذا قال المفكر جان كلود ميشا (Jean Claude Michéa) إن الجهل تقدَّم أشواطا، لا لخللٍ في سياسات التعليم، وإنما لأن تعليم الجهل شرْط من شروط بقاء المجتمع، فقد صارت المعاهد تخرِّج جهلة، يجهلون أنهم يجهلون. أما المسؤولون عن

---

(١) تعليم اللغة الأجنبية (اللغة الثانية) اللغة الفرنسية في الجزائر، ١١٨ - ١٢٣.

(٢) تعديل مناهج التعليم بالجزائر.. إصلاح أم فرنسة؟

(٣) معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد.

سياسات التعليم، فالحل عندهم في تعميم الحواسيب والشابكة في المعاهد، وهما وسيلة مكمِّلة، ولا تعوِّض قدرات التلميذ واستقلاله الفكري. وهذه التقنيات -وإن أَعْتَدَتِ النصوص والمعلومات الكثيرة، على وجه لا نظير له فيما سلف من العصور- لا تتيح لتلميذ، لا يجيد القراءة والكتابة، ويفتقر إلى القدرة على التمييز، أن ينتفع بها، ولا تعوِّض العلاقة بين التلميذ والنص. ويُخْلَط خلطا مقصودا بين المعلومات والمعارف: والمعارف إنما تُكتسبُ بمجهود خاص، وبتنمية القدرات الذهنية على التحليل، والتفكير، والنقد، والبناء، والإبداع. لقد صارت المعاهد أكلات سريعة، وصار «تعليم الجهل» أحد دعائم مجتمع المعلومات[1]. ومما كان يقال إن «الإنجليز يقتصدون في التعليم النظري لأبنائهم، ويتجاوزون الاقتصاد إلى التقتير، بالقياس إلى أبناء المستعمرات»[2]، وإنهم جعلوا غاية التعليم العام إعداد الموظفين[3]، وقال طه حسين إن الإنجليز رسموا للتعليم في مصر «طريقة محدودة ضيقة، فأفسدوه، وأفسدوا نتائجه وآثاره أشد الإفساد، ونحن نبذل -منذ أعوام- جهودا مختلطة مضطربة لإصلاح ما أفسدوا، فلا نكاد نوفَّق في بعض الأمر حتى تعدو العاديات، فتردَّنا إلى الإخفاق والخذلان»[4]. ونبَّه على مثل ذلك عباس حلمي الثاني، ملك مصر، قبل طه حسين، فقال إن تعليمهم في مصر هزيل، فلم تكن للذين يعملون منهم في مدرسة الحقوق -مثلا- شهادات كافية، وكانت حصيلتهم القانونية هزيلة جدا. وكان بعض أساتيذها يذهب لأداء امتحان الليسانس في باريس، وفي إكس، وليون، لتحسين دراستهم. أما أصحاب الكراسي منهم، فما كانوا يخرجون في محاضراتهم عن الكتب المقررة؛ ففقد التعليم روحه، وأصبح عند الطالب عملا أليما[5]. وإذا صح أن هذه حال التعليم الأمريكي والفرنسي والإنجليزي، فليس من المتوقع أن يفيد منه العرب إلا ما تريد أمريكة وفرنسة وبريطانية أن يفيدوا، من تغيير ثقافتهم وانتمائهم، وتوجيههم وجهة، تساوق سياستها في بلادهم.

---

(١) التعليم والتشغيل في زمن العولمة.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر، ١٣٨.

(٣) السابق، ١٣٩.

(٤) السابق، ٥٤.

(٥) عهدي، ١٤٧.

وبعض مدارس أمريكة في الوطن العربي تابع لمخابراتها، وما تريد منها صريح، كما قال روبرت ساتلوف، مدير قسم السياسة والتخطيط في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى -وهو من المعاهد المقربة من وزارة الخارجية الأميركية- في تقرير له: المدارس الأمريكية في البلاد العربية والإسلامية ليست مجرد صروح تعليمية عظيمة، ولكنها سلاحنا السرى فى معركتنا العقدية (الأيديولوجية) لتمريك المجتمعات العربية والإسلامية[1]. وقالت مارجريت سكوبي، سفيرة أمريكة في القاهرة، إن الإدارة الأمريكية تدرُس إنشاء مدارس أنموذجية مجانية في الإسكندرية والقاهرة لتخريج مئات من الطلاب، يكونون نواة قاعدة شبابية مبنية على العلم والصناعة، وموافقة لأحدث الأساليب المتبعة في أمريكة[2]، وستكون مناهجها وإدارتها وتمويلها أمريكية خالصة. وقال المحللون المصريون إنما ذلك مخطط للتوغل الثقافي الغربي في مصر، تديره المخابرات الأمريكية، لصياغة عقول الأجيال المصرية، وإن المدارس الأمريكية في مصر من المدارس الموجهة لنشر المذهب البروتستانتي، وهي منفصلة عن المجتمع المصري، ولا تتبع قانونه، وإشراف مصر على الطور الثانوي منها صوري. وتشتمل مناهجها على موادَّ تحقِّر العرب إلى التلامذة[3]. ولسنا معنيين هاهنا من آثار المدارس والجامعات الأجنبية إلا بما يمس الهوية، ولا سيما اللغة، أما ما عدا ذلك، فنضرب عنه صفحا. وقد تبين من دراسة عينة من طلاب الجامعة الأمريكية، بالقاهرة، عن الهوية العربية الإسلامية، وأثر التعليم الأجنبي في صياغتها أن ٧١,٥٪ منهم لا يعرفون لون العلم المصري ولا ترتيب ألوانه، وأن ٣٨,٥٪ يرون أن حجاب المرأة دليل تخلُّف وفقر، وأن ٢٧,٥٪ في توق شديد إلى الحصول على الجنسية الأمريكية، وأن ١٩,٥٪ يعدُّون بعض العلاقات غير المشروعة بين الطلبة والطالبات أمرا حضاريا، ولا ينافي الثقافة المصرية، وأن ٧٥٪ يرون أن الوجود الأوروبي

---

(١) التعليم الأجنبي البوابة الخلفية لطمس هوية مصر، موقع المصريون.

(٢) سكوبي: إقامة مدارس أمريكية نموذجية في القاهرة والإسكندرية، وتربويون يرفضون مدارس المتفوقين الأمريكية ويعتربونها اختراقا للتعليم المصري، وخبير تربوي: مبادرة المدارس المجانية الأمريكية هدفها تخريج أجيال فاقدة للهوية.

(٣) الحكومة تسمح بفتح مدارس تديرها المخابرات الأمريكية.

الاستعماري في مصر كان تعاوناً وتنويراً، لا استعماراً[1].

ومن المفروض أن تدرس المدارس الأجنبية بالبحرين ثلاثة مقررات، فوق ما تدرس من مقررات، هي: العربية، للطلبة العرب، والتربية الإسلامية للطلبة المسلمين، وتاريخ البحرين وجغرافيتها للطلبة جميعا. غير أن الساعات المخصصة لهذه المقررات غير كافية، وأغلب المدارس لا يزيد العربية على حصة واحدة في الأسبوع، أما التربية الإسلامية، فالمقرر لها في نظام وزارة التربية البحرينية حصة واحدة، وكذلك تاريخ البحرين وجغرافيتها، وبعض المدارس الأجنبية لا يدرس هذه المقررات ألبتة. ولا تَلْقَى من العناية والاهتمام ما يلقى سائر المواد، ويعتقد الطلاب -من أجل ذلك- أنه لا رسوب فيها[2].

ومعظم المدارس الأجنبية فى مصر لا تدرِّس الإسلام، ولا العربية، ولا التاريخ والجغرافية العربيين، وما يدرِّس العربيةَ منها إنما يدرس العامية، ويرفض تعليم الفصحى، ويَعدُّها لغة ميتة. ولا ترى الأسرة المصرية بأسا بذلك، وإنما تسعد بأن ترى أبناءها يتكلمون بالإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، ولا يعرفون العربية. وتختار المدارس الأجنبية أفضل المعلمين لتدريس اللغات الأجنبية؛ ليجد الطالب من ذلك عقدة الشعور بضعف العربية وقصورها عن العلوم. والمناهج كلها أجنبية، وكذلك المدرسون والمشرفون والإداريون، وهي مستقلة استقلالا شبه تام، في نظمها الداخلية ومناهجها، وتسميةِ من يدرِّسون فيها، وليس لوزارات التعليم العربية سلطان عليها إلا إشراف صوري على أنظمتها، ولا تستطيع الحكومات التدخل فى شؤونها، وإن خالفت النظام؛ لأنها محمية بقوة دولها[3]. وتَخرج برامجها التعليمية عن الاتفاقات المبرمة بينها وبين البلدان التي هي فيها، فتدرِّس ما ينال من عقائد شعوبها وثقافاتهم، ويخالف ثوابتهم ومصالحهم، كما تفعل الجامعة الأمريكية بالقاهرة وبيروت -مثلا-، فإنها تدرِّس مؤلفات، تسيء إلى الإسلام ونبيه الكريم -عليه الصلاة والسلام-، ولا تستطيع واحدة من حكومتي البلدين أن تكفَّها عن ذلك، وإن سألتها الكفَّ

---

(١) التعليم الأجنبي البوابة الخلفية لطمس هوية مصر.

(٢) المدارس الأجنبية في الخليج، ١٠٢.

(٣) انظر: الآثار السلبية للتعليم الأجنبي في مصر، وفاروق جويدة: ماذا بعد طوفان المدارس الأجنبية في مصر. واللغة العربية مهددة بالانهيار، والتعددية اللغوية: قضايا سوسيو - سياسية، ١٣٠.

عنه، لم تبالها[1]، وتدرِّس مؤلفاتٍ، تقرر تَمَيُّز الغرب على العالم الإسلامي، وتعترف بفلسطين أرضَ ميعاد لليهود، وتدعو إلى لانحلال، وتُرْسخ الأخلاق النصرانية، على مخالفة ذلك للقانون الذي به رُخِّصَ لها، فإنه ينص على أن تَحترِم قيم الدولة التي تستضيفها. وكذلك تفعل فروع الجامعات الفرنسية في المغرب العربي[2]. وبين الفينة والفينة تنشر الصحف المغربية ما يدل على سخط أولياء الطلاب من مخالفة المدارس الأجنبية في المغرب ثقافتهم ودينهم، وحَمْلها أبناءهم على خلاف ما يرضون لهم، وتغيير هويتهم، كما أبان بعضهم مرة عن استيائهم من المدارس الإسبانية؛ لأنها تعرض صورا للنبي -صلى الله عليه وسلم- في المقررات الدراسية على وجه، يخالف سيرته، وشكا أحدهم أكاديمية جورج واشنطن، بالدار البيضاء، وهي مدرسة أمريكية، إلى المحكمة؛ لأنها نصَّرت ابنه. وقال أحدهم إن ابنه الذي يبلغ ست سنين أو سبعا عاد منها يوما، ومعه شريط مصور عن التنصير، قال إن معلمته سألته ألا يحدِّث عنه أبويه[3]. ويقول المغاربة إن تعليم البعوث الفرنسية بالمغرب بلغ حدا من الفساد والإفساد صار معه تهديدا وطنيا ماثلا: إذ يدرِّس العامية، وينشر الانحلال، ويحض على المخدرات، ويفسد الذين يُعَدُّون لوراثة الحكم والاقتصاد[4]. وهو أمر قديم في التعليم الأجنبي في الوطن العربي، فقد أخذ طه حسين على الحكومة المصرية تركها للمدارس الأجنبية الحبلَ على الغارب، وقال إنها يجب أن تُلْزِمها تعليم الدين، والعربية، وتاريخ مصر وجغرافيتها، وألا تنحرف بالتلامذة عن دين آبائهم، وألا تتخذهم غرضا للتنصير؛ فإن تعليم الدين واللغة والتاريخ والجغرافية يوحِّد عقول المصريين، وتوحيدها أساس الوحدة الوطنية. وقال إنها يجب أن تُراقَب مراقبة شديدة، حتى يوثق بأنها تفعل ما تُلْزَم، وأن يُفهَم الأجانب والمصريون جميعا أن قيام المدارس الأجنبية في البلاد المستقلة مخالف لطبيعة السيادة الوطنية، فإذا قبلت مصر أن تقوم في أرضها هذه المدارس، فيجب أن تطمئن إلى أنها لن تكون مصدر شر لها، أو

---

(١) اللغة العربية وهوية الأمة.

(٢) الموضع السابق.

(٣) السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، ٨٦.

(٤) مطارحات حول مسألتي اللغة والهوية، ٢٧٤.

خطر على عقول أبنائها، وإذا كان يشق على الأجانب أن يعلِّموا الدين الإسلامي في مدارسهم، وهي نصرانية، أو علمانية، فإن مما يشق على المصريين أن يَقْبَلوا بالمدارس الأجنبية في بلادهم، والأصل ألا يفعلوا[1]. وهو رأي يبدو أن مصر لم تعمل به؛ لأن المدارس الأجنبية إذا درَّست بالعربية، ودرَّست التاريخ والجغرافية المصريين، كانت خادمة لمصر، وذهب مالها وجهدها هدرا، وليس تعليم مصر وخدمتها مما جاء بها.

وليس في هذه المدارس، ولا في غيرها من المدارس والجامعات الأجنبية ما يحرِّص عليها غير ما يُرجَى منها من نفع مادي للأبناء، منذ أوجبت الحكومات العربية اللغة الأجنبية في التعليم العالي، والمصارف، والشركات، والمؤسسات المالية والاقتصادية، وبعضِ الإدارات الحكومية، فكان لزاما على من يريد لأبنائه الدراسة في الجامعة، أو العمل في شيء من هذه أن يعلمهم باللغة الأجنبية، وأن ينفق على تعليمهم ما يتطلب من أموال باهظة، تبلغ مائة ألف جنيه في السنة، في بعض المدارس بمصر، ويقترب بعضها من خمسين ألف دولار[2]، وهي أموال لا ينفقها إلا من يوقن أن سيجني أكثر منها. ومما ترتب على هذه السياسة التعليمية أن الذي يتولى المناصب الكبرى ذات الدخل الكبير هو خريجو المدارس الأجنبية، والمدارس التي تدرِّس بلغة أجنبية، وهم فئة قليلة، هي التي تمكِّنها الجِدَة من أن تعلم أبناءها فيها، ويُحْرَم منها جل الشعب. وبهذا يكون التعليم باللغة الأجنبية وسيلة للإدناء والإقصاء، وحائلا بين البلد والإفادة من طاقاته البشرية، كما يحول دون التنمية التي لا تكون إلا ببناء مجتمع المعرفة، وبناؤه مشروط بتعميم التعليم الجيد باللغة الوطنية[3]، أما التعليم باللغات الأجنبية، فيقوي نزعة الطبقية العلمية والمعرفية التي تنتهي إلى ألا ينال المعرفةَ إلا العارفون باللغات الأجنبية[4].

وما ينسب إلى المدارس والجامعات الأجنبية من جودة وتميز -لو فرضت

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ٥٨ وما بعدها.

(٢) السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، ٢٣ وما بعدها، وفاروق جويدة: ماذا بعد طوفان المدارس الأجنبية، واللغة العربية مهددة بالانهيار.

(٣) السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، ٣٣.

(٤) اللغة العربية وأسئلة العصر، ٩١.

صحته- يمكن أن تبلغه المدارس الحكومية، والمدارس العربية الخاصة، مع الحفاظ على هوية خريجيها، وصونهم عن أن يكونوا مسوخا، تبلغ عليها الدول الأجنبية مآربها في بلادهم، كما كان التعليم المصري القديم -مثلا- تعليما متميزا، لا يفوقه التعليم الأجنبي، إن لم يفق هو التعليم الأجنبي، وخرَّج رجالا عظاما، من أمثال أحمد زويل، ومجدى يعقوب، وفاروق الباز، وكانت المدرسة المصرية نظيفة راقية، ويُقَرُّ لها بالتقدم، كما يُقَرُّ به لغيرها من مدارس الدول المتقدمة، وما كانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة أفضل من جامعة القاهرة، ولا المدارس الأجنبية، كالفرير، والليسية، أفضل من مدارس الأورمان، والإبراهيمية، والسنية، والسعيدية، والخديوية، بل كانت المدارس المصرية هي الفضلى في كل شيء[1]. ومن الممكن أن تعود مصر إلى ما كانت عليه، لو أتيحت لها حكومة وطنية، تنظر لها، وتحرص على أن تبني دولة، تبقى بعد الرئيس، كما يمكن الأقطارَ العربية أن تبني مدارس وجامعات راقية ومتميزة، لا تفوقها المدارس والجامعات الغربية بشيء. ولا تلازم بين جودة التعليم واللغة التي يدرس بها.

(١) فاروق جويدة: ماذا بعد طوفان المدارس الأجنبية، وانظر أيضا: اللغة العربية مهددة بالانهيار.

٨- فرض اللغات وتغيير الثقافات

الحضارة الغربية حضارة مستكبرة، تحتقر غيرها من الحضارات، كما يحتقر الغربيون غيرهم من الشعوب، ويرون لأنفسهم من الكمال والتميز ما يرون أنه يجعلهم أهلا لأن يقودوا غيرهم ويستتبعوه، ويحملوه على ما يرون، وقد يعدُّون ذلك من مصلحته التي لا يدرِك، لقصور عقله بالفطرة، وتنويرا، ونشرا للحضارة، وتبديدا للظلام، والهمجية، والبربرية، وأن ما يفعلون به -بالغا ما بلغ من الفظاعة- إنفاذ لأمر الله، وتبليغ لرسالته، وما يمنعهم من المجاهرة ببعض ذلك -أحيانا- إلا بقية من ديبلوماسية، يتجنبون بها سخط الشعوب، واستثارتهم، ويسترون مناقضته لما يعلنون به من علمية وعلمانية. وقد يجاهر به بعضهم، كما فعل كرومر، إذ قال: إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية حاكما لهذه البلاد (مصر) تثبيت دعائم الحضارة النصرانية أشدَّ ما يكون التثبيت، لتكون هي أساس العلاقات بين الناس، ولكن كان من الواجب -تحاميا لإثارة الشكوك- ألا يَعمَل على تنصير المسلمين، وأن يَرْعى مظاهرَ الإسلام «الزائفة»، كالاحتفالات الدينية، وما شاكلها[١]. وقال الألماني، جونتر وِيهل: أرى أن الدوافع القوية التي دعت الأوربيين إلى غزو البلدان الأجنبية واستعباد أهلها، وحملهم على دفع الإتاوات لا يمكن تفسيرها بحب السيطرة، أو حب التملك فقط، وإنما بنشْر رسالة الله، في المقام الأول. وقد كان التصرف الأوربي الفاتك والوحشي يستمد شرعيته -غالبا- من تكليف إلهي، وهي ظاهرة من ظواهر الدين التوحيدي الذي حلَّ في أوربة محل آلهة اليونان والرومان والجرمانيين، وظاهرة أيضا من ظواهر الفكر الفلسفي العظيم الذي نشأ مع الثورة الفرنسية وعصر التوعية، وأعان فلاسفةٌ ألمانٌ على نشوئه[٢]. وقال

---

(١) واقعنا المعاصر، ٢٠٢.

(٢) مكانة اللغة العربية في لغات إفريقية وثقافاتها، ٢٤٠ وما بعدها.

أوغسطين برنار: إننا لم نحضر للجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية[1]. فجونتر ويهل يقرُّ بأن الأوربيين غزاة مستعبدون، ومتوحشون فاتكون، ولكنَّ ما كانوا يفعلون كان بأمر من الله، قبل أن يكون مدفوعا بدافع اقتصادي أو سياسي، أما أغسطين برنار، فجعل دافع ما يفعلون إنسانيا، وإن كان يعلم أن «ذلك الدافع الإنساني» ارتُكِب من أجله كل ما ليس بإنساني. ومن العجيب أن يكلف الله -في نظر الأوربيين- الفتكَ، والوحشية، واستعباد الخلق، وحملهم على دفع الإتاوات، وأن يكون ذلك رسالته إلى الخلق!. وقال بو جولا، وهو رحالة فرنسي، مسوغا ما اتسمت به حملات فرنسة في إفريقية من وحشية: إن من أسماء الله «الحسنى أنه إله الجيوش وإله المعارك»، وإن «المجتمعات لا تتقدم إلا بالدماء والدموع»، ولكنه استدرك بأن غرض حروبهم في إفريقية أسمى وأقدس من الغرض الذي يسعون إليه في حروبهم في أوربة، وهو نشر الحضارة، والديانة النصرانية «الخالدة التي كتب الله لها النصر المؤزَّر في هذه الدنيا، وقيَّض لها فرنسة لتكون لها سندا قويا»[2]. إلا أن غرض الأوربيين الذي لم يَخْفَ على أحد، هو حاجتهم إلى مواد أولية لصناعاتهم، وأسواق لبيع ما ينتجون، وإنما كان ما يزعمون من إرادة التنوير، ونشر حضارة العلم والحرية مما يسوِّغون به ذلك، غير أن ما كانوا يرتكبون من إبادة الشعوب، واستنزاف الموارد، وطمس الحضارات، والتعالي على الشعوب المستعمرة، والاستهزاء بها، واستعبادها، أظهرت ما كانوا يريدون، ولا سيما الاستعمار الفرنسي، فقد كان من أسوأ أنواع الاستعمار؛ لِمَا انتهج من قتل، وتنكيل بسكان البلدان التي احتلها، وما سعى فيه من نهب، وضم، واستلحاق، ومحو ثقافات، وفرض ثقافته بالقوة. وكانت فرنسة تعدُّ ذلك حقا لها كما قال أحد رجال الثورة الفرنسية عام ١٧٩٥: يحق للجمهورية الفرنسية، بل يجب عليها، أن تُلْحِق وتضم إليها البلاد التي فيها منافعها[3]. وكان الضم والاستلحاق يتطلبان أمرين: القوة العسكرية التي تحتل الأرض، والقوة الثقافية التي تحتل

(١) الغزو الفكري في العالم العربي، ٢٢ (نقلا عن: اللغة العربية في الفكر العربي، ٣١٨).
(٢) الجزائر الأمة والمجتمع، ٥١ وما بعدها.
(٣) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ٢٢.

العقل. واحتلال العقول يحتاج إلى هندسة طويلة النفَس، تَغرس فيها ما تريد من أفكار، لتنزِع إلى تعظيمها، والتعلق بمماثلتها، بدلا من جهادها، وصدِّها عن بلوغ ما جاء بها، كما هو واضح من قول أوغسطين برنار، وكما قال شارل غرانت: «الإنجليزية ليست مجرد وسيط للمعرفة والنور، بل هي أولا وأخيرا طريق الإيمان ببريطانية». ولا يتأتى ذلك إلا بطمس الهويات، إذ كان بقاء الهويات من أقوى المُغْذِيات على الممانعة، والتأبي على الاندماج؛ لأنه يقتضي الشعور بالتميز، والاعتداد بالخصوصية، وهما مانعان من قبول التذويب، والرضا بالمماثلة[1]. ومما كان يتوسل به الاستعمار إلى ذلك إجبارُ الشعوب على تعلم لغاته وآدابه، وتحقير لغاتها وآدابها وتاريخها إليها، والحؤول بينها وبين الاطلاع عليها، حتى تجهلها، فلا ترى إلا المستعمِر ولغته وآدابه، ولا تعرف إلا ما يقول في نفسه؛ فتراه وترى نفسها بالعين التي يحب أن يُرَى وتُرَى بها، كما قال نغوغي وا ثينغو: كانت اللغة والأدب (الإنجليزيان) يبعداننا عن أنفسنا إلى قوم آخرين، ومن عالمنا إلى عوالم أخرى[2]. وقال: كونُك طالبَ أدب في كينية اليوم يعني أن تكون طالبا إنجليزيا. أطفالنا يدرسون تاريخ الأدب الإنجليزي، واللغة الإنجليزية مِنْ مؤلف بيوولف (Beowulf) إلى ت. س. إليوت، وتدريس الأدب الأوربي وحده في مدارسنا -ومعظمه أدب استعماري بريطاني- يعني أن طلابنا يعلَّمون الأدب الأوربي والتاريخ الأوربي كما يراهما الأوربيون، وقد جعل هذا أطفالنا يفهمون العالم كما يصوره الأوربيون ويرونه[3]. وقال أحد الأمريكيين مقوما تعليم الأمريكيين للفلبينيين وسكان بورتوريكو: تجاهلنا أن اللغة الإنجليزية لم تكن لغة الأطفال، وأنهم كانوا يجعلون منتجًا لثقافة غير ثقافتهم، ولم يكن ما تفعله بريطانية خيرا مما نفعل. لقد كانت كتب القراءة التي تدرَّس في مدارس جامايكة هي الكتب التي تدرس في مدارس إنجلترة، وهي لا توافق حاجات أطفال جامايكة[4]. ووصف إدوارد بليدن، برامج التدريب الأوربية للإفارقة بأنها تنتج عبودية أسوأ من العبودية

---

(١) انظر: التباسات الهوية، ٢٢.
(٢) تصفية استعمار العقل، ٣٧.
(٣) الهيمنة اللغوية، ٣٤٩.
(٤) السابق، ٢٧٤

الجسدية، وهي بعيدة كل البعد عن خدمة الأفارقة[1]. وكانت فرنسة تدرب أبناء المستعمرات على ممثالة الفرنسيين، وتجبرهم على الانتساب إلى أسلافها الغاليين، وتلقي في قلوبهم أنهم فرنسيون بما تُردِّد عليهم من أن أجدادهم غاليون فرنسيون، وتجبرهم على قراءة مثل هذا النص: «بلادنا قديماً تسمى الغال le gaul، وأجدادنا يسمون: الغاليين les gaulois»[2]. وتأمرهم أن يعدوا الفرنسية لغتهم، ويتكلموا بها، وتمنعهم أن يتكلموا بلغتهم منعاً باتاً، مع أن بعضهم ما كانوا يفهمون كلمة واحدة منها، وتفرض العقوبات على «المتمردين» الذين لا يستطيعون أن ينصهروا في البوتقة[3]. وكانت تقاضي الأساتيذ الذي يتكلمون بالفييتنامية، وإذا أخطأ أحدهم، فأثنى على شرحه لموضوع ما بالفييتنامية، بعد أن يكون قد شرحه بالفرنسية، استدعاه مدير المعهد، وهدده بالطرد، إن لم يكفَّ عن استعمال الفييتنامية[4]. وتجعل كتب القراءة كلها عن فرنسة وثقافتها وتاريخها، والفخر بها وبما تَعُدُّه مجدها، كما قال إدوارد بلايدن: تغنَّوا بتاريخهم الذي كان تاريخ إذلالنا، وأنشدوا انتصاراتهم التي كانت سجلات عارنا، لقد بلغ بنا سوءُ الطالع أن تعلَّمنا تحيزهم، وعواطفهم، وكنا نظن أن لنا مثل تطلعاتهم وقوتهم، وكان ذلك منهم إمعانا في محو الهويات، واستلحاق الشعوب[5]. وقال الرئيس الغيني، أحمد سيكوتوري فيما كانت تفعل بالأفارقة: تعلمنا نحن المثقفين الأفارقة في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسة، وحرب الغال، وحياة جان دارك، ونابليون، وقرأنا أشعار لامارتين، ومسرح موليير، ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسة، كأن بلادنا، إفريقية ليس لها موقع جغرافي، ولا ثقافة، ولا قيم، ولا أخلاق. وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يجعل منا آلات، ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار. وهكذا

(١) الهيمنة اللغوية، ١٠٦.

(٢) حوار مع الذات، ١٢١.

(٣) انظر: السلطة والسياسة والثقافة، ٢٨٩، وحوار مع الذات، ١٢١، وفي غمار السياسة، ١/ ٣٦ وما بعدها، والفصحى لغة القرآن، ١٢١.

(٤) اللغة والهوية، ٤٣.

(٥) انظر مثلاً: الفصحى لغة القرآن، ١٢١، وفي غمار السياسة، ١/ ٣٦ وما بعدها، وجدل العولمة: نظرية المعرفة وسياستها، ٨٦ وما بعدها، والتعريب للأطفال منذ بداية القرن الماضي إلى الآن، ٧٧٧، والمسألة اللغوية في تونس، ٣٧٠ وما بعدها، ومؤسسات عالمية تحمي اللغة الفرنسية، فمن يحمي اللغة العربية.

تحددت طبيعة التعليم في عهد الاستعمار، لقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقي أن يظل في حالة ثقافية منحطة؛ حتى يتخرج المتعلمون على يديه أكثر انحطاطا. لقد أراد الاستعمار للمثقفين الأفارقة أن يفكروا بديكارت، وبرجسون، ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الثقافي، وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو، فلن نستطيع أن ننمي شخصيتنا التي هي الطريق الوحيدة للنهضة في إفريقية[1]. وصور جان بول سارتر سياسة أوربة الاستعمارية التعليمية في مستعمراتها، وما تصنع بعقول التلامذة، حتى تسلخهم من هوياتهم، وتستلحقهم بها، عبيدا طائعين، يرددون ما يسمعون في عواصم الغرب، ليس لهم من دونها رأي، أو موقف، غير ما تريد: «منذ زمن غير بعيد جدا كان سكان الأرض مليارين، منهم خمسمائة مليون من البشر، ومليار وخمسمائة مليون من «السكان الأصليين»، فالأولون يملكون الكلمة، والآخرون يستعيرونها، وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدور الوسطاء ملوك صغار مشترون، وإقطاعيون، وبروجوزاية زائفة ملفقة تلفيقا. وكانت الحقيقة في المستعمرات تبدو عارية، وكانت عواصم البلاد «المستعمِرة تؤثرها مكسوة، وكان على السكان الأصليين في البلاد المستعمَرة أن يحبوا هذه العواصم كما يحبون أمهاتهم، إن صح التعبير. وشرعت الصفوة الأوربية تصنع صفوة من السكان الأصليين، أخذت تصطفي فتيانا مراهقين، وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادئ الثقافة الأوربية، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان، ثم تردهم إلى ديارهم بعد إقامة قصيرة في العاصمة وقد تزيفوا. إن هؤلاء الأفراد الذين هم أكاذيب حية تسعى، قد أصبحوا لا يملكون ما يقولونه لإخوتهم، لأنهم لا يزيدون على أن يرجِّعوا ما يسمعون، فمن باريز ولندن وأمستردام كنا نحن نهتف قائلين: بارتينون، أخوَّة»، فإذا بشفاه تنفرج في مكان من الأمكنة بإفريقية أو آسية لتقول: «بتينون.. خوة». وكان ذلك هو العهد الذهبي»[2]. ويقرُّ المجلس الثقافي البريطاني بأن غرض تعليمه الإنجليزية ونشرها في العالم بناء علاقة ودية مع البلدان التي يدرس فيها الإنجليزية من

---

(١) معلمة الإسلام، ١/ ٣٠٠ وما بعدها.

(٢) معذبو الأرض، ٢.

أجل فهم شعوبها، وفلسفتهم وطريقة حياتهم، لأن ذلك يؤدي إلى التعاطف مع سياسة بريطانية الخارجية، مهما كانت تلك السياسة، ومهما كان معتقدها[1].

وقال روبرت فليبسون: إن المستعمرين القدماء منهم والجدد استحوذوا على لغة التعليم الجامعي؛ لأنهم يريدون استعباد الشعوب واستغلالها وربط تفكيرها بتفكيرهم[2]. ويضرب لذلك مثلا من العلاقة الاستعمارية بين أمريكة والفلبين، فإن أمريكية لما فرضت لغتها على الفلبين بالقوة، أصبحت البلاد معتمدة على لغة مستعارة تحمل معها العقيدة المهيمنة، ومصلحة أمريكة الاقتصادية والسياسية، وصارت معتمدة أيضا على النظريات والطرق الأجنبية المتضمنة في اللغة المستعارة، وصار الوعي مستعارا، وصيغت أخلاق الناس صياغة جديدة ، لكي يساووا المصلحة الأجنبية بالمصلحة الوطنية، وغدا من السهل على أمريكة أن تخضع الشعب الفلبيني، وتفرض عليه ما تريد[3]. وكانت هذه سياسة فرنسة التعليمية في مستعمراتها، ووسيلتها إلى استعباد قلوب من تستعمر، كما قال هاردي: «ستتمكن من ربط تلاميذنا بفرنسة، والتاريخ الذي يجب أن يعطيهم فكرة عن عظمة فرنسة»[4]. وقال شاتليه: «لا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يتحكك الإسلام بصحف أوربة، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»[5]. والثقافة إذا استحوذت على النفوس، استسلمت الأبدان. من أجل ذلك كانت فرنسة الحريصة على أن تصبح الجزائر مملكة فرنسية تجدُّ في حرب العربية، ومحوها من الجزائر، وإحلال الفرنسية محلها، فقد «كان في المادة ٤٢ و ٤٣ من مرسوم عام ١٨٨٣ م أن التعليم سيكون في

---

(١) الهيمنة اللغوية، ٢٠٦.

(٢) اللغة والهوية، ٤٧.

(٣) الهيمنة اللغوية، ٢٢٥.

(٤) التعليم في المغرب، ١٩.

(٥) الغارة على العالم الإسلامي، ١٧.

مدارس البلديات الأهلية بالفرنسية والعربية، غير أن الفرنسيين لم ينفذوا هذا المرسوم، بل قضوا على العربية وحاربوها بكل وسيلة، فمنعوا تلاميذ المتوسط والعالي أن يتكلموا بلغة غير الفرنسية، في كل وقت، حتى أوقات الفُسَح[1]. وكان معلمو الفرنسية يوجبون على الأطفال في المدارس وما كان قريبا منها ألا يتكلموا بغير الفرنسية، ومن تكلم بكلمة واحدة بغيرها عاقبوه[2].

وكان المغرب العربي، ولا سيما الجزائر، أشقى شعوب الأرض بقرب فرنسة ومطامعها[3]، فقد نصَّ تقرير فرنسي رسمي، كُتِبَ عام ١٨٤٩ على أن أهم ما يجب أن تُعنَى به فرنسة قبل كل شيء هو السعي في جعل الفرنسية دارجة عامة بين الجزائريين؛ فقد عقدت العزم على استمالتهم، ودمجهم فيها، وجعلهم فرنسيين[4]. ولما زار نابليون الثالث الجزائر عام ١٨٦٥م أصدر قانونًا بإتاحة التحول للجزائريين من رعايا إلى مواطنين فرنسيين، على أن يتنازلوا عن أحوالهم الشخصية الإسلامية[5]، أي دينهم وهويتهم. وجدَّت في تدمير مراكز التعليم العربية منذ دخلت الجزائر، كالمساجد، والزوايا، والمدارس، وحرَّمت تعليم العربية، وعدَّتها لغة أجنبية في الجزائر، وسعت في فَرْنسة البلاد، وبناء المدارس الفرنسية، وكتابة أسماء الشوارع والمدن والقرى بالفرنسية، حتى كادت تمحو معالمها، وأصبحت الفرنسية هي لغة التخاطب في المدن والعواصم، كعنَّابة، ووهران[6]. وكانت تمنع العمال أجورهم، إذا رأت أبناءهم يدرسون في المدارس العربية، وتعدُّ التكلم بالعربية في الإدارة إهانة لها، أهون عقابها الطرد من العمل، وحرمان العامل راتبه، ومن رُئِي يحمل صحيفة، أو كتابا عربيين، عرَّض نفسه لمراقبة الجواسيس الذين لا يَعدمون ذريعة لاقتياده إلى السجن، ليقضي فيه عاما أوعامين، أو أكثر من ذلك، كالذي يفتح مدرسة عربية، وإن كان الذي يفتح مدرسة عربية قد يحكم عليه بالسجن والأعمال

---

(١) سياسة فرنسة التعليمية في الجزائر، ١٤٤.
(٢) إنية وأصالة، ٣٩.
(٣) خمسون سنة من التعدد اللغوي، ٥١.
(٤) حوليات الثقافة العربية، ٤٧٣ (نقلا عن: حزب البعث الفرنسي، ٧١).
(٥) أبو القاسم بن سديرة: حياته ومؤلفاته، ٨.
(٦) التباسات الهوية، ٧٧.

الشاقة طول الحياة[1]. وعدت تعليم العربية في الجزائريين محاولة عدائية لصبغ الجزائر بصبغة عربية[2]، ومنعت تعليمها في المدارس[3]. ويذكر الدكتور يحيى بو عزيز أن الشرطة الفرنسية داهمت منزلهم في مدينة برج بو عريريج عام ١٩٣٨ للبحث عن سبورة، اشتراها أبوه ليعلِّم عليها أولاده قواعد العربية، فوشى به أحد المخبرين، فانتهزت الشرطة غيابه عن المنزل مرة، ففتشته «بجنون»، لكن أباه كان قد أخفاها قبل خروجه، في مكان لا يمكن أن يُعرَف[4]. وكانت الإدارة الفرنسية تقبل من الجزائري، إذا كان أميا، أن يبصم بالسبابة أو الإبهام، ولا تقبل منه الإمضاء بالحروف العربية، وكان المتعلم بالعربية والأمي عندها سواء، من أجل تزهيد الجزائريين في العربية، وإلزامهم أن يتعلموا الفرنسية[5]. وكذلك فعلت إيطالية، لَمَّا احتلت ليبية، فقد جعلت الإيطالية لغتها الرسمية، ومنعت أهلها جلب المطابع ونشر الصحف، والتأليف إلا بما يمجِّد الاحتلال، وأغلقت الكتاتيب، والمدارس الوطنية، لمنع تعليم القرآن والعربية، وأنشأت بدلا منها مدارس إيطالية، وعملت على تنصير المسلمين، وإرغامهم على اعتقاد الكاثوليكية، وملأت البلاد بجيش من المنصرين، وبذلت في ذلك ما في وسعها[6].

وكانت فرنسة متعصبة للغتها وثقافتها تعصبا جعلها لا تعرف التسامح اللغوي، على ما يشيع من أنها أعرق الديموقراطيات الغربية، وأن شعار ثورتها كان: حرية، أخوة، مساواة، وأنها -بإعلانها حقوق الإنسان- من أول المؤسسين للعدل الاجتماعي والحريات الفردية في العالم، وقد خدع ذلك كثيرا من الناس عن حقيقتها المناقضة له؛ حتى كان بعضهم يتغنى بباريس، ويجعلها رمز الحق، والعدل والحرية، والإنسانية، والمساواة، كما قال محمد كرد علي في مقاله: «تحية باريز»، وقد مرَّ بها في رحلة له إلى أوربة: سلام عليكِ يا مرضعةَ

---

(١) سياسة التسلط الاستعماري، ٨١.
(٢) حزب البعث الفرنسي، ٨٥، و مصير وحدة الجزائر، ٩٤.
(٣) سياسة التسلط الاستعماري، ٧٩.
(٤) السابق، ٨٠ وما بعدها.
(٥) مصير وحدة الجزائر، ٩٠ وما بعدها.
(٦) تطور التعليم في ليبية في العصور الحديثة، ١٩٠ وما بعدها و ٢٣٤ وما بعدها ، والسنوسية دين ودولة، ٣٣٣.

الحكمة، سلام عليك يا عشيقة الإبداع والاختراع، سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان، سلام عليك يا ملقِّنَةَ الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة، ليتعاشروا بالمعروف، ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع، حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات بين المختلفين في الموالد والديانات، وقَطعْتِ التفاضل إلا بالأعمال الصالحة والأحلام الراجحة، السلام على هذه العاصمة التي أحسنت إلى الشرق فيما مضى، فعلَّمته حتى استمد منها النور...»[1]. قال ذلك وهي تنحر الإنسانية في الجزائر، وتذبح الحرية، وتعيث في الأرض فسادا، وتتفنن في صناعة الشقاء، وما شئت وما لم تشأ من ألوان الظلم، والبغي، والعدوان، والتوحش التي يعسر تخيلها! و«من يَسمعْ يَخَلْ».

وكانت سياستها اللغوية وما زالت مبنية على الغلو، وإنزال الفرنسية منزلة العقيدة، وتحريم ما عداها من اللغات واللهجات في فرنسة ومستعمراتها، حتى لقد ساوت قوانينها التكلم ببعضها (البروتانية) بالبصق على الأرض في الشوارع العامة[2]. وهو أمر، يُجْمِع عليه الملأ منها، على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم الفكرية والسياسية[3]. من أجل ذلك عملت على نشر لغتها وفرضها بالقوة والقوانين الجائرة، ومحاربة لغات أقاليمها الداخلية، ومستعمراتها بكل وسيلة، واستعملت في ذلك ما في وسعها من صنوف العقاب[4]؛ وكانت لغتها وثقافتها أبدا وسيلة قمْع واستتباع وتحقير للشعوب المستضعفة. وتاريخ سياستها اللغوية يكذِّب قول كاتب ياسين إن الفرنسية غنيمة حرب، وقول سنغور إنها أنوار، كما يكذِّب مَن عدَّها وسيلة انفتاح على الكون والتاريخ الجميل لعصر الأنوار؛ فإن تلازم اللغة والسلطان في فقه التفرنس (الفرنكفونية) يهدِّد الانتماء والهوية الوطنية، ويجعل الفرنسية وسيلة جهنمية، تخنق الشعوب، وتُلْزِمها قيما، تعادي قيمها[5]. وبسبب هذه السياسة التي لا يدب إليها الملال، ولا يساورها الكلال، قال تقرير للمجلس الأعلى للفرنكوفونية بباريس عام ١٩٩٣ إن الإحصاء يبين

---

(١) غرائب الغرب، ١/ ٥٤ وما بعدها.

(٢) لغتنا العربية: الوظيفة والأداء على ضوء صراع النخب حول مطلب الحداثة ورفض التغريب، ٢٨.

(٣) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، والعدالة اللغوية في المجتمع المغاربي، ٥٢ وما بعدها.

(٤) العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي، ٥٥.

(٥) فرنسا والتاريخ المستعاد.

أن الفرنسة -إن كان التعريب في الجزائر شرسا- كانت أشرس منه، وأشد تأثيرا في كثير من الأحيان، فقد صار سبعة ملايين ونصف المليون من السكان الذين يبلغون خمسة وعشرين مليونا ناطقين بالفرنسية، وهم ٣٠٪ من السكان، هذا إلى نسبة أخرى، تساوي تلك النسبة، يُعَدُّ أهلها «ناطقين بالفرنسية ظرفيين»، أي إن ٦٠٪، من الجزائريين صاروا ناطقين بالفرنسية. وفي المدارس أكثر من سبعة ملايين تلميذ، يتعلمون تعلما نصف مفرنس. وما تزال التخصصات العلمية المهمة، كالطب، والهندسة المعمارية، والعلوم الدقيقة، تدرَّس بالفرنسية، وهذا مما يرغم الطلاب على إتقانها؛ لأنه شرط النجاح فيها، وهذا يزيد المتفرنسين في الجزائر، ويجعل محو كل ما أنجزه التعريب في التعليم العامِّ ممكنا[1]، بل يسيرا. وهذه السياسة تُعْلِن ما يُخفي بعض حكومات المغرب العربي، من أسباب إصرارها على عدم تعريب التعليم العالي، واقتصارها على تعريب التعليم العام وحده، وهي الموازنة بين الضغط الفرنسي والضغط الشعبي، فتعريب التعليم العام إرضاء للشعوب، وخروج من حرج التمادي في الفَرْنسة بعد ما بان ما تبعها من كوارث، ليس في وسع الحكومات أن تسوغِّها، وإبقاء التعليم العالي بالفرنسية إرضاءٌ لفرنسة وحزبها الذي يمسك بزمام الدول. وإذا كانت العبرة بالمآلات، فإن فرْنسة التعليم العالي تمحو آثار تعريب التعليم العام، وتتيح للفرنسية أن تكون هي المهيمنة على التعليم في المغرب العربي، كما أنها هي المهيمنة على الإدارة والإعلام. وإن كان تعريب التعليم العام في المغرب العربي مقصورا على المغرب والجزائر وحدهما، وقد تراجعت عنه الجزائر منذ تولى عبد العزيز بوتفليقة الحكم عام ١٩٩٩، أما المغرب، فشرع في التراجع عنه بعد تخريج أول دفعة معربة في الثانوية، وبلغ أوجه باستحداث الثانوية الدولية[2]. أما سائر أقطار المغرب العربي (غير ليبية)، فإن التعليم العام تدرَّس فيه العلوم الدقيقة بالفرنسية، منذ الصف الثاني أو الثالث الابتدائي، ولم يعرَّب إلا مدة قصيرة في موريتانية، ولما عُرِّب كان معه مسار آخر غير معرب، يدرس فيه الراغبون في التعلم بالفرنسية، وعُرِّب التعليم من الصف

---

(١) انظر: خمسون سنة من التعدد اللغوي، ٧٦ وما بعدها، وأضواء على مشكل التعليم بالمغرب، ٧٨.

(٢) انظر: بيان إلى الرأي العام الوطني.

الأول الابتدائي إلى الصف الرابع الإعدادي في تونس في عهد محمد مزالي، ثم تروجع عنه بعد إقالته من الوزارة الأولى. وتتسم سياسة فرنسة بالجد في تدمير الثقافة الجزائرية، واستنبات الثقافة الفرنسية مكانها، وتتذرع إلى ذلك بكل ذريعة، وما تَدَعُ وسيلة إليه إلا إلى وسيلة أشد منها وأبلغ أثرا. فقد شرعت منذ عام ٢٠٠٤ في إعادة فتح المدارس الفرنسية في الجزائر، وإحياء مراكزها الثقافية التي أُغلقت طوال سني الأزمة التي أعقبت إلغاء المسار الديموقراطي، واستيلاء حزبها على الحكم جهارا. وشرعت في تنفيذ برنامج، يخرِّج ألفي دكتور جزائري في مختلف تخصصات الفرنسية، بتكلفة تبلغ ما بين تسعة ملايين وأحد عشر مليون يورو كل عام، تُنْفَق على تزويدِ مكتبات أقسام الفرنسية في الجامعات المراجعَ الفرنسية الحديثة، ومنْحِ الطلبة المتميزين للحصول على الدكتوراه في الفرنسية[١].

ومما تتوسل به إلى استلحاق المغرب العربي الصحافة والإعلام، فإنها تنفق عليهما وتصطنعهما في نشر الفرنسية، والدفاع عنها، ومعارضة العربية والتعريب. وقد بلغ ما تمول به الصحف التي تصدر بالفرنسية، بحسب إحصاء عام ٢٠٠٠ م، نحوا من ٤ر١٦٩ ألف فرنك فرنسي، تستفيد منها «العَلَم» وشقيقتها الحزبية Lopinion، و«الاتحاد الاشتراكي»، وشقيقتها الحزبية Liberation، و«بيان اليوم» وشقيقتها الحزبية Albayan. وتنال منها إذاعة البحر المتوسط (ميدي١) نصيبا كبيرا، وهي مؤسسة إعلامية، أسستها شركة سورفاراد، تملك فرنسة ٩٩٪ من أسهمها، وتديرها أكبر شركة فرنسية (أومنيوم الشمال الإفريقي)، وهي -بحسب إحصاء عام ٢٠٠٠ أيضا- تنال من فرنسة ٤ر٢٤٨ ألف فرنك فرنسي كل عام[٢]، وينال الفنيون العاملون فيها ٤٠٥ آلاف فرنك فرنسي، وتقدم ٧٠٪ من مادتها الأخبارية والترفيهية بالفرنسية[٣]. أما القناة المغربية الثانية (دوزيم M ٢) -وأسست باتفاق بين المغرب وشركة سورفاراد عام ١٩٨٨-، فتزيد مادتها المقدمة بالفرنسية على ٧٠٪، وتبلغ المساعدة التي تنالها منها ٢ر٥٦١

(١) خمسون سنة من التعدد اللغوي، ٧١.

(٢) صحيفة التجديد المغربية ع ١٧٦ يونيو ٢٠٠١ (نقلا عن: فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٧).

(٣) فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٨.

ألف فرنك[١]. وهي في الأصل ملك لشركة صورياد، وتملك أكثرَ رأس مالها شركةُ أونا، وتملك الأسرة المالكة في المغرب معظمَ شركة أونا. وبعد ثماني سنين من انطلاقها أصابتها ضائقة مالية، فاشترت الحكومة المغربية ٧١ر٧١٪ من أسهمها، عام ١٩٩٦، فصار نصيب شركة أونا منها ٥٦ , ١٩٪، ونصيب المساهمين المغاربة ٥٨ , ٦٪، والمساهمين الأجانب ١٥ , ٢٪، وهي -إلى ذلك- تعينها بثمانين مليون درهم كل عام، إذا زيدت في حصتها منها، كانت كلها ملكا للحكومة. ومع ذلك تغلُب على برامجها الفرنسية منذ إنطلاقها عام ١٩٧٨، وتقدم بها ٩٠٪ من برامجها[٢]، والفرانكفونية هي هويتها التي تدافع عنها إدارتها، ولا تعير القيم المغربية اهتماما. وكانت وزارة الاتصال في عهد عبد الإله بن كيران تريدها لتعبر عن هوية المغرب المنصوص عليها في الدستور، ويريد القائمون عليها منذ نشأتها أن تُرْضي مالكيها والاتجاهَ المتفرنس الذي ينتمون إليه أو يستحبونه، وأن تظل على حالها حتى بعد أن صار جلُّها ملكا للدولة[٣]. ووقع بينها وبين الحكومة خلاف شديد عام ٢٠١٢ م، فقد اعترض المتفرنسون وبعض مسؤوليها علنا على قانونها الذي أعدته وزارة الاتصال، بأنه يفقدها هويتها الفرانكفونية، واتهموا وزير الاتصال بالتدخل في حرية الإعلام، وفرْض عقيدة حزبه الدينية[٤]، فأمر محمد السادس بتعطيل النظام، وأن يُبقى على طابعها الفرنسي؛ لأن ذلك هو الذي يدل على التنوع اللغوي المنصوص عليه في الدستور، وأن تبث نشرة الأخبار الفرنسية في موعدها المعتاد، وتؤخر نشرة الأخبار العربية. وكان كل ما غير وزير الاتصال من نظام القناة أن أخر النشرة الفرنسية إلى الساعة الحادية عشرة، وقدم نشرة الأخبار العربية إلى الثامنة والنصف، وإذاعة الأذان في مواعيد الصلوات، ووقف الإعلان باليانصيب الوطني؛ لأنه قمار محرم شرعا وأخلاقا[٥]. فعدلت القناة عن إذاعة الأذان،

---

(١) الفرنكوفونية في المشهد الإعلامي المغربي ص ٣٨، وجريدة L economist يوم الخميس ٢٠ يناير ٢٠٠٠ م (نقلا عن: فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٨).

(٢) اللغة الفرنسية استخراب للعقل بعد الوطن.

(٣) أزمة سياسية في المغرب بسبب القناة التلفزيونية m2.

(٤) الموضع السابق.

(٥) الموضع السابق.

ورجعت إلى إعلان القمار، وقدمت النشرة الفرنسية على النشرة العربية. ويلمّح بعض المغاربة إلى أن السياسة العليا في المغرب -لتوجهها الفرنكفوني- توجه الإعلام المغربي، ولا سيما الإذاعة والتلفزة، وجهة كالتي تريد فرنسة، بما تَكِلُ الإشراف عليه إلى موظفين في وزارة الداخلية، أو مقربين جدا من الحكم[1].

ومن تتبع سياسة الصحافة الفرنسية بالمغرب، والصحافة التي تمولها فرنسة، تجاه قضايا العربية والتعريب والتعليم، وبعض القضايا الدينية، وجد أنها قائمة في منافع فرنسة، وتنوب عنها فيما تكتب[2]. ومن أمثلة ذلك هجومها على وزارة النقل المغربية، لَمّا قررت إدخال الحروف العربية في ألواح السيارات، وكانت لكنوميست (L economist) سابقة إلى استنكار أن تُستعمَل العربية فيما لم تكن تستعمل فيه[3]. وهذا يبين أن الفرنسية في المغرب العربي أكبر بكثير من أن تكون مجرد لغة أجنبية، أو لغة انفتاح وتعليم محايدة، وإنما هي وسيلة استلحاق ثقافي وسياسي، وسيطرة اقتصادية، وهي التي ترسم علاقة فرنسة بالمغرب العربي وغيره من مستعمراتها السابقة، وهي التي جعلته شريكها الاقتصادي والسياسي والإستراتيجي الأول، وحريفها الأول الذي تفرض عليه نفسها، ولا تتيح له أن يتخير، أو ينظر لنفسه، وإنما يجب عليه أن يسلِّم لما تريد، ولِمَا تقتضي منافعها، وألا يعتدّ بما سواها[4].

وترغم فرنسة المغرب العربي وغيره من المستعمرات على لغتها بطريقة أخرى، هي ما تنفق على تعليمها من أموال، وما تجيِّش له من منظمات وجمعيات ومؤسسات، ليس لها في الظاهر سوى غاية واحدة، هي تعليمها، ومساعدتها على النهوض والتقدم، وإنما تريد منافعها، إذ كل فرنك تعطيه مساعدةً تجني سبعة أضعافه[5]. وقد صرَّح بذلك وزير التجارة الخارجية الفرنسي السابق،

---

(١) الإعلام العمومي بالمغرب: العوائق الكبرى للإصلاح.

(٢) فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٩.

(٣) الفرنكوفونية في المشهد الإعلامي المغربي، ٣٨، وجريدة L economist ٢٠ يناير ٢٠٠٠ م (نقلا عن: فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٨).

(٤) ثلاثية لغات الألفية الثالثة في المدرسة المغربية، ٢٦.

(٥) انظر مثلا: اللغة والاقتصاد، ١٣٦ و ١٤٥، ومؤسسات عالمية تحمي اللغة الفرنسية، والفرنكوفونية في المشهد الإعلامي المغربي، ٣٨، وجريدة L economist ٢٠ يناير ٢٠٠٠ م (نقلا عن: فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٦٨).

ميشيل جوبير، فقال إن بيع الفرنسية من أولوياته الوطنية[1]، وقال باسكال لامي، المندوب السامي للتجارة في الاتحاد الأوربي: إن اللغة والتجارة يمكن أن تسيرا جنبا لجنب[2]. وكانت المنافع المادية غرضا واضحا في الخطة التي وضعتها فرنسة في أوائل العقد السابع لتعليم الفرنسية ونشْرها متأسية بأمريكة وبريطانية. وهي خطة مبنية على أنه حيثما تُتكلَّم الفرنسية يمكن الفرنسيين أن يتَّجروا[3]، وأن من كان متفرنسا (فرانكفونيا) فضَّل الشراء من فرنسة[4]. وهي سياسة تهتدي بقولي شارل ديغول: من يتكلم بالفرنسية يشتر بالفرنسية، وجورج بوميدو: علِّموهم (الطلاب) الفرنسية، يشتروا البضاعة الفرنسية[5]. وهي سياسة سائر الأوربيين، كما يبدو من قول المستشار الألماني الأسبق ويلي براندت (Willy Brandt): إذا أردتُ أنْ أبيعك بضاعتي، فيجب أنْ أتكلم بلغتك، وإذا أردتَ أنْ تبيعني بضاعتَك، فيجب أنْ تتكلم بالألمانية[6]؛ ذلك أن الجسم تبع للقلب، فكل ما انقاد له القلب انقاد له الجسم، فإذا خضع القلب للثقافة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية، تبعه الجسم، فاشترى بضاعة فرنسة وبريطانية وأمريكة وألمانية، وكان إليها أميل منه إلى بضاعة الدول التي لا يعرف لغاتها، وفضَّل ما كان منها بسبيل على ما كان بسبيل من غيرها. ولهذا كانت الفرنسية التي يُدَرَّسها أبناء المستعمرات ثقافة وقيما، لا وسيلة تبليغ، فحسب[7]. ومن أجل هذه العلاقة بين اللغة والتجارة أرصد شارل ديغول ميزانية ضخمة لنشر الفرنسية في العقد السابع من القرن العشرين، فلما اعترض عليه النواب، قال لهم: إن الأمر محض اقتصاد، وإن فرنكا فرنسيا واحدا يُنفَق في الدعاية للفرنسية يربح منه الاقتصاد الفرنسي عشرات الفرنكات[8]، وأعلن فرانسوا ميتران في قمة الدول الناطقة بالفرنسية في داكار عام ١٩٨٩ أن فرنسة ستلغي دينها العام

---

(١) اللغة والاقتصاد، ١٣٦.

(٢) اللغة والبيئة، ٧٤ وما بعدها.

(٣) الهيمنة اللغوية، ٢٤٨.

(٤) خمس عشرة سنة من النضال، ١٤٩.

(٥) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ١٦٦.

(٦) اللغة والاقتصاد، ١٣٥.

(٧) المساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني بالمغرب، وانظر أيضا: السجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغرب، والفرنكفونية ومحنة اللغة العربية في المغرب، ١٧٧

(٨) النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني، ١٨٩.

عن البلدان الإفريقية الخمسة والثلاثين الأكثر فقرا، وهو ستة عشر مليار فرنك فرنسي، على أن تستمرَّ في اصطناع الفرنسية في الإدارة والتعليم، وأن تظل على إيثارها على غيرها[1]. وصارت ترى أن الحركة الفرنكونية ما هي إلا إطار جيد لجبهة مفيدة في الصراع للسيطرة على الأسواق، فضلا عن أنها سلاح قوي في معركتها مع النفوذ الإنجليزي الأمريكي[2]. وكانت نفقات فرنسة على الفرنسية ونشْرها عام ١٩٧٧ بين خمسة وعشرين وثلاثين مليار فرنك، أُنفقت على ١٢٠٠ مكتب للتحالف الفرنسي، في أكثر من مائة بلد، وعلى المجلس الأعلى للفرنكفونية، وبعض المؤسسات الأخرى، كمكتب اللغة الفرنسية، ولجنة دراسة المصطلحات الفنية الفرنسية[3]. وتنفق على تجمُّع الدول الناطقة بالفرنسية خمسة بلايين فرنك كل عام، تنفقها على الدفاع عن الفرنسية، وهزم العربية وكل لغة تنافسها[4]. وكانت المعاهد الثقافية الفرنسية في المغرب تصرف ميزانيات كبيرة في سبيل نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين. وأثمر ذلك أن فرنسة اليوم تجني الأرباح الطائلة من أسواق مستعمراتها، ثم توجهت منذ مدة غير قصيرة إلى تثمير ثقافتها في البلدان التي كانت قبل وقفا على لغات أخرى، كدول جنوبي شرقي آسية، وأوربة الشرقية[5]. فسياسة فرنسة اللغوية والثقافية تستكنُّ تحتها منافع اقتصادية، ورغبة في الهيمنة على الشعوب المستضعفة، والتحكم في عقولها، يتبعها تحكم في أسواقها، وجيوبها، ومناجمها؛ لأن اللغة هي مركز القيادة في السياسة الفرنسية، أما الأخلاق، والقانون، فسوط، يَجْلِد به الغربيون من يخالفون، ويسوِّغون ما يفعلون، ويستغفلون من لا يعرفهم، وليس لهما معنى وراء ذلك، لكن سياسيي فرنسة يزعمون أنهم إنما يتوخون نشر الفرنسية لأنها لغة الوضوح العالمية، والجمال، والكمال، أي لغة الحضارة الأوروبية، وأنهم إذ ينشرونها إنما ينشرون الحضارة الأوربية[6]. وإنما يقول الفرنسيون

(١) اللغة والاقتصاد، ١٣٧.
(٢) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٢٠٥.
(٣) السابق، ١٣٦.
(٤) المقالات المحظورة، ١٣٤ و ١٣٩.
(٥) اللغة وتمثيل الهوية، ٣٦.
(٦) اللغة والاقتصاد، ١٣٦.

في لغتهم ما يقولون استغفالا لمن لا يعرفهم ولا يعرفها، ولا يعرف سياسة فرنسة اللغوية، وهو دأب الاستعمار الغربي مذ كان: يفعل ما يفعل بالشعوب، ويزعم أنه جاء لمصلحتها وتعليمها وترقيتها، إلخ، وهو يعلم أنه يقول بلسانه ما ليس في قلبه، ولكنه رأى الناس يصدقونه فيما زعم، ويجوز عليهم ما يدَّعي لهم؛ فأكثر الدعاوي. ومن استغفال فرنسة مستعمراتها سؤال فرانسوا ميتران آخرَ قمة للدول الناطقة بالفرنسية، حضرها، أن تعين فرنسة على الدفاع عن لغتها وهويتها من الغزو الفكري الأمريكي[1]. فهو يستنجد بدول يستضعفها، ويفعل بلغتها وهويتها أسوأ مما يخشاه على لغته وهويته من أمريكة، ويرغمها على اصطناعها إرغاما، ويخيرها بينها وبين الخراب. وكان يوم سألها ذلك يخطط لاحتلال الجزائر، كما قال لأحد مقربيه في جلسة خاصة عام ١٩٨٩: «سأعيد لكم الجزائر دون أن أدفع فرنكا واحدا من ميزانية فرنسة»[2]. والعون الذي سألها هو أن تتخلى عن لغاتها وهوياتها للفرنسية وثقافتها، فذلك هو الذي ينصر فرنسة على أمريكة؛ لأنه يمكِّن للفرنسية، ويوسِّع انتشارها، ويكثِّر الناطقين بها، والمنتمين إلى ثقافتها، ويصدُّ الغزو الأمريكي، ويقلل المتأثرين به. وهذا يدل على أنه يحتقر هذه الدول ولغتها وهويتها، ويستهين بمصالحها، بالقدر الذي يحرص على منافع فرنسة ولغتها، إذ يريد أن يجعلها درعا، يقي بها لغته وهويته، ولا يبالي لغاتها وهوياتها، ولا ما يحيق بها من ظلم الفرنسيين. هذا إلى أن بعض الدول الناطقة بالفرنسية ربما لم يدخل في هذه المنظمة عن اقتناع بها، ولا بالثقافة الفرنسية، وإنما دخلها اتقاءَ شر فرنسة، أو رجاء نفعها؛ فإن فيها ما لا يمكنه البقاء لولا مساعدتها الشهرية[3]؛ إذ لا نفع لواحدة منها فيها، وما كان الشعب الفرنسي ليكون قليل العناية والالتزام بالفرنكفونية وقضاياها، والتحديات التي تواجه فرنسة، كما أقرَّ بذلك فرانسوا ميتران[4]، ثم يحرص عليها من لا ناقة له فيها ولا جمل. هذا إلى أن من حكام هذه الدول من لا يتخيل إمكان بقائه في الحكم دون الإبقاء على الحبل السري بينه وبين

---

(١) لا بد من تكامل العولمة والهوية ليكون العالم واحدا ومتعددا، ١٣١.

(٢) مصير وحدة الجزائر، ٥٢.

(٣) المقالات المحظورة، ١٣٣.

(٤) السياسة اللغوية لدى الأمم الحية، ١١١.

فرنسة، كحماني ديوري، والحبيب بورقيبة، وليوبولد سنغور، مؤسسي المنظمة الفرنكفونية تقربا إلى فرنسة[1]. ففرنسة لا تحترم هوية غيرها، ولا خصوصيته الثقافية، وتريده ليصطنع لغتها لغة رسمية بدلا من لغته؛ لسبب واحد، هو أنها استعبدته حقبة من الدهر، وما زالت تستعبده، وتبتزه، وسامته سوء العذاب، واحتلت أرضه، وما زالت تفعل، وإن اختلف أسلوب الاحتلال، وأكرهته على تعلم لغتها، وتاريخها وثقافتها، وحالت بينه وبين لغته وتاريخه وثقافته، وحقَّرتها إليه، وحقَّرت إليه نفسه. ويعلم فرانسوا ما أذاقت فرنسة مستعمراتها من العذاب والاستلاب، من أجل أن تتكلم بالفرنسية وتنسى لغاتها، ولكنه تجاهل ذلك، وأقدم على ما أقدم عليه لعلمه أن الحكومات التي يخاطبها لن تتردد في طاعته فيما أمر، وأن ليس في وسعها أن تتردد؛ لأنها حكومات، نصَّبتها فرنسة لقاء هذا ونحوه، وتسقطها إذا أبته.

وبسبب السياسة التعليمية واللغوية التي ترسم فرنسة وحكومتها الخفية خططَها في المغرب صارت الفرنسية اللغةَ الأمَّ لكثير من المغاربة، على حسب انتشار التعليم الفرنسي الخاص، وتوسَّع تعليم البعوث الفرنسية، ولا سيما المعهد الثقافي[2]. فقد كان المغاربة المسلمون الذين يعرفون الفرنسية عام ١٩٦٠ أقل من ٧٪، وبلغوا عام ٢٠٠٧ م ٤١،٥٪ وهم اليوم يقتربون من نصف السكان[3]. وقد رأينا آنفا ما آل إليه أمر الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال، وأن ٦٠٪ من الجزائريين صاروا يتكلمون بها. ولعل ما آل إليه أمر المغاربة هو ما جعل وزير الاتصال المغربي السابق، العربي المساري، يقول إن المغرب يجتاز انقلابا لغويا، يظهر في انتقاله من ازدواج اللغة إلى بلد، لغته الفرنسية، وهو أمر مدبَّر[4]. وغير بعيد أن فرنسة تنتظر أن يحين الوقت الملائم لفرض الفرنسية في المغرب فرضا معلنا، بدلا من فرضها بطريق حكوماتها الخفية. فقد قال كلود حجاج إن من أسباب تراجع اللغات وموتها خلق طبقة اجتماعية عالية داخل المجتمع، تتأثر بنماذج أجنبية للوصول إلى مراكز القوة، فإذا

---

(١) المقالات المحظورة، ١٣٢.

(٢) جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى، ١١٠ وما بعدها.

(٣) ثلاثية لغات الألفية الثالثة، ٢٣، والسياسة اللغوية والتخطيط: مسار ونماذج، ٤٩.

(٤) الدارجة في الإعلام والسينما، ٨٣.

استطاعت أن تفرض نفسها، وأن تزداد نموا وعددا، فسيأتي يومٌ، تضغط فيه اللغة الأجنبية التي تستعملها هذه المجموعة -لقوتها الاقتصادية- على اللغة الوطنية، ولو بدا أنَّ ما تقوم به اللغة الأجنبية من تقوية حضورها ضعيف، فإن ظهور من يتكلمون بها بالسليقة سيزيد من قوة ضغطها[1]. وهذه الجماعة هي حكومات المغرب العربي الخفية، والمتفرنسون الذين صنعتهم فرنسة على عينها، ثم اصطنعتهم منذ أن كانت تستعمر البلاد إلى اليوم بِطَريق الفرنسية، والتعليم، والمِنَح، والمناصب، والمال. وهي تعد العربية لغةَ عامةِ أهل المغرب العربي، وليست لغتها، ولا يمكن التعويل عليها في اللحاق بالدول المتقدمة[2]، وتعارض التعريب، وتضيق به، بل تعارض إثبات لفظه في أسماء بعض المؤسسات المغربية، كمعهد التعريب، وتسعى في حذفه[3]، لكنها يمكن أن تتظاهر بالحياد ما دام القليل الذي ينجز من التعريب ليس بذي تأثير في أصول النظام الاقتصادي، وقد يكون وسيلة للتقليل من طلب التوظيف؛ لأن خريجي المدارس المعربة «غير صالحين للاقتصاد العصري»، وفي هذا تقوية لامتيازها[4]. وهي تلْقَى مناصرةً من وسائل الإعلام الفرنسية، والناطقة بالفرنسية، وتجمع أقلامها على التشكيك في قدرات العربية واتهامها بالقصور والضعف والتخلف[5]، على الوجه الذي قد رأينا فيما يكتب جلبير غرانغيوم، ومن يحطب في حبله، وما رأينا من حملات الإعلام الفرنسي على الجزائر حين أقرَّ مجلس نوابها قانون استعمال العربية عام ١٩٩٠، وما فعل حين أحياه اليامين زروال عام ١٩٩٦ م.

ويمكن أن يزاد في هذه الأسباب سبب آخر، غير المنافع السياسية والاقتصادية، هو المخاوف التاريخية التي تجعل المسلمين في السياسة الفرنسية عدوا نائما، يُحذَر استيقاظه، ويجب أخْذ الطرق عليه؛ لئلا يهدد فرنسة والغرب، كما قال أحد موظفي وزارة الخارجية الفرنسية مرة: إن الخطر

---

(١) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٦٠.

(٢) إشكالية اللغة العربية في الجزائر، ١٣٧.

(٣) مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ١٣.

(٤) اللغة والسلطة والمجتمع، ٧٢.

(٥) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ٢٦٠.

الحقيقي الذي يهددنا تهديداً قاصدا عنيفاً هو الخطر الإسلامي. إن المسلمين عالم مستقلٌ كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فلهم تراثهم الروحي، وحضارة تاريخية أصيلة، وهم جديرون بأن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى «الاستغراب»، ووسيلتهم إلى بلوغ ما يرجون هي اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب، فإذا أصبح لهم عِلمهم، وتهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في حدوده الواسعة، انطلقوا في العالم، يحملون تراثهم الحضاري الفتيّ، وانتشروا في الأرض، يزيلون منها قواعد الروح الغربي، ويقذفون برسالته في متاحف التاريخ[1]. وقال جاك شيراك في افتتاحه مهرجان الثقافة العربية واللغة العربية في باريس عام ١٩٨٥ إن مما ينبغي العناية به هذه اللغة العبقرية؛ لأنها أداة حضارة شعب، لا يستهان به، فالعرب، وإن نُهِكوا، وهُزموا، ما زالوا أمة واحدة، وتحمل بذور فكر جديد، وحضارة جديدة، وقد يستولون على المستقبل كما استولوا على الماضي البعيد[2]. وهو أمر يدل على أن ساسة فرنسة ما زالوا يضعون استيقاظ المسلمين في الحسبان، ويجعلونه احتمالا، ولو ضعيفا، فهم يحتاطون لمنعه، وهو ما تعمل عليه السياسة الغربية منذ حين، ولا سيما بعد أن استيقنت سقوط الاتحاد السوفييتي. أما ما يفهم من ظاهر كلام جاك شيراك من سروره بذلك، فمما يقتضيه المقام من ديبلوماسية. ويستوقف قارئَ كلام موظف وزارة الخارجية الفرنسية السابق أن فرنسة تحذر أن يكون للمسلمين تقدم، وإنتاج صناعي، وأن يكون لهم «علمهم»؛ فإن هذه الثلاثة لا تكون إلا باللغة الوطنية، وما دام التعليم باللغة الأجنبية، فلن يزيد على متابعة وتقليد، لا ينتجان -في أحسن الأحوال- أكثر من تركيب آلات، مستوردة الأجزاء. ومما يترتب على ذلك أن فرض الفرنسية على المسلمين، والحؤول بينهم وبين لغاتهم الوطنية وسيلة من وسائل الحؤول بينهم وبين أن يكون لهم علم، وتقدم، وإنتاج صناعي، ولقد رأينا من كلام جاك شيراك ما يصدق ذلك. ولا جرم أن هذا حاضر في كيد العربية، وأنه من أسباب ما فعلت بريطانية من إلغاء التعليم

---

(١) هويتنا أو الهاوية، ٢٥.

(٢) كلمات عربية لجاك شيراك، جريدة الصباح التونسية، ٢٣/ ١/ ١٩٨٥ (نقلا عن: دور اللغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوره، ٥٧).

بالعربية في مصر، ومن أسباب ما تفعل الحكومات الخفية في الوطن العربي من الجد في الحؤول بين العربية وأن تُعلَّم بها العلوم الدقيقة، وأن يمكَّن لها في حياة العرب العامة والخاصة، ولا سيما أن بعض هذه الحكومات قد رأى نجاح التعريب، ومبلغ استيعاب الطلاب ما درسوا بالعربية.

ومهما يكن السياق الذي قيل فيه كلام موظف وزارة الخارجية الفرنسية هذا، ومهما تكن غايته: تحريضا، أو استنفارا، أو استعداء، أو بيانا عن ثقافة فرنسية خاصة، وأوربية عامة، تجاه المسلمين، فإن سياسة فرنسة في المغرب العربي كانت -وما زالت- مساوقة لما يُفْهم من ظاهره، وهو يفسِّر سياسة الغرب العنصرية تجاه المسلمين، كائنا ما كان الوجه الذي تَظهر به، وهو ما صرَّح به الفيلسوف الفرنسي، ميشال أونفري في مقابلة له على إحدى القنوات الفرنسية، بمناسبة رسم «شارلي إيبدو»، المسيء إلى المسلمين، وما تلاه من حوادث: لماذا نذهب إلى بلدان المسلمين ونتدخل في شؤونهم، ونقول لهم: يجب أن تتبعوا فرنسة؟ ولماذا نقتلهم في مالي، كما قتلناهم قبل ذلك في المغرب العربي؟ وإذا ما دافعوا عن أنفسهم اتهمناهم بالإرهاب؟ المسلمون ليسوا مغفَّلين، كما يظن الفرنسيون والأوربيون والعالم، وإنما يجتاحهم بعض الضعف، وإنما كان ردُّ فعلهم عنيفا وعادياً؛ لأن ما نفعله بهم في بلدانهم أخطر بكثير من قتْل عشرة أشخاص، فنحن نقتل منهم المئات كل يوم. لم لا تذهب فرنسة إلى إسرائيل، أو الصين، أو كورية، أو اليابان، أو ألمانية، لتدعو أهلها إلى اتباعها؟ ولماذا نختار دولاً ضعيفة، مثل مالي، وليبية، والنيجر، وإفريقية الوسطى؟ القضية ليست قضية الإسلام، بل هي قضية عنصرية، ويجب أن نعترف أننا -نحن الفرنسيين- عنصريون في حادثة «شارلي إيبدو». لِمَ لَمْ تقل الحكومة الفرنسية للصحفيين: توقَّفوا عن الإساءة إلى رسولهم، وقالت لأولئك الرسامين بعينهم، لَمَّا سخِروا من شعار اليهود: إنه لا يليق بكم ما فعلتم؛ فاعتذروا لإسرائيل! وهل مُنِعَ عرْض مسرحية ديودوني، وحكمت عليه المحكمة العليا بتهمة معاداة السامية إلا لأن مسرحيته تستهزئ باليهود؟ لماذا أجبني (يعني المذيع)؟![1]. ومما يؤكد هذا أن الغرب عادى بعضه بعضا، وعادى، واستعمر، وحارب أقطارا كثيرة، إسلامية

(١) شارلي إيبدو في فكر ميشال أونفري.

وغير إسلامية، ولم يقف لِلُغةٍ أو دين بالمرصاد كما وقف للعربية والإسلام، وكان كيده إياهما مما أجمعت وتجمع عليه دوله الكبرى، كبريطانية، وفرنسة، وأمريكية، وروسية. وقد رأينا من ذلك ما يكفي. وقد بدأ كيدها العربية منذ دخلت بلاد المسلمين مستعمِرةً، وما تزال تكيدها، وتجدد أساليب الكيد إلى اليوم، لا تكلُّ ولا تملُّ. وهذا يدل دلالة لا لبس فيها على أن الغرب لن يأذن للعربية أن تتبوأ مكانتها في المسلمين، وهو يقدر على منعها، وسياسة فرنسة في المغرب العربي، ولا سيما الجزائر دليل على ذلك. وكل شيء يدل على أن هذا لم يكن خطة اختطها بعض ساسة فرنسة الأوائل، ثم صَرَف عنها الواقع، بل هي سياسة ثابتة، ما تزال فرنسة تعمل عليها إلى اليوم بالجدِّ الذي كانت تعمل به قبل اليوم، لكن بحسب واقع المغرب العربي.

وليست أمريكة وبريطانية إلا كفرنسة في كل ما قدمنا، فهما تنشران لغتهما وثقافتيهما في العالم، وتفرضانهما عليه فرضا، وتضيقان ذرعا بالتعدد اللغوي، ولا تؤيدان سوى استعمال لغة واحدة هي الإنجليزية، وتُقصيان ما عداها من اللغات[1]. وتمنع حكومة أمريكة الحديث في الأماكن العامة بغير الإنجليزية[2]. وعُلِّل قانون simpson-mazooli -وكانت غايته الحد من اللغات المنافسة للإنجليزية- بأن الاختلاف اللغوي والثقافي حينما يصبح مهمًّا، تغدو وحدة البلد واستقراره السياسي على خطر. وهو رأي منظمة «الإنجليزية فقط» (English Only) أيضا[3]. وفرضت أمريكة الإنجليزية في القرن التاسع عشر لغة رسمية، وقلَّ تسامحها مع غيرها من اللغات[4]، وأرغمت أطفال بعض الأقليات، كالنافهو، على تعلمها، وما يتبع تعلمها من تغيير الثقافة والقيم، والأفكار[5]. وأباد الأمريكيون الهنود الحمر، وهم سكان أمريكة الأصليون، ولم يعتنوا بلغة من بقي منهم، ولا أنالوها مكانة مع الإنجليزية، وكذلك فعلوا باللغات الأوربية التي هاجر أهلها إلى أمريكة، حتى مات أكثرها، أو قلَّ

---

(١) الهيمنة اللغوية، ٢٨.

(٢) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ٢٥٥

(٣) اللغة الوطنية والسياسات اللغوية، ١٧١.

(٤) الهيمنة اللغوية، ٣٣.

(٥) السابق، ٣٣ وما بعدها.

استعماله، مع أنها كانت إلى النصف الأول من القرن العشرين واسعة الانتشار، ولأهلها صحف ومجلات كثير، وكانوا أميين في الإنجليزية، فقد كان ٦٠٪ من أهل بنسلفانية يتكلمون بالألمانية، و ٣٠٪ يتكلمون بها أبدا. وفي عام ١٩٣٠ كان فيها ١٣٠٠٠٠ شخص لغتهم الهولندية، ولهم عشر صحف أسبوعية، صحيفتان بلغة الفلاندر، و ٦٠٠٠٠٠ يتكلمون بالسويدية، ولهم سبع وعشرون صحيفة أسبوعية، و ١٢٠٠٠٠٠ يتكلمون باليهودية الألمانية (اليديش)، ولهم اثنتا عشرة صحيفة يومية، وخمس وعشرون صحيفة أسبوعية، ولا يقل من كان بها من الإيطاليين عن ١٨٠٠٠٠٠، لهم ثماني صحف يومية، وأكثر من مائة صحيفة دورية[1]. وفَرَضت الإنجليزية على الجزائر التي كانت تستعمرها في المحيط الهادئ، وبعد ثمانية أعوام من مغادرتها جزيرة غوام (Guam) جعلت الإنجليزية لغة وحيدة في المحكمة، وصكوك الأرض، والمكاتب الحكومية، إلخ، ومنعت اللغة الأصلية (تشامورو) في المدرسة، وجمعت معجماتها وأحرقتها، مع أنها كانت هي اللغة الرسمية إلى عام ١٩٧٤[2]. وكانت لا تسمح إلا بلغة واحدة مشتركة، ترى أنها ذات أثر في الفكر والإحساس والعمل، وتكوِّن مجتمعا موحدا، لمواجهة الحاجات العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية[3]. ويفهم من هذا أن غيرها من اللغات لا بد أن يندثر، طال الزمن أو قصر، من أجل أن تبقى الإنجليزية وحدها. وفي عام ١٩٩٤ م حشدت قوتَها لرفض قرار تعليم الإسبانية في الأطوار الأولية في مدارس كاليفورنية[4]. وفي ولاية تكساس قرية صغيرة تدعى ألسترو، سكانها ٧٨٠٠ اختاروا الإسبانية لغة لهم؛ فثارت ثائرة الإعلام، وعُدُّوا خطرًا على لغة أمريكة القومية، وشُبِّه ما فعلوا بما فعلت كيبك بكندة، وأخذ العلماء والباحثون يدرسون ضرر الإسبانية على الإنجليزية. وقال روزفلت عام ١٩١٩ : لدينا في هذه الدولة حجرة لِلُغة واحدة، هي الإنجليزية[5]. ويعدُّ الباحثون أمريكة واحدة من أكثر البلدان التي يستبدُّ بها

---

(١) اللغة في المجتمع، ٨٥.

(٢) الهيمنة اللغوية، ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) اللغة في المجتمع، ٨٥.

(٤) اللغة العربية بين العولمة والأصالة، ٣٦٨.

(٥) إستراتيجيات التخطيط اللغوي والسياسة للغة الإنجليزية، ١٥.

هاجس الهوية، وتُعْنَى بتراثها عناية شديدة، وتحرص على إبرازه[1]، وهي مع ذلك من أشد الدول استهانة بتراث الغير، وأحرصها على تدميره. وهي -لأنها رأس العَوْلَمَة- تعارض القانون الدولي، والعلاقات الدولية، والاقتصاد الوطني، والسيادة الوطنية، والتنوع الثقافي، ولذلك كان بعض الباحثين يرى أن عولمتها إذا سارت في الاتجاه الذي تريد لها، كانت سبب انهيار الاستقرار العالمي؛ لما تقود إليه من اصطدام الحضارات، وما تصنع من ضغائن بين الشعوب والأمم غير المتكافئة. وهي تنال من الهوية الثقافية في الصميم، وتنسف أساس التعايش الثقافي بين الشعوب، وهي سبب ما فيه العالم اليوم من فوضى الفكر، والسلوك، والاقتصاد، والتجارة، والفنون، والآداب، والعلوم، والتقنية[2]. وقد قال فريدمان، وهو أمريكي، يعبر عن ضررها على العالم، وما تفعل به: نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي التمريك، والولايات المتحدة قوة مجنونة، ونحن قوة ثورية خطيرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق. إن صندوق النقد الدولي قطَّة أليفة في العولمة. كان الكبير قديما يأكل الصغير، أما الآن، فالسريع يأكل البطيء[3]. وحسبنا ما نعلم اليوم من شقاء الشعوب المستضعفة بالعولمة، بل شقاء الدول والشعوب التي لا تريد أن تندمج في ثقافة، لا ترضى عنها، ولا عن أصولها الفكرية والأخلاقية، وما تشعر به مع ذلك من أنها مغلوبة على أمرها؛ لأنها بإزاء دولة تغرُّها قوة المال، والسلاح، والعلم، وتشعر بالتفرد بالهيمنة على العالم، وتشعر بكل ما يشعر به المنتصر من صلف وتيه، وإدلال بالقوة، واستهانة بالغير، ورغبةٍ جامحة في التدخل في كل صغير وكبير من شؤونه، وفرْض ما ترى عليه، بالغا ما بلغ من السوء، كما يدل على ذلك قول مادلين أولبرايت: «نحن الأقوى في العالم، وعلى من يعتقد في نفسه القوة أن يواجهنا بحقيقته، ونحن الأغنى، وعلى من يعتقد في نفسه الثراء أن يكشف لنا أوراقه»[4]، وقول كولن باول: إن أمريكة يجب أن تكون المستأسد الأوحد في العالم، وعلى العالم أن يقبل ذلك عن طيب خاطر منه؛ لأنها أهل لأن يوثق بأنها

---

(١) مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، ٥.

(٢) انظر: صدام الحضارات، ٥١٧، والعربية ورهانها العولمي، ٧٣٥، والهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، ٢٢.

(٣) ثقافتنا في عصر العولمة، ٣٧ وما بعدها.

(٤) سؤال الهوية الكردية، ٣٥.

لـن تسـيء اسـتعمال قوتهـا[١]، وتقـول خططهـا: ليس علـى أمريكـة أن تكـون أقوى مـن غيرهـا فحسـب، بـل ينبغـي أن تكـون صاحبـة القـوة المطلقـة، ومقتضـى ذلـك أن تَحْكـم العالـم أجمـع، وأن تكـون سـيطرتها علـى الأعـداء والأصدقـاء[٢]؛ لِمَـا تـرى مـن أنهـا صاحبـة الحضـارة التي تتفـرد بـأن لهـا منافـع كبيـرة فـي كل حضـارة، وكل إقليـم، ولهـا القـدرة علـى التأثير في سياسـة كل حضـارة وإقليـم، واقتصادهما وأمنهمـا[٣].

ويفـوق مـا تنفـق أمريكـة وبريطانيـة علـى تعليـم الإنجليزيـة فـي العالـم مـا تنفـق فرنسـة بكثيـر[٤]، ولهمـا فـي نشـرها سياسـات خفيـة تنفِّذهـا منظمـات، تسـعى فـي جعلهـا لغـةً للتعليم في المـدارس والجامعـات، والمنظمات الدولية[٥]. وهذا شـأن الـدول الاسـتعمارية كافـة، تتوسـل بلغاتهـا إلـى الاسـتعمار، فتنفـق علـى تعليمهـا ونشـرها الأمـوال الطائلـة التـي مـا كان لهـا أن تنفقهـا لـو لـم يكن مـا تؤمـل أن تجني منهـا أضعـاف مـا تنفـق[٦]. وقد أفاض روبرت فليبسـون فـي ذلك في كتابـه «الهيمنة اللغويـة»، وبيَّـن جوانـب مهمـة مـن التوسـل بالإنجليزيـة إلـى المنافـع السياسـية والاقتصاديـة، وأن تعليمهـا، ومـا يُنفَـق عليـه مـن أمـوال ليس إلا وسـيلة من وسـائل الاسـتعمار والاسـتتباع، وتهيئـة الشـعوب لتقبُّـل أمريكـة وبريطانيـة. واسـتعان على بيـان ذلـك بـآراء الـدول التـي تعارض سياسـتَهما فـي نشـر الإنجليزيـة، ومنها بعض الـدول الأوربيـة، فقـال إن الإنجليزيـة هي وسـيلة التمريـك والتغريـب، وإن الهيمنة اللغويـة وسـيلة إلـى الهيمنـة الاجتماعيـة التي تتغيا فرض مسـلماتِ طبقـة اجتماعية بعينهـا علـى سـائر الطبقات. ويُسـمَّى الذيـن يعينون علـى الهيمنة بعملهـم في مراكز الهيمنـة اللغويـة فـي العالـم، أو بأفكارهـم، أو كتبهـم، أو بوسـائل الإعـلام «سـفراء فـوق العـادة»، وهـم مدرسـو الإنجليزيـة فـي الخـارج، واللغويـون الذيـن يعينـون بكتاباتهـم وأفكارهـم علـى خدمـة هـذا الاتجـاه، وهـم حرفـاء الاسـتعمار اللغـوي

---

(١) الإمبريالية الجديدة، ٨٧.
(٢) السابق، ٨٥.
(٣) صدام الحضارات، ١٦٧.
(٤) اللغة والاقتصاد، ١٣٧ وما بعدها، وما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.
(٥) ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.
(٦) كألمانية، وإسبانية، وروسية، انظر مثلا: اللغة والاقتصاد، ١٣٥ وما بعدها.

الحديث ومنفذوه. وتشرف وكالة المخابرات الأمريكية على سياسة بعض المؤسسات الأمريكية التي تُعنى بنشر الإنجليزية[1]. ويذهب بعض اللغويين إلى أن ظهور علم اللغة المقارن في القرن التاسع عشر لم تكن غايتُه البحثَ العلمي، وإنما البحث عن أصول التوافق بين الهنود والأوربيين، لتسويغ احتلال بريطانية للهند، كما فعل وليام جنوس باستحداثه مصطلح «اللغات الهندية الأوربية»، في كلمة ألقاها بكلكتة عام ١٧٨٦، كان غرضها التقريبَ بين اللغات الأوربية وبعض اللغات الآسوية التي كانت بريطانية تستعمرها؛ لأن في إثبات القرابة بين اللغات إثباتا لوحدة أصل أهلها، وهذا عون على أن يتقبل الهنود الاحتلال البريطاني[2]، من غير أن يترتب عليه حق للهنود على الإنجليز، يعطفهم عليهم، ويجعلهم يرْثُون لـ «بني عمهم»، ويشفقون عليهم مما يفعلون بهم.

والدول الاستعمارية قديما وحديثا، لا تعترف إلا بهويتها وثقافتها، وتحرِّم على غيرها أن تكون له هوية وثقافة، أو اعتبار من الاعتبارات، لا ترضى عنه، ولو لم يكن فيه ما يضرها، كما قال أحد الباحثين: العَوْلَمَة تنال من الهوية والسيادة، وموقف الغرب من هويات الشعوب يجمع بين أمرين متناقضين: اعتزازه بهويته وحرصه عليها، وعدم الاعتراف بهويات الغير[3]. وهذا التناقض من ثقافة الغرب قبل العولمة؛ لأنه لا يرى في الكون غير نفسه، ومن كان كذلك استهان بالغير، ولم ير له حقوقا، ولا خصوصية جديرة بأن تُحترَم أو يُعتدَّ بها، أو يُتعفَّف عن النيل منها، وهو ما تنطق به سياسته فيما استعمر من الدول، وما كان يسوِّغ به وحشيته في معاملة أهلها، واستيلاءه على ثروتهم، ونهبه مواردهم، كما أبان عن ذلك قول الفيلسوف البريطاني، برتراند رسل: ما أرى أن من المستحسن أن يُترَك لبعض بلدان الشرق الأوسط التحكم في توزيع النفط كما يحلو لها[4]، إن من العبث أن يكون النفط لأمة ضئيلة تتصرف فيه كما يحلو لها؛ لأن أرضها تحوي كميات هائلة منه[5]. وكل ما صنعت العولمة أنها أتاحت له من القوة

---

(١) انظر: الهيمنة اللغوية، ٤٨ و ٧٤ و ٨١ و ٨٤ و ٨٩ و ١٦٠.

(٢) انظر: التعدد اللغوي، ٨٦ وما بعدها.

(٣) الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، ٢٠

(٤) الفلسفة وقضايا الحياة، ٧٥.

(٥) السابق، ١٢٤.

والتفرد بعد أن تمكن من هزْم عدوه، وشعَر بامتلاك ناصية العلم والصناعة، أن يعمل ما يُظْهِر هذا التناقض، كما أتاحت حريةُ المعلومات وتدفُّقُها للناس من الوعي ما لم يكن متاحا؛ فعلموا من حقيقته ما كانوا يجهلون، وأعانتهم على ذلك سياسته التي تحررت من الحذر؛ لأنه بما ملك من قوة، لا يقوم لها عدو، أمِنَ ما كان يخاف.

وبريطانية المعروفة بنشر لغتها في العالم، وإرصادها الأموال الطائلة من أجله، بطريق المجلس الثقافي البريطاني وغيره من المنظمات، معروف ما فعلت باللغات التي كانت تستعمر أهلها، وكيف جهدت في إبادتها، وإبادة ثقافات مستعمراتها، حتى أوشكت أن تندثر، وهي التي قال أحد لورداتها، توماس مكولاي في مجلس نوابها: لقد سافرت في الهند طولا وعرضا، فلم أر شخصا واحدا يسأل أو يسرق، لقد وجدت هذا البلد ثريا جدا، ولأهله قيم أخلاقية رفيعة، ومنزلة من الرقي عالية، حتى إنني لأرى أن لن نهزمهم إلا بكسر ظهرهم، وهو تراثهم الروحي والثقافي؛ فأقترح أن نأتيهم بنظام تعليمي، نحله محل نظامهم؛ فإنهم إذا اعتقدوا أن كل ما هو أجنبي وإنجليزي جيد، وأحسن مما هو هندي، فقدوا احترامهم لأنفسهم وثقافتهم، وأصبحوا -كما نريدهم أن يكونوا- أمة تمت الهيمنة عليها[1]. فهو معجب بتحضر الهنود، وغناهم، وأخلاقهم، ورقيهم، ولكنه يرى أن لا بد من كسر ظهرهم، وتحقيرهم إلى أنفسهم؛ فذلك هو الوسيلة إلى استتباعهم، والهيمنة عليهم، وهو ما تريد، لا كما تزعم هي وغيرها من الدول المستعمرة قديما وحديثا، لضعاف العقول، فيصدقونها، أنها إنما تنشد التنوير، ونشر الحضارة والتقدم. ومن أجل بلوغ هذه الغاية كانت سياستها الرسمية فرضَ الإنجليزية وتجاهل غيرها من اللغات، أو السعي في إماتتها. فمن اللغات التي قضت عليها حتى انقرضت أو كادت الولزية، والكورنية، والسلتية، والگيلية[2]، وفرضت الإنجليزية في إيرلندة، وأقصت الإيرلندية منذ القرن السادس عشر[3]. وكانت تعاقب من تقبض

---

(١) أسئلة الهوية، وانظر أيضا: أمريكة والإبادات الثقافية، ١٣.

(٢) السابق، ٣٠.

(٣) السابق، ٣١.

عليه وهو يتكلم بلغته، في ويلز، وكينية، بالضرب والشتم، كما كانت فرنسة تفعل في مستعمراتها[1]، وأقاليمها التي تتكلم بلغة غير الفرنسية. ولما احتلت مصرَ عطلت التعليم بالعربية، وأحلَّت محلها الإنجليزية عام ١٨٨٩، في أطوار التعليم كلها، فكان كل شيء يدرَّس بالإنجليزية، حتى العربية، حتى كانت تُترجم «كان وأخواتها» -مثلا- بـ «Can & Sisters»، كما كانت فرنسة تدرس العربية في تونس بالفرنسية، وحرمت التدريس بالعربية، وجعلتها مجرد مادة دراسية[2]. فكان المدرسون المصريون في إبان الاستعمار البريطاني يُدْخِلون دروس العربية إلى الصفوف سرا، بأن يكتبوها على أحد وجهي الورقة، ودرْسَ الإنجليزية على الوجه الآخر، فإذا داهمتهم حملة التفتيش الإنجليزية، قلَب أحدهم الورقة وأخذ في قراءة درس الإنجليزية[3]. وكانت تلزم الأطفال في مدارسها في مصر وكينية أن يتكلموا بالإنجليزية، وتضربهم عراة، حين تظفر بهم يتكلمون بلغتهم، وتعلق ألواحا معدنية في أعناقهم مكتوبا عليها: أنا غبي، أنا حمار، وتحملهم على دفع غرامة لا يطيقون دفعها، وتعطيهم أزرارا، يسلمونها إلى كل من تكلم بها، على أن يُسَمِّي من كان الزر في يده آخر النهار مَنْ سلَّمه إليه، ويسمي المسلِّم من سلَّمه إليه حتى يُقبَض على «المجرمين» جميعا، وتُسْقِط من رسب في الإنجليزية، وإن كان ممتازا وفائقا في سائر المقررات[4]. وقال نغوغي وا ثيونغو إن الإنجليز كانوا يلقون الطالب الكيني الذي يقبضون عليه متلبسا بالكلام بلغته على وجهه مُمدَّدا على خشبة، ثم يجلدونه حتى تتشقق ملابسه، وينزف جسمه، وتتضرج ثيابه بالدم، ويَدْعونه قردا، وإذا صرخ من الألم قالوا له: اصرخ أيها القرد، فقد كان الكلام باللغات الإفريقية في المدارس جريمة، وكان انطلاق اللغة الوطنية (الغيكويو) من عقالها أشد ما يرعب إدارة المدرسة؛ فكانت تسحق الطالب جلدا، وهو يصرخ بأعلى صوته؛ ليخرجوه من ظلمات الغيكويو إلى نور العلم بالإنجليزية[5]. وقال إن

---

(١) الهيمنة اللغوية، ٢٧٤.

(٢) اللغة العربية عبر القرون، ٧٦ (نقلا عن: أبحاث في العربية الفصحى، ١٧٨).

(٣) تاريخي بقلمي، (نقلا عن: نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، ١٦).

(٤) تصفية استعمار العقل، ٣٥ وما بعدها، والسلطة والسياسة والثقافة، ٢٨٩.

(٥) إحياء الأصل، ١٢٤. و١٢٦ وما بعدها.

احتقار اللغة الوطنية كان متطلَّبا يسبق اكتساب الإنجليزية. ثم كان المعلمون السود الذين وكل إليهم الاستعمار تعليم الإنجليزية من أبناء لغة الغيكويو، وكانوا مدججين بكل ما يساعدهم على ربط كل ما هو سلبي باللغات الإفريقية. وكان عملهم حرب استنزاف، لم تُبق لي أدنى ثقة أو اعتزاز باللغات الإفريقية، حتى صرتُ لا أومن بأن في وسع لغتي أن تعلمني شيئا، أو تجعل مني إنسانا متعلما وعصريا[1]. وقال إن الكاتب الذي يحاول إيصال رسالة الوحدة والأمل الثوريين بلغات الشعب يُعَدُّ مفسدا، وتُعَدُّ الكتابة إفسادا وخيانة، قد يُحكم على مرتكبها بالسجن، والنفي، وقد يحكم عليه بالموت، ويُحرَم الأوسمة «الوطنية» وجوائز السنة الجديدة، ولا ينال إلا الشتيمة، وتشويه السمعة، والأكاذيب التي لا تحصى من أفواه الأقلية الحاكمة المسلحة نيابة عن الاستعمار الذي تقوده أمريكة؛ لأنها تَعدُّ الديموقراطية تهديدها الحقيقي، وتعدُّ اشتراك الشعب في صياغة حياته، أو مناقشة شؤونه، بلغات، تسمح بالتفاهم، خطرا على حكومة البلد «الطيبة» ومؤسساتها، واستعمالَ اللغات الإفريقية في حياة الشعب عدوًّا لدولة الاستعمار الجديدة[2]. وقال إن حكومة ما بعد الاستعمار الكينية لما كتب مسرحية بلغته الغيكويو، ومثلت يوم ١١ نوفمبر عام ١٩٧٧ أودعته سجنا، كانت عليه حراسة أمنية مشددة[3]. وكان هذا دأب الاستعمار الأوربي في كل بلد حلَّه، حتى البلدان الأوربية، فلما احتلت ألمانية بولندة -مثلا- حرَّمت على البولنديين لغتهم في الأمور الرسمية، وفرضت على صغار الأطفال الصلاة بالألمانية، وكانت تضربهم بالسياط إذا أبوا[4]. وكانت روسية تحرِّم على قبائل سيبيرية التكلم بلغتهم، وتضرب التلامذة وتحبسهم خمس سنين في الصف الأول الابتدائي، إذا لم يستطع أحدهم أن يتكلم بالروسية، وتجبر الشعوب التي تستعمرها على تعلم لغتها، وتمنعها أن تتكلم بلغاتها، حتى أماتت بعضها[5]. وبسبب هذه السياسة كانت في أوربة إحدى وثلاثون من ستين لغة، لا تستعمل

---

(١) إحياء الأصل، ١٢٦ وما بعدها.

(٢) تصفية استعمار العقل، ٦٦ وما بعدها.

(٣) إحياء الأصل، ١٣١.

(٤) اللغة بين القومية والعالمية، ٥٤.

(٥) عند ما تموت اللغات، ٢٧ و ١٦٩ وما بعدها.

إلا قليلا، مع أنها لغة خمسين مليونا من الأوربيين، الذي يبلغون ثلاثمائة وعشرين مليونا[1].

لقد انقضى استعمار بريطانية وفرنسة العسكري، بيد أن سياستهما المعادية للعرب والعربية ما تزال على حالها، سوى أن أمريكة تسلمت راية العداوة من بريطانية لتكون الحرب والكيد على قدر القوة والغنى والمكانة الدولية، بعد أن أفَلَت شمس بريطانية، وغابت عن مستعمراتها الشمس، وما تزال سياسة فرنسة على ما كانت عليه، في المغرب العربي، بل أسوأ مما كانت، وأكسبتها التجربة من الحنكة والمهارة في كيد العربية، ونشِر الفرنسية ما لم يكن لها أيام الاستعمار العسكري، وبان لها في فَرْنَسة المستعمرات من المنافع المادية والمعنوية ما لم يكن يستبين.

(١) الهيمنة اللغوية، ١٤٤.

لم الكيد؟

ليست اللغة نظاما نحويا وصرفيا، وكمًّا من المفردات، فحسب، ولكنها فكر، وثقافة، وتراث، ودين، وعلم، وتاريخ، ولولا ذلك ما بالاها شعب من الشعوب، ولا حاربها استعمار، ولا حرَصَ على نشر لغته وتعليمها، وإغراء الشعوب بتعلُّمها، بالمِنَح، وبناء المدارس، والجامعات، والمناصب، والمال. وإنما حرص على ذلك لأن من جهل شيئا عاداه، ومَنْ علمه كان أدنى إلى مُوادَّته، ومن ثقِف لغة، تأثَّر أهلَها؛ لأنها ثقافة، تَسْرِق كما تسرق أخلاق القرين، كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «ما تكلَّم الرجل الفارسية إلا خَبَّ، ولا خَبَّ إلا نقصت مروءته»، وقال: «من كان يحسن أن يتكلم العربية، فلا يتكلَّم بالفارسية؛ فإنه يورث النفاق»[1]، وقال ابن تيمية: «إن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيِّناً، ويؤثِّر أيضاً في مشابهة صور هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتُهم تزيد العقل والدين والخلق»[2]. واتفق المنصِّرون، وقادة الاستعمار العسكريون، من إنجليز وفرنسيين، على أن كثيرا من المسلمين تزعزع اعتقادهم، لَمَّا تعلَّموا الإنجليزية[3]، وأن ميول السوريين كلَّها وعواطفهم تتجه نحو فرنسة، مذ تعلموا الفرنسية[4]، وقد رأينا ما صنعت الفرنسية بأهل المغرب العربي من تعلُّق فرنسة والفرنسيين، وقال علال الفاسي تصديقا لذلك: إنَّ ما خلَّفه لنا الاستعمار من بقايا أخطر على مستقبلنا من الاستعمار، لقد أصبحنا لا نعرف أنفسنا، ولا مكاننا، وأين نسير، أصبحنا نفكِّر بأفكاره التي أملى علينا في المدارس، والمعاهد، والجامعة، والخيالة،

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم، ١/ ٤٦٦ وما بعدها.

(٢) السابق، ١/ ٤٧٠.

(٣) التبشير والاستعمار، ٨٨، والتعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي.

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ٢/ ٢٨٥.

وفي كل مكان[1]. وقال بيير بوري: إن بعض كبار الدولة الروسية القيصرية لم يكونوا يحبون فرنسة، لكنهم يقرُّون بفوقها، ويستعينون بمن يفرنس دولتهم، كالأساتيذ، والتقنيين، وأهل الفن، فلما تفرنسوا كان السفر إلى باريس عقيدة عندهم، وانتشر تقليد الفرنسيين في اللباس، وحلاقة الشعر، والسلوك[2].

وإنما يجدُّ الاستعمار في إماتة لغات من يستعمر من الشعوب، وتحقيرها إلى أهلها، لينتزع باحتقارها الاعتداد بالثقافة، والاعتزاز بالهوية، تهيئا لزرع الإعجاب به وبثقافته، والولاء له، إذ كان محالا أن يكون للمرء هويتان متعارضتان، وإنما يتهيَّأ للمصير إلى هويةٍ غيره إذا تحلَّلت هويته، أو هانت عليه، حتى يرى الخير في التخلي عنها. وإنما يكون ذلك لأن اللغة وقود للممانعة، ومهيِّجٌ للعزة القومية، ومُعْدٍ على الذود عن الخصوصية الحضارية، فإذا زالت، زال ذلك، وغدا الطريق إلى تقبُّل ما يأتي به الاستعمار ولغتُه لاحبا، والنظر إليه بالعين التي يريد مواتيا، وذهبت بذهاب اللغة والثقافة المعايير التي يوزن بها الدخيل، فيُقْبَل أو يُرَدُّ؛ فلا يجد المرء في نفسه انتماءً إلا إلى الثقافة التي خلصت إليه من اللغة؛ لأنه لا يعرف غيرها، فليس له إلا أن يتقلدها، وينتمي إليها، ويتابع أهلها، من حيث يدري ولا يدري. ويتجلى هذا فيما قد رأينا في «مشروع الشرق الأوسط الكبير» من جدِّ الدول الثماني، ولا سيما أمريكة، في إماتة العربية، وإخراجها من حياة العرب، ونسبة ما تكره من العرب إليها تنفيرا لهم منها، إذ كانت هي الهوية التي من تلبَّس بها لم يرْض بما تريده عليه من تبعية. ومما يصدِّق هذا أن الجيل الذي لا يرفع بالعربية رأسا جيل مهزوم، يُقرَأ في قوله وفعله الخنوع والتبعية؛ لأنه لا يعرف من ثقافته وحضارته ما يعتزُّ به، ويتوكأ عليه، ويشعره بالتميز، فكل هَمِّه منافعُه المادية، فهو يسارع في تعلم ما يبلِّغه إياها من العلوم واللغات؛ ويزْهَد فيما عداه. كذلك قال طلاب بعض الجامعات العربية -وقد سئلوا: ما الذي يمكنهم أن يعملوا لخدمة العربية وترقيتها، من بحث، وتأليف، وترجمة، ووضع مصطلحات-: «ليس باليد حيلة،

---

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقية، ٣٢٣ (نقلا عن: اللغة العربية في الفكر العربي، ٣٤٢).

(٢) بيان من علماء ومثقفي المغرب حول سياسة التعليم والغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي.

وماذا يستطيع فرد واحد أن يفعل؟»[1]. وهو الروح الذي يتلبَّس بجلِّ العرب.

والوعيُ بمنزلة العربية من الهوية العربية، وبما أوتيت من جمال وتميُّز، لم تؤتَهما لغة من اللغات، وخوفُ أن تكون لها المكانة اللائقة بها في نفوس المسلمين وحياتهم، وأن تَجمع شملهم، وتلُمَّ شَعَثَهم، وتصل حاضرهم بماضيهم ومستقبلهم، ويتخذوها لغة علم وحضارة، يهيئانهم لأن يكونوا أندادا لمن يريدونهم تبعا، ويرون أنَّ تقدُّمهم يهدد تفرُّدهم -من أسباب كيدها، وما يُشَنُّ عليها من حروب، منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم. هذا إلى أنها لسان القرآن، ومن فهم القرآن كان السبب بينه وبين الله موصولا، وكان جديرا بألا يضل، إن كان مسلما، ولا يذوب في ثقافة من الثقافات، أو يعتزَّ بغير الإسلام، وأن يكون له عند نفسه معنى، يجعله فوق أن يُستتبَع، أو يعطي الدنية في دينه وهويته، أو يرى مَن يستعمره بالعين التي تراه بها الشعوب التي لا تأوي إلى ركن من التاريخ والحضارة شديد، وأَنِفَ من أن يُستعمَل، أو يستضعَف، أو يُنْهَب، أو يملِك غيرُه أمرَه؛ لما يعتقد من قول الله -تعالى-: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، فإن اختلَّت موازين القوة، فغُلِب، لم يَهِنْ، ولم يَستكِنْ، ولم يحقر نفسه، أو ير غيره خيرا منه، مادام مؤمنا: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، وظلت جذوة الأمل تتقد بين جوانحه، وطفق يُعِدُّ العدة لتقويم الموازين، حتى تستقيم على ما أراد، وعلى ما ينبغي أن تكون. كذلك فعل العراقيون، لما احتلَّت أمريكة ومن جيَّشت من أهل الأرض بلادهم عام ٢٠٠٣، حتى أخرجوها صاغرة، وأقرَّ رئيسها جورج بوش بالهزيمة. وما يزال المسلمون في فلسطين المحتلة يجاهدون اليهود بما أتيح لهم من وسائل الجهاد، ما وهنوا، وما ضعفوا، وما استكانوا، ولا خالجهم شك في أنهم الأعلون، وأنهم منتصرون، لا محالة، طال الزمن أو قصر. وصبر الجزائريون للاستعمار الفرنسي ١٣٢ عاما، قاسوا فيها من الأهوال ما تنشقُّ له الأرض، وتنهدُّ الجبال، حتى انتصروا عليها. وليس في الأرض من يخشاه الغرب اليوم غير المسلمين، كما قال جاك بيرك: العرب والإسلام هما العائق الأوحد لإمبراطورية اليوم، وقد وجدت منهما السياسة الأمريكية وحلفاؤها من

---

(١) اتجاهات الشباب.

فلسطين الصعوبة الوحيدة، أو شبه الوحيدة[1].

والعربية -إلى ذلك- وسيلة من وسائل توحيد الشعوب الإسلامية، وعصمة لها من الشتات، ووحدة المسلمين من أخوف ما يخاف الغرب، كما قال المستشرق هاملتون جب: اتحاد المسلمين بمنزلة اللعنة على العالم. ولما كانت وحدة المسلمين مما يحول بين الغرب وما يبغي بهم، كان لزاما أن يسعى في تقطيع ما بينهم، وتهييءِ النفوس لتقبل ثقافته، وزرع الإعجاب بحضارته. ومن سياسة الغرب عرقلة كل مشروع في العالم، يخشى أن يماثله أو يفوقه، فهو -مع أنه يريد أن ينشر أنموذجه في التنمية- يعوق غيره عن الوصول إلى ما وصل إليه من تقدم وتنمية[2]. وإنما تسلمت أمريكة راية العداء للعربية من بريطانية لأنها هي التي تقود الحرب الآن على الإسلام، فلا بد أن تكون هي التي تقودها على العربية، لحام المسلمين، ولسان الإسلام، ومستودعه، ومن تعلَّمها كان مرشحا لأن يتعلمه، فيُسلم، ومن أسلم كان عدوا للاستعمار وما يتوسل به إلى استتباع الشعوب، من مسخ، واستلاب، وإذلال. وقد رأينا من أقوال الفرنسيين ما يدل على ذلك. وذكر جلبير غرانغيوم أن الرئيس أحمد بن بلة قال عام ١٩٦٢ م - يُطَمْئِن «التقدميين» من الجزائريين-: إن التعريب ليس هو التسليم (جعْل الحياة إسلامية)، وإنما هو استعادة لغة، لا استعادة ديانة. وقال إن هذه العبارة بعينها استعملها وزير الشؤون الدينية الجزائري في آخر العقد التاسع من القرن العشرين، ليرضي الإسلاميين، فقال لهم: ليس للتعريب فائدة، أي فائدة، ما لم يكن غرضه التسليم[3]. وقال جلبير غرانغيوم إن تعريب التعليم -وإن كان في الأصل منفصلا عن التسليم- كان من صنع التيارات الإسلامية، وأفضى إلى زيادة حظوتها[4]. وهذا الرأي، وإن كان ينسب إلى جلبير، هو رأي فرنسة الرسمي، ومن أجله تَشنُّ الحرب على التعريب في المغرب العربي، وتسعى في إبطال ما أُنجز منه، وردِّه إلى ما كان عليه قبل الاستقلال. ولا عجب؛ فالتعريب لا يكون إلا عن استقلال، وكل استقلال، لا يفضي إلى مراجعة السياسات غير

---

(١) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، ٢٧.

(٢) السابق، ١٥٠.

(٣) التعريب واللغات الأم في السياق الوطني بالمغرب العربي.

(٤) التعريب في الجزائر: وجها الحصيلة.

المستقلة ليس باستقلال، وإن سماه جلبير تحديثا؛ فإن الحداثة والتبعية ضدان. فالحرب على العربية مبنية على ثلاثة أمور رئيسة: خوفُ الإسلام، وعداوةُ المسلمين الإستراتيجية التي هي جزء من ثقافة الغرب، وأنه يحول دون التبعية، والاستلاب، والرضا بالزبونية المبنية على استيراد نتاج الغرب، بتأثير من لغاته. وثقافة التعريب المستندة إلى الإسلام تكسب العرب حصانة من الاستعمار، والرضا بالاحتلال، إذا وقع، لما تنفخ فيهم من عزة، وإباء للضيم والتبعية، كما نفخت في الجزائريين من روح التحدي، ورفْض الاستعمار الفرنسي ما صبَّرهم على جهاد فرنسة ١٣٢ عاما، ذاقوا فيها من الأهوال ما يَفْتِن أقلُّه عن كل شيء. وكان ذلك من أسباب عداوة فرنسة للعربية، في المغرب العربي، والأقطار الإفريقية المسلمة التي استعمرتها، فكانت ربما سمحت للجزائريين بتدريس القرآن في الكتاتيب، على ألا يُفسَّر، ولم تسمح بتعليم العربية[1]؛ لأن المنظور إليه من اللغة عند الاستعمار هو ما في جوفها، وما في جوف العربية هو الإسلام؛ من أجل ذلك كان التعريب عند الفرنسيين مرادفا للإسلام، وكذلك كان عند المتفرنسين من أهل المغرب العربي، ولذلك نزع المغرب عن تعريب التعليم العامِّ إلى فرنسته بعد الحرب التي أعقبت إلغاء الجيش الجزائري نتيجة الانتخاب التشريعي عام ١٩٩٢، مع أنه لم يأت على إتمامه إلا نحو من ثلاث سنين، فقد تخرجت أول دفعة معربة في الثانوية المغربية عام ١٩٩٠؛ وذلك لما يرى من أن فوز جبهة الإنقاذ، وشعبية الاتجاه الإسلامي العارمة في الجزائر أثر من آثار التعريب، أما الفَرْنسة، فتحول بين المغاربة وما في جوف العربية، وتصرفهم إلى ما جوف الفرنسية.

هذا إلى مزايا العربية الذاتية الفريدة، التي يتوقف حسن الإفادة منها على قدْر العلم بها، فهي تضم ١٢٣٠٥٤١٢ من الأبنية المهملة والمستعملة، وألفاظها ٦٦٩٩٤٠٠، لا يستعمل منها إلا ٥٦٢٠، وذكر الزبيدي أنَّ عِدةَ مستعمَلِ الكلامِ كله ومهمله ستة آلاف ألف وتسعة وخمسون ألفًا وأربعمائة (٦٠٥٩٤٠٠)، المستعملُ منها خمسةُ آلافٍ وستمائة وعشرون (٥٦٢٠)، والمهمل ستة آلاف

---

(١) سياسة التسلط الاستعماري، ٧٨.

ألف وستمائة ألف وثلاثة وتسعون (٦٦٠٠٠٩٣)[١]. وقال حمزة الأصبهاني في «كتاب الموازنة» فيما نقله عنه المؤرخون: ذَكَر الخليل في كتاب «العَيْن» أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المُسْتَعمَل والمهمل ... من غير تكرار اثنا عشر ألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر: (١٢٣٠٥٤١٢)»[٢]، أي: اثنا عشر مليون بناء وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر بناء. وقال بعض المختصين إن المستعمل منها نحو عشرة آلاف فقط[٣]، ويرى آخرون أن المستعمل منها لا يزيد على ٣٠٪[٤]، وقال محمد نعمان الدين الندوي إن المستعمل منها خمسة ملايين وتسعة وتسعون ألفاً وأربعمائة لفظ (٥٠٩٩٤٠٠)، من ستة ملايين وستمائة وتسعة وتسعين ألفاً وأربعمائة لفظ (٦٦٩٩٤٠٠)، وفي الفرنسية خمسة وعشرون ألف كلمة (٢٥٠٠٠)، وفي الإنجليزية مائة ألف كلمة (١٠٠٠٠٠)[٥]. ويقول بعض الإحصاءات إن بها ١٢٣٠٢٩١٢ كلمة، مقابل ٦٠٠٠٠٠ كلمة في الإنجليزية، و١٥٠٠٠٠ كلمة في الفرنسية، و١٣٠٠٠٠ كلمة في الروسية. وسائرها مهمل. وقال أحمد عبد الغفور عطار إنها جد غنية بثروة لغوية، لا قدرة لأحد على أن يحصيها إحصاء، وأكثر موادها غير مستعمل، وكثير منه غير معروف، والمستعمل منها في عصرنا لا يكاد يزيد على عشرة آلاف، مع أن «الصحاح» يضم أربعين ألف مادة، و«القاموس» ستين ألف، و«التكملة» ستين ألفا، و«اللسان» ثمانين ألفا، و«التاج» عشرين ومائة ألف مادة»[٦]. ولهذا قال الشافعي: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفظا»[٧]، وقال المستشرق الألماني، فريتاغ: «اللغة العربية أغنى لغات

(١) نسب بعض الباحثين إلى الزبيدي أنه قال إن عدد ألفاظ العربية ٦٦٩٩٤٠٠ لفظ، لا يستعمل منها إلا ٥٤٢٠ لفظ. والباقي مهمل (معلمة الإسلام، ٣٣٩.)

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق فؤاد علي منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨ هـ. ١/ ٥٩ وما بعدها.

(٣) قدرة اللغة العربية على مسايرة الإبداعات والتجديدات في مجال العلوم الطبية والطبيعية، حمزة الكتاني، مجلة اللسان العربي، العدد ٤٣، ص ٢٢، وانظر: معلمة الإسلام،٣٣٩.

(٤) مجلة الوحدة، العدد ٣٣ و٣٤، ص ١٦٠ (نقلا عن: لغة الإشهار في الخطاب السياسي والخطاب الاقتصادي. فاصمة كدو، العربية في الإشهار والواجهة، ١٥٥).

(٥) اللغة العربية التحديات والمواجهة، مبارك سالم الفلق، (المكتبة الشاملة)، ص: ١٤

(٦) الصحاح، (المقدمة)، ٢٣ وما بعدها.

(٧) تهذيب اللغة، ١/ ٦، والاعتصام، ٢/ ٣٠٠.

العالـم»[1]. وتزيـد الألفـاظ التـي يمكـن أن تشـتق منهـا علـى مليـون وربـع المليـون، علـى حسـب الإحصـاء الذي أُجريَ في دائرة المعجمـات بمكتبة لبنـان[2]؛ فهي تبذُّ لغـات العالـم كلهـا، حتى أوسـعها انتشـارا، كالإنجليزية، والفرزنسـية، والإسـبانية، فمعجـم أكسـفورد -مثـلا- لا يضـم أكثـر مـن مليـون كلمـة، ٤٠٪ منهـا مقترضـة، ويضـم معجـم الفرنسـية مائة ألـف كلمة، وهي مهـددة بالانقراض فـي أربعين عاما، ومـا لفرنسـة مـن وسـيلة تنقذهـا بها إلا زرْعهـا في مسـتعمراتها القديمـة، ومنها دول المغـرب العربـي، وإرغامهـا عليهـا، إذ أعـرض عنهـا الفرنسـيون[3]. وهـي أغنى من الإسـبانية بمـا يزيـد علـى خمسـة أضعـاف، وتحتـوي علـى أكبر عدد مـن المفردات، والمصـادر، دون سـائر لغـات العالـم. وهـي لغة راقية، مـن حيث طريقة الاشـتقاق، ومتانـة التراكيـب، والقـدرة علـى التخيـل والوصـف[4]. وقـال فيـلا سـبازا، وهـو مستشـرق إسـباني، إنهـا أغنـى لغـات العالـم، وأرقـى مـن اللغـات الأوربيـة؛ لأنهـا تتضمـن أدوات التعبيـر فـي أصولهـا كلهـا، وإنـي لأعجـب لكثيـر مـن أبنـاء الشـرق العربـي إذ يتظاهـرون بفهـم الثقافـات الغربيـة، ويخدعـون أنفسـهم ليقـال إنهـم متمدنـون[5]. وأثبتـت الدراسـة المقارنـة أنهـا أم اللاتينيـة والسكسـونية، فـ٨٠٪ من أفعـال اللغـة السكسـونية و ٧٥٪ مـن أفعـال اللاتينيـة عربيـة الأصل، ويؤيـد ذلك أن هـذه الجـذور فـي العربيـة تزيـد علـى سـتة عشـر ألف جـذر، وليـس في السكسـونية إلا مـا يزيـد قليـلا علـى ألفـي جـذر، ونحـو ثمانمائـة جـذر فـي اللاتينيـة، هـذا إلـى أن العربيـة تخـرج منهـا مشـتقات وتراكيـب قـد تجـلُّ عـن الحصـر[6]. ولم يُسـتعمل منهـا فـي الاصطـلاح العلمـي إلا نحـو مـن ٣٠٪، وستسـتنفد الإنجليزيـة قدرتهـا علـى إنتـاج الاصطلاحـات في خمسـين عاما، وقـدرة العربية الاصطلاحيـة لا تنفد، مهمـا يُختـرَع مـن المخترعـات[7]. وهـي أكثـر لغـات العالـم أصواتـا ومقاطـع، فبهـا

(١) اللغة العربية التحديات والمواجهة، مبارك سالم الفلق، (المكتبة الشاملة)، ص: ١٤.

(٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر، ٢٧، واللغة العربية بين حماتها وخصومها، ٣ وما بعدها، وملاحظات على حركة الترجمة وتعريب الطب من حنين بن إسحاق إلى كلوت بك، ١٣٦.

(٣) أستاذ اللغة والأدب بالمغرب عبد الصمد بلكبير في حوار مع صحيفة عربي ٢١.

(٤) الأستاذ بدرو، بك لغة الضاد تفخر.

(٥) عبقرية اللغة العربية، ١٥٨.

(٦) عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، ١٩٧.

(٧) السياسة اللغوية، ٥٧، والهوية ولغة التعليم في البلدان العربية، ٤٨٤.

ثمانية وعشرون حرفا، ليس فيها مكرر، وفي الإنجليزية ستة وعشرن حرفا، بعضها مكرر[1]. ويقول الذين خبروها في مراكز البحوث العالمية إنها من أكثر اللغات مطاوعة للعلم، وأحدث التقنيات، وأنفعها لهما؛ لأنها لغة رياضية[2]، كما يبدو من التجربة التي قام بها ب. بشاي من جامعة هارفارد، فقد برمج في حاسوب صغير نظاما للترجمة إلى العربية[3]، وقال إنها مبنية بناءً جيدا، يمكّن الحاسوب من أن يجد بنفسه الموازين الصرفية المناسبة حين يُلْتقَط الجذر[4].
وذكر أحد خبراء الخط أنه لما أراد تطعيم الحرف العربي في الآلة الحديثة تبيَّنَ أن مكونات العربية كأنما وُضِعت لعصر الإلكترون، فقد استوعبها الحاسب بثلاث محاولات، بدلا من ستْ وعشرين[5]. وذلك دليل على أهميتها، وأنها سلعة رابحة صالحة لإقامة مجتمع المعرفة، وتقوية البحث العلمي[6]، وأنها بعيدة مما يرجف به الشانئون من مستجَهن الدعاوي والأراجيف، من أنها ميتة[7]، مع أنها لم تُخدَم كما ينبغي، ولم تبلغ ما بلغت بسياسة، رسمتها دولة عربية، أو رعتها، أو أنفقت عليها، وإنما هي أعمال أفراد، يدفعهم حبها، والغيرة عليها، أو شركات، تتوخى الربح. وقد وسِعَت العلم الحديث كله، كما وسعت العلم القديم، فما من علْم إلا وقد عُرِّب، ودُرِّس بالعربية في سورية، والعراق، والسودان، وليبية، وغيرها من الأقطار العربية، وإن لم يجد سياسة عربية، ترعى التعريب، وتجدُّ في توطين العلم والمعرفة، وتعتقد أنهما باب التنمية الأوحد.
ولها مزية أخرى، ليست بدون ما قد رأينا من المزايا، هي أن في بنائها من الثراء الأسلوبي ما يتيح من دقة البيان وجماله ما لا يتيح بناء لغة من اللغات، وقد عدَّ الباقلاني ذلك سببَ نزول القرآن بها معجزا، دون غيره من كتب الله؛ لأن اللغات التي نزلت بها تلك الكتب ليس فيها ما في العربية من ذلك

(١) عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، ١٩٧.
(٢) أسباب تدني التحصيل في اللغة العربية، ٧٤.
(٣) السجال اللغوي والثقافي حول الفرنسية في المغرب.
(٤) الموضع السابق.
(٥) صحيفة الشرق الأوسط، ٢٨/ ٦/ ١٩٨٩ (نقلا عن: التعريب بين المبدأ والتطبيق، ١٣٩).
(٦) انظر: اللغة العربية في المغرب إلى أين؟، والديموقراطية اللغوية المأمولة في المغرب، واللغة العربية تعرف أعلى نسبة نمو على الإطلاق في الإنترنت.
(٧) السياسة اللغوية، ٤١.

الشراء[1]، ولا يقع فيها من التفاضل في الفصاحة ما يقع في العربية؛ فمن تَرْجَم من العربية إلى غيرها، لم يكن في وسعه تأدية المعنى[2]؛ لأن غيرها ليس فيه من الأساليب ما يكافئ أساليبها، كالمجاز المرسل، فقد قال الإمام عبد القاهر الجرجاني إنه ليس في لغة من اللغات غير العربية[3]، وقال الإمام الغزالي إن «توسُّع العرب في التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم (الفرس)، بل لا نسبة لتوسع العرب إلى جمود العجم»[4]. وقال ابن فارس إن بعض العلماء قال إن القرآن «لا يَقْدِر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله -عز وجل- بالعربية؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»[5]. وقال العارفون باللغات الغربية الحديثة إن أداءها البلاغي، ولا سيما الإنجليزية، يتصف غالبا بالضيق لاضطراب معجمها، وانغلاق نظامها النحوي، وضعف قدرتها على الاشتقاق، وافتقار أبنيتها وصيغها إلى الاتساق، بسبب انتماء معظم مكوناتها ومفرداتها إلى لغات شتى، وليس فيها من المجاز والصور البيانية العميقة ما تحفل به اللغات الشرقية عامة، والعربية خاصة، ولا فيها من صور البديع الذي يستعمل في تحسين الكلام مثل الذي في العربية. ومردُّ ذلك إلى عدم تجانس الألفاظ الناتج من عدم وجود ميزان صرفي ثابت، وقالبٍ لغوي تُصَبُّ فيه المفردات حتى تخرج ذات أشكال زخرفية متجانسة، تتألف منها محسنات لفظية، يوشَّى بها الكلام. ولم تَخْلُ آداب الإنجليزية من الصور البيانية المألوفة، ولكنها تكاد تنحصر في التشبيه، والمبالغة، والكناية، والسخرية، والموسيقا اللفظية، وهي دون ما في العربية[6]. وفطن إلى ذلك رفاعة الطهطاوي، فقال إن البلاغة في العربية أتم وأكمل منها في غيرها، ولا سيما علم البديع، فإنه يشبه أن يكون من خواص العربية لضعفه في اللغات الإفرنجية[7].

---

(1) إعجاز القرآن، ٣١.
(2) دراسات في العربية وتاريخها، ١٣٤ وما بعدها.
(3) السابق، ١٤٦.
(4) إلجام العوام، ١٧.
(5) الصاحبي في فقه اللغة، ١٩ وما بعدها.
(6) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٢٣٦ - ٢٤٠.
(7) تلخيص الإبريز، ٣/ ٣٦٨.

وقال العارفون بالعربية من الغربيين: إن اللغات الغربية -كالفرنسية- لا تكافئها في أساليبها، وليس في وسعها أن تبين عما تبين عنه من دقائق المعاني، كما قال بلاشير: «إن من أهم خصائص العربية قدرتها على التعبير عن معان ثانوية، لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها، فالفرنسية -مثلا- لا تُعْنَى إلا بالتعبير الواحد، وفي العربية مذاهب وأساليب تُعْرِب عن مختلف الأحاسيس»[1]. يعني أن الجملة الفرنسية ليس لبنائها إلا صورة واحدة، ولبناء الجملة العربية صور شتى، كل صورة تبين عن معنى متفرع من المعنى العام، هو الذي سماه بلاشير المعنى الثانوي، وهو ما زاد على أصل المعنى، ويؤدَّى بأساليب شتى، هي التي «تُعْرِب عن مختلف الأحاسيس». وأصول المعاني تشترك فيها الألسن كلها، وهي الداعي الأول إلى وضع اللغات، أما المعاني الزائدة عليها، من أحوال، ترجع إلى المتكلم، أو المخاطب، أو المتحدَّث عنه، أو حال الفعل المخبر به، وغير ذلك، كدلالة حذف شيء من الكلام على ضجر المتكلم وسآمته، ودلالة تأكيد الجملة بالقَسَم على أن المخاطَب ينكر مضمونها، وإيراد المسند إليه نكرةً للدلالة على تعظيمه، وتقديم الفعل على المفعول لاهتمام المخبِر بشأنه، فهي بمنزلة الروح، يسري في الجسد، فيُحدث فيه منظرا بهيجا، وعلى حسب رعايتها تتفاضل العبارات في مقام البلاغة، وهي التي تَعِزُّ ترجمتها[2]؛ لأن اللغات لا تتساوى فيها، وقد أوتيت منها العربية ما لم تُؤْت لغة من اللغات. وقال رفائيل باتاي: إني أشهد من خبرتي أنْ ليس في اللغات التي أعرفها (تسع) لغة، تداني العربية، لا في طاقتها البيانية، ولا في قدرتها على اختراق درجات الفهم والإدراك، والنفاذ إلى المشاعر، وتَرْك أشدِّ الأثر فيها، ولا يشبهها في ذلك إلا الموسيقى[3]. وكذلك قال المستشرق الفرنسي، جان فوركاد، غير أنه أورد قوله في معرض الحديث عن صعوبة الترجمة من العربية، وعدَّ ذلك من عيب فيها، وليس نقصا في الفرنسية وقصورا منها عما تقوى عليه العربية من البيان، وعجزا عن أداء ما تؤدي من دقيق المعاني، قال: إذا ترجمنا نصًّا من

---

(١) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٤.

(٢) دراسات في العربية وتاريخها، ١٣٤ وما بعدها.

(٣) اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، ٥٣١.

أدب أمريكة اللاتينية، كان من اليسير علينا من الصفحة الثالثة أو الرابعة أن نتبين أسلوب الكاتب، وعلاقته باللغة التي يكتب بها، فإنْ ترجمنا نصا من العربية إلى الفرنسية، وجدنا لغة صعبة المراس، وصعوبةً شديدة في تبيُّن أسلوب الكاتب، وعلاقته باللغة التي يكتب بها، وهي صعوبة لا أتبيَّن سببها. فإن تبيَّنتُ أسلوبَ الكاتب، ظهر لي أمر آخر، هو ما يقابله في الفرنسية. إن صعوبة الترجمة ليست موضع جدال، ولكن صعوبة الترجمة من العربية ليست كصعوبة الترجمة من لغة أخرى، وهي صعوبة مردُّها إلى العربية ونظامها[1]. وكان ينبغي أن يَعُدَّ هذا مزية من مزاياها، فهي تسَع اللغات كلها، ولا تسعها لغة من اللغات، ويُترجم إليها ما في غيرها كله، ولا يُترجم بعض ما فيها إلى كلِّ لغة[2]؛ لأن غيرها لا يبلغ شأوها في البيان، وفيها من دقيق الأساليب ما لا مقابل له في لغة من اللغات. وهذا مما يمكن أن يفهم من قولِ الله -تعالى-: (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين): أسند البيان إلى اللسان دون أهله، وهو دليل على أن المزية فيه قبلهم، فهي مزية ذاتية. ومما يدل على ذلك أن يُثني عليها -وهي وأهلها بالحال التي نرى- من لا يُزَنُّ بتعصُّب لها، ولا مجاملةٍ لأهلها، ولا يدعوه شيء إلى الثناء عليها إلا ما يرى أنه الحق، وفيهم من أسلم بسبب ما وقف عليه من هذه المزايا، واعتقد أنها مقدسة، فكان لا يتكلم فيها حتى يتوضأ. فقد قال جاروسلاف ستتكيفتش -مثلا-: يتحمس العرب للغتهم تحمسا شديدا، ويدافعون عنها دفاعا مجيدا، ويصفونها بأجمل الصفات، ويَعْزُون إليها خير المزايا، وسواء أكان ذلك نزعة فردية متحيزة، أم كان عن دراسة نزيهة، فمن المؤكد أنها لغة متميزة. لقد عاشت خمسة عشر قرنا، لم يمسسها تغير في الصميم، وهي غالبا ما تَكْسَب، ولم تخسر ألبتة. إنها كفينوس، وُلِدت كاملةَ الجمال، واحتفظت بجمالها، على ما أصابها بمرور الأيام من أسباب التعرية والتآكل[3]. إن تجربة الطالب الغربي الذي لم يألف بناء اللغات السامية الصرفي المحكم مع العربية توحي إليه أنه تجريد رياضي، وأن النظام

---

(١) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، ٢٣٤.

(٢) مستويات لغوية، ٩.

(٣) العربية الفصحى الحديثة، ٢٣.

الكامل الذي أساسه الجذور الثلاثية من السواكن، والصيغ الفعلية المشتقة بمعناها المركزي المشترك، وصياغة صيغ الأسماء والصفات الدقيقة - كل هذا يبدو مثالا للوضوح، والمنطق، والنظام، والتجريد. وهي أشبه ما تكون بصيغة رياضية. ومع أن هذا تقرير أولي، هو الحقيقة الأخيرة أيضا[1]. ونشر المستشرق الفرنسي، هنري لوسل مقالا في جريدة «لوموند»، في ٣/ ١٠/ ١٩٦٤، قال فيه: إن الطالب يجد في العربية معاني تختلف اختلافا كبيرا عن معاني الفرنسية واللاتينية، وكلِّ لغة أوربية، وبها يَعرِف المتعلم عقل العرب. يجد نفسه أولا أمام الأبجدية العربية، وربما كان فيها بادي الرأي موضع للنقد، ولكن سرعان ما يجد لها جاذبية خاصة، ويستوقفه سير كتابتها من اليمين إلى اليسار، وهو سير يطابق حركةً عضوية، توافق الطبيعة، ثم يتبين كلماتٍ ذات أصول ملحَّنة واضحة، ونظاما صرفيا مخترعا داخل الكلمة، يُغْني عن كل زيادة خارجية من السوابق واللواحق، ويتيح ثروة من الاشتقاق من الأصل الواحد. وتقدِّم نسقا من قواعد الإعراب سهلا، وفيه كثير من المرونة، وأساليبَ، تجمع بين السذاجة والدقة، ونظاما من الأفعال، يتسم بالبساطة، ويحير الناظر أول الأمر، ولكنه مع ذلك قد يبلغ من التمام في منطقه ما بلغ النظام الفرنسي. وهذه الخصائص وغيرها تتيح للمتعلم -عن غير وعي منه- معرفةً للتعبير الإنساني جديدة حقا، وفيها خصب وثراء[2]. وقال الباحث اللغوي الفرنسي وليم مرسيه: العبارة العربية كالمِزْهَر (العود)، إذا نَقَرْتَ على أحد أوتاره، رنَّت لك الأوتار كلها وخفَقت، وهي تبعث في نفسك -فوق ما لها من صدى خاص- الأصداءَ الخفية لكل ما ينتسب إليها من مفردات، أو يلحق بها، ثم تحرِّك في أعماق النفس من وراء حدود المعنى موكباً من العواطف والصور[3]. وقالت المستشرقة الألمانية أنا ماري شيمل: العربيَّةُ لغة موسيقية جدا، ما أستطيع أن أقول إلاَّ إنها لا بد أنْ تكونَ لغةَ الجنةِ[4]. وقال كولن باول، بعد زيارته دار فور إن أهلها يتكلمون بهذه «العربية القرآنية

(١) العربية الفصحى الحديثة، ٢٤ وما بعدها.
(٢) دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، ٣٦، وفلسفة اللغة العربية، ١٠ وما بعدها.
(٣) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٢ وما بعدها.
(٤) فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٥٧ (هامش).

اللطيفة الجميلة»[1]. وقال بلاشير: لو كنت عربيا لكنت فخورا بهذه اللغة، إن العربية تمكِّن العربي من إبراز شخصيته أمام لغات الأمم الكبرى، وتشعره بأنه ذو لغة حضارية ممتازة[2]. ووصفها جاك بيرك بأنها ممهورة برسالة أنطولوجية، وثمة من يحسدون العرب عليها[3].

وما فطن إليه هؤلاء -وهم غربيون كلهم- فطن إليه الشرقيون من اليهود والنصارى قبلهم، ونبهوا عليه، مع أن لغاتهم أقرب اللغات إلى العربية، في نظامها الصوتي، والصرفي، والنحوي، وأشبهها بها، ومع ذلك كانوا يشعرون بأنها تتميز منها، وأن لها الفضل عليها؛ فقد قال يوسف بن داود، مطران الموصل إن العربية هي أعرق اللغات السامية، وأكثرها أصالة، ومن أجل ذلك اكتسحتها كلها، وأبادتها، بغناها، ووفرة ألفاظها، وكونها أقرب لغات الدنيا إلى المنطق[4]. وقال ابن سنان الخفاجي: «أخبرني أبو داود المطران -وهو عارف باللغتين: العربية والسريانية- أنه إذا نُقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسَّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طُلاوة وحُسنا. وهذا الذي ذكره صحيح، ويُخْبر به أهلُ كل لغة عن لغتهم مع العربية»[5]. وقال ابن الأثير إنه كان مرة بمصر، فحضر عنده يوما عالم من علماء اليهود، فجرى ذكر اللغات، وأن العربية سيدتها وأشرفها مكانا، وأحسنها وضعا، فقال: «كيف لا تكون كذلك، وقد جاءت آخِرًا، فنفت القبيح من اللغات قبلها، وأخذت الحسن، ثم إنَّ واضعها تصرَّف في جميع اللغات السالفة، فاختصر ما اختصر، وخفَّف ما خفف، فمِنْ ذلك اسم الجمل، فإنه عندنا في اللسان العبراني «گوميل»، مُمَالاً على وزن فوعيل، فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع، وقال «جَمَل»؛ فصار خفيفا حسنا. وكذلك فعل في كذا وكذا، وذكر أشياء كثيرة»[6].

وفطن إليه علماء الفرس، وخوارزم، فقال ابن جني: «إنا نسأل علماء العربية

---

(١) ما وراء دارفور، ١١٤.

(٢) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٩٣.

(٣) تعويم اللغة، القدس العربي، عن موقع صحفي
.http://www.sahafi.jo/arc/art1.php?id=dbbd7056291ac43a47a1f6fe27d2d5d7a5957f1b

(٤) معلمة الإسلام، ٣٤٠ وما بعدها.

(٥) سر الفصاحة، ٥٠.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ١/ ٢٠٦.

ممن أصله عجمي -وقد تدرَّب قبل استعرابه- عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبُعْده في نفسه، وتقدُّم لطف العربية في رأيه وحسِّه. سألت غير مرة أبا علي -رضي الله عنه- عن ذلك، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته...، ولم نر أحدا من أشياخنا فيها -كأبي حاتم، وبندار، وأبي علي، وفلان، وفلان- يسوون بينهما، ولا يقرِّبون بين حاليهما (العربية والفارسية). وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال، لوضوحه عند الكافة»[1].

وقال أبو حيان التوحيدي: «لقد سمعنا لغات كثيرة، وإن لم نستوعبها من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم، والروم، والهند، والترك، وخوارزم، وصقلاب، وأندلس، والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي تذوقها في أمثلتها، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها»[2]. وهذا يوافق ما انتهت إليه دراسة أجريت في اليابان على اللغات العالمية لمعرفة أكثرها وضوحا صوتيا، في استعمال الحاسب، فأثبتت أن العربية تتصدرها، والصينية آخرها[3]. وقال البيروني: «وإلى لسان العرب نُقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت وحَلَت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي أَلِفَتْها واعتادتها واستعملتها في مآربها، مع أُلاَّفها وأشكالها...، والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية. وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نُقِلَ إلى الفارسي، كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسودَّ وجهه، وزال الانتفاع به»[4]. وقال إنه يقول هذا مع أنه مطبوع على لغته الخوارمية، ومعرفته بالعربية والفارسية معرفةُ دخيل متكلف، لا معرفة سليقية[5]. وإنما قال ذلك ليدفع عن نفسه تهمة التحيز للعربية، وما قد يُرْمَى به من قلة العلم بالخوارزمية، وهو عالم بأن ما قال مخالف لما جرت به عادة الناس من الإعجاب بلغاتهم، وإيثارها على غيرها من اللغات، لكنَّ ما

---

(١) الخصائص، ١/ ٢٤٣.

(٢) الإمتاع والمؤانسة،/ ٧٧.

(٣) اللغة العربية في عصر العولمة، ٣٠.

(٤) كتاب الصيدنة (مخطوط) (نقلا عن: حركة التعريب في العراق، ٥ وما بعدها).

(٥) الموضع السابق.

أثنى به هو الحقيقة -في نظره-. وإذا كان إسلام البيروني، وأبي علي الفارسي، وغيرهما من مسلمي العجم، قد يجعلهم مظنة التعصب للعربية على الخوارزمية والفارسية، فيؤثرونها عليهما، فإن ما قالوا في الموازنة بينها وبين الخوارزمية والفارسية يطابق ما قال اليهود والنصارى في الموازنة بينها وبين العبرانية والسريانية، على تباعد الديار، واختلاف الأزمنة، وليس في اليهود والنصارى من هو مظنة العصبية للعربية. وذكر ابن فضلان أن رجلا من قبيلة من قبائل الترك موغلة في البداوة والتوحش، ولا تدين بدين، يقال لها الغَزِّيَّة، كان قد مرَّ بها في رحلته إلى ملك بلغارية، سمعه يقرأ القرآن، فاستحسنه، «وأقبل يقول للترجمان قل له: «لا تسكت»»[1]. فما يشعر به الفلاسفة، وكبار المثقفين، واللغويين من غير العرب، في هذا العصر، وما يشعر به كبار الفلاسفة واللغويين من مسلمي الفرس وخوارزم، في العصور الخوالي، من جمال العربية، وتميزها، يَشعر به في القرن الرابع الهجري تركي أمي، متوحش، لا دين له، وما جاءه من بشير ولا نذير، يقيم في بوادي ما وراء النهر منقطعا عن الدنيا انقطاعا تاما. وإذا كان لهذا معنى، فمعناه أن ما أُثنيَ به على العربية قديما وحديثا، وما ذُكر من مزاياها حقيقة، لا مكان للعصبية ولا التحيز فيه، وهو مما يعز اجتماعه لغيرها من اللغات.

غير أن مزايا اللغة الذاتية لا تنزلها المنزلة التي هي أهلها، لا في أهلها ولا في العالم؛ فإن اللغات، والأديان، والعلوم، والأفكار لا تنصر نفسها، وإنما ينصرها أهلها، أو يخذلونها، وإنما أنهى العربية إلى ما انتهت إليه أهلها الذين كسلوا عن تعلمها، وضنوا بأنفسهم على دراستها، وانصرفوا عنها إلى غيرها تعجلا للشهرة، أو طلبا للمال، والجاه، والمنصب، كما صنعه الجهلة، وغير الوطنيين من الساسة الذين لا يعرفون منزلة اللغة من العلم والفكر والحضارة؛ فهم لا يبالون ما يكون من أمرها، وتزيِّن لهم البطانة غير الوطنية أن يجعلوها حيث هي اليوم، فكانت كـ«صارمٍ في كفِّ مُنْهَزِمِ». وإن كان في أمر العربية ما يخالف من بعض الوجوه سنن اللغات، كما لمح إلى ذلك عبد القادر الفاسي الفهري، إذ قال إن مما يستعصى على فهمه أن العقد الذي هُمِّشت فيه العربية، وحوربت، هو عقد انتشارها في العالم انتشارا لا نظير له، وعقد ازدهارها التقني، والرقمي،

---

(١) رسالة ابن فضلان، ٩٣.

والاتصالي، إلخ، والعقد الذي ظهر فيه أكبر الفضائيات العربية وأجودها، وأصدقها، وزاد فيه مستعملو الشابكة زيادة منقطعة النظير، بلغت ٢٥٠٠٪. وخلص إلى أنها «خير من الله»[١]. ووقع هذا بعينه للإسلام في هذه الأعوام، فقد تكالب عليه الغربيون، وراموا الإجهاز عليه وعلى المسلمين بما شنُّوا من حروب، دمرت المدن، وشلَّت الحياة، وقتلت الملايين، وأحكمت الحصار، وسيطروا على المصارف، والاقتصاد، والتعليم، ووجهوها الوجهة التي يريدون، وتجاوزوا ذلك إلى إخراج كل ما يرون أنه يبغِّض الغرب إلى المسلمين من المعارف الإسلامية، لكن الشعوب الغربية دخلت في الإسلام أفواجا، وأقبلت على قراءة القرآن لفهم الإسلام، على وجه لم يسبق له مثيل، ولم تمض إلا أعوام قليلة، ثم خرجت أمريكة من العراق مهزومة هزيمة أسوأ من هزيمتها في فيتنام، والأمراض البدنية والنفسية تفتك بجنودها. أي إن الغارة التي أريد بها استئصال الإسلام والعربية كانت لها نتائج غير التي أريدت، فعلى حين أُخرجت العربية من التعليم، والأعمال، وسوق المال، وأحلت محلها الفرنسية والإنجليزية، دخلت من أبواب أخرى، لم تكن في الحسبان، فغزت عالم التقنية والاتصال، ودخلت كل بيت، وغدت على كل لسان، وهذه آية أخرى على أن مزيتها مزية ذاتية، كما أن مزايا الإسلام مزايا ذاتية.

ومن هذا القبيل ما يذهب إليه بعض الدراسات من أن الإنجليزية المهيمنة الآن ستزول، من حيث هي لغة عالمية، في منتصف القرن الحادي والعشرين، وتتعدد اللغات، وتتصدَّر اللغات ذات القدرة على التنمية المتميزة لكثرة متكلميها، كالعربية، والصينية، والروسية، والإسبانية، والهندية، والأردية[٢]. ويتوقع غرادول أن تحل العربية في المرتبة الثالثة في العالم -بعد الصينية والهندية-، من حيث عدد المتكلمين بها، عام ٢٠٥٠ م[٣]. صحيح أن كثرة المتكلمين وحدها لا تنزل اللغة منزلة، فإن في الهند لغات، يتكلم بها أكثر ممن يتكلمون بالفرنسية في العالم، وهي لغات محلية، لا يعرفها إلا أهلها،

---

(١) السياسة اللغوية، ١٤٣، وانظر: اللغة العربية في المغرب إلى أين؟، والديموقراطية اللغوية المأمولة في المغرب.

(٢) السياسة اللغوية، ٥٧، والهوية ولغة التعليم في البلدان العربية، ٤٨٤.

(٣) اللغة العربية وهوية الأمة.

وليس من المتوقع أن يكون لها مستقبل في الهند، ولا في خارجها، ويتكلم بالإيسلندية ٢٣٠٠٠٠ نسمة[١]، ويتكلم بالبروتونية ثلاثة أضعافهم، ومع ذلك فالإيسلندية لغة متجددة تجددا عظيما، وتعاني البروتونية تدهورا دائما[٢]، غير أن كثرة المتكلمين إذا زيدت إليها أمور أخرى، هيأت اللغة لأن تكون لها مكانة عالمية. وقال فيشمان: لا شيء يحمل على ظن أن الإنجليزية ستكون ألبتة ضرورية للتقنية والتعليم العالي، والتميز الاجتماعي، فكيف إذا كانت منافِساتها الإقليمية تمر بأطوار نمو مفاجئة؟ وقال: إن الديموقراطية والتجارة العالمية والنمو الاقتصادي يمكن أن تزدهر بكل لسان[٣]. وقال غيره: إن سيادة الإنجليزية، وإن كانت سيادة عالمية، يمكن أن يعتريها الوهن والضعف[٤]. وفي تقرير نشره فريق علمي بجامعة لندن -كان فيه سعيد الشربيني (مصري)، وكان مجال بحثه «علم اللغة الكوني»، وهو علم ظهر عام ٢٠٠٣ على يد مجموعة من العلماء الغربيين في جامعة لندن، بقسم «اللغة الأم»، ويهتم بدراسة لغات العالم دراسة مقارنةً، لمعرفة أسباب موتها وحياتها، وقوتها وضعفها- أن أكثر اللغات يشتمل على أسباب فنائه، ما عدا العربية، وأنه في نهاية هذا القرن لن يبقى إلا ثلاث لغات، هي: العربية، والصينية، والإنجليزية، وأن الإنجليزية التي تهيمن الآن على العالم قد دخلت في طور الشيخوخة، غير أن موتها لن يكون كموت معظم اللغات، وإنما ستموت على الألسنة، وتبقى لغةً إلكترونية للعلم، لا يُتكلَّم بها. أما الصينية، فغدت لغة معتلة؛ لِمَا اعتراها من عيوب في الضمائر، وابتعاد عن «فطرية التعبير الزمني»: الماضي، والحاضر، والمستقبل. وهي في هذا كالإنجليزية الآن، فقد أصيبت باعوجاج، حتى صار من غير الخطأ أن يقول الطالب الإنجليزي في الثانوية: أذهب أمس، وذهبتُ غدا. وهذا الاعوجاج مقدمة موت محقق[٥]. وستكون العربية عام ٢٠٥٠ لغة الشباب، والصينية

---

(١) اللغة والاقتصاد، ٧٨.

(٢) السابق، ٧٩.

(٣) انظر: اللغة العربية وأسئلة العصر، ٧٦.

(٤) كلمات العالم، ٤٥.

(٥) دراسة علمية جديدة: العربية تتربع عرش اللغات نهاية القرن الحالي، وأي واقع للعربية بعد دسترة الأمازيغية في المغرب، ٧، واللغة العربية وسؤال الهوية، ١٨.

والإنجليزية لغتي أناس، أكثرهم مسنون، والإسبانية والهندية لغتين لمتوسطي الأعمار[١]. ويدلِّل سعيد الشربيني على خلود العربية بأن بريطانية وأمريكة تدونان الآن معظم البحوث والدراسات والوثائق المهمة، والمعاهدات الدولية بالعربية لتكون متاحة للأجيال القادمة، وأن الكونجرس الأمريكي إنما وافق على كتابة صيغ التحذير على علب النفايات النووية التي تُلْقى في أماكن غير مسكونة في أمريكة، ويُتوقَّع أن تسكن بعد ١٦٦ عاما، لعلمه أنها هي الباقية[٢]. وربما كان هذا من أسباب الحرب عليها، لكنه يدل أيضا على أن الذين يحاربونها موقنون أن سيُغلبون، ولن يَبلغوا منها ما يريدون، وإن كان في وسعهم أن يؤخروا تبوؤها المكانة التي يَنْفِسون عليها؛ إذن لما استعملوها في تخليد ما يريدون تخليده من الوثائق والبحوث.

ويوافق فريقَ سعيد الشربيني في القول بشيخوخة الإنجليزية ما قال هنتنغتون من أن الناطقين بالإنجليزية في تراجع، مردُّه الى تزايد الوعي القومي، ومحاولة وصل ما بين النخب الثقافية التي تعرف الإنجليزية وعامة الشعب التي تجهلها؛ إذ صار دعم اللغة الوطنية جسراً بين الحاكم والمحكوم. وقال إن إحصاء أكثر من ثلاثة عقود (١٩٥٨ - ١٩٩٢) يدلُّ على أن استعمال اللغة في العالم لم يتغير تغيرا كبيرا، وأن استعمال الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية نقَص نقصا بيِّنًا. فقد نقص مستعملو الإنجليزية من ٩ر٨٪ عام ١٩٥٨ إلى ٦ر٧٪ عام ١٩٩٢، ونقَص مستعملو اللغات الغربية الخمس الرئيسة (الإنجليزية، والإسبانية، والفرنسية، والألمانية، والبرتغالية) من ١ر٢٤٪ عام ١٩٥٨ إلى ٨ر٢٠٪ عام ١٩٩٢، وإن استعمال الإنجليزية سيزول بالتدريج، بقدر ما يدب في حضارة الغرب من الضعف، وإذا حلَّت حضارة الصين محل حضارة الغرب، فلسوف تخلي الإنجليزية مكانها للمَنْدرين، لغةَ اتصال عالمية. وخلص إلى أن لغة، لا يعرفها ٩٢٪ من البشر في العالم (يعني الإنجليزية) لا يصح عدُّها لغة العالم[٣]. ويرى بعض خبراء اللغة أن أقلَّ تغيُّر في توازن القوى

---

(١) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ١٧٠ وما بعدها.
(٢) أي واقع للعربية بعد دسترة الأمازيغية في المغرب، ٦ وما بعدها، ودراسة علمية جديدة: العربية تتربع عرش اللغات نهاية القرن الحالي.
(٣) صدام الحضارات، ١٣٣ وما بعدها.

السياسية والاقتصادية والتقنية أو الثقافية قد يغير مكانة اللغات الأخرى، وأن مستقبل الإنجليزية مرتبط بمستقبل أمريكة، فإذا كان ما يزعزع قوتها العسكرية أو الاقتصادية، فلسوف تتأثر الإنجليزية بقدره[1].

وليس ما يُتوقَّع اليوم من خلود العربية بجديد، فقد كتب الروائي الفرنسي، جول فرن قصةً خيالية، بناها على أن سياحا يخترقون طبقاتِ الأرض، حتى يصلوا إلى وسطها أو يدنوا منه، فإذا أرادوا العودةَ إلى ظاهرِها، بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرًا، يدلُّ على ما بلغوا في رحلتهم، فينقشون على الصخرِ كتابة بالعربية. ولَمَّا سُئل: ما الذي جعله يختار العربية، قال: إنها لغةُ المستقبل، ولا شكَّ أن سيموتُ غيرها، وتبقى حية حتى يُرْفَع القرآن[2]. وارتباط العربية بالقرآن من أهم أسباب بقائها، وخروجها من كل ما نُصِب لها من شُرُك، وبُرِم لها من مكايد، كما أنه من أهم أسباب انتشارها في كثير من بقاع الأرض، وما زال من أهم وسائل نشرها؛ إذ من الممكن أن تنتشر حيث يُقرأ القرآن، وهو ما لم يتح للغة من اللغات. وإذا كان المسلمون اليوم من أكثر أهل الملل عددا، فإنهم جميعا مرشحون لأن يتعلموا العربية، ويصطنعوها لغة رسمية، على ما يحول دون ذلك الآن من حوائل، كما كانت تُتَعلَّم وتصطنع لغة رسمية أو شبه رسمية في كثير من الأقطار التي تدين بالإسلام، كالهند، وأفغانستان، وإيران، وبلاد ما وراء النهر، وأوربة الشرقية، وإفريقية، والملايو. وذهب بعض الباحثين إلى أن خمس سكان العالم يريد تعلمها، وممن زاد إقبالهم عليها الأمريكيون، فهم يرغبون في تعلمها، ويمولون البحوث التي تكتب عنها[3]، وإن كان ذلك لأسباب أمنية وسياسية. وبعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حضَّ جورج بوش الأمريكيين على تعلمها هي والفارسية، والهندية، والصينية، بمبادرة سميت «مبادرة لغة الأمن القومي»، زاد على أثرها دارسوها في أمريكية عام ٢٠٠٣ بنسبة ١٢٦٪، فبلغوا ٢٣٩٧٤، بعد أن كانوا عام ١٩٩٨، ٥٥٠٥، و١٠٥٨٤ عام ٢٠٠٢، وهم اليوم نحو من ٤٥٠٠٠ دارس. وفي خمس من جامعات كورية

(١) ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.
(٢) القياس في اللغة العربية، ١٢.
(٣) حوار اللغة، ٩٠.

(هانكوك، وميونغ جي، وبوسان للدراسات الأجنبية، وجوسون، وهانكوك للدراسات الأجنبية) أقسام للغة العربية، يعطي بعضها الماجستير والدكتوراه في العربية وآدابها، وقسم لدراسات الشرق الأوسط بجامعة دانكوك. وأدخلتها جامعات كورية في برامجها الثقافية، وجعلتها تخصصاً ثانياً، يدرسه الطلاب مع تخصصهم الأول، ويبلغ الذين يختارونها تخصصا ثانيا ٣٠٪ من الطلاب، ويتميز فيها كثير منهم، ويعملون بها بعد تخرجهم، ويحبونها حبا شديدا، ويصيرون أصدقاء للعرب يدافعون عنهم. وتُدرَّس هي ودراسات الشرق الأوسط مادة اختيارية في عشرات من الجامعات الكورية. ويدرِّسها الطلابَ والموظفين معهدان خاصان في حيَّي كانغنام، وجونغ رو. وجعلتها وزارة التربية والتعليم لغة من اللغات الأجنبية الثانية في المدارس الثانوية منذ عام ٢٠٠٢ م. واختارتها الحكومة لغة من ثماني لغات أجنبية، في امتحان القبول بالجامعات الكورية، وهي تحلُّ في المركز الأول من حيث عدد الطلاب الذين يُمتحنون بها، ويبلغون ٥ , ٧٣٪ أي أكثر من ٥١ ألف طالب، وبلغوا عام ٢٠١٣ ٤٠٪ من الطلاب المتقدمين للامتحان. وافتتح أول قسم للعربية في مدرسة وول سان الثانوية لتعليم اللغات الأجنبية عام ٢٠١١ م، ويلتحق به كل عام ٢٥ طالباً، وخرَّج إلى الآن ١٢٥ طالباً. وأدخلتها الحكومة الكورية في المناهج الدراسية في مدرسة أوم سا الإعدادية بمدينة كونغ جو، وسط البلاد منذ عام ٢٠٠٠ م، ثم تزايدت المدارس الثانوية التي تدرِّسها منذ ذلك الحين، ويدرِّسها الآن نحو عشر مدارس ثانوية مادة رسمية، أو في برنامج للتدريس الخاص بعد الدراسة[1]. ويتحمس لتدريسها ونشرها ونشر الثقافة العربية وترجمة آدابها والدفاع عنها الأساتيذ الجامعيون الكوريون المتخصصون فيها، ويبدون الحرص على إقامة علاقات دائمة ومتميزة بين كورية والوطن العربي[2]. ولا يخفى أن الإقبال على تعلمها في بعض دول العالم يقابله ما قد رأينا من صدود العرب عنها، كما قال وزير الدولة البريطاني، كريس براينت: إن العربية الآن

---

(١) اللغة العربية في كوريا، ٩ - ١٣ و٢٠ وما بعدها.
(٢) السابق، ١٤.

أهم من الفرنسية، واهتمام العالم بها يتزايد، ولكنَّ أهلَها لا يهتمون بها[1]. وهي اليوم لغة أمٌّ لنحو ٤٢٠ مليون نسمة في الوطن العربي وما جاوره من البلدان الإسلامية، ونحوِ ثلاثة ملايين ونصف المليون، يقيمون في أمريكة، وخمسةِ ملايين، يقيمون في أوربة. والذين يفهمونها أو يقرؤونها أو يتكلمون بها من غير العرب أكثر من ٥٠٠ مليون. وهذا من أسباب حرب أمريكة عليها وعلى مناهج التعليم الإسلامية، التي تسميها «الحرب على الإرهاب وتجفيف منابع التطرّف»[2]. وستكون الشابكة والقنوات الفضائية أهم وسيلتين لنشرها فضلا عن المؤسسات التعليمية، التي تعلِّمها عن بُعْد. وتبلغ القنوات الفضائية الناطقة بالعربية الآن مائتي قناة، فهي تلي القنوات الناطقة بالإنجليزية[3]. وتنتشر في أقاليم جغرافية متصلة، تتكون من عدة دول، هي فيها الرمز الأعلى للتراث الموحد، والهوية الجامعة، والمصير المشترك[4]. أما سبب ما أشيع في الأعوام الأخيرة من قرب موتها، فخوفٌ يعتري من يعادونها، ودعاوٍ، ما نرى أن شيئاً منها سيكون، لأسباب كثيرة، دينية، وثقافية، ولغوية[5]. وهي -بعد- جزء من الحرب التي أعلنت عليها أمريكة منذ الحادي عشر من سبتمبر، أرادت لتوقع به اليأس منها في قلوب أهلها، وتنفرهم منها، وتغريهم بالتحول عنها. وما يمكن الجزم به أن مصيرها رهن بمصير أهلها، إن نهضوا نهضت، أو كَبَوْا كبت، وما هي فيه اليوم أثر من آثار حالهم، وحالهم ستحول، لا محالة، طال الزمن أو قصر.

وإذا كانت أسباب عداوة الغربيين للعربية وكيدهم إياها مفهومة، فمما يستعصي على الفهم -في المعتاد من الأحوال- أن يجدوا من يعينهم من العرب على ما يريدون بها، حتى ليغدوا هو سياسة العرب الرسمية. كما يستعصي عليه أن يُجمع الفلاسفة والمفكرون والمثقفون من الشرق والغرب، من كنفوشيوس إلى جاك دريدا، على مكانة اللغة من العقل والهوية، وتَنصَب

---

(١) تعريب العلوم الطبية في الوطن العربي.
(٢) اللغة العربية الأولى عالميا بعد ربع قرن.
(٣) الموضع السابق.
(٤) العربية في الوقت الحاضر، ٢٥٤.
(٥) عالمية اللغة العربية.

دول الشرق والغرب، كبيرها والصغير، غنيها والفقير، في صيانتها، وترقيتها، والدفاع عنها، وتعدّها هويتها، ولحامها، وتعدّ تَرْك الشعوب تجهل لغتها الوطنية خيانةً للوطن، وتعدّ الشعب بغير لغته الأصلية نصف أمة[1]، وحُكْمَ الشعب بغير لغته حكْما أجنبيا[2]، ويَجْمَع الرئيس الأمريكي عام ١٩٥٨ ما يزيد على ستين عالماً من علماء اللغة والفلسفة -لا علماء الفلك والفضاء- فيقول لهم: يجب أن تغيروا المناهج، وتضعوا خطة، تجعل أمريكة تفوق روسية في غزو الفضاء في عشرة أعوام، في الأكثر[3]. أي إنه يجعل اللغة والفكر باب الفوق والتقدم، ولا يكون لها عند ساسة العرب، وكثيرٍ من علمائهم ومفكريهم كبير اعتبار، وأن يَنْظروا إليها كما يَنْظر إليها العامة، ويعدوها ثرثرة، يضاع بها الوقت، وأن يكون في علمائهم مَن يعارض العناية بها، كما يعارض إدخالها في العلم والحياة، ويكيدها، ويُعِين على كيدها، ويرى حصْرها في التخصصات التي يرغب عنها جل الناس، وجَعْلَها لغة كلغة رهبان نصارى الشرق، لا مكان لها في غير الكتب الدينية، ويشبِّهها بعضهم باللاتينية، ويقول إنها صارت غير صالحة إلا للمسجد، والخطب الرنانة الجوفاء[4]. وأعجب من ذلك أن بعض هؤلاء درسوا في الغرب، فرأوا كيف يعظِّم لغاته، وينصب في ترقيتها ونشْرها، ثم يزدرون لغتهم على قدر تعظيم الغربيين لغاتهم، ولا سيما الذين درسوا منهم في فرنسة. وكان أقل ما تقتضيه العدوى النافعة والتأثر المستبصر أن يحملهم ما رأوا من حبِّ الفرنسيين لغتهم، وتيههم بها، ونَصَبهم في صونها وفرْضها على مستعمراتهم، وإنشائهم المنظمات الدولية التي تقوم في نشرها، وإنفاق الأموال الجزيلة على تعليمها ونشرها في العالم، من أجل أن تبقى لغة عالمية، ومخافةَ أن تتراجع أمام الإنجليزية، كان أقل ما يقتضيهم ذلك أن يتأثروا بهم، فيحبوا العربية كما يحب الفرنسيون الفرنسية، ويجهدوا في صونها والتمكين لها ونشرها والاعتزاز بها، كما يفعل الفرنسيون، فذلك هو مقتضى التأثر الذي يَبني ولا يَهدم، ويَجمع ولا يفرِّق، ويُعِزُّ ولا يُذِلُّ، وهو مقتضى الأصالة، والوعي، والعزة، كما قال عبد

---

(١) الازدواجية اللغوية الأمارة، ٢٢٨.

(٢) حزب البعث الفرنسي، ١٤٣.

(٣) اللغة العربية وهوية الأمة.

(٤) إنية وأصالة، ٢١.

العزيز جاويش: «نصح إلي المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد، أن أقتدي بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم، فزادوني تمسكا بديني، رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم، فزادوني حرصا على لغتي، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم، ويحرِّمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم، أو التصرف في أموالهم ورقابهم، فأخذت أحاكيهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه...»[1].

وتنتشر في الغرب في الأعوام الأخيرة حركة تدعو إلى رفع الهيمنة اللغوية، والدفاع عن حق الناس في التكلم باللغة التي يختارون، وإعلان الحرب على الاستعمار اللغوي في الخارج، والتبعية اللغوية في الداخل، والمساندة القوية للحقوق اللغوية من جهة القانون الدولي[2]، وتبيان ما يرتكب الاستعمار من فظائع في حق الشعوب المستضعفة، كقتل لغاتها وإلزامها لغاته، ثم لا يكون لما تدعو إليه كبير تأثير في الوطن العربي إلا فيما يسمى جمعيات الدفاع عن اللغة، وهي جمعيات مستضعفة، ليس بيدها ما تفعل، وتناصر الحكومات التي بيدها الحول والطول الهيمنةَ الاستعماريةَ اللغوية، وترى أن ذلك خير لها، فتهمل العربية، وتتكفل بنشر لغة المستعمر. وكان الوعي بالنفس والهوية يوجبان أن تُلقَى الحرب عليها بما ينبغي أن تُلْقَى به من عزة وإباء، واستمساكٍ بها، وسعيٍ في إنزالها المنزلة التي يخشى عدوها أن تتبوأها، لا أن تُلْفظ، ويُتبدَّل بها، كما أراد، ويُنظرَ إليها بعينه، ويعان على ما يريد بها.

وإذا كان في الشعوب التي ليس لها تاريخ ولا حضارة مَنْ يرضى أن يتخلى عن هويته، ويكون تبعا لغيره؛ لأنه ليس له ماض يستند إليه، ولا أصل يعتز به، فما ينبغي أن يرضى به شعب عريق، كالشعب العربي. وإذا كان بعض الساعين في عزل العربية عن الحياة، وتبغيضها إلى العرب ممن اشتُروا، واستُعملوا في بلوغ هذه الغاية، فما ينبغي أن يرضى من لا يُتَّهمون في دينهم، وأخلاقهم، وأصالتهم، وانتمائهم إلى أمتهم، واعتزازهم بحضارتهم أن يساووهم في العمل،

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ٤٦٧.

(٢) كلمات العالم، ١١٧.

إذ مقتضى اختلاف الفكر أن يختلف العمل، وإلا فليس للاقتناع النظري فضيلة على عدمه. لقد قال فتيجو: على العرب أن يقاوموا الدعاية المؤلمة التي تطالبهم بالتخلي عن شرفهم وعاداتهم، وإبائهم، والاستسلام للمستعمرين، ورؤوس أموال المصارف، وألا يُخْضِعوا طريقتهم في التفكير والعمل لتلك المدنية الزائفة التي لا تؤمن بالله، وتطمح إلى إخضاع العالم لجو من المختارات الأمريكية المكتوبة بلغة إنجليزية سقيمة، وستسقط جميع هذه المصنوعات المقلَّدة الزائفة في وقت قريب. ولْيقاومِ العرب ويثابروا، فالعالم في حاجة إليهم. وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم: تلك الأداة الخالصة من كل شائبة، التي نقلت الإنتاج الفكري العالمي من غير أن تنقصه أو تخفضه[1].

(١) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٧.

المراجع

- الآثار السلبية للتعليم الأجنبي في مصر،
https://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:uxobIt8BXSgJ:https://www.amrallah.com/ar/showthread.php%3Fp%3D7663+&cd=2&hl=ar&ct=clnk&gl=ae.
- آراء الأعضاء، يعقوب صروف، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج ٨، مج ٢، ذو الحجة ١٣٤٠ هـ.
- آراء وأفكار (اللغة العربية والحروف اللاتينية)، عبد القادر حمزة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٨، ج ٩.
- آفاق تاريخية للغة العربية في إندونيسيا، أحمد فؤاد أفندي، اللغة العربية في إندونيسيا، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، ، ١٣٩١ هـ، د. م.
- الأبجدية اللاتينية لكتابة العربية والفارسية، فكري إبراهيم سليم،
www.azhar.edu.eg/DesktopModules/.../DocumentDownload.ashx?portalid=11.
- أبحاث في العربية الفصحى، غانم قدوري الحمد، عمان، دار عمار، ١٤٢٦هـ.
- أبعاد الدعوة إلى ترسيم الدارجة في المغرب: الرهان اللغوي أمام هجوم الفرانكفونيين والفرانكفوليين، مصطفى بن يخلف، الدارجة والسياسية اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢م.
- أبو القاسم بن سديرة: حياته ومؤلفاته، أبو القاسم سعد الله، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ١٠٠ (موقع المكتبة الشاملة).

- اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم، ريما سعد الجرف، موقع ديوان العرب،
https://www.diwanalarab.com/spip.php?article748.
- أثر الاستغراب في التربية والتعليم في المغرب، عبد الله الشارف، تطوان، نادي الكتابة لكلية الآداب، ط٢، ٢٠٠٠م.
- أثر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية في مصر منذ ابتداء النهضة الحديثة حتى قيام الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ م، ليلى سليمان نجار، رسالة الأستاذية بالجامعة الأمريكية ببيروت، عام ١٩٦٥م.
- أثر مجلة شعر اللبنانية في حداثة الكتابة الشعرية، مليكي العيد، رسالة ماجستير بجامعة وهران، ١٤٣٥ - ١٤٣٦ هـ.
- أحاديث مع أحمد علي مهساس، إعداد لمجد ناصر، ولاية المسيلة (الجزائر)، دار الخليل القاسمي، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- إحياء الأصل، نغوغي واثيونغو، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- الإدارة العمومية والرئاسة تخلت عن العربية، جريدة الخبر، ١٧/ ١٠/ ١٩٩٩.
- الأديب العربي في العالم الحديث، يوسف الخال، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١)، منشورات أضواء.
- الازدواجية اللغوية الأمارة، محمود الذوادي، تونس، تبر الزمان، ٢٠١٣ هـ.
- أزمة سياسية في المغرب بسبب القناة التلفزيونية m٢، فوزي منصور، شبكة فوزي منصور الأخبارية،
https://middle east-online.com.
- أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة في المشروع الثقافي المغربي، قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب ندوة لجنة اللغة العربية بأكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس ١٦ - ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.

- أزمة اللغة والترجمة والهوية في عصر الإنترنت والفضائيات والإعلام الموجه، علي محمد الدرويش، ملبورن (أستراليا)، شركة رايتسكوب، ط١، ٢٠٠٥م.
- أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، عبد الكريم غلاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠١١م.
- أزمة النظام التعليمي في المغرب: الأسباب والمعيقات، الحسين رحمون، وجدة (المغرب)، دار الهلال، ط١، ٢٠١٢ م.
- أسئلة الهوية، عبد الوهاب المسيري، موقع الدكتور المسيري
http://www.elmessiri.com/articles_view.php?id=.
- أسباب تدني التحصيل في اللغة العربية: قراءة في الواقع التعليمي العربي، محمد الحناش، موقع العرفان
https://www.al-erfan.com/images/pdf/Dr_El_Hannach.pdf.
- الأستاذ بدرو، بكَ لغة الضاد تفخر، أبو بكر خالد سعد الله، موقع بوابة الشروق،
https://www.echoroukonline.com/ara/articles/544828.html
- أستاذ اللغة والأدب بالمغرب عبد الصمد بلكبير في حوار مع صحيفة عربي ٢١: الاستعمار يستهدف المغرب باستهدافه اللغة العربية، صحيفة عربي ٢١، ٢٩/ ١٢/ ٢٠١٤م.
- الأستاذ ماسنيون عضو مجمع اللغة العربية، عبد العزيز بن عبد الله، مجلة اللسان العربي، ع ٢.
- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٧ هـ.
- إستراتيجيات التخطيط اللغوي والسياسة للغة الإنجليزية، سلطان بن ناصر المجيول، الإستراتيجيات الدولية في خدمة اللغات الوطنية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م.

- الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، عبد المتعال محمد الجبري، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٦ هـ.
- الاستعمار وانتشار الإسلام في السنغال، موقع المكتبة الإسلامية
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=5&ChapterId=5&BookId=212&CatId=201&startno=0.
- أسرار حزب الاستقلال من الاستقلال إلى الاستغلال، جوهر الذهبي، .topic-https: / /www.pubarab.com /t١٨٨٦٢٨
- الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، الشاذلي الفيتوري، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م.
- إشكاليات التعريب في تعليم العلوم الطبية، مروان جبر الوزة وفهد عبد العزيز المهنا، التعريب، ع ٣٤، حزيران ٢٠٠٨م.
- إشكاليات التعليم باللغة الإنجليزية في دول مجلس التعاون: التعليم باللغة الإنجليزية وآثاره التربوية والثقافية: دول مجلس التعاون أنموذجاً، عبدالله جمعة الكبيسي، موقع منتديات شبكة الأسهم القطرية
http://www.qatarshares.com/vb/showthread.php? .
- إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، شمامة خير الدين، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب: المغرب نموذجا، إلياس بلكا ومحمد حراز، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠١٤م.
- إشكالية الهوية والحوار مع الآخر في الفضائيات العربية: دراسة حالة Canal Algérie والجزائرية الثالثة، محمد شطاح،
http://fsssh.univ-skikda.dz/index.php/recherche/58-publications.
- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، المغرب نموذجا، إلياس بلكا ومحمد حراز، أبو ظبي، مركز الإمارات للبحوث والدراسات الإستراتيجية، ط١، ٢٠١٤م.

- إشكالية الهوية ولغات التعليم في المغرب، رشيد السعدي، الدار البيضاء، إفريقية الشرق، ٢٠١٥ م.
- اشهدي يا جزائر، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٢.
- الإصلاحات التعليمية بالمغرب: دراسة على مستوى الوظائف والمكونات ١٩٥٦ - ٢٠٠١ م، محمد غزالي، جامعة الحسن الأول، ٢٠١٤م.
- الإصلاح التربوي المنتظر في تونس: إصلاح في الصميم أم مجرد ترميم؟ بلقاسم حسن، موقع مركز الدراسات السياسية والدبلوماسية،
http://www.csds-center.com.
- إصلاح النظام التربوي (في موريتانية)، موقع حزب الصواب.
- أضواء على سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر: ٢- سياسة تعريب التعليم العام والجامعي في الجزائر (١٩٦٢ - ١٩٨٢)، تركي رابح، المستقبل العربى، مج ٦، ع ٦٠، ١٩٨٤ م.
- أضواء على الأدب العربي المعاصر، أنور الجندي، القاهرة، دار الكاتب، ١٣٨٨ هـ.
- أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط١، ١٩٧٣م.
- الأطروحة الأمازيغية في المغرب بين الكولونيالي والرهان الوطني، إدريس جنداري، موقع حركة الإصلاك والتوحيد.
- اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥م.
- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧١م.
- الإعلام العمومي بالمغرب: العوائق الكبرى للإصلاح، محمد أقديم، شبكة الحوار نت،
http://www.alhiwar.net/PrintNews.php?Tnd=18296.
- أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة: مناهج ترقية اللغة تنظيرا ومصطلحا ومعجما، محمد رشاد الحمزاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م.

- اغتيال اللغة العربية في الجزائر، يحيى أبو زكريا، مجلة البيان، ع ٥٤.
- أفق الحداثة وحداثة النمط: دراسة في حداثة مجلة «شعر» بيئة ومشروعا ونموذجا، سامي مهدي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨م.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم، ابن تيمية، تحقيق أيمن صالح شعبان، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د. ت.
- أقرب الطرق إلى نشر الفصحى، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٣، ج ٨.
- الأكراد واللغة والسياسة: دراسة في البنى اللغوية وسياسات الهوية، عقيل سعيد محفوض، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- التباسات الهوية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من خلال رواية «سأهبك غزالة» لمالك حداد، ربيحة لمودع وخديجة قاسمي، رسالة ماجستير بكلية الآداب واللغات - جامعة منتوري (قسنطينة)، ٢٠١١ م.
- إلجام العوام عن علم الكلام، الإمام الغزالي، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٨ هـ.
- الإمبريالية الجديدة، ديفيد هارفي، ترجمة وليد شحادة، بيروت، شركة الحوار الثقافي، ط١، ٢٠٠٤ م.
- أمريكا والإبادات الثقافية، منير العكش، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م.
- الإنجليزية تهزّ عرش الفرنسية في الجزائر، بوابة إفريقية الأخبارية،
https://www.afrigatenews.net/article.
- انحسار اللغة العربية في كردستان: تكريد الثقافة من ملامح تشكيل الدولة القومية، شيرزاد شيخاني، صحيفة الشرق الأوسط، الأحد ٢٦ رجب ١٤٣٣هـ.
- إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، أحمد درويش، القاهرة، دار نهضة مصر، د. ت.
- انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، علي القاسمي، موقع شبكة فولتير،
http://www.voltairenet.org/article145997.html
- إنية وأصالة، مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ هـ.

- أهمية بيوت الحكمة: مسؤولية حماية التعليم العالي وإعادة بنائه في العالم العربي، سلطان بركات وسانسوم ميلتون، واشنطن والدوحة، معهد بروكنجز، ٢٠١٥م.
- أهمية تدريس العلوم الطبية باللغة العربية، محمود السيد، مجلة التعريب، العدد٥٠، شعبان ١٤٣٧ هـ.
- الأيديولوجية السردية للغة: بعض الملاحظات في سياق الحالة السودانية، أشرف كمال عبد الحي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- إيكس ليبان المؤامرة الكبرى في تاريخ المغرب، منتدى رياضي للعمل النقابي،

http://riadii.yoo7.com/t299-topic#2929.

- إيكس ليبان تعيد نفسها مع مشروع طنجة تيك المغربي الصيني، عبد العزيز الخطابي، العمق المغربي، ٣٠/ ٧/ ٢٠١٨م.
- أي واقع للغة العربية بعد دسترة الأمازيغية في المغرب: دراسة نقدية، بشرى عبد المجيد تاكفراست، موقع اللغة العربية صاحبة الجلالة،

http://www.alarabiahconference.org/modules/conference_seminar/index.php?conference_seminar_id=18.

- بدايات ملتبسة: أزمة الهوية في أقسام اللغة الإنجليزية في الجامعات المصرية، هدى الصدة وهبة شريف، موقع باحثات.
- البرنامج التنفيذي وآليات العمل لقانون اللغة العربية: تجربة وزارة الثقافة الأردنية، غسان إسماعيل عبد الخالق، مجلة فيلادلفيا الثقافية.
- البروفيسور لويس ماسنيون ودوره في إغناء الدراسات العربية والإسلامية، عبد الهادي التازي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ١١٠، مايو ٢٠٠٧م.
- بعد قرار وزارة البريد: هل ستختفي الفرنسية من الوثائق الرسمية الجزائرية؟، عبد القادر بن مسعود، موقع ساسة بوست،

https://www.sasapost.com/the-disappearance-of-the-french-language-in-algeria/.

- بعد مرور خمس سنوات على تأسيس لجنة تمكين اللغة العربية محمود السيد: جهودنا يعتريها فتور الحماس، صحيفة تشرين، ٨/ ٨/ ٢٠١٣ م.
- بقاء الجيش الفرنسي في الجزائر إلى سنة ١٩٧٨، قناة الجزائر،
http://www.algeriachannel.net/.
- بلاغ توضيحي، موقع الهيئة الحقيقة والكرامة،
https://www.facebook.com/IVDTN/posts/2122671271289021.
- بلمختار يرمي بكلام بنكيران في سلة المهملات: فرنسة الرياضيات سارية المفعول والأكاديميات لم تتوصل بأي قرار للتراجع عن ذلك، صحيفة العلم، عزيز اجهيلي، ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٥م.
- بن كيران للعثماني: سقوط حكومتك أحسن لك من عار فرنسة التعليم، موقع الجزيرة نت،
https://www.aljazeera.net/news/politics/20191/4/
- بن يونس يغتال اللغة العربية على الحدود، بلقاسم حوام،
http://www.echoroukonline.com/ara/articles/241491.html?print
- بوتفليقة والمصالحة مع فرنسة، الخبر الأسبوعي، من ٧ - ١٣ جانفي ٢٠٠٢م.
- بورقيبة بلسان بورقيبة: محاضرات بمعهد الصحافة عن تاريخ الحركة الوطنية، الحبيب بورقيبة، تونس، دار آفاق، ط١، ٢٠١٥ م.
- بورقيبة: سيرة شبه محرمة، الصافي سعيد، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٠ م.
- بورقيبة والإسلام: الزعامة والإمامة، لطفي حجي، تونس، دار الجنوب، ط٢، ٢٠١٣م.
- بورقيبة وإشكالية الهوية في تونس، سالم لبيض، مدونة سالم لبيض
http://salemlabiadh.blogspot.com/20092003/04/.html.
- البورقيبية والهوية: صراع مشاريع، الحسين بن عيسى، تونس، مكتبة تونس، ط١، ٢٠١٥م.
- بين «الآداب» و«شعر»: شهادة خالدة سعيد، جهاد فاضل، صحيفة الرياض، الأحد ٢١ صفر ١٤٣٣ هـ.

- بيان إلى الرأي العام الوطني، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب
https://iitilaf.org/.
- بيان من علماء ومثقفي المغرب حول سياسة التعليم والغزو اللغوي الاستعماري للمغرب العربي، جريدة التجديد، ١٤/ ٤/ ١٩٩٩م.
- البيان المطرب لنظام حكومة المغرب: بنية المفهوم القديم للسلطة، محمد عابد الجابري، مجلة مواقف، العدد ٣، ١ مايو ٢٠٠٢م.
- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط٢٤، د. م، د. ت.
- تاريخ الإصلاحات التعليمية بالمغرب منذ ١٩٥٦ إلى اليوم، الحسن اللحية، موقع الإعلام المدرسي والجامعي والمهني،
(http://dalilsud.blogspot.com/20141956/01/.html
- تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧ م.
- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة، ٢٠١١م.
- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، نفوسة زكريا سعد، الإسكندرية، دار نشر الثقافة، ١٣٨٣ هـ.
- تاريخ النظام التربوي: الشعبة العصرية الزيتونية، علي الزيدي، تونس، مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، ١٩٨٦م.
- التازي: عند ما اعتمدنا التعريب في المغرب أعلنت فرنسا سحب أساتذتها العلميين، سليمان الريسوني، المساء، مارس ٣٠، ٢٠١٥ م.
- التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي وعمر فروخ، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٦ م.
- التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي، محمد الأوراغي، صحيفة العلم، السبت ١٤ شعبان ١٤١٩ هـ.
- تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، محمد جابر الأنصاري، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٢م.

- تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية، زهير أحمد السباعي، الدمام، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، ط١، ١٤١٥ هـ.
- تجربة سورية في تعريب التعليم العالي، عبد الله واثق شهيد، موقع جامعة أم القرى.
- التجربة السورية في التعليم باللغة الأم، محمود أحمد السيد، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠٠٨م.
- التجربة السورية في التعليم باللغة الأم، محمود أحمد السيد، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨.
- التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب، صادق الهلالي، مجلة اللسان العربي، ع ٤٣.
- تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم الجامعي: الإنجازات، والصعوبات، والتحديات، همام غصيب، موقع مجمع اللغة العربية الأردني وموقع المعرفة، http://www.marefa.org/sources/index.php.
- التحديات التي تواجه اللغة العربية في أفريقيا: منافسة اللغات الأوربية، محمد عبد الغني سعودي، مجلة الجامعة الإسلامية،ع ٣٦، ٢٠٠٢م.
- التحضير لأول نوفمبر ١٩٥٤، محمد بو ضياف، الجزائر، دار التعمان، ط٢، ٢٠١١م.
- تخطيط السياسة اللغوية في الوطن العربي ومكانة المصطلح الموحد، علي القاسمي، مجلة اللسان العربي، ع ٢٣.
- التخطيط اللغوي في مصر، محمود فهمي حجازي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١/ ١٤٣٧ هـ.
- التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، فؤاد بو علي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٧ هـ.

- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة الطهطاوي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
- التداخلات اللغوية وأثرها في المجال الثقافي العربي، عباس الصوري، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأعداد ٩٦ - ٩٨ (موقع المكتبة الشاملة).
- تداخل اللغات في السودان، الشفيع عمر حسنين، موقع سودانيز أون لاين
http://sudaneseonline.com/board/1/msg/1018740880html.
- تدبير تدريس اللغات: الواقع والمأمول، ميلود أحبادو، المدرسة المغربية ع ٣، مارس ٢٠١١م.
- تدريس اللغات الأجنبية بالمغرب (الفرنسية والإنجليزية)، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم،
http://aslimnet.free.fr/traductions/gharbi/fra5.htm
- تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، مجموعة كتاب، الرياض، مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- تدريس المواد العلمية بالفرنسية يثير جدلا حول الهوية المغربية، موقع العرب،
https://alarab.co.uk/.
- تربويون يرفضون مدارس المتفوقين الأمريكية ويعتبرونها اختراقا للتعليم المصري، والوزارة: لا نشرف على مدارس السفارات وسكوبي لم تخاطبنا، اليوم السابع، ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.
- الترجمة والتعريب مدخلاً لتوطين العلوم في الجامعات العربية والإسلامية، موقع المكتبة الإسلامية،
Khttp://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=5&BookId=2116&CatId=201&startno=0.
- ترسيم اللغة الأمازيغية، عبد الناصر صقر، موقع الوطن الليبية،
http://www.alwatan-libya.com/more-1881322-.
- تصفية استعمار العقل، نغوغي وا ثيونغو، ترجمة سعدي يوسف، دمشق، دار التكوين، ٢٠١١م.

- تطور التعليم في ليبية في العصور الحديثة، رأفت غنيمي الشيخ، دار التنمية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧٢م.
- التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال، أبو القاسم سعد الله، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٣.
- التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، محمد الأوراغي، الرباط، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، ط١، ٢٠٠٢م.
- التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي، رحمة بورقية، المدرسة المغربية، ع ٣، مارس ٢٠١١م.
- التعدد اللغوي في التخطيط التربوي الجزائري: الواقع والآفاق، شلوف حسين، أعمال المنتدي الوطني حول التخطيط اللغوي: ٣ - ٥ ديسمبر ٢٠١٢م.
- التعددية اللغوية في الجزائر: الطلبة الجامعيون أنموذجا: دراسة ميدانية بجامعة سعد دحلب بالبليدة، سحنون شاوش أمينة وبهلول سميرة، مذكرة مقدمة لنيل الليسانس بكلية الآداب بجامعة سعد دحلب بالبليدة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م.
- التعددية اللغوية: قضايا سوسيو - سياسية، عبد الحي المودن، المدرسة المغربية، ع ٣، مارس ٢٠١١م.
- تعديل مناهج التعليم بالجزائر.. إصلاح أم فرْنسة؟، موقع الجزيرة، https://www.aljazeera.net/programs/arab-present-situation/20168/4//.
- التعريب، سلوم أنيس، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٢، ج ٩.
- التعريب بين المبدأ والتطبيق في الجزائر والعالم العربي، أحمد بن نعمان، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م.
- تعريب التعليم الجامعي في الوطن العربي: الأردن نموذجا، سليمان العباس، أعمال المؤتمر الدولي: اللغة العربية والتنمية البشرية: الواقع والرهانات، ٢٠٠٨، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة.
- تعريب التعليم العالي في الوطن العربي: ضرورته ومعوقاته، شروط ومتطلبات نجاحه، أحمد دويدار البسيوني، اللسان العربي، العددان ٥٥ و ٥٦.

- تعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، عبد الكريم بكري، مجلة اللغة العربية الجزائرية، ع ١، ذو الحجة ١٤١٩ هـ.
- تعريب العلوم الطبية في الوطن العربي، موقع إسلام ويب،
http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=159577.
- التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ١٩٩٣م.
- التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، عبد الرحمن بن سلامة بن الدوايمة، الجزائر، مكتبة الشعب، د. ت.
- التعريب في الجزائر: وجها الحصيلة، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/bilan.htm.
- التعريب في المشرق والمغرب العربيين، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع وزارة الثقافة والاتصال،
http://www.minculture.gov.ma/index.php/ .
- التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكفونية، عثمان سعدي، صحيفة الدستور، الجمعة ٢٥ يونيو ٢٠١٠م.
- التعريب للأطفال منذ بداية القرن الماضي حتى الآن، علي القاسمي، ضمن بحوث مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة، ١٧ - ١٩ فبراير ٢٠٠٧م.
- التعريب والتعليم في الجزائر، عبد الرحمن سلامة، مجلة الموقف الأدبي، ع ٧٨، يوليو ١٩٧٨م.
- التعريب وتنسيقه في الوطن العربي، محمد المنجي الصيادي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٠م.
- التعريب والفرنكفونية في العهد البورقيبي، منجي الكعبي، ملتقى ابن منظور: دور التعريب في تطوير اللغة العربية: ترقية العربية في تونس، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

- التعريب والقومية العربية، نازلي معوض أحمد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٦م.
- التعريب واللغات الأم في السياق الوطني بالمغرب العربي، محمد اسليم، موقع محمد اسليم.
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/contexte.htm.
- التعريب ونظرية التخطيط اللغوي، مصطفى عوض بني ذياب، مجلة التعريب، ع ٤٢، حزيران ٢٠١٢م.
- التعريب ونظرية التخطيط اللغوي: دراسة تطبيقية عن تعريب المصطلحات في السعودية، سعد بن هادي القحطاني، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٢ م.
- التعليم الأجنبي البوابة الخلفية لطمس هوية مصر، موقع المصريون،
https://www.masress.com/almesryoon/257019.
- التعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي، مهيمن عبد الجبار، موقع صيد الفوائد
http://www.saaid.net/manahej/24.htm.
- التعليم العالي بالمغرب، محمد منار، موقع جماعة العدل والإحسان،
http://www.aljamaa.net/ar/document/33741.shtml
- التعليم في المغرب العربي: دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٩م.
- تعليم اللغة الأجنبية (اللغة الثانية) اللغة الفرنسية في الجزائر، سوهيلة درويش، أعمال المنتدي الوطني حول التخطيط اللغوي: ٣، ٤، ٥ ديسمبر ٢٠١٢.
- تعليم اللغة العربية في السياسات التعليمية الباكستانية (دراسة تأريخية نقدية)، مقيت جاويد،
http://pu.edu.pk/images/journal/uoc/PDF-FILES/(3)%20Dr.%20Moqeet%20Javed_872012-2-.pdf

- التعليم والتشغيل في زمن العولمة،
http://drgawdat.edutech-portal.net/archives/91.
- التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر: العلوم الاقتصادية نموذجا، مسعودة خلاف، رسالة دكتوراه بجامعة منتوري قسنطينة، ٢٠١٠/ ٢٠١١م.
- تغطية الإسلام: كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.
- التقرير العربي الرابع للتنمية الثقافية، مؤسسة الفكر العربي، ط١، ١٤٣٢ - ١٤٣٣ هـ.
- ثقافتنا في عصر العولمة، أحمد درويش، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١، ٢٠٠٣م.
- ثلاثية لغات الألفية الثالثة في المدرسة المغربية وثلاثية الإنصاف والفعالية والنجاعة، عبد القادر الفاسي الفهري، مجلة عالم التربية، العدد٢٦، ٢٠١٦م.
-ثمانون عاما من الحرب الفرنكفونية ضد الإسلام واللغة العربية، إدريس الكتاني، الرباط، نادي الفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- ثنائية اللغة: عربي جوبا نموذج التمايز والتواصل، حيدر إبراهيم علي، بحوث مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة ١٧-١٩ فبراير ٢٠٠٧م.
- جدل العولمة: نظرية المعرفة وسياستها، نغوغي وا ثيونغو، ترجمة سعد البازعي، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي، امحمد جبرون، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- جذور الفرانكفونية في المغرب: الاستعمار الثقافي، عبد الإله بلقزيز، جريدة المساء، ٤٤/ ١٢/ ٢٠٠٨.
- الجزائر: الأمة والمجتمع، مصطفى الأشرف، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة، ٢٠٠٧م.
- الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣م.

- الجزائر: المفكرة والتاريخية: أبعاد وتأمل، محمد العربي ولد خليفة، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤م.
- الجزائر من أحمد بن بله إلى عبد العزيز بو تفليقة، يحيى أبو زكريا، ٢٠٠٤م، www.nashiri.net.
- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها عادل سليمان جمال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٢٣ هـ.
- جهاد الجزائر: حقائق التاريخ ومغالطات الجغرافية، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤ م.
- الحرب الباردة الثقافية: المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب، أحمد فضل شبلول، موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني، http://www.nashiri.net/j15/critiques-and-reviews/book-reviews/1829--a.html.
- حرب اللغات والسياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة حمزة حسن، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٨م.
- حركة الترجمة في تونس وأبرز مظاهرها في الأدب ١٨٤٠ - ١٩٥٥ م، محمد مواعدة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٦م.
- حركة التعريب في العراق، أحمد مطلوب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٣م.
- الحركة الديغولية في الجزائر ١٩٤٠ - ١٩٤٥ م من الظهور إلى المواجهة مع الحركة الوطنية، لزهر بديده، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، ١٤٣٠-١٤٣١هـ.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، موقع بوابة داماس.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، في التعريب والتغريب، محمود فوزي المناوي، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الحروف اللاتينية لكتابة العربية، عبد العزيز فهمي، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٤م.

- الحروف اللاتينية لكتابة العربية، عبد الوهاب عزام، مجلة الرسالة، ع ٥٨٧.
- حزب البعث الفرنسي، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠٠٠ م.
- حزب العدالة والتنمية المغربي وفرضية التحكم، يحيى اليحياوي، موقع الجزيرة نت،
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/201624/8//.
- الحسن الثاني والمراجعات الدستورية، محمد منار،
http://www.aljamaa.net/ar/document/43469.shtml
- الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م.
- الحكومة تسمح بفتح مدارس تديرها المخابرات الأمريكية تعمل بشكل منفصل ولا تقع تحت طائلة القانون، صحيفة الشعب، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٩.
- حمروش فرمل تعريب الإدارة وخوّف الشاذلي بالألمان، موقع بوابة الشرق،
http://www.echoroukonline.com/ara/articles/229487.html.
- حوار اللغة، عبد القادر الفاسي الفهري، حافيظ الإسماعيلي العلوي، الرباط، منشورات زاوية، ط١، ٢٠٠٧م.
- حوار مع الذات، محمد بلقاسم خمار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.
- حوار مع صديق أمازيغي، عبد السلام ياسين، الدار البيضاء، مطبوعات الأفق، ط١، ١٩٩٧م.
- خبير تربوي: مبادرة المدارس المجانبة الأمريكية هدفها تخريج أجيال فاقدة للهوية، موقع صحيفة الشعب.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧١ هـ.
- خطاب الهوية في النظام التربوي وأثره على الشباب الطالبي في تونس، سالم لبيض، ذاكرة التاريخ،
http://memoryofhistory.blogspot.com/201201//blog-post_1690.html

- خمس عشرة سنة من النضال في خدمة اللغة العربية، الجزائر، الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، ٢٠٠٥م.
- خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية: صراع هويات ينتهي إلى الأمية، طيبي غماري، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد ٧، ديسمبر ٢٠١٢م.
- الدارجة في الإعلام والسينما، مصطفى الطالب، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢م.
- دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، علي الزيدي، صفاقس، منشورات دار الفارابي، ٢٠١٤م.
- دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، دمشق، المكتب الإسلامي ومكتبة الفتح، ط٢، ١٣٨٠ هـ.
- دراسة حول نظم التعليم العام في دول مجلس التعاون الخليجي، محمد يوسف المسيليم، موقع آفاق علمية وتربوية
http://al3loom.com/?p=997.
- دراسة علمية جديدة: العربية تتربع عرش اللغات نهاية القرن الحالي، عبد الرحمن الخالدي، موقع هسبريس،
https://www.hespress.com/writers/.
- دستور تونس الصادر عام ٢٠١٤ م،
https://www.constituteproject.org/constitution/Tunisia_2014.pdf?lang=ar
- الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، سير توماس و. أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
- الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجُذور والامتدادات، الأهدافُ والمُسَوِّغاتُ، عبد العلي الودغيري، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢م.

- الدكتور عبد الرزاق السنهوري، محمد عمارة، مجلة المنهل، ع ٥٦٦، مج ٦١، صفر ١٤٢١ هـ.
- دور اللغة العربية المعاصرة في تشكيل الفكر العربي الحديث، فالح شبيب العجمي، حوار العرب، إبريل ٢٠٠٥م.
- دور اللغة في بناء المجتمع العربي وتطوره، سالم المعوش، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، د. ت.
- دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، الحبيب المخ، دراسات في اللغة والحضارة، ملتقى ١٩٧٤، تونس، ١٩٧٥م.
- دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، عبد القادر سبيل، اللغة العربية في المنظمات الدولية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن في الغرب الإفريقي، عبد العلي الودغيري، موقع مشاهد ٢٤،
https://machahid24.com/etudes/77974.html
- الديمقراطية اللغوية المأمولة في المغرب، عبد القادر الفاسي الفهري، صحيفة الاتحاد الاشتراكي، ٦/٦/ ٢٠١١.
- ذاكرة ملك، إيريك لوران، جدة، الدار السعودية للنشر، ط٢، ١٩٩٣ م.
- راهن اللغة العربية في أوطانها، محيي الدين عميمور، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- الرئيس جاك شيراك يقر بتحسن العلاقات بين البلدين ويوضح: على الجزائريين التخلص من عقدة الثورة، جريدة الفجر، ٣١/ ٤/ ٢٠٠١.
- رحلة الحرف العربي بين لغات الشعوب الإسلامية، يوسف الخليفة أبو بكر، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- رسالة ابن فضلان، أحمد بن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧٩ هـ.

- رشيد بن المختار: الوزير الهارب بعورة من خمسة نجوم، لحسن كيري، موقع العمق المغربي، وموقع أبناء أيير الجميلة،
http://les-ayiriens.over-blog.com/2015564/11/f7e2f-30de.html
- رِفْقاً باللغة العربية أيها التعريبيون، محمد بودهان، هسبريس،
https://www.hespress.com/writers/.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.
- الريسوني: يجب إقالة الوزير بلمختار والنخب المفرنسة هي من هاجمت الوزير الخلفي، موقع الجريدة.
- سؤال الهوية الكردية، عبد الكريم يحيى الزيباري، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٢م.
- السجال اللغوي وتطور التعريب في الجزائر بعد الاستقلال، سفيان لوصيف،
http://www.almaktabah.net/vb/showthread.php?t=10028.
- السجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغرب، مصطفى الغربي، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم.
http://aslimnet.free.fr/traductions/gharbi/fra3.htm.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ.
- السقوط الكبير، محمد لعقاب، الشروق اليومي، ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٢م.
- سكوبي: إقامة مدارس أمريكية نموذجية في القاهرة والإسكندرية، روز اليوسف اليومية.
- السلطة والسياسة والثقافة: حوارات مع إدوارد سعيد، إعداد غاوري فسوانانثان، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، دار الآداب، ط١، ٢٠٠٨م.
- السنوسية دين ودولة، محمود فؤاد شكري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٨م.
- السياسات الثقافية في الصومال الكبير (قرن إفريقيا) ١٨٨٧ - ١٩٨٦ ، حسن مكي محمد أحمد، الخرطوم، المركز الإسلامي الإفريقي، ط١، ١٤١٠ هـ.

- السياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، منشورات الاختلاف، وبيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٠هـ.
- السياسات اللغوية: مسارات ومفاهيم، محمد خطابي، الرياض، مركز عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٤٠ هـ.
- السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها ١٨٧١ - ١٩١٤ م، سعيدي مزيان، الجزائر، دار سنجاق الدين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١ هـ.
-السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠ - ١٩٦٩)، محمد الراضي بن صدفن، نواكشوط، المكتبة الوطنية. د. ت.
- السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (١٨٣٠ - ١٩٥٤)، يحيى بو عزيز، الجزائر، دار البصائر، ٢٠٠٩م.
- سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ - ١٩٥٤ م، يحيى بو عزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧م.
- سياسة التعريب والفرنكفونية: تعارضات وجدانية، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم،
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/ambivalence.htm.
- سياسة فرنسة التعليمية في الجزائر: دراسة تحليلية نقدية للنظام التربوي في الجزائر، هنية حسني، رسالة دكتوره بجامعة محمد خيضر ببسكرة بالجزائر، ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.
- السياسة اللغوية: التخطيط تحت ضغط السلاح، الصادق محمد آدم، موقع سودانيل وموقع سودارس،
https://www.sudaress.com/sudanile/43751.
- السياسة اللغوية في المجتمع الجزائري: دراسة تحليلية نقدية للنظام التربوي الجزائري، حسني هنية، رسالة دكتوراه بجامعة محمد خيضر ببسكرة (الجزائر)، ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.

- السياسة اللغوية في يوم دراسي بجامعة القنيطرة إسماعيل حمود، التجديد، ١٤/ ٥/ ٢٠٠٩م.
- السياسة اللغوية لدى الأمم الحية، ولي الله كندو، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، ع ١، س ١، ١٤٣٧ هـ.
- السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي من عصر القومية إلى عصر العولمة، سو رايت، ترجمة أحمد عبد الله البنيان، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٩ هـ.
- السياسة اللغوية والتخطيط: مسار ونماذج، عبد القادر الفاسي الفهري، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٥ هـ.
- السياسة اللغوية وعلاقتها بالتخطيط التربوي والتنمية البشرية، علي القاسمي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- شارلي إيبدو في فكر ميشال أونفري، عبد السلام اليمني، صحيفة الحياة، ١٧ نوفمبر ٢٠١٥ م.
- شاهد على اغتيال الثورة، لخضر بورقعة، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤م.
- الشذرات: مقالات ومحاضرات في الأدب والعلم والفلسفة، مصطفى الشهابي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٨٥ هـ.
- الشرق الأوسط الكبير بين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية، غازي حسين، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥م.
- الشعب يريد إسقاط بن غبريط، موقع ساسة بوست،
https://www.sasapost.com/nourieh-ben-ghabrit/.
- الشعر العربي ومشكلة التجديد، أدونيس (علي أحمد سعيد)، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.

- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، علق عليه أحمد حسن بسج، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧ هـ.
- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، صموئيل هنتنغتون، تعريب مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، ليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- صديقنا بن علي، نيكولا بو وجان بيار تيكوا، ترجمة علي العيداني وآخرين، صفاقس، دار محمد علي للنشر، ط١، ٢٠١١م.
- صديقنا الملك، جيل بيرو، ترجمة ميشيل خوري، دمشق، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢م.
- الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، محمد الكتاني، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط١، ١٤٠٢ هـ.
- الصراع على الهوية الدينية في تونس والمغرب العربي، بقلم حايم ملكا، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، برنامج الشرق الأوسط، أيار ٢٠١٤م.
- صفحات من تاريخ الحركة القومية العربية في تونس، الحركة اليوسفية، توفيق المديني، موقع الفكر العربي،
https://harakawahida.wordpress.com/.
- ضباط فرنسة في المغرب العربي، عبد العالي رزاقي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣م.
- ضعف التعريب النفسي في المجتمع التونسي وغيره من المجتمعات المغاربية، محمود الذوادي، مجلة المستقبل العربي،
http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal_429_mahmoud_alzawadi.pdf.
- طرائف الذكريات عن كبار الشخصيات، علي القاسمي، الرياض، دار الثلوثية، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- طروحات حول الثقافة واللغة والتعليم، محمد جسوس، المغرب، الأحداث المغربية، ٢٠٠٤م.

- طوارئ لضخ أجور ١٥ مليون جزائري وبن حمادي يشكل خلية أزمة، إيمان كيموش، موقع جزايرس
https://www.djazairess.com/alfadjr/233548.
- عاجل: هيئة الحقيقة والكرامة تنشر وثائق خطيرة، موقع مساكن ستي،
http://www.msaken-city.com/201815/03//.
- عالمية اللغة العربية، محمد مصطفى بن الحاج، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٩٩٩٠م.
- عبد الحميد الإبراهيمي: لجأت إلى لندن لأن حزب فرنسا حاول تصفيتي، صحيفة الشروق اليومي الجزائرية، ٩ جمادى الآخرة ١٤٢٦ هـ.
- عبد القادر أكجيل، الكاتب العام لنقابة مفتشي التعليم: التخبط في تطبيق مبدأ التعريب ساهم في تعميق الازدواجية والإحساس بالدونية، التجديد، ٢٩/ ١١/ ٢٠١٣م.
- عبقرية اللغة العربية الفصحى وكمالها، عبد الله آيت الأعشير، مجلة الوعي الإسلامي، ع ٥٦٤، يونيو ٢٠١٢م.
- عثمان سعدي: بن عميروش حاول طردي من تيزي وزو وسعيد سعدي لم يخدم الأمازيغية، موقع باب الواب الواب،
http://www.babalweb.net/ar/info/16674.
- عثمان سعدي: اللوبي الفرنكفوني العميل يعيق استعادة الجزائر سيادتها اللغوية، صحيفة الاتحاد، الأحد ١٥ يناير ٢٠٠٦م.
.http://www.alittihad.ae/details.php?id=45470&y=2006
- العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي، أحمد عزوز وأحمد خاين، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٤م.
- العدوان على العربية عدوان على الإسلام، عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي، ط١، ١٤١٧ هـ.
- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠١١ م.

٦٦٨٣٩.
- العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب، جاروسلاف ستتكيفتش، ترجمة محمد حسن عبد العزيز وتعليقه، القاهرة، دار النمر للطباعة، ١٩٨٥.
- العربية في شرق إفريقيا: مقدمة في التهجين اللغوي، محمد الشرقاوي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧م.
- العربية في الوقت الحاضر: الحصيلة والآفاق، عقيل بن حامد الزماي الشمري، انقراض اللغات وازدهارها: محاولة للفهم، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- العربية والأمازيغية: بديهيات لا بد منها، محمد شحلان، مجلة الفرقان، ع ٧٣، عام ١٤٣٥ هـ.
- العربية ورهانها العولمي لسانيا، عبد الجليل مرتاض، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- العربية ولغة التدريس وإصلاح التعليم، عبد العلي الودغيري، مجلة عالم التربية، ع ٢٦، ٢٠١٦م.
- عروبة اللغة الأمازيغية وإيديولوجية النزعة البربرية الاستعمارية، موقع الفينيق،
https://www.fonxe.net/vb/showthread.php?t=.
- عز الدين العراقي في ذمة الله، موقع هسبريس،
http://www.hespress.com/politique/18393.html
- عشرات المؤتمرات وآلاف العلماء والمتخصصين يؤكدون أنه طريق النهضة: تدريس الطب باللغة العربية، محمد هلال، موقع اللغة العربية صاحبة الجلالة،
http://www.arabiclanguagcic.org/view_page.php?id=296.
- العفن (مذكرات مالك بن نبي)، ترجمة نور الدين خندود، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٧م.
- العلاقة بين الكاتب ومصادر التمويل، موقع دفاتر أمير،
http://dafatiramir.blogspot.com/.

- علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي: دراسة حالات من الوطن العربي، هدى الصيفي، رسالة ماجستير في كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر، عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦ هـ.
- علاقة الهوية باللغة بين التنظير والواقع: المجتمع التونسي نموذجا، محمود الذوادي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، ع ٣٤، الرسالة ٣٩٤، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣م.
- العلم واللغة: متى يتكلم العلم العربية؟، محمود توفيق المناوي، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ٢٠١١ م.
- عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، منى علام، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، ١٤٢٦ - ١٤٢٧ هـ.
- عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، محمد توفيق الرخاوي، مجلة اللسان العربي، ع ٥٢.
- عند ما تموت اللغات: انقراض لغات العالم وتآكل المعرفة الإنسانية، ك. ديفيد هريسون، ترجمة محمد مازن جلال، الرياض، جامعة الملك سعود. ١٤٣٢ هـأ.
- عن سياسات تعريب ما بعد الاستقلال، ثريا الخربوش، موقع أنفاس http://www.anfasse.org/.
- عن مجلة شعر وقبائلها، رياض الريس، صحيفة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٩م.
- عهدي (مذكرات عباس حلمي الثاني خديو مصر الأخير)، القاهرة، مكتبة الشروق، ط١، ١٤١٣ هـ.
- العولمة وأزمة الوعي اللغوي، أحمد عفيفي، كتاب المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدبي من ١٧-٢١/ ٧/ ١٤٣٦ هـ.
- الغارة على العالم الإسلامي، أ.ل. شاتليه، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، جدة، الدار السعودية، ط٤، ١٤٠٥ هـ.
- غرائب الغرب، محمد كرد علي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٣٣هـ.
- الغربال، ميخائيل نعيمة، بيروت، نوفل، ط١٥، ١٩٩١م.

- غوص في أعماق الصحفي والكاتب المبدع يحيى أبو زكريا، مركز يحيى أبو زكريا للتدريب الإعلامي، د. ت.
- فاروق جويدة: ماذا بعد طوفان المدارس الأجنبية في مصر، موقع الشروق الجديد
http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?id=279810.
- فرنسا والأطروحة البربرية، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١١م.
- فرنسا والتاريخ المستعاد، فؤاد بو علي، موقع هسبريس،
https://www.hespress.com/writers/.
- فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى، إبراهيم بيدون، موقع هسبريس،
https://www.hespress.com/opinions/.
- فرْنَسَة تدريس الرياضيات والفيزياء تثير سخط ناشطين مغاربة، طارق بنهدا، موقع هسبريس،
https://www.hespress.com/societe/284102.html
- فرنسة المواد العلمية، موقع جديد برس.
- الفرانكفونية أو الاستعمار الجديد، المهدي المنجرة، مجلة الفرقان المغربية، ع ٢٠، س ٦.
- فرانكفوية بورقيبة هل بنت تونس أم دمرتها؟، نزار بو لحية، القدس العربي، ٧ ديسمبر ٢٠١٦م.
- الفرانكفونية في المشهد الإعلامي المغربي، عبد الله خلافة، موقع العرب نيوز،
http://www.alarabnews.com/alshaab/gif/.
- الفرانكفونية والعلاقات الدولية، خالد رستم، مجلة الدبلوماسية الدولية، العدد ١٩، ١٤٢٥ هـ.
- الفرانكوفونية واللغة العربية، شاكر نوري،
https://www.albayan.ae/paths/art/ .
- الفرنكفونية: إيديولوجيا، سياسات، وتحد ثقافي - لغوي، تحرير عبد الإله بلقزيز، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١١ هـ.

- الفرنكفونية إيديولوجية اليمين المتطرف فيما وراء البحار، إدريس جنداري، موقع هسبريس،
http://www.hespress.com/opinions/287402html.
- الفرنكفونية في لبنان والعالم العربي: مشروع حوار بين الثقافات، زهيدة درويش جبور، الدفاع الوطن اللبناني (مجلة الجيش اللبناني)، ع ٣٨ تشرين الأول ٢٠٠١م.
- الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ترجمة وتقديم وتعليق عبد العلي الودغيري، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، ١٩٩٣م.
- الفرنكفونية ومحنة اللغة العربية بالمغرب، عبد الناصر المقري، مجلة البيان، (عن موقع بلا فرنسية http://www.blafrancia.com/node/171).
- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، بيروت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٤٠٢ هـ.
- فطرة الدفاع عن اللغة الأم بين التفعيل والتعطيل: وقائع ونماذج، رشيد أحمد بلحبيب، ضمن بحوث مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، بالجامعة الإسلامية عام ١٤٣٣ هـ.
- فقه الفلسفة، طه عبد الرحمن، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٨م.
- فلسفة اللغة، سليفان أورو وجاك ديشان وجمال كولوغلي، ترجمة بسام بركة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١٢ م.
- فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٦م.
- فلسفة اللغة العربية، عثمان أمين، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٥م.
- الفلسفة وقضايا الحياة، برتراند رسل، ترجمة علي مصباح، تونس، دار المعرفة، د. ت.
- في الإصلاح التربوي لسنة ١٩٩١ : بين النص الرسمي والنص الغائب، الحبيب عياد، في نقد المدرسة التونسية، تونس، مجمع الأطرش، ٢٠١٦م.

- في أصل الأزمة الجزائرية ١٩٥٨ - ١٩٩٩ م، عبد الحميد براهيمي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠١م.
- في التعريب، إدريس بن الحسن العلمي، جمع وتقديم أمل العلمي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، ٢٠٠١م.
- فيض الخاطر، أحمد أمين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦ م.
- في غمار السياسية فكرا وممارسة، محمد عابد الجابري، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث، ط١، ٢٠٠٩ م.
- في الميزان الجديد، محمد مندور، تونس: مؤسسات ع. بن عبد الله، ط٢؛ ١٩٩٣م.
- في ندوة للمركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة حول الدارجة والسياسة اللغوية بالمغرب، إسماعيل حمودي، صحيفة التجديد، ١٧/ ٥/ ٢٠١٠م.
- قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم وعبد الودود يوسف الدمشقي، د. ت، ١٣٩٥ هـ.
- قراءة في مقالات حول اتفاقية إيكس ليبان، محمد محمد المحب،
http://www.alrafi3.com/forum/showthread.php/21535.
- قرارات قمة دمشق العربية ٢٠٠٨ م، موقع الجزيرة نت،
http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/.
- القصة الكاملة لتجميد قانون تعميم اللغة العربية، بوابة الشرق، ٢٩ ربيع الأول ١٤٣٧ هـ.
١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ).
- قصة المواجهة بين المغرب والغرب، عبد الكريم غلاب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
- قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس١٦ -١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٨٣م.

- القضية الأمازيغية في الجزائر: الخلفية التاريخية والتطور السياسي، سؤدد كاظم مهدي
مجلة العرب والمستقبل، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي، الجامعة المستنصرية س٣، ع ١١، ٢٠٠٥ م،
- قضية التعريب في الجزائر، عثمان سعدي، وزراة الثقافة والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ودار الكتاب العربي للطباعة والنشر، د. ت.
- قضية التعريب في الجزائر منذ الاستقلال إلى عهد بو تفليقة، رياض الصيداوي، صحيفة الحياة، ع ١٣٣١١، ٧/ ١٤٢٠ هـ.
- قولوا للشعب الحقيقة، الشروق العربي، ١٥/ ٧/ ٢٠٠٢.
- القياس في اللغة العربية، محمد الخضر حسين، مصر، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٥٣ هـ.
- كتاب التاريخ المدرسي وتسييس الهوية في تونس المعاصرة (١٩٥٨ - ٢٠٠٨)، فتحي الطاهري، تونس، دار آفاق، ط١، ٢٠١٥م.
- كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة عبد القادر الجزائري، علي محمد الصلابي، القاهرة، الصحوة، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- كلمات العالم: منظومة اللغات الكونية، أبرام دوسوان، ترجمة صديق محمد جوهر، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٢ هـ.
- لا بد من تكامل العولمة والهوية ليكون العالم واحدا ومتعددا، عبد الهادي بوطالب، بحوث ندوة العولمة ولهوية، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧.
- لافتات الشارع التجاري في المشرق العربي بين العربية والتغريب، وفاء كامل فايد،
http://www.hamassa.com/.
- الله أو الدمار، سعد جمعة، القاهرة، المختار الإسلامي، ط٣، ١٣٩٦ هـ.
- اللغات تدريسا وتعلما وبحثا في المنظومات التربوية المعاصرة: تحليل مقارن، عبد الجليل العكاري، تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين: مقاربات شخصية واستشرافية، ٢٠ إلى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م.

- اللغـات المغاربيـة فـي مواجهة التفـوق الثقافي الأورومتوسـطي، أحمد معتصم، مجلة المدرسـة المغربية العدد ٣، ٢٠١١م.
- لغتنـا الجميلـة احتفـاء أممـي وغربـة فـي عقـر الـدار، عبـد اللـه باليـزي، موقـع تينجـداد أنفـو
http://www.tinejdad.info/opinion/.
- لغتنـا العربيـة جزء مـن هويتنـا، عمـار بوحـوش، اللغـة العربيـة وأسـئلة التطـور الذاتـي والمسـتقبل، بيـروت، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- لغتنا العربية والسياسة، عبد الحي عبد الحق، د. ت.
- لغتنـا العربيـة: الوظيفـة والأداء على ضـوء صـراع النخـب حول مطلـب الحداثة ورفـض التغريـب، محمـد العربـي ولـد خليفـة، مجلـة اللغـة العربيـة، الجزائـر، المجلـس الأعلـى للغـة العربيـة، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- لغتنا والحياة، عائشة عبد الرحمن، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩١م.
- اللغة الباسلة، فتحي جمعة، دار النصر، ط٥، ٢٠٠٠م.
- اللغة بين القومية والعالمية، إبراهيم أنيس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م.
- لغـة التدريـس فـي قسـم اللغـة العربيـة قسـم الثانيـة بكالوريـا بالمغـرب نموذجـا، عـادل ضبـاغ،
https://www.univ-chlef.dz/djossour/wp-content/uploads/201606//v2016_01_03.pdf
- لغة التنمية والتعليم في الجزائر، محمد بوقشور ومخنفر حفيظة،
https://www.univ-chlef.dz/eds/wp-content/uploads/201606//article-11-N3.pdf
- اللغـة العبريـة فـي الكيـان الصهيونـي: البدايـات والواقـع والتحديـات، محمـد أحمـد صالـح حسـين، الإسـتراتيجيات الدوليـة فـي خدمـة اللغـات الوطنيـة، الريـاض، مركـز الملـك عبـد اللـه بـن عبـد العزيز الدولـي لخدمـة اللغـة العربيـة، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- لغـة العـرب وكيـف ننهض بهـا، محمد عطيـة الأبراشـي، القاهـرة، مكتبـة النهضـة المصريـة، ط١، ١٣٦٦ هـ.

- اللغة العربية الأولى عالميا بعد ربع قرن، موقع ميدل إيست أونلاين، https://middle-east-online.com.
- اللغة العربية أين هي في الخارطة اللغوية في جنوب السودان، موقع باشودو .https://pachodo.org/latest-news-articles/pachodo-arabic.
- اللغة العربية بين حماتها وخصومها، أنور الجندي، القاهرة، مطبعة الرسالة، د. ت.
- اللغة العربية بين العولمة والأصالة: تجليات العولمة في اللغة العربية، عمر عبد الهادي عتيق، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع ٢٢، شباط ٢٠١١م.
- اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء والجدل حول واقعها المعاصر، رشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨م.
- اللغة العربية تعرف أعلى نسبة نمو على الإطلاق في الإنترنت، موقع مغرس، .https://www.maghress.com/akhbar/.
- اللغة العربية الحديثة، فانان موتي، مجلة اللسان العربي، ع ١.
- اللغة العربية: الصراعات المتداخلة: محمد أديب السلاوي، الرباط، مطابع الرباط نت، ط١، ٢٠١٥م.
-اللغة العربية في إسرائيل: سياقات وتحديات، محمد أمارة، الناصرة، المركز العربي للحقوق والسياسات، ط١، ٢٠١٠ م.
- اللغة العربية في إفريقيا، الخليل النحوي، مجلة اللسان العربي، ع ٣٦.
- اللغة العربية في تونس، محمد سعيد احجيوج، موقع بلا فرنسية، .http://blafrancia.com/taxonomy/term/.
- اللغة العربية في عصر العولمة، أحمد بن محمد الضبيب، الرياض، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤٢٧ هـ.
- اللغة العربية في الفكر العربي من عصر النهضة إلى عصر العولمة، خالد محمد حسين اليوبي، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، ١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ.

- اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل، مرزوق بن صنيتان بن تنباك، موقع مجمع اللغة العربية الأردني،
http://www.majma.org.jo/index.php/ ..
- اللغة العربية في كوريا، يون أون كيونغ وآخران، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٤٠ هـ.
- اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، عبد العلي الودغيري، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- اللغة العربية في المغرب إلى أين؟ عبد القادر الفاسي الفهري، موقع العربية نت ،
http://www.alarabiya.net/views/2010114016/16/07/.html
- اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية، أنور الجندي، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٨م.
- اللغة العربية القرآنية ودورها في صد عدوان العلمانية، ذو الفقار بلعويدي، موقع هبة بريس،
https://www.hibapress.com/details-.
- اللغة العربية كلغة رسمية قومية في باكستان، مظهر معين، اللغة العربية في باكستان، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- اللغة العربية مهددة بالانهيار، سيد مصطفى عبد الله الصبيحي، موقع الأهرام المسائي،
http://massai.ahram.org.eg/Archive/Inner.aspx?ContentID=9947.
- اللغة العربية: نزعة التعدد اللغوي والثقافي في الميثاق، عباس الصوري، قضايا استعمال اللغة، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس١٦ -١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.
- اللغة العربية هويتنا القومية، صالح الخرفي، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠م.

- اللغة العربية: واقع وآفاق، محمد خرماش، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- اللغة العربية وتحديات العصر، عبد العزيز بن عبد الله، مجلة اللسان العربي، مج ١٣، ج ١.
- اللغة العربية وتحديات العصر الحديث، بسام بركة، حوار العرب، إبريل ٢٠٠٥م.
- اللغة العربية والتعريب العلمي في تونس في الحاضر ونظرة إلى المستقبل: قضايا وحلول، أنور الجراية، الموسم الثقافي الخامس عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٧م.
- اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، عبد الكريم خليفة، دار الفرقان، ط٥، ١٤١٨ هـ.
- اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨م.
- اللغة العربية وخطر ضياع الهوية، محمد الياهلي، موقع العربية نت
http://www.albayan.ae/opinions/.
- اللغة العربية وسؤال الهوية، مصطفى شميعة وموسى الشامي، فاس، مطبعة آنفو برانت، ٢٠١٣م.
- اللغة العربية والعولمة، حسين الراضي، بحوث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية.
- اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن (ندوة)، موقع مجمع اللغة العربية الأردني
http://www.majma.org.jo/index.php/.
- اللغة الفرنسية استخراب للعقل بعد الوطن، منتديات دفاتر التربوية،
http://www.dafatiri.com/vb/showthread.php?.
- اللغة في المجتمع، م. م. لويس، ترجمة تمام حسان وإبراهيم أنيس، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م.

- لغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد: نموذج تماسكي تنوعي تعددي، عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ م.
- اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة أحمد عوض، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠٠٠م.
- اللغة وأنظمة الحكم في المغرب العربي، محمد اسليم، موقع محمد اسليم، http://www.aslim.ma/site/news.php?action=view&id=.
- اللغة والبيئة، عبد القادر الفاسي الفهري، الرباط، جريدة الزمن، ٢٠٠٣م.
- اللغة وتمثيل الهوية: تحليل مفهومي، محمد أمين، أشغال الندوة الوطنية: مفاهيم في اللغة والأدب - مقاربات للنشر والصناعات الثقافية - المغرب، ٢٠١٥م.
- اللغة وخطاب السلطة ٢، فؤاد بو علي، موقع مغرس، .https://www.maghress.com/attajdid/65424.
- اللغة والدين والهوية، عبد العلي الودغيري، ط١، ١٤٢٠ هـ.
- اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠١١ م.
- اللغة والهوية، محمد نافع العشيري، الشارقة، دار الثقافة، ط١، ٢٠١٧م.
- اللغة والهوية، محمود السيد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٨٥ ج ٣.
- اللغة والهوية بين الثورة الجزائرية والثورة الفيتنامية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤م.
- اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- اللغة والهوية: قومية إثنية دينية، جون جوزيف، ترجمة عبد النور خراقي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (عالم المعرفة)، ١٤٢٨هـ.

- اللغة الوطنية والسياسات اللغوية: حالة المغرب وتجارب دولية، عز الدين البوشيخي، قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس ١٦ -١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.
- لقاء مع وزير التربية الجزائري الأسبق علي بن محمد، برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة.
- لكونوميست تتهم اللغة العربية بالانغلاق، التجديد، ١١/ ٩/ ٢٠٠٨م.
- لماذا تستمر بن غبريط وزيرة للتربية في الجزائر، إبراهيم الهواري، موقع ساسة بوست،
https://www.sasapost.com/nouria_government_minister/.
- لننهض بلغتنا: مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية، ياسر المحتوم، موقع مركز نماء للبحوث والدراسات
http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=190.
- لوبي فرنكفوني وراء تجميد قانون استعمال اللغة العربية في الجزائر، صحيفة الشرق الأوسط، ٣٠ يناير ٢٠٠٩م.
- ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية من دون غيرها من اللغات؟، موقع جامعة أم القرى
http://uqu.edu.sa/page/ar/.
- ماذا دسترنا لغويا؟، موسى الشامي، مجلة عالم التربية، ع ٢٦، ٢٠١٦م.
- ماذا وراء مفاجأة إدراج تعليم اللغة الفرنسية في السنة الثانية من التعليم الاساسي؟ أحمد ذياب ومحمود الذوادي والبشير السالمي، صحيفة الصباح، الخميس ١١ سبتمبر ٢٠١٤م.
- ما وراء دار فور: الهوية والحرب الأهلية في السودان، الباقر العفيف، ترجمة محمد سليمان، القاهرة، مركز القاهرة لدراسة حقوق الإنسان، ط١، ٢٠٠٦م.
- ما وراء الفرنكوفونية: من أجل كفاءة عبرثقافية ومتعددة اللغات، المصطفى الغربي، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم،
http://aslimnet.free.fr/traductions/gharbi/fra4.htm

- مؤامرة في إفريقية، أحمد بهاء الدين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.
- مؤامرة منسية عمرها عشرون سنة، علي بن محمد، بوابة الشروق،
http://www.echoroukonline.com/ara/articles/.
- مؤسسات عالمية تحمي اللغة الفرنسية، فمن يحمي اللغة العربية، عبد القادر الإدريسي، موقع مغرس
https://www.maghress.com/alalam/.
- مباحثات «إيكس ليبان».. كواليس خمسة أيام انتهت باستقلال المغرب، موقع ناظور سيتي،
https://www.nadorcity.com.
- مبادئنا بين جموح السياسة وخيار الشعب، الحسن بركة، باتنة، مطبعة عمار قرفي، ط١، ١٤١٣هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، د. ت.
- مجلة حوار والـC.I.A، ماجد حبته، صحيفة الدستور، الأحد ٢/ ٤/ ٢٠١٧م.
- مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري حول المسألة اللغوية في المغرب، ع ٢٦، ٢٠١٦م.
- مجلة فرنسية: سياسة التعريب جرَّت على المغرب نتائج كارثية، موقع هسبريس،
http://www.hespress.com/societe/257167html.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران: نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ.
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، د. ت.
- محام مغربي يتهم الدولة بالوقوف في وجه اللغة العربية، الحسن السرات، هسبريس
http://www.hespress.com/societe/9657.html.

- محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، عبد العزيز عاشور، التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، (التعقيبات)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٢ م.
- محمد مزالي يعترف بأكبر أخطائه: لم أستقل رغم مؤامرات الحاشية، صحيفة الشرق الأوسط، الخميس ٢٢ ذو القعدة ١٤٢٤ هـ.
- محنة إلى زوال، سعيد الأفغاني، عصارة فكر وتجربة حياة، تحرير حسن إسماعيل مروة، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤٣١ هـ.
- المدارس الأجنبية في الخليج: البحرين أنموذجا، عبد العزيز أحمد البداح، التقرير الإستراتيجي الصادر عن مجلة البيان: مستقبل الأمة وصراع الإستراتيجيات، ٢٠٠٩م.
- المدارس الأجنبية في الخليج العربي: واقعها وآثارها، عبد العزيز أحمد البداح، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- المدرسة المغربية وضرورات التوفيق بين لغات الوجدان ولغات العلم، محمد القبلي، المدرسة المغربية، العدد ٣، مارس ٢٠١١م.
- المذكرات، محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م.
- مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي، الجزائر، دار القصبة، ٢٠١٤م.
- مذكرات الشاذلي بن جديد، موقع منتدى اللمة الجزائرية.
- مذكرات معروف الدواليبي، تحرير محمد علي الهاشمي، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي، توفيق محمد الشاوي، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤١٩ هـ.
- المساء تفتح العلبة السوداء للوبي الفرانكفوني بالمغرب، عبد الله الدامون، صحيفة المساء، العدد ٢٨٠٨، ١٧ أكتوبر ٢٠١٥م.
- مسار اللغة الأمازيغية: الرهانات والإستراتيجيات، أحمد بوكوس، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ٢٠١٣م.
- مسألة أكراد سورية: الواقع، التاريخ، الأسطرة، فريق باحثين، الدوحة وبيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.

- مسألة تعريب التعليم الجامعي، شارل أندريه جوليان، ترجمة البشير تامر، المدرسة المغربية، العدد ٦، فبراير ٢٠١٤.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣، ٢٠٠٦ م.
- المسألة اللغوية في تقرير الخمسينية، عبد المجيد جحفة، بصمات - سلسلة جديدة،ع ٤، ٢٠٠٩م.
- المسألة اللغوية في تونس: من أجل مقاربة سوسيو - سياسية، سالم لبيض، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، ٢٠١٢ م.
- المستشرقون، نجيب العقيقي، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٤م.
- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٦م.
- مستقبل اللغة العربية ورهاناتها في ظل العولمة، أبو عبد الله غلام الله، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ،
- مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٤م.
- مستويات لغوية وطبقات اجتماعية، محمد الأوراغي، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢م.
- مسخرة الحوار بين أنقاض تتهاوى، موقع جريدة الشعب المصرية،
http://elshaab.org/news.php?i=.
- المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، عبد القادر سيلا، (كتاب الأمة)، الدوحة، شوال ١٤٠٦ هـ.
- مشروع تعريب التعليم العربي، حمد بن محمد آل فريان، صحيفة الجزيرة، الاثنين ٤/ ١٤٣٣ هـ.
- مشروع الشرق الأوسط الكبير: الحقائق والأهداف والتداعيات، عبد القادر

رزيق المخادمي، بيروت، الدار العربية للعلوم، والجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط١، ١٤٢٦ هـ.
- المشروع الفرنكفوني في المغرب من القوة الثالثة إلى حزب التكنوقراط الفرنكفوني، إدريس جنداري، موقع هسبريس،
http://www.hespress.com/opinions/288507.html
- مشروع قانون اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ذو القعدة - ربيع الآخر ١٤١١ هـ.
- مشكلات التعريب، محمود عبد المولى، تونس، الشركة الجديدة للطباعة والصحافة والنشر، ط١، ٢٠١٠م.
- المشكلة الثقافية في الجزائر: التفاعلات والنتائج، عمر بن قينة، عمان، دار أسامة، ط١، ٢٠٠٠م.
- المشهد اللغوي والثقافي بالمغرب: رصد تاريخي ومحاولات في التدبير، علي بن طالب أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرين - تدبير المغاربة للاختلاف: استلهام لأساليب التعايش وقبول الآخر - الجمعية المغربية للبحث التاريخي - المغرب، ٢٠١٦م.
- المصادر الحقيقية لضعف لغتنا العربية في مدارسنا الثانوية، حسن الشارف، منتديات بوابة العرب،
http://vb.arabsgate.com/showthread.php?t=545217.
- مصطفى الأشرف كان يصف العربية بلغة الحروز والمتخلفين،
http://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=.
- المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مصطفى الشهابي، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٩٩٥م.
- مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- مطارحات حول مسألتي اللغة والهوية، عبد الصمد بلكبير، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢م.

- المطول: شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين التفتازاني، تحقيق عبد الحميد هنداي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨ هـ.
- مظاهر التعريب في جامعة الكويت: آراء عينة من أعضاء الهيئة التدريسية، علي أسعد وطفة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٣٩، يناير ٢٠١٣م.
- معارك أدبية قديمة ومعاصرة، عبد اللطيف شرارة، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٤م.
- المعاصرون، محمد كرد علي، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٤٠١ هـ.
- معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد، فؤاد بو علي، موقع وجدة،
http://www.oujdacity.net/regional-article-ar.
- معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية)، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٧م.
- معذبو الأرض، فرانز فانون، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، د. ت.
- المعضلة اللغوية في النزاعات السودانية، كمال الجزولي، موقع الجزيرة نت،
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/.
- معلمة الإسلام، أنور الجندي، القاهرة، دار الصحوة، ط١، ١٤١١ هـ.
- مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، فؤاد بو علي، الرباط، وزارة الثقافة، ط١، ٢٠١٥م.
- المقالات المحظورة، فهمي هويدي، القاهرة وبيروت، دار الشروق، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ط٦، ١٤٠٦ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م.
- مكانة اللغة الفرنسية في المغرب، حشادي حميد، موقع جماعة العدل والإحسان،
https://www.aljamaa.net/ar/.
- مكانة اللغة العربية في قانون الإجراءات المدنية الجديد، ٢٠٠٨، بو مدين محمد، دفاتر السياسة والقانون، ع ١٠، ٢٠١٤م.

- مكانة اللغة العربية في لغات إفريقية وثقافاتها، يوسف الخليفة أبو بكر، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠م.
- ملاحظات على حركة الترجمة وتعريب الطب من حنين بن إسحاق إلى كلوت بك إلى الحاضر، أبو شادي الروبي، أزمة التعريب، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والتشر، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- ملف تخصصي: الجامعات الأمريكية مهمات في الشرق الأوسط، علي الطالقاني، ٣٠ أيلول ٢٠٠٧ م، شبكة النبأ المعلوماتية،
https://www.annabaa.org/~annabaao/nbanews/.
- ملف اللغات الكردية، موقع ميزوبوتاميا،
http://www.mesopot.com/default/index.php?option=com_content&view=article&id=217:200956-31-15-29-07-.
- من أجل تفاعل لغوي، علال الفاسي، مؤسسة علال الفاسي، ط١، د. ت.
- المنارة والرباط، الخليل النحوي، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧ م.
- من الذي دفع للزمار: الحرب الباردة الثقافية، ف. س. سوندرز، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط٤، ٢٠٠٩م.
- مناهج اللغة العربية في المرحلة الجامعية، يعقوب أحمد الشراح، أشغال الندوة الوطنية : تعليم اللغة العربية والتعليم المتعدد - معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، ٢٠٠٢م.
- من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٧١م.
- منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة: دراسة تقابلية، عبد المجيد الطيب عمر، مكة، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ط٢، ١٤٣٧ هـ.
- منظومة التربية والتكوين بالمغرب في أفق الجهوية الموسعة، لحسن مادي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، ط١، ٢٠١٤ م.

- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: حوار الاستشراق، أحمد الشيخ، القاهرة، المركز العربي للدراسات الغربية، ط١، ١٩٩٩م.
- المواجهة باللغات، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم،
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/confrontation.htm.
- مواقف بن يوسف بن خدة النضالية والسياسية: قراءة في تاريخ الجزائر الحديث، نور الدين حاروش، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠١١م.
- موريتانيا على درب التحديات، المختار بن داداه، باريس، كارثالا، ٢٠٠٧م.
- موريتانيا المعاصرة: شهادات ووثائق، سيد أعمر ولد شيخنا، نواكشوط، دار الفكر، د. ت.
- موسى الشامي رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لـ«التجديد»: لا نقبل أن نعبِّدَ الطريق إلى الفرنسية عبر هدم أركان العربية، بلال التليدي، التجديد ١٢/ ٥/ ٢٠٠٩م.
- الموسوعة اللغوية، تحرير ن. ي. كولنج، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٢١ هـ.
- موقع الحرف العربي على خريطة اللغات العالمية ودرجات انتشاره وانحساره في القرن العشرين، جلال الحفناوي، أبحاث ودراسات الندوة التي أقامها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية مع معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالجامعة الإسلامية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- موقع العربية في السياسات اللغوية في لبنان، حسن حمزة، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- مولود قاسم نايت بلقاسم: حياته وآثاره، شهادات ومواقف، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٦م.
- ميثاق التربية والتكوين المغربي.

- النشـاط التنصيري للكاردينـال لافيجري وأسـاليب المواجهـة الجزائريـة لـه ١٨٦٧ - ١٨٩٢ م، سعيدي مزيـان، الجزائـر، مطبعـة النجـاح، ١٤٣٤ هـ.
- النصوص والواقع، حسين لقرع، صحيفة الشروق الأسبوعي، ٤/ ١١/ ٢٠٠٠م.
- مدير يمنع استعمال اللغة العربية، جريدة الشروق، ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٠م.
- نصيبي من الحقيقة، محمد مزالي، القاهرة، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧م.
- النظـام التربـوي في المغـرب بعد ربع قرن من عهد الاسـتقلال، إدريس الكتاني، الرباط، نادي الفكر الإسـلامي، د. ت.
- نظـرة عـن تدريـس اللغـات وتعلمهـا مـن خـلال مسـار الإصلاحـات التعليمية بالمغـرب، عبـد الرحمن الرامـي، تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكويـن: مقاربـات تشـخيصية واستشـرافية، ٢٠ إلـى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩ م.
- نظريـة تعليـم اللغـة العربيـة الفصحـى بالفطـرة والممارسـة: تطبيقهـا وتقويمهـا وانتشـارها، عبـد اللـه الدنـان، دمشـق، دار البشـائر، ط١، ١٤٣١ هـ.
- نظريـة لتعريـب الإدارة المغربيـة فـي عصـر العولمـة، محفـوظ كيطونـي، موقـع وجـدة نيـوز،
http://www.oujdacity.net/national-article--ar/ -article-ar.html.
- النقـاش اللغـوي والتعديـل الدسـتوري فـي المغـرب، فـؤاد بوعلـي، الدوحـة، المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، ط١، ٢٠١٢م.
www.dohainstitute.org.
- نكبـة التعريـب فـي الجزائـر٢، محمـد العربـي الزبيـري، صحيفـة الشـروق، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
- نكبة التعريب في الجزائر، محمد العربي الزبيري، الشروق أونلاين،
https://www.echoroukonline.com/ .
- نمـوذج الحداثـة ومـا بعدهـا فـي الفكـر العربـي الحديـث: قـراءة نقديـة، حميـد سـمير، الخبـر، تكويـن، ١٤٣٨ هـ.
- نهايـة حـرب التحريـر فـي الجزائر: اتفاقيـات إيفيان، بن يوسـف بـن خدة، ترجمة لحسـن زغـدار ومـح العيـن جبايلـي، الجزائـر، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، ١٩٨٧م.

- النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني: في نقد الاستعمار اللغوي الجديد (حالة المغرب)، سلمان بو نعمان، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- هذا الشعر الحديث، عمر فروخ، بيروت: دار لبنان، ط١؛ ١٣٩٨هـ.
- هل بورقيبة مستبد؟ عبد الجليل بو قرة، بورقيبة والبورقيبيون وبناء الدولة الوطنية، تونس، مؤسسة التميمي، ط١، ٢٠٠١م.
- هل تشتعل حرب الحروف، صالح بلعيد، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٧م.
- هل سيكون التخلص من التعريب بوابة إصلاح التعليم بالمغرب؟ محمد الشلوشي، أخبارنا، ٢٦/ ٢/ ٢٠١٤.
- هل يتخلص المغربي من جبة الفرنسية في الطب ويستبدلها بالعربية؟ إسماعيل عزام، cnn العربي، http://arabic.cnn.com/world//arabic-medicine-universities-morocco.
- الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، رشيد بلحبيب، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- الهويات والتعددية اللغوية: قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن، عز الدين المناصرة، عمان، دار مجدلاوي، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- هويتنا أو الهاوية، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، المكتبة الشاملة.
- الهوية: الإسلام، العروبة، التونسة، سالم لبيض، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٣م.
- الهوية السودانية من الثنائية المتوهمة إلى التعددية: دراسة للتطور التاريخي للهوية السودانية ومظاهر التعددية في السودان، بهاء الدين مكاوي، على الشابكة، http://bahamakkawi.com/wp-content/uploads/.
- الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق، عبد السلام المسدي، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٤ م.

- الهوية اللغوية في ظل العولمة الثقافية: إشكاليات وتحديات، محمد عروس، كتاب المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدبي من ١٧٠٢١ /٧ /١٤٣٦ هـ.
- الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، عبد العزيز بن عثمان التويجري، الرباط، الإيسسكو، ١٤١٨ هـ.
- الهوية ولغة التعليم في البلدان العربية، نادية العمري، اللغة والهوية في الوطن العربي، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ هـ.
- هيئة الحقيقة والكرامة تنشر وثيقة تؤكد استمرار نهب فرنسا للثروات التونسية، موقع الشارع المغاربي،
http://acharaa.com/ar/306903.
- هيئة الحقيقة والكرامة تنشر حول نهب فرنسا للبترول التونسي،
https://www.babnet.net/cadredetail-157783.asp
- الهيمنة اللغوية، روبرت فليبسون، ترجمة سعد بن هادي الحشاش، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٢٨ هـ.
- واقع الإصلاح التربوي في الجزائر، مراد سبرطعي، رسالة ماجستير بجامعة محمد خيضر ببسكرة (الجزائر)، ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨م.
- واقع اللغة العربية في إفريقيا (جيبوتي وأرتريا في القرن الإفريقي نموذجا)، موقع حزب البعث الاشتراكي.
http://www.baath-party.org/index.php?option=com_content&view=article&id=210:210&Itemid=120&lang=ar.
- واقع اللغة العربية في الوطن العربي، محمود أحمد، {اللسان العربي، ع٦٦، ٢٠١٠ م.}
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، القاهرة وبيروت، دار الشروق، ط١، ١٤١٨هـ.
- وزارة الفلاحة لا تحب العربية، جريدة اليوم، ١٨/ ٦/ ٢٠٠٠م.
- وزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا وخطاب بوتفليقة بعث صراعا كان في طريقه إلى الخمود، الشرق الأوسط، ع ١٨٦١، الاثنين ٧/ ١٤٢٢ هـ،

- وضـع العربيـة خـلال العهـد الاستعماري، محمـد الميلي، مجلـة اللغـة العربية، المجلـس الأعلى للغـة العربيـة، ٢٠٠٧م.
- الوطنيـة والتحديثيـة فـي المغـرب، سـعيد بنسعيد العلـوي، بيـروت، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، ط١، ١٩٩٧م.
- يوميات محارب في معاركه الأخيرة، علي بن محمد، منتدى اللمة الجزائرية، https://www.4algeria.com/forum/t/ .

سلسلة الحرب الباردة على الكينونة العربية

التجني على الهوية

درس الكتاب ما أُلصق بالعربية من تهم، كالصعوبة، والشيخوخة، وعدم الصلاحية للعلم، وأبان أن ما نُسب إليها من ذلك كان بعضه في معرض التبغيض، وتسويغ الدعوة إلى التبدل بها. وبيَّن أن ليس في اللغة الإنسانية لغة صعبة بإطلاق، وأخرى سهلة بإطلاق، وأن في كل لغة ما يصعب وما يسهل، وأن صعوبة اللغة -إن فرضت صحتها- لا تسوغ التبدل بها، وإنما يجب عدُّها قدَرا، ليس للشعوب إلا التكيف معه. وليس في اللغات ما يصلح للعلم وما لا يصلح له بالطبع، وكل لغة عظيمة كانت يوما لهجة فقيرة، محدودة الانتشار، ثم صارت إلى ما صارت إليه بسلطان أهلها، وجدهم في ترقيتها. ولا معنى لشيخوخة اللغة ما دامت تؤدي ما يريد أهلها، واتصال حياة العربية وقدمُها فضيلة من فضائلها؛ لأنها ربطت حاضر العرب بماضيهم ومستقبلهم، وأتاحت لهم أن ينتفعوا بأقدم تراثهم كما ينتفعون بأحدثه، وعدم اتصال غيرها جعل تراث أهلها المكتوب قبل قرون يسيرة تراثا أجنبيا، لا تفيد منه إلا كما تفيد من تراث اللغات الأجنبية بالترجمة.



أ.د. بجامعة طيبة في المدينة المنورة

له من الكتب والبحوث: "لغة قريش"، و" الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى"، والسموأل: أخباره والشعر المنسوب إليه"، و "النقد الأدبي في رسالة الغفران"، و "معلقة عمرو بن كلثوم: دراسة وتحليل"، و "دراسة في معلقة عنترة بن شداد"، و "اللهجات العربية الغربية القديمة لكايم رابين"، و"الوجيز في العروض والقافية"، و"مناهج البحث في اللغة والأدب" (بالاشتراك)، و " الحقيقة والخيال في الغزل العذري والغزل الصريح"، و"هل كان للجاهلية نقد أدبي؟"، " والنحل في شعر امرئ القيس"، و" شعر قريش في الجاهلية"، و " على الأطلال: دراسة في البناء واللغة"، و"النقد الأدبي في صدر الإسلام والعصر الأموي: دراسة نقدية للأخبار والمأثورات"، و "عبيد الشعر كل كانوا عبيدا؟، و "ابن قتيبة ومنتقدوه"، و "الحركة الإسلامية في تركيا"، و"العقل أولا" و "بناء الفكر" و "قضايا النقد العربي القديم".

وله مقالات كثيرة وبحوث في الأدب والنقد واللغة والفكر والسياسة، منشورة في صحف ومجلات إلكترونية شتى.

+965 5222 4643
@sophia_kwt
info.sophiakw@gmail.com

